موريس لوبلان

ARSENE LUPIN

أرسين لوبين

813: الحياة الثانية لأرسين لوبين



ترجمة: د. منال ممدوح



أرسين لوبين

813: الحياة الثانية لأرسين لوبين

"الرواية مزيج متقن من الخيال في عالم الجريمة. تُعد إضافة رائعة إلى سلسلة مغامرات أرسين لوبين، إذ يواصل لوبين إبهار القُرَّاء بذكائه ومهاراته الاستثنائية".

- شركة Over Drive

"رواية 813 هي رحلة مشوقة تأخذ القارئ إلى عوالم ما قبل الحرب العالمية الأولى في أوروبا".

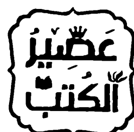
-مجلة AudioFile Magazine

"بعد مرور أكثر من قرن على ظهوره الأول، مازالت شخصية أرسين لوبين تلهم العديد من وسائل الإعلام بما في ذلك الأفلام والمسلسلات، بخاصة بعد نجاح مسلسل نتفليكس المستوحى من هذه الشخصية".

- مجلة Page Turner Magazine

أرسين لوبين

813: الحياة الثانية لأرسين لوبين





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي:
813: La double vie d'Arsène Lupin

● العنوان العربي:
813: الحياة الثانية لأرسين لوبين

● الطبعة الأولى: يناير/2025م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● الترقيم الدولي: 978-977-992-455-7

● تأليف: موريس لوبلان

● ترجمة: د. منال ممدوح

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: إسراء جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 2024/27290م



موريس لوبلان

ARSENE LUPIN

أرسين لوبين

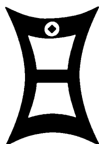
813: الحياة الثانية لأرسين لوبين

ترجمة: د. منال ممدوح



تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب





الحياة الثانية لأرسين

الجزء الأول

المذبحة

الفصل الأول

وقف السيد كيسيلباخ على عتبة الصالون، وأمسك بذراع سكرتيره، وهمس بقلق: «تشابمان، لقد دخل أحدهم إلى هنا مرة أخرى».

عارضه السكرتير: «انظر يا سيدي، لقد فتحت بنفسك باب الغرفة الأمامية. وفي أثناء تناولنا الغداء في المطعم، لم يغادر المفتاح جيبك».

كرر السيد كيسيلباخ كلامه: «تشابمان، لقد دخل أحدهم إلى هنا مرة أخرى». أشار إلى حقيبة سفر موجودة أعلى المدفأة: «انظر، هذا هو الدليل. كانت هذه الحقيبة مغلقة، والآن لم تعد كذلك».

اعترض تشابمان: «هل أنت متأكد أنَّكَ أغلقتها يا سيدي؟ على أي حال، لا تحتوي هذه الحقيبة إلا على بعض التُّحف الصغيرة عديمة القيمة، ومستلزمات الحمام...».

- لا تحتوي إلا على ذلك لأنني سحبت محفظتي منها قبل الخروج، احتياطًا، وإلا... لا، أقول لك يا تشابمان، لقد دخل أحدهم إلى هنا في أثناء تناولنا الغداء.

كان هناك جهاز هاتف على الحائط. رفع السماعة: «ألو؟ أنا السيد كيسيلباخ، رقم 415. نعم... آنسة، من فضلك اتصلي بمديرية الشرطة، قسم الأمن. لستِ بحاجة إلى الرقم، أليس كذلك؟ حسنًا، شكرًا. سأنتظر على الهاتف».

بعد دقيقة، استأنف المكالمة: «ألو؟ ألو! أود قول بضع كلمات للسيد لينورمان، مدير الأمن. السيد كيسيلباخ هو من يُحدثك... ألو! نعم، السيد مدير الأمن يعرف الموضوع. إنني أتصل بإذنه... آه! إنه موجود... مع من أتشرف

بالحديث؟ أمع السيد جوريل، مفتش الشرطة؟ ولكن يبدو لي، سيد جوريل، أنك حضرت بالأمس لقائي مع السيد لينورمان... حسنًا سيدي، لقد تكررت الحادثة نفسها اليوم. لقد دخل أحدهم الشقة التي أقيم فيها. وإذا أتيت الآن، ربما تتمكن من اكتشاف بعض الأدلة... خلال ساعة أو ساعتين؟ ممتاز. ما عليك سوى أن تطلب الشقة رقم 415. أشكرك مرة أخرى!».

في أثناء مروره بباريس، كان رودولف كيسيلباخ -الملقب بملك الألماس، أو وَفقًا لِلقبه الآخر، ملك الكاب[1]- الملياردير (الذي قُدرت ثروته بأكثر من مئة مليون) يقيم منذ أسبوع في الشقة رقم 415، في الطابق الرابع من فندق بالاس. كانت الشقة مكونة من ثلاث غرف، أكبر غرفتين منها على اليمين- الصالون، وغرفة النوم الرئيسية- تطلان على الشارع، والغرفة الأخرى على اليسار، والتي كانت تُستخدم من قِبل السكرتير تشابمان، تطل على شارع جودي. بالإضافة إلى هذه الغرفة، حُجِزت خمس غرف للسيدة كيسيلباخ، التي كان من المفترض أن تغادر مدينة مونت كارلو، حيث كانت، ستنضم إلى زوجها عند أول إشارة منه.

لبضع دقائق، تجول رودولف كيسيلباخ بمظهر قلق. كان رجلًا طويل القامة، ذا وجه أحمر اللون، ما زال شابًّا، تمنحه عيناه الحالمتان-اللتان يمكن رؤية زرقتهما الرقيقة عَبْر نظارته الذهبية- تعبيرًا من اللطف والخجل، يتناقض مع قوة جبهته المربعة وفَكِّه العظمي.

توَّجه نحو النافذة: كانت مغلقة. وعلى أي حال، كيف يمكن لأحد أن يدخل من هناك؟ كانت الشرفة الخاصة التي تحيط بالشقة تنتهي على الجانب الأيمن، وعلى الجانب الأيسر كانت منفصلة بحاجز حجري عن شرفات شارع جودي. دخل غرفة نومه: لم يكن لها أي اتصال بالغرف المجاورة. ثم دخل غرفة سكرتيره. كان الباب المؤدي إلى الغرف الخمس المخصصة للسيدة كيسيلباخ مغلقًا، والمزلاج مُقفلًا.

---

(1) مقاطعة الكاب (بالإنجليزية: Cape Province) في جنوب إفريقيا. جدير بالذكر أن توجد شخصية تاريخية ملقبة بالفعل بهذا اللقب «ملك الكاب» وهو البريطاني رودس سيسيل الذي ترأس هذه المستعمرة من عام 1890 إلى غاية عام 1896، وهو سياسي استعماري بريطاني، شهد عصره توسعًا ضخمًا في الإمبراطورية البريطانية حيث أنشأ شركة دي بيرز، أضخم شركة ألماس في العالم والتي تسيطر اليوم على 60% من ألماس العالم، وكانت في فترة من الفترات تسيطر على 90% منه. (المترجم)

- لا أفهم شيئًا يا تشابمان، لقد لاحظت هنا عدة مرات أشياء... أشياء غريبة، سأعترف لك بها. بالأمس، تغيَّر مكان عصاي... وقبل أمس. من المؤكد أن أحدهم لمس أوراقي، ومع ذلك، كيف يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟

صاح تشابمان، الذي لم يُظهر وجهه الهادئ الصادق أي قلق: «هذا مستحيل يا سيدي. إنك تظن فقط... ليس لديك أي دليل، مجرد انطباعات، ثم كيف يحدث هذا؟ لا يمكن دخول هذه الشقة إلا عَبْر الغرفة الأمامية. لقد صنعت مفتاحًا خاصًا بك يوم وصولك، ولا يملك أي شخص نسخة منه سوى خادمك إدوارد. هل تثق به؟».

- بالطبع! منذ عشر سنوات وهو في خدمتي... لكن إدوارد يتناول الغداء في الوقت نفسه الذي نتناول فيه نحن الغداء، وهذا خطأ. فيما بعد، يجب ألا ينزل إلا بعد عودتنا.

هزَّ تشابمان كتفيه قليلًا. من الواضح أن ملك الكاب أصبح غريب الأطوار بعض الشيء مع مخاوفه غير المبررة. ما المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها المرء في فندق، خصوصًا عندما لا يحتفظ بأي شي ذي قيمة أو مبلغ مالي كبير معه أو بالقرب منه؟

سمعا باب الردهة يُفتح. كان إدوارد. ناداه السيد كيسيلباخ: «هل ترتدي الزي الرسمي يا إدوارد؟ حسنًا! لا أتوقع أي زيارة اليوم، أو بالأحرى... نعم، زيارة واحدة، زيارة السيد جوريل. حتى ذلك الحين، ابق في الردهة وراقب الباب. لدينا عمل جاد لنعمله، أنا والسيد تشابمان».

استمر العمل الجاد لبضع لحظات، حيث فحص السيد كيسيلباخ بريده، وقرأ ثلاث أو أربع رسائل، وأشار إلى الردود التي يجب إعدادها. لكن فجأة لاحظ تشابمان -الذي كان ينتظر والقلم مرفوع- أن السيد كيسيلباخ كان يفكر في شيء آخر غير بريده. كان يحمل بين أصابعه، دبوسًا أسود منحنيًا على شكل صنارة، وينظر إليه بانتباه. قال: «تشابمان، انظر إلى ما وجدته على الطاولة. من الواضح أن هذا الدبوس المنحني يعني شيئًا ما، ها هو دليل إثبات. ولا يمكنك الآن أن تدَّعي أن أحدًا لم يدخل هذه الغرفة، لأن هذا الدبوس لم يأتِ إلى هنا بمفرده».

أجاب السكرتير: «بالتأكيد لا، لقد أتى إلى هنا بفضلي».

- كيف؟

- نعم، إنه دبوس كان يُثبِّت رابطة عنقي بياقتي. لقد نزعته الليلة الماضية بينما كنت تقرأ، وثنيته دون وعي.

نهض السيد كيسيلباخ منزعجًا للغاية، ومشى بضع خطوات، ثم توقف: «أنت تضحك بلا شك يا تشابمان، وأنت محق... لا أنكر أنني أصبحت غريب الأطوار بعض الشيء منذ رحلتي الأخيرة إلى الكاب. إن الأمر هو... أنت لا تعرف ما هو الجديد في حياتي، مشروع هائل، شيء ضخم... لا أزال أراه برؤية ضبابية في المستقبل، لكنه يتشكل وسيكون ضخمًا. آه! تشابمان، لا يمكنك أن تتخيل. المال لا يهمني، لديَّ... لديَّ منه الكثير، لكن هناك ما هو أهم من ذلك، إنها القوة، السلطة، النفوذ. إذا كان الواقع مطابقًا لما أتوقعه، فلن أكون فقط ملك الكاب، بل سيد ممالك أخرى أيضًا... رودولف كيسيلباخ، ابن صانع الغلايات من مدينة آوغسبورغ، سيسير جنبًا إلى جنب مع الكثير من الناس الذين كانوا حتى الآن يعاملونه بتعالٍ.. بل سيتفوق عليهم، تشابمان، سيتفوق عليهم، كن متأكدًا من ذلك، وإذا...».

توقف، ونظر إلى تشابمان كما لو كان يندم على ما ثرثر به، ومع ذلك، مدفوعًا بحماسه ختم كلامه: «أنت تفهم يا تشابمان أسباب قلقي، هناك في عقلي فكرة ثمينة جدًا، وربما يشتبه بعضهم في هذه الفكرة ويراقبوني، أنا مقتنع بذلك».

رَنَّ جرس الهاتف. قال تشابمان: «الهاتف...».

همس السيد كيسيلباخ: «هل من الممكن أن يكون...». التقط السماعة: «ألو؟ من؟ الكولونيل؟ آه! حسنًا، نعم، إنه أنا... هل من جديد؟ ممتاز. إذًا أنا في انتظارك... ستأتي مع رجالك؟ ممتاز. ألو! لا، لن ننزعج، سأعطي الأوامر اللازمة... هل الأمر خطِر إلى هذه الدرجة؟ أكرر لك أن التعليمات ستكون صارمة. سكرتيري وخادمي سيحرسان الباب، ولن يدخل أحد. أنت تعرف الطريق، أليس كذلك؟ لذا، لا تضيع دقيقة واحدة».

أعاد السماعة إلى مكانها، وقال على الفور: «تشابمان، سيأتي رجلان. نعم، رجلان، سيدخلهما إدوارد...».

- لكن موعد السيد جوريل المفتش...

- سيصل لاحقًا، بعد ساعة، وحتى لو تصادف وجودهم معًا، فلا بأس. لذا، اطلب من إدوارد أن يذهب الآن إلى المكتب ويخبرهم. أنا لست متاحًا لأي شخص باستثناء موعدين؛ الكولونيل وصديقه، والسيد جوريل. يجب تسجيل الأسماء.

نفذ تشابمان الأمر. وعندما عاد، وجد السيد كيسيلباخ يحمل في يده مظروفًا، أو بالأحرى حافظة صغيرة من الجلد الأسود، فارغة على ما يبدو، إذا حكمنا من مظهرها. بدا مترددًا، كما لو كان لا يعرف ماذا يفعل بها، هل سيضعها في جيبه أم يتركها في مكان آخر؟ أخيرًا، اقترب من المدفأة، وألقى بالمظروف الجلدي في حقيبة سفره.

- لننهِ البريد يا تشابمان. لدينا عشر دقائق. آه! رسالة من السيدة كيسيلباخ. كيف لم تنبهني إليها يا تشابمان؟ ألم تتعرف على خط يدها؟

لم يُخْفِ الانفعال الذي شعر به وهو يلمس ويتأمل هذه الورقة التي لمستها زوجته بأصابعها، والتي وضعت فيها بعضًا من أفكارها السرية. استنشق عطرها، وبعد أن فتحها، قرأها ببطء، بصوتٍ خافت، على دفعات سمعها تشابمان:

«*أنا متعبة قليلًا، لن أغادر الغرفة. أشعر بالملل، متى يمكنني اللحاق بك؟ سأنتظر إجابتك*».

- هل أرسلت تليغرافًا هذا الصباح يا تشابمان؟ إذًا، ستكون السيدة كيسيلباخ هنا غدًا الأربعاء.

بدا سعيدًا للغاية، كما لو أن عبء أعماله قد خَفَّ فجأة، وتحرر من كل القلق. فرك يديه وتنفس بعمق، كرجل قوي، واثق من النجاح، كرجل سعيد، يمتلك السعادة وقادر على الدفاع عنها: «الجرس يرن يا تشابمان، لقد رَنَّ جرس المدخل. اذهب وانظر».

لكن إدوارد دخل وقال: «هناك رجلان يطلبان مقابلة السيد. إنهما الشخصان...».

- أعرف. هل هما في غرفة الانتظار؟

- نعم، سيدي.

- أَغلِق باب غرفة الصالون، ولا تفتحه بعد ذلك إلا للسيد جوريل، مفتش الأمن. أمَّا أنت يا تشابمان، فاذهب وأَحضر هذين السيدين، وقُل لهما إنني أود التحدث أولًا إلى الكولونيل، إلى الكولونيل وحده.

خرج إدوارد وتشابمان، مغلقين وراءهما باب الصالون. توجه رودولف كيسيلباخ نحو النافذة وضغط جبهته على الزجاج. في الخارج، تحته مباشرة، كانت السيارات والعربات تسير في خطوط متوازية، محددة بخطين مزدوجين من الأرصفة. كانت شمس الربيع المشرقة تجعل النحاس والطلاء يتألقان. على الأشجار، بدأت بعض الخضرة تتفتح، وبدأت براعم أشجار الكستناء تفتح أوراقها الصغيرة الوليدة.

تَمتَم كيسيلباخ: «ماذا يفعل تشابمان بحق الجحيم؟ منذ متى وهو يتفاوض!». أخذ سيجارة من فوق الطاولة، ثم أشعلها، وسحب بضعة أنفاس. فجأة، صدرت منه صرخة خفيفة. بجانبه، كان هناك رجل واقف لم يكن يعرفه. تراجع خطوة: «من أنت؟».

كان الرجل شخصًا أنيق الملبس، بل أنيقًا جدًّا، أسود الشعر والشارب، بعينين قاسيتين. ضحك ساخرًا: «مَن أنا؟ حسنًا، أنا الكولونيل...».

- لكن لا، لا، الشخص الذي أدعوه بهذا الاسم، الذي يكتب لي بهذا التوقيع المتفق عليه... ليس أنت.

- بلى، بلى... الآخر كان فقط... لكن كما ترى سيدي العزيز، كل هذا ليس له أهمية. المهم هو أنني أنا.. أنا. وأقسم على ذلك.

- ولكن في النهاية، سيدي، ما اسمك؟

- اسمي الكولونيل، حتى إشعار آخر.

كان خوف السيد كيسيلباخ يزيد. مَن كان هذا الرجل؟ ماذا يريد منه؟ ثم نادى: «تشابمان!».

- يا لها من فكرة غريبة أن تنادي! ألا تكفيكَ صحبتي؟

كرر السيد كيسيلباخ النداء: «تشابمان! تشابمان! إدوارد!».

قال الغريب بدوره: «تشابمان! إدوارد! ماذا تفعلان يا أصدقائي؟ إنه يناديكما».

- سيدي، أرجوك، آمرك أن تدعني أَمُر.

- لكن سيدي العزيز، من يمنعك؟

انحنى بأدب. تقدم السيد كيسيلباخ نحو الباب، فتحه، وفجأة قفز للخلف. أمام هذا الباب كان هناك رجل آخر، يمسك مسدسًا في يده. تَمتَم: «إدوارد! تشاب...». لم يكمل. لقد رآهما في ركن من الردهة، ممددين بجانب بعضهما، مكمَّمين ومقيَّدين، سكرتيره وخادمه.

السيد كيسيلباخ، رغم طبيعته القلقة والحساسة كان شجاعًا، وشعوره بخطر محدد -بدلًا من أن يحبطه- أعاد إليه كل عزيمته وطاقته. ببطء، مع تظاهره بالخوف والذهول، تراجع نحو المدفأة واستند إلى الحائط. كانت إصبعه تبحث عن جرس الإنذار الكهربائي. وجده، وضغط الزرَّ لفترة طويلة.

قال الغريب: «وماذا بعد ذلك؟».

دون أن يجيبه، واصل السيد كيسيلباخ الضغط.

- وماذا بعد ذلك؟ هل تأمل أن يأتي أحد؟ وأن الفندق بأكمله في حالة ضجيج لأنك تضغط هذا الزرَّ؟ لكن يا سيدي المسكين، التفت إذًا، وسترى أن السلك مقطوع.

التفت السيد كيسيلباخ بسرعة، كما لو كان يريد التأكد، لكن بحركة سريعة، أمسك حقيبة السفر، مدَّ يده، أخذ مسدسًا، صوبه نحو الرجل وأطلق النار.

قال الآخر: «يا للعجب!، هل تشحن أسلحتك بالهواء والصمت؟».

للمرة الثانية أطلق الزناد، ثم للمرة الثالثة. لم يصدر أي دوي.

- ثلاث طلقات أخرى، يا ملك الكاب. لن أكون راضيًا إلا عندما تكون في جسدي ست رصاصات. ماذا! أنت تتخلى عن ذلك! مؤسف... كان الهدف يبدو جيدًا.

أمسك بكرسي من خلفه، أداره، جلس عليه كفارس، وأشار للسيد كيسيلباخ إلى مقعد: «تفضل بالجلوس سيدي العزيز، كأنك في منزلك. سيجارة؟ بالنسبة إليَّ، لا، أفضلُ السيجار».

كانت توجد علبة على الطاولة. اختار سيجارًا من ماركة «أوبمان» «Upman» لونه أبيض، أشعله وانحنى قائلًا: «أشكرك. هذا السيجار رائع. والآن، دعنا نتحدث، هل توافق؟».

استمع رودولف كيسيلباخ بذهول. من كان هذا الشخص الغريب؟ عندما رآه هادئًا ومتحدثًا بدأ يطمئن تدريجيًا، وبدأ يعتقد أن الموقف يمكن أن ينتهي دون عنف أو وحشية. أخرج محفظة من جيبه، فتحها، وأظهر حزمة محترمة من الأوراق النقدية، وسأل: « كم تريد؟».

نظر إليه الآخر بدهشة، كما لو كان يجد صعوبة في الفهم. ثم بعد لحظة، نادى: «ماركو!».

تقدم الرجل صاحب المسدس: «ماركو، السيد لديه من اللطف ليقدم لك هذه الأوراق القليلة لصديقتك. اقبلها يا ماركو».

بينما كان يصوب مسدسه باليد اليمنى، مدَّ ماركو يده اليسرى، تلقى الأوراق النقدية وانسحب.

- بعد حِل هذه المسألة وَفقًا لرغبتك، دعنا نأتِ إلى الغرض من زيارتي. سأكون موجزًا ودقيقًا؛ أريد شيئين. أولًا، مظروفًا صغيرًا من الجلد الأسود، تحمله عادة معك. ثانيًا، صندوقًا من خشب الأبنوس كان، حتى الأمس، في حقيبة السفر. لنبدأ بالترتيب. المظروف الجلدي؟

- حُرِق.

عبس الغريب. ربما تذكر تلك الحقب الجميلة عندما كانت هناك وسائل ناجحة لجعل من يرفضون الحديث يتكلمون: «حسنًا. سنرى ذلك. وصندوق الأبنوس؟».

- حُرِق.

- آه! أنت تسخر مني يا رجل.

لوَىَ ذراعه بطريقة لا هوادة فيها: «بالأمس يا رودولف كيسيلباخ، بالأمس، دخلت بنك كريدي ليونيه، في شارع الإيطاليين، مُخفِيًا حزمةً تحت معطفك. استأجرت خزنة... لنكن دقيقِين: الخزنة رقم 16، الرَّف رقم 9. بعد التوقيع والدفع، نزلت إلى الطابق السفلي، وعندما صعدت، لم تكن تحمل الحزمة معك. هل هذا صحيح؟».

- تمامًا.

- إذًا، الصندوق والمظروف في كريدي ليونيه.

- لا.

- أعطني مفتاح خزنتك.

- لا.

- ماركو!

هرع ماركو: « افعلها يا ماركو. قَيِّد أطرافه».

قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه، قُيِّدَ رودولف كيسيلباخ بمجموعة من الحِبال التي جرحت جسده عندما حاول المقاومة. ثُبِّتَ ذراعيه خلف ظهره، ورُبِط جذعه بالكرسي، ولُفَّ ساقيه بأربطة مثل ساقي المومياء.

- فتشه يا ماركو.

فتشه ماركو. بعد دقيقتين، سلم لرئيسه مفتاحًا صغيرًا مسطحًا، مطليًّا بالنيكل، يحمل الأرقام 16 و9.

- ممتاز. هل يوجد مظروف جلدي؟

- لا، يا سيدي.

- إنه في الخزنة. سيد كيسيلباخ، من فضلك أخبرني بالرقم السري.

- لا.

- أنت ترفض؟

- نعم.

- ماركو؟

- نعم، يا سيدي؟

- ضع فوهة مسدسك على صدغ السيد.

- حاضر.

- ضع إصبعك على الزناد.

- ها هو ذا.

- حسنًا، يا عزيزي كيسيلباخ، هل قررت التحدث؟

- لا.

- لديك عشر ثوانٍ، لا أكثر. ماركو؟

- مفهوم يا سيدي؟

- بعد عشر ثوانٍ، ستُفجر دماغ السيد.

- مفهوم.

- كيسيلباخ، أنا أعد: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة...

أشار رودولف كيسيلباخ: «هل تريد التحدث؟».

- نعم.

- كان الوقت مناسبًا. إذًا، الرقم... كلمة السر؟

- دولور « Dolor».

- دولور، ألم... أليس اسم السيدة كيسيلباخ دولوريس؟ يا للرومانسية! ماركو، ستفعل ما اتفقنا عليه. لا يوجد أي احتمال للخطأ، ها؟ أكرر، ستلتقي بجيروم في المكتب الذي تعرفه، ستعطيه المفتاح وتخبره بكلمة السر: دولور. ستذهبان معًا إلى كريدي ليونيه. سيدخل جيروم وحده، سيوقع سجل الهُوية، سينزل إلى القبو، وسيأخذ كل ما في الخزنة. مفهوم؟

- مفهوم يا سيدي.

- لكن إذا لم تُفْتَح الخزنة، إذا كانت كلمة دولور...

- صمتًا يا ماركو. عند الخروج من كريدي ليونيه، ستترك جيروم، ستعود إلى المنزل، وستتصل بي هاتفيًا لإخباري بنتيجة العملية. إذا لم تفتح كلمة «دولور» الخزنة، ولو مصادفةً، سيكون لي ولعزيزي كيسيلباخ محادثة أخيرة صغيرة. كيسيلباخ، هل أنت متأكد أنك لم تخطئ؟

- نعم.

- إذن، تراهِن أنت على عدم جدوى التفتيش، سنرى ذلك. انصرف يا ماركو.

- لكن أنت، يا سيدي؟

- أنا سأبقى. أوه! لا تخف. لست في خطرٍ مطلقًا. أليس كذلك يا كيسيلباخ! الأوامر واضحة؟

- نعم.

- إبليسٌ أنت، تقولها في عُجالة. هل كنت تحاول كسب الوقت؟ إذًا، سأقع في الفخ، كالأحمق! فكر، ثم نظر إلى سجينه واستنتج: «لا، هذا غير ممكن. لن يزعجنا أحد». لم يكد ينتهي من هذه الكلمة حتى رَنَّ جرس

الردهة. وضع يده بعنف على فم رودولف كيسيلباخ. «آه! أيها الثعلب، كنت تنتظر شخصًا ما!». لمعت عينا الأسير بالأمل، ضحك بسخرية تحت اليد التي كانت تخنقه. ارتعد الرجل غضبًا: «اصمت وإلا سأخنقك. هيا، ماركو، كممه. أسرع، حسنًا».

رَنَّ الجرس مرة أخرى. صاح، كما لو كان هو رودولف كيسيلباخ، وكأن إدوارد ما زال هناك: «افتح الباب يا إدوارد». ثم مَرَّ بهدوء إلى الردهة، وبصوت منخفض، مشيرًا إلى السكرتير والخادم: «ماركو، ساعدني في دفعهما إلى الغرفة... هناك... بحيث لا يمكن رؤيتهما». حمل هو السكرتير، وحمل ماركو الخادم: «حسنًا، الآن عُد إلى الصالون».

تبعه، وعلى الفور، مرورًا مرة أخرى عَبْر الردهة، قال بصوتٍ عالٍ وبنبرة متفاجئة: «لكن خادمك ليس هنا، سيد كيسيلباخ.. لا، لا تزعج نفسك. أكمل رسالتك... سأذهب بنفسي». وبهدوء فتح باب المدخل.

سأله الزائر: «السيد كيسيلباخ؟».

كان شخصًا عملاقًا، ذا وجه عريض مبتهج، وعينين حيَّتين، يتمايل من ساق إلى أخرى ويلوي حواف قبعته بين يديه. أجاب الغريب: «بالتأكيد، إنه هنا. هل أخبره بقدومك؟».

- السيد كيسيلباخ هاتفني، إنه ينتظرني.

- آه! إنه أنت. سأخبره، هل يمكنكَ الانتظار لحظة؟ السيد كيسيلباخ سيقابلك.

كانت لديه الجرأة لترك الزائر على عتبة الردهة، في مكان يمكنه من رؤية جزء من الصالون عَبْر الباب المفتوح. وببطء، دون حتى أن يلتفت، عاد، وانضم إلى شريكه بجانب السيد كيسيلباخ، وقال له: «لقد انتهى أمرنا. إنه جوريل، من الأمن».

تناول الآخر سكينه، أمسك لوبين بذراعه: «لا تفعل أي حماقات، هه! لديَّ فكرة. ولكن أستحلفك بالله، افهمني جيدًا يا ماركو، وتحدث بدورك. تحدث كما لو كنت كيسيلباخ... هل تسمعني يا ماركو؟! أنت كيسيلباخ».

كان يتحدث بهدوءٍ شديد وسلطة عنيفة لدرجة أن ماركو فهِم، دون مزيد من الشرح، أنه يجب أن يلعب دور كيسيلباخ، وقال، بطريقة يمكن سماعها:

«قل للسيد جوريل إنني آسف، لكن لديَّ الكثير لأفعله. سأستقبله غدًا صباحًا في الساعة التاسعة، نعم، في الساعة التاسعة تمامًا».

همس الآخر: «حسنًا، لا تتحرك». عاد إلى الردهة، كان جوريل ينتظر. قال له: «السيد كيسيلباخ يعتذر. إنه ينهي عملًا مهمًّا. هل يمكنك المجيء غدًا صباحًا، في الساعة التاسعة؟».

كان هناك صمت. بدا جوريل مدهوشًا وقلقًا بشكلٍ غامض. في أعماق جيبه، تشنجت قبضة الرجل، وبإيماءة غامضة قال جوريل: «حسنًا، غدًا في التاسعة. ولكن مع ذلك... حسنًا. نعم، التاسعة، سأكون هنا». ووضع قبعته، وابتعد عَبْر ممرات الفندق.

ضحك ماركو في الصالون. «ماهر جدًّا يا سيدي. آه! لقد خدعته تمامًا!».

- اذهب يا ماركو، ستتبعه. إذا غادر الفندق، اتركه، ثم عليك أن تجد جيروم، كما هو متفق. واتصل هاتفيًّا.

غادر ماركو بسرعة. ثم أمسك الرجل بإبريق من فوق المدفأة، صَبَّ لنفسه كأسًا كبيرًا من الماء وشربه دفعة واحدة، بلل منديله، غسل جبهته التي كانت مغطاة بالعرق، ثم جلس بجانب سجينه، وقال له بتكلف مهذب: «يجب عليَّ يا سيد كيسيلباخ أن أتشرف بتقديم نفسي لك». وأخرج بطاقة من جيبه، ثم نطق: «أرسين لوبين، اللص الظريف».

الفصل الثاني

يبدو أن المُغامر الشهير ترك انطباعًا جيدًا لدى السيد كيسيلباخ. لم يغفل لوبين ذلك وصاح: «آه! آه! عزيزي، أنت مطمئن الآن! أرسين لوبين لص لطيف، يكره سفك الدماء، ولم يرتكب أي جريمة سوى الاستيلاء على ممتلكات الآخرين... مجرد زلة صغيرة! وأنت تقول لنفسك إنه لن يثقل ضميره بجريمة قتل غير ضرورية. أتفق معك، لكن هل سيكون القضاء عليك غير ضروري؟ هذا هو السؤال. في هذه اللحظة، أقسم لك إنني لا أمزح. هيا بنا، يا رفيق».

قَرَّب كرسيه من المقعد، وأرخى كِمامة أسيره، وقال بوضوح: «سيد كيسيلباخ، في اليوم نفسه الذي وصلت فيه باريس، دخلت علاقة مع شخص يدعى بارياروكس، مدير وكالة للمعلومات السرية، وبما أنك كنت تتصرف دون علم سكرتيرك تشابمان، فإن السيد بارياروكس، عندما كان يتواصل معك بواسطة الرسائل أو الهاتف، كان يسمي نفسه ‹الكولونيل›. أسارع إلى القول إن بارياروكس هو أنزه رجل في العالم، لكن لحسن حظي أحد موظفيه من أعز أصدقائي. هكذا علمتُ سبب اتصالك ببارياروكس، وهكذا قررت الاهتمام بك، وقمت بزيارات منزلية لك -باستخدام مفاتيح مزورة- والتي للأسف لم أجد فيها ما كنت أبحث عنه».

خفض صوته وعيناه في عيني أسيره، يفحص نظرته، يبحث عن فكره الغامض، وقال: «سيد كيسيلباخ، لقد كلفتَ بارياروكس بالعثور في أحياء باريس السفلى على رجل يحمل أو حمل اسم بيير ليدوك، وهذا هو وصفه الموجز: الطول متر وخمسة وسبعون سنتيمترًا، أشقر، له شارب. علامة مميزة: نتيجة لإصابة، قُطِع طرف الإصبع الصغيرة ليده اليسرى. بالإضافة إلى ذلك، توجد ندبة شبه ممحوَّة على الخد الأيمن. يبدو أنك تُولي أهميةً كبيرة

للعثور على هذا الرجل، كما لو أنه يمكن أن تنتج عنه فوائد كبيرة لك. من هذا الرجل؟».

- لا أعرف.

كان الرد قاطعًا ومطلقًا. هل كان يعرف أم لا؟ لم يكن ذلك مهمًا. الأهم هو أنه كان مصممًا على عدم التحدث.

- حسنًا، لكن هل لديك معلومات أكثر تفصيلًا عنه مما قدمته لباربارو كس؟

- لا شيء.

- أنت تكذب يا سيد كيسيلباخ، أمام باريار وكس، راجعت مرتين أوراقًا محفوظة في مظروف من الجلد المغربي.

- بالفعل.

- أين هذا المظروف إذًا؟

- حُرِق.

ارتعش لوبين غضبًا. من الواضح أن فكرة التعذيب وما يقدمه من تسهيل المهمة عَبَرَت ذهنه مرة أخرى.

- المظروف حُرِق؟ ولكن الصندوق... إذًا، اعترف، اعترف أنه في بنك كريدي ليونيه؟

- نعم.

- وماذا يحتوي؟

- المائتي ماسة الأجمل من مجموعتي الخاصة.

لم يبد أن هذا التأكيد أزعج المغامر.

- آه! آه! المائتي ماسة الأجمل! ولكن اسمع، هذه ثروة. نعم، هذا يجعلك تبتسم... بالنسبة إليك، هذا تافه. ولديك أفضل من ذلك. بالنسبة إليك، نعم، ولكن بالنسبة إليَّ؟

أخذ سيجارًا، وأشعل عود ثقاب تركه ينطفئ بشكل آلي، وظل لبعض الوقت يفكر، ثابتًا. مرت الدقائق. بدأ يضحك: «أنت تأمل بالطبع أن تفشل العملية، وألا يُفتح الصندوق! ممكن يا صديقي. ولكن في هذه الحالة سيتعين عليك أن تدفع لي مقابل إزعاجي. لم آتِ إلى هنا لأرى وجهك الآن على هذا الكرسي. ألماس! بما أن هناك ألماس... وإلا، فلتطعني المظروف الجلدي،

الخيار مطروح...». نظر إلى ساعته: «نصف ساعة، يا للهول! القدر يتمنع، ولكن لا تضحك. سيد كيسيلباخ. أقسم بشرفي، لن أعود خالي الوفاض!».

رَنَّ الهاتف. التقط لوبين السماعة بسرعة وغيَّر نبرة صوته، مقلدًا النبرات الخشنة لأسيره: «نعم، إنه أنا، رودولف كيسيلباخ. آه! حسنًا، آنسة، ضعيني على اتصال... أهذا أنت، ماركو؟ ممتاز.. هل سارت الأمور على ما يرام؟ حسنًا. لا عقبات؟ ... تهانينا يا بني... إذًا، ماذا جمَعنا؟ الصندوق المصنوع من خشب الأبنوس. لا شيء آخر؟ لا أوراق؟ عجبًا! وماذا في الصندوق؟ ... هل هي جميلة، تلك الماسات؟ ممتاز... ممتاز. لحظة، ماركو، دعني أفكر... كل هذا، أترى، لو أخبرتك برأيي... اسمع، لا تتحرك، ابق على الهاتف...». التفت إلى سجينه: «سيد كيسيلباخ، هل تهتم بماساتك؟».

- نعم.
- هل ستشتريها مني مرة أخرى؟
- ربما.
- بكم؟ خمسمائة ألف؟
- خمسمائة ألف، نعم.
- ولكن هناك مشكلة، كيف سيحدث التبادل؟ بشيك؟ لا، ستخدعني. أو ربما أخدعك أنا. اسمع، بعد غد صباحًا، اذهب إلى بنك ليونيه، خذ الخمسمائة ورقة نقدية وتنزه في غابة بولونيا، بالقرب من أوتوي. سيكون معي الألماس في حقيبة، إنها أكثر ملاءمة؛ الصندوق يلفت الانتباه كثيرًا.
- لا. لا. الصندوق... أريد كل شيء.

صاح لوبين ضاحكًا: «آه!، لقد وقعت في الفخ. الألماس، أنت لا تهتم به. يمكن استبداله لكن الصندوق، تتمسك به كما تتمسك بجلدك. حسنًا! ستحصل عليه، صندوقك، أعدك بشرف أرسين، ستحصل عليه غدًا صباحًا بالبريد السريع!».

عاد إلى الهاتف: «ماركو، هل الصندوق أمامك؟ ما الذي يميزه؟ خشب الأبنوس، مرصع بالعاج... نعم، أعرف هذا... الطراز الياباني، ضاحية سان أنطوان. لا توجد علامة؟! آه! ملصق صغير دائري بحافة زرقاء، ويحمل رقمًا... نعم، إشارة تجارية... لا أهمية لها. وأسفل الصندوق، هل هو سميك؟

يا للهول! ليس له قاع، إذًا، مزدوج... اسمع يا ماركو، افحص الترصيعات العاجية على السطح... أو بالأحرى، لا، الغطاء».

ابتهج بفرح: «الغطاء! هذا هو! لقد رَمَش كيسيلباخ بعينه، نحن نقترب! آه! يا كيسيلباخ، ألم تر أنني كنت أراقبك. يا لك من أخرق!». وعاد إلى ماركو: «حسنًا! إلى أين وصلت؟ مرآة داخل الغطاء؟ هل تنزلق؟ هل هناك تجاويف؟ لا... حسنًا! اكسرها. نعم، أقول لك اكسرها... هذه المرآة ليست لها أهمية، لقد أُضِيفت لاحقًا». نفد صبر لوبين: «لكن أيها الأحمق، لا تتدخل فيما لا يعنيك... أطع».

يبدو أنه سمع الضجيج الذي أحدثه ماركو، في الطرف الآخر من المكالمة، عند كسر المرآة، لأنه صاح منتصرًا: «ألم أقل لك يا سيد كيسيلباخ إن الصيد سيكون ثمينًا؟ ألو! هل انتهيت؟ حسنًا؟ رسالة؟ إنه النصر! كل ألماس الكاب وسر هذا الرجل الطيب!».

عَلَّق السماعة الثانية، وضع السماعتين بعناية على أذنيه، وتابع: «اقرأ يا ماركو، اقرأ ببطء.. المظروف أولًا، حسنًا... الآن، كَرِّر».

كرَّرَ هو نفسه: نسخة من *الرسالة الموجودة في الحافظة الجلدية السوداء.* وبعد ذلك؟ مَزِّق المظروف يا ماركو. هل تسمح لي بذلك يا سيد كيسيلباخ؟ هذا ليس من الذوق في شيء، ولكن... هيا، يا ماركو، السيد كيسيلباخ يأذن لك. هل انتهيت؟ حسنًا! اقرأ».

استمع، ثم ضحك ساخرًا: «يا للعجب! هذا ليس واضحًا. دعني ألخص. ورقة بسيطة مطوية أربع مرات، وتبدو طياتها جديدة تمامًا، حسنًا. في أعلى اليمين من هذه الورقة، هذه الكلمات «*متر وخمسة وسبعون سنتيمترًا، الإصبع الصغيرة اليسرى مقطوعة، إلخ*». نعم، إنه وصف السيد بيير ليدوك. بخط كيسيلباخ، أليس كذلك؟ حسنًا... وفي وسط الورقة هذه الكلمة، بأحرف كبيرة مطبوعة «APOON». ماركو، يا صغيري، سوف تترك الورقة بسلام، لن تلمس الصندوق ولا الألماس. في غضون عشر دقائق سأنتهي من رَجُلي الطيب هذا. خلال عشرين دقيقة سألحق بك. آه! بالمناسبة، هل أرسلت السيارة إليَّ؟ ممتاز. إلى اللقاء».

أعاد الهاتف إلى مكانه، مَرَّ عَبْر الردهة، ثم إلى الغرفة، تأكد أن السكرتير والخادم لم يفُكا أربطتهما، وأنهما من ناحية أخرى ليسا مهدَّدين بالاختناق بسبب كمامتيهما، ثم عاد إلى أسيره. كان له تعبيرٌ حازم، لا يرحم: «انتهى وقت المزاح كيسيلباخ. إذا لم تتكلم، فالويل لك. هل أنت مستعد؟».

- لمَ؟

- لا للحماقات. قل ما تعرفه.

- لا أعرف شيئًا.

- أنت تكذب. ماذا تعني كلمة Apoon؟

- لو كنت أعرف، لما كتبتها.

- حسنًا، ولكن بمن أو بماذا تتعلق؟ أين نسختها؟ من أين أتتك؟

لم يجب السيد كيسيلباخ. تابع لوبين، بعصبية أكثر وبشكل متقطع: «اسمع يا كيسيلباخ، سأقدم لك اقتراحًا. مهما كنت غنيًا وشخصية مهمة، ليس هناك فرق كبير بينك وبيني. ابن صانع الغلايات الذي كان يسكن آوغسبورغ وأرسين لوبين أمير اللصوص، يمكنهما الاتفاق دون خجل أي منهما. أنا أسرق في الشقق؛ أنت تسرق في البورصة. هذا متشابه تمامًا. لنتحالف إذًا في هذه القضية يا كيسيلباخ. أنا بحاجة إليك لأنني أجهلها. أنت بحاجة إليَّ لأنك وحدك لن تخرج منها. بارباروكس أحمق. أنا لوبين. هل يناسبك ذلك؟».

لحظة صمت. ثم أصَّر لوبين بصوت مرتجف: «أجب يا كيسيلباخ، هل يناسبك؟ إذا كان الجواب نعم، خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، سأجد لك بيير ليدوك هذا. لأن الأمر يتعلق به، أليس كذلك؟ هذه هي القضية؟ ولكن أجب إذًا! من هذا الشخص؟ لماذا تبحث عنه؟ ماذا تعرف عنه؟ أريد أن أعرف».

هدأ فجأة، وضع يده على كتف الألماني وبنبرة حادة: «كلمة واحدة فقط. نعم أم لا؟

- لا.

أَخرج من جيب كيسيلباخ ساعة جيب ذهبية رائعة ووضعها على ركبتَي الأسير. فكَّ أزرار سترة كيسيلباخ، أزاح القميص، كشف عن الصدر، وأمسك بخنجر فولاذي، بمقبض مُطعَّم بالذهب، كان بجانبه على الطاولة، ووضع طرفه على المكان حيث كانت نبضات القلب تجعل اللحم العاري ينبض. ثم قال: «للمرة الأخيرة، نعم أم لا؟».

- لا.

- سيد كيسيلباخ، الساعة الآن الثالثة إلا ثماني دقائق. إذا لم تجب في غضون ثماني دقائق، فأنت ميت.

الفصل الثالث

في الساعة المحددة تمامًا، وصل الرقيب جوريل إلى فندق بالاس. صعد الدرج دون توقف، متجاهلًا المصعد. في الطابق الرابع انعطف يمينًا، ثم تبِع الممر، وقرع جرس الغرفة 415. لم يسمع أي صوت، فكرر المحاولة. بعد بضع محاولات فاشلة، تَوجَّه إلى المكتب المسؤول عن الطابق. وجد هناك مدير الخدمة: «أريد السيد كيسيلباخ، من فضلك! لقد قرعت الجرس عشر مرات».

- السيد كيسيلباخ لم يبِت هنا. لم نره منذ ظهر أمس.
- ولكن.. خادمه وسكرتيره؟
- لم نرهما أيضًا.
- إذًا، هما أيضًا لم يبيتا في الفندق؟
- على الأرجح.
- على الأرجح! ولكن يجب أن تكون متأكدًا.
- لماذا؟! السيد كيسيلباخ ليس في الفندق، إنه في شقته الخاصة. نحن لا نُشِرف على خدمته، بل خادمه، ونحن لا نعرف شيئًا عما يحدث عنده.
- حسنًا، بالفعل...

بدا جوريل مُحرجًا جدًّا. لقد جاء بأوامر محددة، مهمة دقيقة، في حدودها يمكن لذكائه أن يعمل. خارج هذه الحدود، لم يكن يعرف تمامًا كيف يتصرف. تَمتَم: «لو كان مدير الأمن هنا، لو كان مدير الأمن هنا...». أظهر بطاقته وكشف عن صفته. ثم سأل على سبيل الاحتمال: «إذًا، لم تروهم يعودون؟».

- لا.
- لكنكم رأيتموهم يخرجون؟
- لا، أيضًا.
- في هذه الحالة، كيف عرفتم أنهم خرجوا؟
- جاء رجل أمس بعد الظهر إلى الغرفة 415.
- رجلٌ بشارب بني؟
- نعم. قابلته وهو يغادر قرابة الساعة الثالثة. قال لي: الأشخاص في الغرفة 415 خرجوا للتو. السيد كيسيلباخ سينام الليلة في فيرساي، في فندق ريزيرفوار، حيث يمكنكم إرسال بريده على هناك.
- ولكن من كان هذا الرجل؟ بأي صفة كان يتحدث؟
- لا أعلم.

كان جوريل قلقًا. كل هذا بدا له غريبًا إلى حد ما: «هل لديك المفتاح؟».

- لا. السيد كيسيلباخ طلب صنع مفاتيح خاصة.
- دعنا نذهب لنرَ.

قرع جوريل الجرس مرة أخرى بغضب. لا إجابة. كان على وشك المغادرة عندما انحنى فجأة، ووضع أذنه بسرعة على ثقب القفل: «استمع يبدو... نعم، إنه واضح جدًّا. هناك... أنين». ضرب الباب بقبضته بقوة.

- ولكن سيدي، ليس لديك الحق...
- ليس لديَّ الحق!

كان يضرب ضربات متكررة ولكن عبثًا، حتى استسلم على الفور: «بسرعة، بسرعة، أحضروا صانع الأقفال». ركض أحد عمال الفندق مبتعدًا. كان جوريل يذهب يمينًا ويسارًا، صاخبًا ومترددًا. تجمع خدم الطوابق الأخرى في مجموعات، وصل موظفو المكتب والإدارة. صاح جوريل: «ولكن لماذا لا ندخل عبر الغرف المجاورة؟ هل تتصل بالشقة؟».

- نعم، ولكن أبواب الاتصال دائمًا مقفلة من الجانبين.

قال جوريل، الذي بدا واضحًا أنه لا يرى خلاصًا دون الرجوع إلى رئيسه: «إذًا، سأتصل بالأمن». قال أحدهم: «وبمركز الشرطة...». أجاب بنبرة شخص لا تُهمه هذه الإجراءات كثيرًا: «نعم، إذا أردتم». عندما عاد من كابينة الهاتف،

كان صانع الأقفال ينتهي من تجربة مفاتيحه. المفتاح الأخير فتح القفل. دخل جوريل بسرعة. ركض فورًا إلى مصدر الأنين، واصطدم بجسدَي السكرتير تشابمان والخادم إدوارد. أحدهما، تشابمان، نجح بعد جهد في إرخاء كمامته قليلًا، وكان يصدر تأوهات خافتة. بدا الآخر نائمًا. حرروهما. كان جوريل قلقًا: «أين السيد كيسيلباخ؟». دخل الصالون. كان السيد كيسيلباخ جالسًا ومربوطًا إلى ظهر الكرسي، بالقرب من الطاولة. كان رأسه منحنيًا على صدره. قال جوريل وهو يقترب منه: «إنه مغشي عليه. ربما بذل جهودًا أنهكته». قطع بسرعة الحبال التي كانت تربط كتفيه، فانهار الجذع للأمام دفعة واحدة. أمسكه جوريل بذراعيه، وتراجع وهو يصرخ برعب: «ولكنه ميت! تحسسوا يديه، إنهما باردتان، وانظروا إلى عينيه!».

قال أحدهم: «ربما سكتة دماغية، أو تمزق في الشريان».

- بالفعل، لا توجد آثار لجروح. إنها وفاة طبيعية.

مددوا الجثة على الأريكة، وفكوا ملابسه. لكن على الفور، ظهرت بقع حمراء على القميص الأبيض، وفورَ إزاحته، لاحظوا أن الصدر كان مثقوبًا بشق صغير عند موضع القلب، ويسيل منه خيط رفيع من الدم. كانت هناك بطاقة مثبتة على القميص. انحنى جوريل. كانت بطاقة أرسين لوبين، ملطخة بالدم أيضًا. عندها انتصب جوريل، وصاح بشكلٍ حازم ومفاجئ: «جريمة! أرسين لوبين! اخرجوا! اخرجوا جميعًا، لا يبق أحد في هذه الصالة ولا في الغرفة! انقلوا هؤلاء السادة واعتنوا بهم في غرفة أخرى! اخرجوا جميعًا ولا تلمسوا شيئًا! المدير قادم!».

الفصل الرابع

أرسين لوبين! كان جوريل يكرر هاتين الكلمتين المشؤومتين بوجه متحجرٍ تمامًا. كانتا تترددان في داخله كدقات جرس الموت. أرسين لوبين! ملك اللصوص! المغامر الأعظم! هل كان هذا ممكنًا حقًّا؟ تَمتَم: «لكن لا، لا، هذا غير ممكن، **لأنه ميت**! لكن هل كان حقًّا ميتًا؟ أرسين لوبين!».

وقف جوريل بجانب الجثة، ظل مذهولًا، مصعوقًا، يقلب البطاقة ذهابًا وإيابًا بنوع من الخوف، كما لو كان قد تلقى تحديًا من شبح: «أرسين لوبين!». ماذا سيفعل؟ يتصرف؟ يدخل المعركة بموارده الخاصة؟ لا، لا، من الأفضل ألا يتصرف... الأخطاء حتمية إذا قبل تحدي خصمٍ كهذا. وبعد ذلك، ألن يأتي المدير؟

المدير قادم! كل ما يهم جوريل هو هذه الجملة الصغيرة. هو شخص ماهر ومثابر، مليء بالشجاعة والخبرة، ذو قوة جبارة، كان من أولئك الذين لا يتقدمون إلا عندما يُوجَّهون، ولا يؤدون عملًا جيدًا إلا عندما يُؤمرون به. كم تفاقم هذا النقص في المبادرة منذ حَلَّ السيد لينورمان محل السيد دودوي في إدارة الأمن! لقد كان السيد لينورمان مديرًا حقًّا! معه، كان المرء متأكدًا من السير في الطريق الصحيح، لدرجة أن جوريل كان يتوقف بمجرد أن يفقد توجيه مديره. لكن مديري قادم! كان جوريل يحسب الوقت المحدد لوصوله على ساعته. على أمل ألا يسبقه مفوض الشرطة، وألا يصل قاضي التحقيق، الذي ربما عُيِّن بالفعل، أو الطبيب الشرعي، للقيام بملاحظات غير مرغوبة قبل أن يتمكن القائد من تثبيت النقاط الأساسية للقضية في ذهنه!

- حسنًا، جوريل، بماذا تحلم؟

- المدير!

كان السيد لينورمان يبدو كرجل ما يزال يحتفظ بشبابه، إذا نظرنا إلى تعبير وجهه وعينيه اللامعتين خلف نظارته؛ لكنه كان تقريبًا رجلًا عجوزًا إذا لاحظنا ظهره المحني، وبشرته الجافة المُصفرَّة كالشمع، ولحيته وشعره الرمادي، وكل مظهره، كان منهكًا، مترددًا، مريضًا. قضى حياته بصعوبة في المستعمرات، كمفوض للحكومة، في أخطر المواقع. اكتسب هناك خبرات وطاقة لا تقهر رغم تدهوره الجسدي، وعاد للعيش وحيدًا، يتحدث قليلًا ويعمل في صمت، هو شخص من كارهي البشر، وفجأة، في سن الخامسة والخمسين، بعد قضية الإسبان الثلاثة الشهيرة في بسكرة، والشهرة الكبيرة والمستحقة. رُفع عنه الظلم آنذاك، وعُيِّن مباشرة في مدينة بوردو، ثم نائبًا لمدير الأمن في باريس، ثم بعد وفاة السيد دودوي، مديرًا للأمن. وفي كل من هذه المناصب، أظهر ابتكارًا غريبًا في الأساليب، وموارد هائلة، وصفات جديدة وأصيلة، خصوصًا أنه حقق نتائج دقيقة جدًّا في إدارة آخر أربع أو خمس فضائح أثارت الرأي العام، لدرجة أن اسمه كان يُقارن بأسماء أشهر المحققين.

أمَّا جوريل، فلم يتردد. كان المفضل لدى المدير، الذي أحبه لبراءته وطاعته العمياء، وكان يضع السيد لينورمان فوق الجميع، كان الإله الذي لا يخطئ.

بدا السيد لينورمان متعبًا بشكل خاص في ذلك اليوم. جلس بتعب، وفتح طيات معطفه القديم المشهور بقصته قديمة الطراز ولونه الزيتوني، وحلَّ وشاحه البني المشهور أيضًا، وتَمتَم: «تحدث». روى جوريل كل ما رآه وكل ما علمه، ورواه باختصار، وَفقًا للعادة التي فرضها عليه مديره، لكنه عندما أظهر بطاقة لوبين، انتفض السيد لينورمان. وصاح: «لوبين!».

- نعم، لوبين، ها هو يعود إلى الساحة، هذا الحيوان.

قال السيد لينورمان بعد لحظة تفكير: «حسنًا، حسنًا». جوريل، الذي كان يحب التعليق على الكلمات النادرة لمديره -الذي لم يكن يعيب عليه سوى أنه قليل الكلام- أكد كلامه قائلًا: «بالطبع، حسنًا، حسنًا، لأنك ستواجه أخيرًا خصمًا جديرًا بك، وسيجد لوبين سيده، لن يعود لوبين موجودًا. لوبين...».

قال السيد لينورمان قاطعًا كلامه، كان الأمر أشبه بأمر صياد لكلبه: «فتش المكان!». وبالفعل، بحث جوريل على طريقة كلب جيد، نشط، ذكي، فضولي،

تحت أنظار سيده. كان السيد لينورمان يشير بطرف عصاه إلى زاوية ما أو كرسي ما، كما يشير المرء إلى شجيرة أو عشب بدقة متناهية.

- لا شيء.

تذمر السيد لينورمان: «لا شيء بالنسبة إليك».

- هذا ما أردت قوله... أعلم أنه بالنسبة إليك، هناك أشياء تتحدث مثل الأشخاص، شهود حقيقيون. ومع ذلك، ها هي جريمة مثبتة تمامًا على حساب السيد لوبين.

- الجريمة الأولى.

- الأولى بالفعل، لكن ذلك كان حتميًا. لا يمكن للمرء أن يعيش هذه الحياة دون أن يُدفَع في يوم من الأيام إلى الجريمة بسبب الظروف، ربما دافع السيد كيسيلباخ عن نفسه...

- لا، لأنه كان مقيدًا.

اعترف جوريل مرتبكًا: «صحيح، وهذا غريب جدًا... لو كنت قد وضعت يدي عليه بالأمس، عندما وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه عند عتبة الردهة...».

خرج السيد لينورمان إلى الشرفة. ثم تفقد غرفة السيد كيسيلباخ على اليمين، وتحقق من إغلاق النوافذ والأبواب. أكد جوريل: «كانت نوافذ هاتين الغرفتين مغلقة عندما دخلت».

- مغلقة أم مدفوعة؟

- لم يلمسها أحد. إنها مغلقة يا سيدي.

أعادهما إلى الغرفة صدور أصوات من الصالون. وجدا هناك الطبيب الشرعي الذي كان يفحص الجثة، والسيد فورميري، قاضي التحقيق. كان السيد فورميري يصيح: «أرسين لوبين! أخيرًا، أنا سعيد أن مصادفة طيبة تضعني مرة أخرى في مواجهة هذا اللص! سيرى هذا الوغد من أنا! وهذه المرة يتعلق الأمر بقاتل! وجهًا لوجه، يا سيد لوبين!».

لم ينس السيد فورميري المغامرة الغريبة لتاج الأميرة دي لامبال، والطريقة الرائعة التي خدعه بها لوبين قبل بضع سنوات. ظلت القصة مشهورة في سجلات القصر، يضحكون عليها، والسيد فورميري نفسه احتفظ بشعور مبرر من الحقد والرغبة في الانتقام بشكل مدوٍّ. نطق فورميري بأكثر نبراته

إقناعًا: «الجريمة واضحة، سيكون من السهل علينا اكتشاف الدافع. حسنًا، كل شيء على ما يرام. سيد لينورمان، أحييك... وأنا مسرور جدًّا...».

لم يكن السيد فورميري مسرورًا على الإطلاق. على العكس، كان وجود السيد لينورمان يزعجه كثيرًا، حيث لم يكن مدير الأمن يُخفِي ازدراءه له. ومع ذلك، استجمع نفسه، وبنبرة رسمية كالعادة قال: «إذًا دكتور، هل تعتقد أن الوفاة حدثت منذ قرابة اثنتي عشرة ساعة تقريبًا أم ربما أكثر؟ هذا ما أفترضه... نحن متفقون تمامًا. وماذا عن أداة الجريمة؟».

- سكين بشفرة رفيعة جدًّا، سيدي قاضي التحقيق انظر، لقد مُسِحت الشفرة بمنديل القتيل نفسه.

- بالفعل! بالفعل! الأثر واضح، والآن سنستجوب سكرتير السيد كيسيلباخ وخادمه. لا أشك أن استجوابَهما سيوضح لنا بعض الأمور.

نُقِل تشابمان إلى غرفته الخاصة على يسار الصالون، وكذلك إدوارد، وقد تعافى بالفعل مما حدث. شرح بالتفصيل أحداث اليوم السابق، مخاوف السيد كيسيلباخ، والزيارة المعلنة للشخص المزعوم أنه كولونيل، وأخيرًا روى الهجوم الذي كان ضحية له.

صاح السيد فورميري: «آه! آه! هناك متواطئ! وسمعتم اسمه، ماركو! كما تقولون، هذا مهم جدًّا. عندما نمسك بالمتواطئ، سيتقدم العمل...». عارضه السيد لينورمان: «نعم، ولكننا لم نُمسك به بعد».

- سنرى. كل شيء في وقته. وبعد ذلك، سيد تشابمان، هل غادر ذلك الماركو فورَ رنين جرس السيد جوريل؟

- نعم، سمعناه يغادر.

- وبعد مغادرته، ألم تسمعوا أي شيء آخر؟

- بلى، من وقت لآخر، ولكن بشكل غامض. كان الباب مغلقًا.

- وما نوع الضجيج؟

- أصوات عالية. هذا الـــ...

- ناده باسمه، اسمه أرسين لوبين.

- أرسين لوبين كان يتحدث عبر الهاتف.

- ممتاز! سنستجوب الشخص المسؤول في الفندق عن خدمة الاتصالات مع المدينة. وفي وقت لاحق، هل سمعتموه يغادر أيضًا؟
- لقد تأكد أننا مقيدُون جيدًا، وبعد ربع ساعة، غادَر مغلقًا باب الردهة خلفه.
- نعم، فور إتمام جريمته. ممتاز، ممتاز! كل شيء مترابط. وبعد ذلك؟
- بعد ذلك، لم نسمع أي شيء آخر. انقضى الليل، غفوت من التعب، نام إدوارد أيضًا.
- نعم، أعرف. حسنًا، الأمور لا تسير على نحو سيئ، كل شيء مترابط.

متأملًا مراحل التحقيق، وبنبرة تُشير إلى انتصاراتٍ على المجهول، همس قائلًا: «المتواطئ... الهاتف، وقت الجريمة، الأصوات المسموعة. حسنًا، جيد جدًّا. يتبقى لنا تحديد دافع الجريمة. في هذه الحالة، بما أنه يتعلق بلوبين، فالدافع واضح. سيد لينورمان، ألم تلاحظ أي أثر للكسر؟

- لا شيء.
- إذًا، ربما سُرِق المجني عليه. هل عُثِر على محفظته؟

أجابه جوريل: «لقد تركها في جيب السترة». انتقلوا جميعًا إلى الصالون، حيث تأكد السيد فورميري أن المحفظة لم تحتوِ سوى على بطاقات عمل وأوراق هوية.

- هذا غريب. سيد تشابمان، هل يمكنك إخبارنا ما إذا كان السيد كيسيلباخ يحمل مبلغًا من المال معه؟
- نعم، في اليوم السابق، أي قبل أمس الاثنين، ذهبنا إلى بنك كريدي ليونيه حيث استأجر السيد كيسيلباخ خزنة.
- خزنة في كريدي ليونيه؟! حسنًا، يجب أن نتحقق من هذا الأمر.
- وقبل المغادرة، فتح السيد كيسيلباخ حسابًا، وأخذ معه خمسة أو ستة آلاف فرنك من الأوراق النقدية.
- ممتاز، لقد اتضحت الصورة الآن.

واصل تشابمان: «هناك نقطة أخرى، سيدي قاضي التحقيق. السيد كيسيلباخ، الذي كان قلقًا جدًّا في الأيام الأخيرة -لقد أخبرتك عن السبب، مشروع كان يُوليه أهمية قصوى- بدا أنه يهتم بشكل خاص بشيئين: أولًا

صندوق من خشب الأبنوس، وقد وضعه في أمان في كريدي ليونيه. وثانيًا مظروف صغير من الجلد الأسود، حيث وضع به بعض الأوراق».

- وماذا عن هذا المظروف؟

- قبل وصول لوبين، وضعه أمامي في حقيبة السفر هذه.

أخذ السيد فورميري الحقيبة وفتشها. لم يكن المظروف موجودًا، فرك يديه بارتياح.

- حسنًا، كل شيء أصبح واضحًا. نعرف المجرم، وظروف الجريمة ودافعها. لن تستغرق هذه القضية وقتًا طويلًا. نحن متفقون على كل شيء، أليس كذلك سيد لينورمان؟

- متفقون على لا شيء.

كانت هناك لحظة من الذهول. وصل مُفوض الشرطة ومَن خلفه، رغم وجود الضباط الذين يحرسون الباب، اقتحم فوج من الصحفيين وموظفي الفندق المدخلَ، ووقفوا في غرفة الانتظار. على الرغم من شهرة حدة الرجل -التي كانت تصل أحيانًا إلى حد الفظاظة، والتي كانت قد جَلَبت له بعض التوبيخ من المستويات العليا- فإن فظاظة الرد أربكت الجميع. وبدا السيد فورميري على وجه الخصوص مصدومًا، ومع ذلك قال: «لا أرى في هذا إلا أمرًا بسيطًا للغاية؛ لوبين هو السارق...». قاطعه السيد لينورمان: «لماذا قَتَل؟».

- من أجل السرقة.

- عفوًا، إن رواية الشهود تثبت أن السرقة حدثت قبل القتل. قُيِّد السيد كيسيلباخ وكُمِّم أولًا، ثم سُرِق. لماذا سيقتله لوبين، الذي لم يرتكب جريمة قتل من قبل. أيقتل رجلًا عاجزًا وقد سلبه ما يريد بالفعل؟

داعب قاضي التحقيق لحيته الشقراء الطويلة بحركة مألوفة له عندما يبدو السؤال مستعصيًا عليه. وأجاب بنبرة متفكرة: «هناك عدة إجابات لذلك».

- ما هي؟

- يعتمد ذلك... يعتمد على الكثير من العناصر التي لا نزال نجهلها. وبعد ذلك، على أي حال، الاعتراض ينطبق فقط على طبيعة الدوافع. بالنسبة إلى البقية، نحن متفقون.

- لا.

هذه المرة أيضًا، كان الرد حاسمًا، قاطعًا، وقريبًا من الوقاحة، لدرجة أن القاضي الذي فقد توازنه تمامًا لم يجرؤ حتى على الاحتجاج، وبقي مذهولًا أمام مدير الأمن الغريب هذا. في النهاية تَمتَم: «لكل شخص نظامه الخاص. سأكون مهتمًّا بمعرفة نظامك».

- ليس لديَّ نظام.

نهض مدير الأمن وخطا بضع خطوات في الصالون متكئًا على عصاه. ساد الصمت حوله، وكان من الغريب رؤية هذا الرجل العجوز النحيل والمنهك يسيطر على الآخرين بقوة سُلطةٍ يخضعون لها دون قبولها. بعد صمت طويل، قال: «أود زيارة الغرف المجاورة لهذه الشقة». أراه مدير الفندق مخطط الفندق؛ الغرفة على اليمين، غرفة السيد كيسيلباخ، لم يكن لها مخرج آخر سوى ردهة الشقة نفسها، لكن الغرفة على اليسار، غرفة السكرتير، كانت متصلة بغرفة أخرى. قال: «دعونا نزُرْها».

لم يستطع السيد فورميري منع نفسه من رفع كتفيه والتذمر: «لكن الباب المؤدي إليها مغلق والنافذة مغلقة».

كرر السيد لينورمان: «دعونا نزُرْها». اصطحبوه إلى تلك الغرفة الأولى من الغرف الخمس المحجوزة للسيدة كيسيلباخ. ثم بناءً على طلبه، اصطحبوه إلى الغرف التالية. كانت جميع أبواب الاتصال مقفلة من الجانبين. سأل: «هل أيٌّ من هذه الغرف مشغولة؟».

- لا.

- والمفاتيح؟

- المفاتيح دائمًا في مكتب الاستقبال.

- إذًا، لا يمكن لأحد أن يدخل؟

- لا أحد، باستثناء عامل الطابق المسؤول عن التهوية والتنظيف.

- استدعوه.

أجاب الخادم، واسمه جوستاف بودو، أنه في اليوم السابق، وَفقًا لتعليمات النزيل، أغلق نوافذ الغرف الخمس.

- في أي ساعة؟

- في الساعة السادسة مساءً.

- ولم تلاحظ أي شيء؟

- لا، لا شيء.

- وهذا الصباح؟

- هذا الصباح، فتحت النوافذ قرابة الساعة الثامنة.

- ولم تجد شيئًا؟

- لا، لا شيء. آه! ومع ذلك...

تردد الخادم. ضغطوا عليه بالأسئلة، وأخيرًا اعترف: «حسنًا، لقد التقطت، بالقرب من المدفأة في الغرفة 420، علبة سجائر. كنت أنوي إحضارها إلى مكتب الاستقبال هذا المساء».

- هل هي معك؟

- لا، إنها في غرفتي. إنها علبة من الفولاذ المصقول. من جانب، يوضع فيها التبغ وورق السجائر، ومن الجانب الآخر أعواد الثقاب. هناك حرفان أوليان بالذهب، حرف L وحرف M.

- ماذا تقول؟

كان تشابمان قد تقدم. بدا مدهوشًا للغاية، وخاطب الخادم قائلًا: «أتقول علبة من الفولاذ المصقول؟».

- نعم.

- بثلاثة أقسام للتبغ والورق وأعواد الثقاب. تبغ روسي، أليس كذلك؟ ناعم، أشقر؟

- نعم.

- اذهب وأحضرها، أود أن أراها، أن أتأكد بنفسي...

بإشارة من مدير الأمن، غادر جوستاف بودو. جلس السيد لينورمان، وبنظرة حادة فحص السجادة والأثاث والستائر. استفسر: «نحن في الغرفة 420 هنا، أليس كذلك؟».

- بلى.

ضحك القاضي ساخرًا: «أود أن أعرف أي علاقة تربط بين هذه الحادثة والجريمة. خمسة أبواب مغلقة تفصلنا عن الغرفة التي قُتِل فيها كيسيلباخ».

لم يكلف السيد لينورمان نفسه عناء الرد. مَرَّ بعض الوقت. لم يعد جوستاف: «أين غرفة الخادم يا سيادة مدير الفندق؟».

- في الطابق السادس، فوقنا مباشرة. من الغريب أنه لم يعد بعد.

- هل تتفضل بإرسال شخص ما؟

ذهب المدير بنفسه برفقة تشابمان. بعد بضع دقائق، عاد وحده يركض، وملامحه مضطربة.

- ماذا؟

- وجدناه ميتًا!

- مقتولًا؟

- نعم.

صاح السيد لينورمان: «آه! اللعنة، إنهم أقوياء، هؤلاء الأوغاد! بسرعة! جوريل، أغلق أبواب الفندق، راقب المخارج! وأنت، سيدي المدير، قُدنا إلى غرفة جوستاف بودو».

خرج المدير. لكن قبل مغادرة الغرفة، انحنى السيد لينورمان والتقط قطعة ورق صغيرة جدًّا كانت عيناه قد ثبتتا عليها من قبل. كانت ملصقًا بإطار أزرق. كان يحمل أيضًا الرقم 813. على سبيل الاحتياط، وضعها في محفظته ولحق بالآخرين.

الفصل الخامس

كانت الإصابة في الظهر، بين لوحي الكتف. قال الطبيب: «الجرح نفسه الذي أُصيب به السيد كيسيلباخ». قال السيد لينورمان: «نعم، اليد نفسها التي ضربت، والسلاح نفسه الذي استُخدم». بحسب وضعية الجثة، يبدو أن الرجل فوجئ وهو منحنٍ أمام سريره، يبحث تحت فراشه عن علبة السجائر التي خبأها هناك. كانت ذراعه لا تزال مدسوسة بين الفراش والإطار، لكن لم يُعثَر على العلبة. أشار السيد فورميري، الذي لم يعد يجرؤ على إبداء رأي محدد: «لا بد أن العلبة كانت دليلًا مهمًا يورط الجاني».

قال مدير الأمن: «بالطبع!».

- لكننا نعرف الأحرف الأولى، M وL، ومع ذلك، يمكن أن نحصل على معلومات بسهولة مما يعرفه السيد تشابمان عن هذه العلبة.

قفز السيد لينورمان: «تشابمان! أين هو؟». نظروا في الممر بين مجموعات الناس المتكدسة هناك، لم يكن تشابمان موجودًا.

قال مدير الفندق: «لقد رافقني السيد تشابمان».

- نعم، نعم، أعرف، لكنه لم ينزل معك.
- لا، تركته بجانب الجثة.
- تركته! وحده؟!
- قلت له: «ابق هنا، لا تتحرك».
- ولم يكن هناك أحد؟ ألم تر أحدًا؟
- في الممر، لا.

- ولكن في الغرف المجاورة في السقيفة أو هنا. بعد ما حدث، ألم يكن أحد يختبئ هناك؟

بدا السيد لينورمان مضطربًا جدًّا. كان يتحرك جيئة وذهابًا، يفتح أبواب الغرف. وفجأة انطلق راكضًا، برشاقة لم يظن أحدٌ أنه قادر عليها. نزل الطوابق الستة مسرعًا. تبعه المدير وقاضي التحقيق من بعيد. في الأسفل، وجد جوريل أمام الباب الرئيسي.

- هل خرج أحد؟

- لا أحد.

- عند الباب الآخر، في شارع أورفيتو؟

- وضعت ديوزي في نقطة المراقبة.

- هل حددت له الأوامر؟

- نعم، سيادة المدير.

في قاعة الفندق الكبيرة، كان حشدٌ من النزلاء يتزاحم، يعلق على الروايات الأكثر أو الأقل دقة التي وصلته عن الجريمة الغريبة. كان جميع الخدم الذين استدعوهم عَبْر الهاتف يصلون واحدًا تلو الآخر. استجوبهم السيد لينورمان على الفور، لم يستطع أيٌّ منهم تقديم أي معلومات، لكن خادمة من الطابق الخامس تقدمت. قبل عشر دقائق ربما، كانت قد صادفت سيدين ينزلان درج الخدمة بين الطابقين الخامس والرابع.

- كانا ينزلان بسرعة كبيرة. الأول كان يمسك بيد الآخر، أدهشني رؤية هذين السيدين في درج الخدمة.

- هل يمكنك التعرف عليهما؟

- الأول، لا. لقد أدار رأسه. كان نحيفًا، أشقر. كان يعتمر قبعة سوداء لينة، وملابس سوداء.

- والآخر؟

- آه! الآخر كان إنجليزيًّا، بوجه ممتلئ، حليق تمامًا، وملابس مربعات. كان حاسر الرأس.

كان الوصف يتطابق بوضوح مع تشابمان. أضافت المرأة: «كان له مظهر، مظهر غريب جدًّا... كما لو كان مجنونًا». لم يكتفِ السيد لينورمان بتأكيد جوريل، كان يستجوب بدوره حراس الأبواب الموجودين عند البابين.

- هل تعرفون السيد تشابمان؟

- نعم سيدي، كان يتحدث معنا دائمًا.

- ألم تروه يخرج؟

- بالتأكيد لا. لم يخرج هذا الصباح.

التفت السيد لينورمان إلى مفوض الشرطة: «كم لديك من رجال سيادة المُفوض؟».

- أربعة.

- هذا غير كافٍ. اتصل بسكرتيرك ليرسل لك كل الرجال المتاحين. ويرجى تنظيم مراقبة مشددة على جميع المخارج بنفسك. أريد حالة حصار، سيدي المفوض...

احتج مدير الفندق: «لكن في النهاية، زبائني...».

- لا يهمني زبائنك، سيدي. واجبي يأتي قبل كل شيء، وواجبي هو إلقاء القبض على المتهم، مهما كلف الأمر.

جازف قاضي التحقيق وقال: «هل تعتقد إذًا...؟».

- أنا لا أعتقد سيدي، أنا متأكد، مرتكب جريمَة القتل المزدوجة ما زال في الفندق.

- ولكن تشابمان...

- في هذه اللحظة، لا أستطيع أن أؤكد أن تشابمان ما زال على قيد الحياة. على أي حال، إنها مسألة دقائق، ثوانٍ. جوريل، خذ رجلين وفتش جميع غرف الطابق الرابع! سيدي المدير، سيرافقهم أحد موظفيك. بالنسبة إلى الطوابق الأخرى، سأتحرك عندما نحصل على تعزيزات. هيا، جوريل، إلى البحث، انتبه جيدًا، إنه صيد ثمين.

انطلق جوريل ورجاله مسرعين، أمَّا السيد لينورمان فبقي في البهو وبالقرب من مكاتب الفندق. هذه المرة، لم يفكر في الجلوس -كما هي عادته-

كان يمشي من المدخل الرئيسي إلى مدخل شارع أورفيتو، ويعود إلى نقطة البداية. من وقت لآخر، كان يأمر: «سيادة المدير، يجب مراقبة المطابخ، يمكن للشخص أن يهرب من هناك. سيادة المدير، أخبر موظفة الهاتف ألا تسمح بالاتصال لأي نزيل في الفندق ممن يريدون الاتصال بالمدينة. إذا اتصل أحد من المدينة، فلتوصله بالشخص المطلوب، ولكن عليها أن تُدوِّن اسم الشخص. سيادة المدير، أعد قائمة بعملائك الذين تبدأ أسماؤهم بحرف L أوM!».

كان يقول كل هذا بصوت عالٍ، كجنرال جيش يلقي الأوامر على ضباطه التي سيعتمد عليها مصير المعركة. وكانت حقًا معركة لا هوادة فيها ورهيبة، تلك التي كانت تدور داخل فندق باريسي أنيق، بين شخصية قوية مثل مدير الأمن، وذلك الفرد الغامض المطارد، الملاحق، المحاصر تقريبًا، ولكنه مخيف جدًّا في مكره ووحشيته. كان القلق يعتصر المشاهدين المتجمعين جميعًا في وسط البهو، صامتين ولاهثين، يرتجفون خوفًا عند سماع أدنى ضجيج، مهووسين بصورة القاتل الشيطانية. أين كان يختبئ؟ هل سيظهر؟ ألم يكن بينهم؟ ربما هذا، أو ذاك!

كانت الأعصاب متوترة لدرجة أنه لو حدثت ثورة مفاجئة، لكانوا اقتحموا الأبواب وفروا إلى الشارع، لولا وجود السيد مدير الأمن هناك، وكان لحضوره شعور مطمئن ومهدئ. كان الجميع يشعرون بالأمان، مثل ركاب سفينة يقودها قبطان ماهر. كانت جميع الأنظار متجهة نحو ذلك الرجل العجوز ذي النظارات، والشعر الرمادي، بمعطفه الزيتوني ووشاحه البني. الذي كان يتجول بظهر مقوس وساقين متعثرتين. أحيانًا كان يأتي أحد النُدُل -الذين كانوا يتابعون تحقيق العريف- مسرعًا، مُرسَلًا من قبل جوريل.

كان يسأل السيد لينورمان: «هل من جديد؟».

- لا شيء، سيدي، لم نجد شيئًا.

حاول مدير الفندق مرتين أن يُيسر القواعد الصارمة التي وضعها مدير الأمن، فقد كان الوضع لا يُطاق. في المكاتب، كان العديد من المسافرين، الذين استدعتهم أعمالهم أو كانوا على وشك المغادرة، يحتجون. كرر السيد لينورمان: «لا يهمني».

- لكنني أعرفهم جميعًا.

- هذا جيد بالنسبة إليك.

- أنت تتجاوز حدود سلطتك.
- أعرف ذلك.
- سينقلب الأمر ضدك في النهاية.
- أنا مقتنع بما أفعله.
- حتى السيد قاضي التحقيق نفسه يرى ذلك.
- ليدعني السيد فورميري وشأني! ليس لديه ما هو أفضل ليفعله سوى استجواب الخدم كما يفعل حاليًا، أمَّا البقية، فهذا ليس تحقيقًا. إنه عمل شرطة، هذا شأني.

في تلك اللحظة، دخلت مجموعة من رجال الشرطة الفندق، وزعهم مدير الأمن إلى عدة مجموعات أرسلها إلي الطابق الثالث، ثم خاطب المفوض: «عزيزي المفوض، أتركُ لك المراقبة. لا تتساهل، أرجوك! أنا أتحمل مسؤولية ما سيحدث». وبالتوجه نحو المصعد، طلب أن يُنقل إلى الطابق الثاني. لم تكن المهمة سهلة، استغرقت وقتًا طويلًا، لأنه كان يجب فتح أبواب الغرف الستين، وتفتيش جميع الحمامات، وجميع الأسرَّة المعلقة، وجميع الخزائن، وجميع الزوايا. كانت أيضًا غير مثمرة. بعد ساعة، عند الظهر تمامًا، كان السيد لينورمان قد انتهى للتو من الطابق الثاني، ولم ينتهِ العملاء الآخرون من الطوابق العليا، ولم يُكتشف أي شيء. تردد السيد لينورمان، ثم سأل: «هل صعد القاتل إلى العُليَّة؟». كان يقرر النزول، عندما أُخبر أن السيدة كيسيلباخ قد وصلت للتو مع مرافقتها. كان إدوارد -الخادم القديم الموثوق به- قد قَبِلَ مهمة إخبارها بوفاة السيد كيسيلباخ.

وجدها السيد لينورمان في أحد الصالونات منهارة دون دموع، لكن وجهها كان ملتويًا من الألم، وجسدها كله يرتجف، كما لو كانت مصابة بالحمى. كانت امرأة طويلة نسبيًّا، سمراء، عيناها السوداوان ذواتا جمال كبير، ترتدي الكثير من المشغولات الذهبية؛ نقاط صغيرة لامعة من الذهب، مثل بريق يلمع في الظلام.

تعرف إليها زوجها في هولندا، حيث ولِدت دولوريس لعائلة من أصل إسباني، عائلة أمونتي. أحبها على الفور، ومنذ أربع سنوات، لم يتزعزع قط زواجهما القائم على الحنان والتفاني.

قدَّم السيد لينورمان نفسه. نظرت إليه دون أن تجيب، فصمت، لأنها، في ذهولها، تبدو كما لو كانت لا تفهم كل ما كان يقوله. ثم فجأة، بدأت تبكي بغزارة، وطلبت أن تؤخذ إلى زوجها.

في البهو، وجد السيد لينورمان جوريل، الذي كان يبحث عنه، وقدم له على عجل قبعة كان يحملها في يده.

- سيادة مدير الأمن، لقد وجدت هذه. لا شك في مصدرها، أليس كذلك؟

كانت قبعة لينة، قبعة سوداء. في الداخل، لم يكن بها بطانة، ولا ملصق.

- أين وجدتها؟

- على منصة الدرج الخلفي، في الطابق الثاني.

- في الطوابق الأخرى، ألا يوجد شيء؟

- لا شيء. لقد فتشنا كل شيء. لم يبق سوى الطابق الأول، وهذه القبعة تؤكد أن الرجل نزل حتى هناك.

- نحن نقترب، يا سيادة المدير.

- أعتقد ذلك.

عند أسفل الدرج، توقف السيد لينورمان: «عُد إلى المفوض وأعطه التعليمات: رجلان عند أسفل كل من السلالم الأربعة، تكون مسدساتهم جاهزة. وليطلقوا النار إذا لزم الأمر. افهم هذا يا جوريل، إذا لم يُنقَذ تشابمان، وإذا هرب هذا الشخص، فسأسقط. لقد قضيت ساعتين في التخيُّل».

صعد الدرج. في الطابق الأول، التقى اثنين من رجال الشرطة كانا يخرجان من غرفة، يقودهما موظف. كان الممر خاليًا. لم يجرؤ موظفو الفندق على المغامرة، وقد أغلق بعض النزلاء أبوابهم بإحكام، بحيث كان من الضروري الطرق لفترة طويلة والتعريف بأنفسهم قبل أن يُفتح الباب. على مسافة أبعد، رأى السيد لينورمان مجموعة أخرى من العملاء يزورون المكتب، وفي نهاية الممر الطويل، رأى آخرين يقتربون من المنعطف، أي مِن الغرف الواقعة على شارع جودي. وفجأة، سمعهم يطلقون صيحات، واختفوا راكضين. أسرع نحوهم. توقف العملاء في منتصف الممر؛ كان هناك جسد ممدد عند أقدامهم يسد الطريق، ووجهه على السجادة. انحنى السيد لينورمان وأمسك الرأس الخامل بين يديه وهمس: «تشابمان! إنه ميت!». فحصه. وجد وشاح حريري أبيض، محبوك، يشد العنق. فك الوشاح، ظهرت بقع حمراء، ولاحظ أن هذا

الوشاح كان يُثَبت -على مؤخرة الرقبة- ضمادة سميكة من القطن ملطخة بالدماء. هذه المرة أيضًا، كان الجرح نفسه؛ صغير، ونظيف، وواضح، وقاسٍ. أبلغوا السيد فورميري والمفوض فهرعوا على الفور. سأل لينورمان: «هل خرج أحد؟ هل هناك أي إشارة؟».

أجابه المفوض: «لا شيء، هناك رجلان في الحراسة أسفل كل سلم».

قال السيد فورميري: «ربما صعد مرة أخرى؟».

- لا! لا!

- لكن كان من الممكن أن نلتقيه.

- لا، كل هذا حدث منذ وقت طويل. اليدان باردتان بالفعل، يجب أن تكون الجريمة قد ارتكبت تقريبًا بعد الأخرى مباشرة، بمجرد وصول الرجلين إلى هنا عَبْر سلم الخدم.

- لكن كان من الممكن رؤية الجثة! منذ ساعتين، مَرَّ خمسون شخصًا من هنا.

- لم تكن الجثة هنا.

- إذًا أين كانت؟

- هه! ما أدراني؟ افعل مثلي، ابحث! لا نجد شيئًا بالكلام.

كان لينورمان يضرب بعصبية على مقبض عصاه بيده، وعيناه مثبتتان على الجثة، صامتًا ومفكرًا. أخيرًا نطق: «سيدي المفوض، هل تتفضل بنقل الضحية إلى غرفة فارغة؟ سنستدعي الطبيب. سيدي المدير، هل تسمح لي بفتح أبواب جميع الغرف في هذا الممر؟». على اليسار، كانت هناك ثلاث غرف وصالونان يشكلون شقة غير مشغولة، ففتّشها السيد لينورمان. على اليمين، أربع غرف. اثنتان كانتا مشغولتين من قِبل السيد ريفيردا، والإيطالي البارون جياكوميتشي، وكلاهما كانا بالخارج في ذلك الوقت. في الغرفة الثالثة، وجدوا سيدة إنجليزية عجوزًا، ما تزال نائمة. وفي الرابعة نزيل بريطاني كان يقرأ ويدخن بهدوء، ولم تستطع ضوضاء الممر أن تشتت انتباهه عن القراءة، يُدعى النقيب باربري. لم تُسفِر عمليات التفتيش والاستجوابات عن أي نتيجة. لم تسمع السيدة العجوز أي شيء قبل صيحات العملاء، لا ضجة معركة، ولا صرخة احتضار، ولا شجارًا، ولا النقيب باربري أيضًا. علاوة على ذلك، لم

يُعْثَر على أي دليل مشبوه، ولا آثار دم، ولا شيء يوحي بأن المسكين تشابمان قد مَرَّ بإحدى هذه الغرف.

همس قاضي التحقيق: «غريب، كل هذا غريب حقًّا!» وأضاف بسذاجة: «أصبحت لا أفهم شيئًا. هناك بسلسلة من الظروف تفوتني جزئيًّا. ما رأيك سيد لينورمان؟».

كان السيد لينورمان على وشك أن يُوجِّه له بالتأكيد أحد ردوده الحادة التي تعبِّر عن سوء مزاجه المعتاد، ولكن وصل جوريل لاهثًا، وقال: «سيادة مدير الأمن، لقد وجدوا هذا في الأسفل، في مكتب الفندق... على كرسي».

كانت حزمة صغيرة الحجم، مربوطة في غلاف من القماش الأسود.

- هل فتحوها؟

- نعم، ولكن عندما رأوا ما تحتويه، أعادوا تغليف الحزمة تمامًا كما كانت... مشدودة بقوة، كما ترى.

- افتحها!

أزال جوريل الغلاف، وكشف عن بنطال وسترة من الصوف الأسود، والتي يبدو أنها كُدست على عجل، كما تشهد ثنيات القماش. في الوسط، كانت هناك منشفة ملطخة بالدماء، والتي غُمست في الماء، على الأرجح، لإزالة آثار الأيدي التي مُسِحت بها. في المنشفة، خنجر من الفولاذ، بمقبض مرصع بالذهب. كان لونه أحمر بسبب الدم؛ دم ثلاثة رجال ذُبحوا، في بضع ساعات، بيدٍ خفية، وسط حشد من ثلاثمائة شخص كانوا يذهبون ويأتون في الفندق الكبير. تعرَّف إدوارد الخادم على الفور على الخنجر كملكية للسيد كيسيلباخ. في اليوم السابق، قبل هجوم لوبين، رآه إدوارد على الطاولة.

قال لينورمان: «سيدي المدير، رُفِع الحظر. سيعطي جوريل الأمر بفتح الأبواب». سأل السيد فورميري: «هل تعتقد إذًا أنَّ هذا اللوبين تمكَّن من الخروج؟».

- لا. مرتكب جرائم القتل الثلاث التي اكتشفناها للتو موجود في الفندق، في إحدى الغرف، أو بالأحرى مختلط مع المسافرين الموجودين في البهو أو في الصالونات. بالنسبة إليَّ، أرى أنه كان يقيم في الفندق.

- مستحيل! وأين غيَّر ملابسه؟ وما هي الملابس التي يرتديها الآن؟

- لا أعرف، لكنني متأكد.

- وأنت تسمح له بالمرور؟! سيخرج بكل هدوء، ويداه في جيوبه.
- المسافر الذي سيغادر، دون أمتعته، ولن يعود، سيكون هو المجرم. سيدي المدير، هل تسمح لي بمرافقتك إلى المكتب؟ أود دراسة قائمة عملائك من كثب.

وجد السيد لينورمان في المكتب بعض الرسائل الموجهة إلى السيد كيسيلباخ، سلَّمها لقاضي التحقيق. كان هناك أيضًا طردٌ وصل للتو من خدمة الطرود البريدية الباريسيَّة. نظرًا لأن الورق الذي يغلفه كان ممزقًا جزئيًا، تمكَّن السيد لينورمان من رؤية صندوق من خشب الأبنوس، منقوش عليه اسم رودولف كيسيلباخ. فتحه، وبالإضافة إلى بقايا مرآة كان لا يزال بالإمكان رؤية موضعها داخل الغطاء، احتوى الصندوق على بطاقة أرسين لوبين.

تفصيلٌ صغير لفت انتباه مدير الأمن. على الجانب الخارجي تحت الصندوق، كان هناك ملصقٌ صغير بحدود زرقاء، مشابه للملصق الذي عُثِر عليه في غرفة الطابق الرابع حيث عُثِرَ على علبة السجائر، وكان هذا الملصق يحمل الرقم 813.

الجزء الثاني

انطلاق عمليات تحقيق السيد لينورمان

الفصل الأول

- أوجست، أدخِل السيد لينورمان!

خرج الحاجب، وبعد بضع ثوانٍ دخل مدير الأمن. كان هناك، في المكتب الواسع لوزارة الداخلية في ساحة بوفو، ثلاثة أشخاص: الشهير فالينغلاي، زعيم الحزب الراديكالي منذ ثلاثين عامًا ورئيس الوزراء، ووزير الداخلية حاليًّا، والسيد تيستارد النائب العام، ومفوض الشرطة السيد ديلوم. لم يغادر مفوض الشرطة والنائب العام الكرسيين اللذين جلسا عليهما خلال المحادثة الطويلة التي أجرياها للتو مع رئيس الوزراء، لكن الأخير نهض، وصافح يد مدير الأمن، وقال له بنبرة ودية للغاية: «لا أشك، عزيزي لينورمان، أنك تعرف السبب الذي طلبت منك القدوم من أجله!».

- قضية كيسيلباخ؟

- نعم.

- قضية كيسيلباخ! لا يوجد شخص لا يتذكر، ليس فقط قضية كيسيلباخ المأسوية التي تعهدتُ بحل خيوطها المعقدة، بل أيضًا أدق تفاصيل الدراما التي أثارت اهتمامنا جميعًا. والجميع أيضًا يتذكر الانفعال الاستثنائي الذي أثارته في فرنسا وخارجها. ومع ذلك، هناك أمر واحد أذهل الجمهور -أكثر من جريمة القتل الثلاثية التي ارتُكِبت في ظروف غامضة للغاية، وأكثر من فظاعة هذه المجزرة البغيضة، أكثر من كل شيء- وهو عودة ظهور، أو يمكن تسميته بإحياء أرسين لوبين.

أرسين لوبين! لم يسمع أحد عنه منذ أربع سنوات، منذ مغامرته الرائعة والمذهلة في الإبرة المجوفة، منذ اليوم الذي هرب فيه في الظلام أمام أعين

شيرلوك هولمز وإيزيدور بوتريليه، حاملًا على ظهره جثة من أحب، متبوعًا بمربيته العجوز فيكتوار. منذ ذلك اليوم، كان يُعتَقد عمومًا أنه مات. كانت هذه رواية الشرطة، التي لم تجد أي أثر لخصمها، فقررت دفنه ببساطة. ومع ذلك، افترض بعض الناس أنه نجا، ونسبوا إليه حياة هادئة لبرجوازي طيب، يزرع حديقته بين زوجته وأطفاله؛ بينما ادعى آخرون أنه -مُنحنٍ تحت وطأة الحزن، ومُتعبٌ من غرور هذا العالم- قد انزوى في دير للرهبان. وها هو يظهر من جديد! ها هو يستأنف صراعه الذي لا هوادة فيه ضد المجتمع! أصبح أرسين لوبين مرة أخرى؛ أرسين لوبين الخيالي، غير الملموس، المربك، الجريء، العبقري أرسين لوبين.

لكن هذه المرة ارتفعت ضجة رعب. لقد قَتَل أرسين لوبين! وكانت وحشية الجريمة وقسوتها وسخريتها التي لا ترحم قسوتها أسطورة البطل المحبوب، والمغامر البطل والعاطفي عند الحاجة، أحلَّت محلها رؤية جديدة لوحش غير إنساني، متعطش للدماء وشرس. لقد كرهه الجمهور وخاف معبوده القديم، لأنه أُعجب به في الماضي لخفته ومرحه الممتع. وتحول استياء هذا الحشد الخائف منذ ذلك الحين ضد الشرطة. في الماضي، كانوا يضحكون، كانوا يسامحون المفوض المهزوم بسبب الطريقة المضحكة التي كان يُهزم بها. لكن المزحة استمرت لفترة طويلة جدًا، وفي موجة من التمرد والغضب، طالبوا السلطات بتحمل مسؤولية الجرائم التي لا توصف والتي كانت عاجزة عن منعها.

كان هناك انفجار غضب في الصحف، وفي الاجتماعات العامة، وفي الشارع، وحتى على منبر مجلس النواب، لدرجة أن الحكومة انزعجت وسعت بكل الوسائل لتهدئة الإثارة العامة.

كان لدى فالينغلاي، رئيس الوزراء، اهتمام كبير بجميع قضايا الشرطة، وكثيرًا ما استمتع بمتابعة بعض القضايا من كثب مع مدير الأمن الذي كان يقدر صفاته وشخصيته المستقلة. استُدعِي إلى مكتبه المفوض والنائب العام، اللذين تحدث معهما، ثم السيد لينورمان.

- نعم، عزيزي لينورمان، إنها قضية كيسيلباخ. ولكن قبل الحديث عنها، ألفت انتباهك إلى نقطة، نقطة تُقلق بشكل خاص السيد مفوض الشرطة. السيد ديلوم، هل تود أن تشرح للسيد لينورمان؟

أجاب المفوض بنبرة تشير إلى القليل من حسن النية تجاه مرؤوسه: «أوه! السيد لينورمان يعرف تمامًا ما يتعلق بهذا الموضوع؛ لقد تحدثنا عن هذا؛ لقد أخبرته برأيي حول سلوكه غير اللائق في فندق بالاس. بشكل عام، الناس غاضبون».

نهض السيد لينورمان، وأخرج من جيبه ورقة وضعها على الطاولة.

سأله فالينغلاي: «ما هذا؟».

- قراري، سيدي الرئيس.

قفز فالينغلاي، وقال: «ماذا! استقالتك! لمجرد ملحوظة بسيطة يوجهها إليك السيد المفوض والتي لا يعطيها أي أهمية على أي حال؟! أليس كذلك، ديلوم، لا أهمية على الإطلاق؟! وها أنت تغضب! ستعترف، صديقي لينورمان، أن لديك شخصية صعبة. هيا، خذ هذه الورقة التافهة ولنتحدث بجدية».

جلس مدير الأمن مرة أخرى، وقال فالينغلاي، فارضًا الصمت على مفوض الشرطة الذي لم يُخفِ استياءه: «باختصار يا لينورمان، إليك الأمر: عودة لوبين إلى المشهد تزعجنا. لقد سخر منا هذا الحيوان لفترة طويلة بما فيه الكفاية. كان ذلك مضحكًا، أعترف، وكنت أنا نفسي أول من يضحك على ذلك. الأمر يتعلق الآن بجرائم. كنا نستطيع تحمل أرسين لوبين ما دام يسلي الجمهور، أما وإنه قد سفك الدماء، فلا».

- وماذا تطلب مني إذًا، سيدي الرئيس؟

- ماذا نطلب؟ أوه، الأمر بسيط جدًّا. أولًا اعتقاله... ثم رأسه.

- اعتقاله، يمكنني أن أعدكم به يومًا ما. أمَّا رأسه، فلا.

- كيف! إذا اعتُقِل، سيحاكم أمام محكمة الجنايات، وسيُدان حتمًا، وسيُعدم.

- لا.

- ولمَ لا؟

- لأن لوبين لم يَقتُل.

- ماذا؟ أنت مجنون يا لينورمان. وجثث فندق بالاس، هل هي خرافة؟ ألم تحدث جريمة قتل ثلاثية؟

- بلى، ولكن ليس لوبين من ارتكبها.

نطق لينورمان هذه الكلمات بتأنٍ شديد، بهدوء وقناعة مؤثرة. احتجَّ المدعي العام والمفوض، لكن فالينغلايٍ استأنف: «أَفترضُ يا لينورمان أنك لا تطرح هذه الفرضية دون أسباب جدية!».

-إنها ليست فرضية.

- وما الدليل؟

- هناك دليلان، دليلان ذوا طبيعة أخلاقية، عرضتهما على الفور على قاضي التحقيق وأبرزتهما الصحف. أولًا، قبل كل شيء، لوبين لا يقتل. ثانيًا، لماذا كان سيقتل بما أن هدف عمليته، وهو السرقة، قد تحقق، ولم يكن لديه ما يخشاه من خصم مقيد ومكمم؟

- حسنًا. والوقائع؟

- الوقائع لا تصمد أمام المنطق والعقل، ثم إن الوقائع ما تزال في صالحي. ماذا يعني وجود لوبين في الغرفة التي وُجدت فيها علبة السجائر؟ من ناحية أخرى، الملابس السوداء التي عُثر عليها، والتي كانت بالتأكيد ملابس القاتل، لا تتطابق على الإطلاق من حيث الحجم مع ملابس أرسين لوبين!

- إذًا، أنت تعرفه؟

- أنا لا. لكن إدوارد رآه، وجوريل رآه، والذي رآه ليس هو نفسه الذي رأته الخادمة في السلم الخلفي وهو يجر تشابمان من يده.

-إذًا، ماذا لديك؟

-تقصد الحقيقة، سيدي الرئيس. ها هي ذي، أو على الأقل ما أعرفه من الحقيقة. يوم الثلاثاء 16 أبريل، اقتحم شخص ما -لوبين- غرفة السيد كيسيلباخ، قرابة الساعة الثانية بعد الظهر...

قاطعت ضحكة عالية السيد لينورمان. كانت من مفوض الشرطة: «دعني أقول لك، سيدي لينورمان، إنك تحدد الأمور بسرعة مفرطة. في الساعة الثالثة من ذلك اليوم، دخل السيد كيسيلباخ بنك كريدي ليونيه ونزل إلى قاعة الخزائن. توقيعه في السجل يشهد على ذلك».

انتظر السيد لينورمان باحترام حتى انتهى رئيسه من الكلام. ثم ودون حتى أن يتكلف عناء الرد مباشرة على الهجوم، واصل: «قرابة الساعة الثانية بعد الظهر، قام لوبين، بمساعدة شريك له يدعى ماركو، بتقييد السيد

كيسيلباخ، وسلبه كل الأموال النقدية التي كانت معه، وأجبره على الكشف عن رقم خزانته في بنك كريدي ليونيه. بمجرد معرفة السر، غادر ماركو. لقد انضم إلى شريك ثانٍ، والذي استفاد من تشابه معين مع السيد كيسيلباخ، تشابهًا عززه في ذلك اليوم بارتداء ملابس مماثلة لملابس السيد كيسيلباخ، وبوضع نظارة ذهبية، دخل بنك كريدي ليونيه، قلَّد توقيع السيد كيسيلباخ، أفرغ الخزانة وعاد برفقة ماركو. اتصل هذا الأخير على الفور بلوبين. لوبين، تأكَّد وقتها أن السيد كيسيلباخ لم يخدعه، وبما أن هدف عمليته قد تحقق، رحل».

بدا فالينغلاي مترددًا: «نعم، نعم... لنفترض، لكن ما يدهشني هو أن رجلًا مثل لوبين قد خاطر كثيرًا من أجل مكسب ضئيل، بعض الأوراق النقدية ومحتويات خزانة افتراضية!».

- كان لوبين يطمع في المزيد؛ أراد إمَّا المظروف الجلدي الذي كان في حقيبة السفر، وإمَّا الصندوق المصنوع من خشب الأبنوس الذي كان في الخزانة. هذا الصندوق، حصل عليه لأنه أعاده فارغًا. لذلك، الآن، لوبين يعرف، أو في طريقه لمعرفة المشروع الشهير الذي كان يخطط له السيد كيسيلباخ، والذي كان يتحدث عنه مع سكرتيره قبل لحظات من وفاته.
- ما هذا المشروع؟
- لا أعرف. مدير الوكالة بارباروكس الذي أُطلِع على سر المشروع، أخبرني أن السيد كيسيلباخ كان يبحث عن شخص، شخص منبوذ على ما يبدو، يدعى بيير ليدوك. لأي سبب كان يبحث عنه؟ وبأي روابط يمكن ربطه بمشروعه؟ لا أستطيع أن أُجزم.

قال فالينغلاي: «حسنًا، هذا بالنسبة إلى أرسين لوبين، دوره انتهى. السيد كيسيلباخ مقيد، مسلوب، لكنه حي! ماذا حدث حتى اللحظة التي وجدناه فيها ميتًا؟».

- لا شيء، لساعات؛ لا شيء حتى الليل، لكن خلال الليل دخل شخص ما.
- من أين؟
- من الغرفة 420، إحدى الغرف التي حجزها السيد كيسيلباخ. كان الشخص يمتلك بالتأكيد مفتاحًا مزورًا.

صاح مفوض الشرطة: «لكن بين هذه الغرفة والشقة كانت جميع الأبواب مقفلة، وعددها خمسة!».

- بقيت الشرفة.
- الشرفة!
- نعم، إنها الشرفة نفسها لكل الطابق، والتي تطل على شارع جودي.
- والفواصل؟
- يمكن لرجل رشيق أن يتخطاها. رَجلُنا تخطاها، لقد وجدت الآثار.
- لكن جميع نوافذ الشقة كانت مغلقة، وقد تبين بعد الجريمة أنها ما تزال كذلك.
- باستثناء واحدة، نافذة السكرتير تشابمان، التي كانت مدفوعة فقط، لقد اختبرتها بنفسي.

هذه المرة بدا رئيس الوزراء متزعزعًا بعض الشيء، إلى حد أن رواية السيد لينورمان بدت منطقية، متماسكة، مدعومة بوقائع صلبة. سأل باهتمام متزايد: «لكن هذا الرجل، لأي غرض جاء؟».

- لا أعرف.
- آه، أنت لا تعرف...
- لا، لا أعرف ذلك، كما لا أعرف اسمه.
- ولكن لأي سبب ارتكب الجرائم؟
- لا أعرف. على أقصى تقدير يمكننا أن نفترض أنه لم يأتِ بنية القتل، بل بنية الحصول -هو أيضًا- على الوثائق الموجودة في المظروف الجلدي والصندوق، وعندما وجد نفسه مصادفةً أمام عدو عاجزًا، قتَله.

همس فالينغلاي: «هذا ممكن... نعم، إلى حد ما. وحسب رأيك، هل عَثَرَ على الوثائق؟».

- لم يجد الصندوق، لأنه لم يكن هناك، لكنه وجد في قاع حقيبة السفر المظروفَ الجلدي الأسود. إن لوبين والآخر كان لهما الهدف نفسه: كلاهما يعرفان المعلومات نفسها عن مشروع كيسيلباخ.

عَقَبَ الرئيس: «أي إنهما تشاجرا».

- بالضبط. وقد بدأ الصراع بالفعل. وجد القاتل بطاقة لأرسين لوبين، فثبتها على الجثة. وهكذا ستكون كل الظواهر ضد أرسين لوبين. إذًا، سيكون أرسين لوبين هو القاتل.

علَّق فالينغلاي: «بالفعل، بالفعل. الحيلة لم تكن تفتقر إلى الدقة».

واصل السيد لينورمان: «وكانت الحيلة ستنجح، لو لم يفقد القاتل -إمَّا في الذهاب وإمَّا في العودة، بسبب مصادفة أخرى غير ملائمة هذه المرة- علبة سجائره في الغرفة 420، ولو لم يلتقطها عامل الفندق جوستاف بودو. منذ ذلك الحين، وهو يعرف أنه قد اكتُشف أو على وشك أن يُكتشف».

- كيف عرف؟

- كيف؟ قاضي التحقيق فورميري نفسه أجرى التحقيق والأبواب مفتوحة! من المؤكد أن القاتل كان يختبئ بين الحاضرين، موظفي الفندق أو الصحفيين، عندما أرسل قاضي التحقيق جوستاف بودو إلى غرفته في السقيفة لإحضار علبة السجائر، صعد بودو، تبعه الجاني وضربه. الضحية الثانية!

لم يعترض أحد على توقعاته. كانوا يُعيدون تشكيل هذه الدراما، كانت توقعاته مقنعةً في واقعيتها ودقتها المحتملة.

سأل فالينغلاي: «والضحية الثالثة؟».

-تلك قَدِمت بنفسها إلى القتل. عندما لم يرَ تشابمان بودو يعود، وكان فضوليًّا لفحص علبة السجائر بنفسه، غادر مع مدير الفندق. فاجأه القاتل، جرَّه، قاده إلى إحدى الغرف، وقتله بدوره.

- ولكن لماذا سمح بأن يُجر ويُقاد من قِبل رجلٍ كان يعرف أنه قاتل السيد كيسيلباخ وجوستاف بودو؟

- لا أعرف، كما لا أعرف الغرفة التي ارتُكبت فيها الجريمة، ولا أتخيل الطريقة المعجزة حقًّا التي هرب بها المجرم.

سأل السيد فالينغلاي: «لقد تحدثوا عن ملصقين زرقاوين، ماذا عنهما؟».

- نعم، وُجِد أحدهما على الصندوق الذي أعاده لوبين، والآخر وجدته أنا، ويخص على الأرجح المظروف الجلدي الذي سرقه القاتل.

- حسنًا.

- حسنًا! بالنسبة إليَّ، هما لا يعنيان شيئًا. ما يعني شيئًا هو هذا الرقم 813 الذي كتبه السيد كيسيلباخ على كل منهما؛ لقد تعرفوا على خطه.

- وهذا الرقم 813، علام يدل؟

- لغز.

- وماذا عنه؟

- أجيبك مرة أخرى أنني لا أعرف.

- ليست لديك أي شكوك؟

- لا شيء. اثنان من رجالي يسكنان إحدى غرف فندق بالاس، في الطابق حيث وُجدت جثة تشابمان. بواسطتهما، أراقب جميع الأشخاص في الفندق. المجرم ليس من بين أولئك الذين غادروا.

- ألم تُجرَ أي مكالمات هاتفية في أثناء المذبحة؟

- بلى. مكالمة من المدينة، اتصل شخصٌ ما بالنقيب باربري، أحد الأشخاص الأربعة الذين كانوا يسكنون في ممر الطابق الأول.

- وماذا عن هذا النقيب؟

- أراقبه من خلال رجالي؛ حتى الآن، لم يُلاحظ أي شيء ضده.

- وفي أي اتجاه ستبحث؟

- أوه! في اتجاه محدد جدًا. بالنسبة إليَّ، القاتل من بين أصدقاء أو معارف عائلة كيسيلباخ. كان يتتبع آثارهم، يعرف عاداتهم، والسبب الذي كان السيد كيسيلباخ من أجله في باريس، وكان يشك على الأقل في أهمية خططه.

- إذًا، فهو ليس مجرمًا محترفًا؟

- لا، لا! ألف مرة لا. لقد نُفذت الجريمة بمهارة وجرأة لا مثيل لهما، لكنها كانت مدفوعة بالظروف. أكرر، يجب البحث في محيط السيد والسيدة كيسيلباخ، والدليل هو أن قاتل السيد كيسيلباخ لم يقتل جوستاف بودو إلا لأن عامل الفندق كان يمتلك علبة السجائر، وتشابمان لأن السكرتير كان يعرف بوجوده. تذكروا انفعال تشابمان؛ من مجرد وصف علبة السجائر شعرَ تشابمان بالمشكلة. لو كان رأى علبة السجائر، لكنّا حصلنا على معلومات. لم يُخطئ الجاني في ذلك؛ لقد قضى على

تشابمان. ونحن لا نعرف شيئًا، سوى الأحرف الأولى L وM. فكر وقال: «دليل آخر هو إجابة على أحد أسئلتك، سيدي الرئيس. هل تعتقد أن تشابمان كان سيتبع هذا الرجل عَبْر ممرات وسلالم الفندق لو لم يكن يعرفه بالفعل؟».

كانت الحقائق تتراكم. الحقيقة، أو على الأقل الحقيقة المحتملة، كانت تتعزَّز. بقيت نقاط كثيرة، ربما الأكثر إثارة للاهتمام، غامضة، أي وضوحٍ هذا! بغض النظر عن الدوافع التي ألهمتها، كم كانت سلسلة الأحداث التي وقعت في هذا الصباح المأسوي واضحة! ساد صمت. كانوا جميعهم يفكرون، يبحثون عن أدلة واعتراضات. أخيرًا، صاح فالينغلاي: «عزيزي لينورمان، كل هذا ممتاز. لقد أقنعتني لكن في النهاية، نحن لم نتقدم تجاه هدفنا».

- كيف؟

- نعم. هدف اجتماعنا ليس على الإطلاق فَكَّ جزء من اللغز الذي لا أشكُّ أنك ستفك شفرته بالكامل يومًا ما، بل تلبية مطالب الجمهور على أوسع نطاق ممكن. الآن، سواء كان القاتل لوبين أم لا، سواء كان هناك مجرمان، أو ثلاثة، أو واحد فقط، هذا لا يساعدنا في التعرف على المجرم أو اعتقاله. والجمهور ما زال لديه هذا الانطباع الكارثي بأن العدالة عاجزة.

- ماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك؟

- بالتحديد، أن تعطي الجمهور الرضا الذي يطلبه.

- لكن هل هذه التفسيرات ستكون كافية بالفعل؟!

- كلام فارغ! إنه يريد أفعالًا. شيء واحد فقط سيرضيه: اعتقال.

- يا للهول! يا للهول! ومع ذلك لا يمكننا اعتقال أول شخص نصادفه.

- هذا أفضل من عدم اعتقال أي شخص. دعنا نرَ، ابحث جيدًا. هل أنت واثق من إدوارد خادم كيسيلباخ؟

- واثق تمامًا. ومع ذلك، لا. سيدي الرئيس، سيكون ذلك خطِرًا، مضحكًا. وأنا مقتنع أن السيد المدعي العام نفسه... هناك فقط شخصان لدينا الحق في اعتقالهما: القاتل، لا أعرفه. وأرسين لوبين.

- وماذا بعد؟

- أرسين لوبين، يصعب اعتقاله. أو على الأقل يتطلب الأمر وقتًا، مجموعة من الإجراءات لم يكن لديَّ الوقت بعد لتنسيقها، لأنني كنت أعتقد أن لوبين قد اعتزل... أو مات.

ضرب فالينغلاي الأرض بقدمه بنفاد صبر، فهو رجل يحب أن تتحقق رغباته على الفور: «ومع ذلك، ومع ذلك عزيزي لينورمان، يجب عليك ذلك! يجب عليك ذلك من أجلك أيضًا. أنت تعلم جيدًا أن لديك أعداء أقوياء، وأنه لو لم أكن هنا... باختصار، من غير المقبول أنك أنت، لينورمان، تتهرب هكذا. وماذا عن المتواطئين؟ ماذا تفعل بهم؟ هناك فقط لوبين، هناك ماركو، وهناك أيضًا الشخص الذي لعب دور السيد كيسيلباخ للنزول إلى أقبية بنك كريدي ليونيه.

- هل سيكفيك ذلك الشخص سيدي الرئيس؟

- هل تسألني إن كان هذا يكفيني؟ بالطبع يكفيني! يا إلهي.

- حسنًا، أعطني ثمانية أيام.

- ثمانية أيام! لكن هذه ليست مسألة أيام، عزيزي لينورمان، إنها ببساطة مسألة ساعات.

- كم تعطيني منها سيدي الرئيس؟

سحب فالينغلاي ساعته وضحك ساخرًا: «أعطيك عشر دقائق، عزيزي لينورمان».

سحب مدير الأمن ساعته، وقال بصوت هادئ: «سيدي الرئيس، لقد منحتني أربع دقائق إضافية».

الفصل الثاني

قال فالينغلاي مدهوشًا: «أربع دقائق إضافية! ماذا تقصد؟».

- أقول سيدي الرئيس، إن الدقائق العشر التي منحتني إياها غير ضرورية. أحتاج إلى ست دقائق فقط، لا أكثر.

- آه، هكذا! ولكن يا لينورمان، قد لا تكون المزحة ذات ذوق جيد.

اقترب مدير الأمن من النافذة، وأشار إلى رجلين كانا يتمشيان ويتحدثان بهدوء في فناء الوزارة الشرفي. ثم عاد: «سيدي المدعي العام، تفضل بتوقيع مذكرة اعتقال باسم داليرون، أوجست -ماكسيمان- فيليب، البالغ من العمر سبعة وأربعين عامًا. اترك خانة المهنة فارغة».

فتح باب المدخل: «يمكنك الدخول يا جوريل، وأنت أيضًا يا ديوزي». ظهر جوريل برفقة المفتش ديوزي.

- هل معك الأصفاد يا جوريل؟

- نعم، يا سيادة المدير.

تقدم السيد لينورمان نحو فالينغلاي: «سيدي الرئيس، كل شيء جاهز. لكنني أطلب منك بإلحاح أن تتخلى عن هذا الاعتقال. إنه يعرقل كل خططي؛ قد يجعلها تفشل، من أجل إرضاء بسيط نخاطر بتعريض كل شيء للفشل!».

- سيد لينورمان، أود أن ألفت انتباهك إلى أنه لم تتبقَّ لك سوى ثمانين ثانية.

كبح مدير الأمن إيماءة انزعاج، وجال في الغرفة ذهابًا وإيابًا متكئًا على عصاه، ثم جلس بغضب، كما لو أنه قرر الصمت، ثم فجأة، وقد حسم أمره:

«سيدي الرئيس، أول شخص سيدخل هذا المكتب هو الشخص الذي أردت اعتقاله... ضد رغبتي، أود أن أوضح ذلك جيدًا».

- لم تتبقَّ سوى خمس عشرة ثانية يا لينورمان.
- جوريل، ديوزي، الشخص الأول، أليس كذلك؟ سيدي المدعي العام، هل وضعت توقيعك؟
- لم تتبقَّ سوى عشر ثوانٍ يا لينورمان.
- سيدي الرئيس، تفضل بالضغط على الجرس؟

ضغط فالينغلاي على الجرس. ظهر الحاجب على عتبة الباب وانتظر.

التفت فالينغلاي نحو لينورمان: «حسنًا، لينورمان، ننتظر أوامرك. من يجب إدخاله؟».

- لا أحد.
- ولكن ذلك النذل الذي وعدتنا باعتقاله! لقد مَرَّت الدقائق الست.
- نعم، لكن النذل هنا.
- كيف؟! لا أفهم، لم يدخل أحد.
- بلى.
- هكذا! ولكن انظر، لينورمان، أنت تسخر مني! أكرر لك أنه لم يدخل أحد.
- كنا أربعة في هذا المكتب سيدي الرئيس، والآن نحن خمسة. وبالتالي، لقد دخل شخص ما.

قفز فالينغلاي: «ماذا؟ هذا جنون! ماذا تقصد؟».

انزلق العميلان بين الباب والحاجب. اقترب السيد لينورمان من الحاجب، وضع يديه على كتفيه، وقال بصوت عالٍ: «باسم القانون، داليرون، أوجست - ماكسيمان - فيليب، رئيس الحجاب في رئاسة مجلس الوزراء، أنت مقبوض عليك!».

انفجر فالينغلاي ضاحكًا: «آه! هذه نكتة جيدة. هذه جيدة حقًّا... هذا اللعين لينورمان، لديه أفكار مضحكة! أحسنت لينورمان، لم أضحك هكذا منذ زمن طويل».

التفت السيد لينورمان نحو المدعي العام: «سيدي المدعي العام، لا تنس أن تضع على المذكرة مهنة السيد داليرون، أليس كذلك؟ رئيس الحجاب في رئاسة مجلس الوزراء».

تَمتَم فالينغلاي وهو يُمسك بجنبيه: «نعم، نعم. رئيس الحجاب في رئاسة مجلس الوزراء، آه! هذا اللينورمان الطيب لديه أفكار عبقرية؛ كان الجمهور يطالب باعتقال، وبووم، يرمي له من؟ حاجبي أوجست! الحاجب النموذجي. حسنًا. حقًّا، لينورمان، كنت أعلم أن لديك قدرًا معينًا من الخيال، ولكن ليس إلى هذا الحد، يا عزيزي! أي جرأة!».

منذ بداية المشهد، لم يتحرك أوجست، وبدا وكأنه لا يفهم شيئًا مما يحدث حوله. كان وجهه الطيب كخادم مخلص وأمين يبدو مذهولًا تمامًا، كان ينظر إلى محدثيه بالتناوب في محاولة واضحة لفهم معنى كلماتهم. قال السيد لينورمان بضع كلمات لجوريل الذي خرج. ثم متقدمًا نحو أوجست، نطق بوضوح: «لا فائدة. لقد وقعت في الفخ، الأفضل أن تكشف أوراقك عندما تكون اللعبة خاسرة. ماذا فعلت يوم الثلاثاء؟».

- أنا؟ لا شيء، كنت هنا.

- أنت تكذب. كان يوم عطلتك. لقد خرجت.

- بالفعل، أتذكر، صديق من المقاطعة جاء. تنزهنا في الغابة.

- كان اسم الصديق ماركو، وتنزهتما في أقبية بنك كريدي ليونيه.

- أنا! ما هذه الفكرة! ماركو؟! لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

صاح لينورمان وهو يضع أمام أنفه نظارة ذات أذرع ذهبية: «وهذه، هل تعرف هذه؟».

- لا. لا. أنا لا أرتدي نظارة.

- بلى، أنت كنت ترتديها عندما ذهبت إلى بنك كريدي ليونيه، وتظاهرت بأنك السيد كيسيلباخ. هذه النظارة من الغرفة التي تشغلها، تحت اسم السيد جيروم، 5 من شارع الكوليزيه.

- أنا! غرفة! أنا أنام في الوزارة.

- لكنك بدَّلت ملابسك هناك، لتلعب أدوارك في عصابة لوبين.

مسح الآخر جبينه المغطى بالعرق. كان شاحبًا، وتَمتَم: «لا أفهم، أنت تقول أشياء، أشياء...».

- هل تريد شيئًا تفهمه بشكل أفضل؟ انظر، هذا ما نجده بين قصاصات الورق التي ترميها في السلة، تحت مكتبك في الردهة، هنا.

وفتح السيد لينورمان ورقة تحمل ترويسة الوزارة، حيث يمكن أن نجدها في أماكن كثيرة، مكتوبة بخط يد متردد توقيع: رودولف كيسيلباخ.

- حسنًا، ماذا تقول عن هذه أيها الخادم الأمين؟ تمارين على توقيع السيد كيسيلباخ، أليست هذه دليلًا؟

لكمة قوية في الصدر جعلت السيد لينورمان يترنح. وبقفزة واحدة، كان أوجست أمام النافذة المفتوحة، تسلَّق العتبة وقفز إلى فناء الشرفة. صرخ فالينغلاي: «يا إلهي! آه! اللص». رنَّ الجرس، ركض، أراد أن ينادي من النافذة.

قال له السيد لينورمان بهدوء تام: «لا تنزعج سيدي الرئيس!».

- لكن هذا النذل أوجست...

- ثانية واحدة، من فضلك! لقد توقعت هذه النهاية، كنت أتوقعها، حتى إنه أفضل اعتراف.

عاد فالينغلاي إلى مكانه. بعد لحظة، دخل جوريل ممسكًا بياقة السيد داليرون، أوجست-ماكسيمان- فيليب، المعروف باسم جيروم، رئيس الحُجاب في رئاسة مجلس الوزراء.

قال السيد لينورمان: «أحضره يا جوريل، أحسنت! كما يقال «كلب الصيد الماهر هو الذي يعود بالطريدة في فمه». هل استسلم بسهولة؟».

أجاب جوريل، مظهرًا يده الضخمة والمعقودة: «لقد عضني قليلًا، لكنني كنت أمسكه بقوة».

- حسنًا يا جوريل. والآن، خذ هذا الرجل إلى السجن في عربة. وداعًا سيد جيروم.

كان فالينغلاي يستمتع كثيرًا، وكان يفرك يديه ضاحكًا. فكرة أن رئيس حجابه كان أحد شركاء لوبين بدت له أكثر المغامرات سحرًا وسخرية: «أحسنت عزيزي لينورمان، كل هذا رائع، ولكن كيف بحق السماء قمت بهذه المناورة؟».

- أوه! بأبسط الطرق. كنت أعلم أن السيد كيسيلباخ قد اتصل بوكالة باربارووكس، وأن لوبين قد قدَّم نفسه إليه مدعيًا أنه من هذه الوكالة. بحثت في هذا الاتجاه، واكتشفت أن التسريب الذي حدث على حساب السيد كيسيلباخ وباربارووكس لا يمكن أن يكون إلا لصالح شخص يدعى جيروم، صديق لأحد موظفي الوكالة. لو لم تأمرني بتسريع الأمور لكنت راقبت الحاجب، ووصلت إلى ماركو، ثم إلى لوبين.

- ستصل إليه يا لينورمان. وسنشاهد أكثر المشاهد إثارة في العالم؛ الصراع بين لوبين وأنت. أراهن عليك.

في صباح اليوم التالي، نشرت الصحف هذه الرسالة:

رسالة مفتوحة إلى السيد لينورمان، مدير الأمن:

«تهانيَّ الحارة عزيزي السيد والصديق، على اعتقال الحاجب جيروم. كان عملًا جيدًا، مُنفذًا بشكل جيد وجدير بك. تهانيَّ أيضًا على الطريقة الذكية التي أثبتت بها لرئيس مجلس الوزراء أنني لست قاتل السيد كيسيلباخ. كان برهانك واضحًا، منطقيًّا، لا يقبل الجدل، والأهم من ذلك، صادقًا. كما تعلم، أنا لا أقتل. شكرًا لإثباتك ذلك بهذه المناسبة. تقدير أبناء جيلي وتقديرك -عزيزي السيد والصديق- ضروريان لي.

في المقابل، اسمح لي بمساعدتك في ملاحقة القاتل الوحشي، وبدعمك في قضية كيسيلباخ. قضية مثيرة للاهتمام جدًّا، صدقني، مثيرة للاهتمام وجديرة باهتمامي، لدرجة أنني أَخرج من العزلة التي كنت أعيش فيها منذ أربع سنوات، بين كتبي وكلبي الطيب شيرلوك، وأنني أستدعي كل رفاقي، وأعود إلى خوض المعركة مجددًا.

كم للحياة من منعطفات غير متوقعة! هأنذا متعاون معك. كن متأكدًا، عزيزي السيد والصديق، أنني سعيد بذلك، وأنني أقدر هذا الشرف حق قدره.

التوقيع: أرسين لوبين

ملحوظة:

كلمة أخيرة لا أشك أنك ستوافقني فيها. بما أنه من غير اللائق أن يتعفن رجل نبيل -كان له الشرف المجيد في القتال تحت رايتي- على القش الرطب لسجونكم، أعتقد أنه من واجبي أن أحذرك بأمانة أنني، خلال خمسة أسابيع، يوم الجمعة 31 مايو، سأطلق سراح السيد جيروم، الذي رقيته إلى رتبة رئيس الحُجاب في رئاسة مجلس الوزراء. لا تنس التاريخ: الجمعة 31 مايو.

أ. ل».

الجزء الثالث

انخراط الأمير سيرنين في القضية

الفصل الأول

بالطابق الأرضي، في ركن من الشارع الرئيسي هوسمان، داخل الشارع الفرعي كورسيل يسكن هناك الأمير سيرنين، أحد أبرز أعضاء الجالية الروسية في باريس، والذي يتكرر اسمه باستمرار في أخبار «الرحلات وأماكن الاستجمام» في الصحف. في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا يدخل الأمير غرفة مكتبه. إنه رجل يتراوح عمره بين 35 و38 عامًا، يمتزج شعره الكستنائي ببعض الخيوط الفضية، لديه بشرة صحية، وشارب كثيف، ولحية جانبية قصيرة جدًّا، بالكاد مرسومة على بشرة وجنتيه النضرة. يرتدي بأناقة معطفًا رماديًّا يضيق عند الخصر، وصدرية بياقة بيضاء بارزة. قال بصوت خافت: «حسنًا، أعتقد أن اليوم سيكون شاقًّا». فتح بابًا يؤدي إلى غرفة كبيرة حيث كان ينتظر بعض الأشخاص، وقال: «هل فارنييه هنا؟ ادخل يا فارنييه».

جاء رجل بمظهر البرجوازي الصغير، قصير القامة، قوي البنية، ثابت الخُطى، استجابةً لندائه. أغلق الأمير الباب خلفه: «حسنًا، أين وصلت يا فارنييه؟».

- كل شيء جاهز لهذا المساء يا سيدي.

- ممتاز. احكِ لي باختصار.

- حسنًا. منذ اغتيال زوجها، اختارت السيدة كيسيلباخ -بناءً على المنشور الذي أرسلته إليها- دارًا للمسنات واقعة في بلدة «جارش» كمسكن لها. إنها تسكن في آخر الأجنحة الأربعة التي تؤجرها الإدارة للسيدات اللواتي يرغبن في العيش بعيدًا تمامًا عن النزلاء الآخرين، في جناح الإمبراطورة في أعماق الحديقة.

- ماذا عن الخدم؟

- مرافقتها؛ جيرترود، التي وصلت معها بعد ساعات قليلة من الجريمة. وأخت جيرترود، سوزان، التي استدعتها من مونت كارلو، والتي تعمل خادمةً لها. الأختان مخلصتان لها تمامًا.

- وإدوارد، الخادم الشخصي؟

- لم تحتفظ به. لقد عاد إلى بلده.

- هل تقابل أحدًا؟

- لا أحد. تقضي وقتها مستلقية على أريكة. تبدو ضعيفة جدًّا، مريضة، وتبكي كثيرًا. بالأمس، بقي قاضي التحقيق معها لمدة ساعتين.

- حسنًا. ماذا عن الفتاة الآن؟

- الآنسة جنفييف إرنمون تسكن على الجانب الآخر من الطريق في زقاق يمتد نحو الريف المفتوح، في هذا الزقاق، في المنزل الثالث على اليمين. إنها تدير مدرسة خاصة ومجانية للأطفال المتأخرين دراسيًّا. جدتها السيدة إرنمون، تعيش معها.

- وحسب ما كتبت لي، تعرفت جنفييف إرنمون والسيدة كيسيلباخ على بعضهما؟

- نعم، ذهبت الفتاة لطلب إعانات من السيدة كيسيلباخ لمدرستها. يبدو وكأنهما صديقتان، لأنهما تخرجان معًا منذ أربعة أيام في حديقة فلينوف، والتي تعتبر حديقة دار المسنات جزءًا منها.

- في أي ساعة تخرجان؟

- من الخامسة إلى السادسة. في تمام السادسة، تعود الفتاة إلى مدرستها.

- إذًا، هل نظمت الأمر؟

- اليوم، الساعة السادسة. كل شيء جاهز.

- ألن يكون هناك أحد؟

- لا يوجد أحد في الحديقة في هذا الوقت.

- حسنًا، سأكون هناك. اذهب.

أخرجه من باب الردهة، عاد إلى غرفة الانتظار، ونادى: «الأخوان دوديفيل!». دخل شابان، يرتديان ملابس أنيقة بشكل مبالغ فيه قليلًا، بأعين

حادة ومظهر ودود قال: «مرحبًا يا جان! مرحبًا يا جاك! ما الجديد في مديرية الشرطة؟».

- ليس هناك الكثير يا سيدي.

- هل ما يزال السيد لينورمان يثق بكما؟

- دائمًا. بعد جوريل، نحن مفتشاه المفضلَان. والدليل على ذلك أنه عيننا في فندق بالاس لمراقبة الأشخاص الذين كانوا يسكنون في ممر الطابق الأول وقت اغتيال تشابمان. كل صباح يأتي جوريل، ونقدم له التقرير نفسه الذي نقدمه لك.

- ممتاز. من الضروري أن أكون على علم بكل ما يحدث وكل ما يقال في مديرية شرطة باريس. بما أن لينورمان يعتقد أنكما رجاله، فأنا أسيطر على الموقف. وفي الفندق، هل اكتشفتما أي أثر؟

أجاب جان دوديفيل، الأكبر سنًّا: «المرأة الإنجليزية، تلك التي كانت تسكن إحدى الغرف، الإنجليزية قد غادرت».

- تلك لا تهمني، لديَّ معلوماتي. ولكن ماذا عن جارها النقيب باربري؟

بدا عليهما الارتباك. أخيرًا أجاب أحدهما: «هذا الصباح، أمر النقيب باربري بنقل أمتعته إلى محطة قطار الشمال، لقطار الساعة 12:50، وغادر هو نفسه بالسيارة. ذهبنا إلى موعد مغادرة القطار، لم يأتِ النقيب».

- والأمتعة؟

- لقد استعادها من المحطة.

- مَن فعل ذلك؟

- قيل لنا إنه كان عامل توصيل.

- إذًا، فقد ضاع أثره؟

- نعم.

صاح الأمير بفرح: «أخيرًا!». نظر إليه الآخران مدهوشَين. ثم أردف: «نعم.. إنه هو، وهذا دليل!».

- هل تعتقد ذلك؟

- بالطبع، لا يمكن أن تكون جريمة قتل تشابمان قد ارتُكِبت إلا في إحدى غرف هذا الممر. هناك، في منزل أحد المتواطئين، قاد قاتل السيد

كيسيلباخ السكرتير، وهناك قتله، وهناك غيَّر ملابسه، والمتواطئ هو من وضع الجثة في الممر بعد مغادرة القاتل. ولكن من المتواطئ؟ الطريقة التي اختفى بها النقيب باربري تميل إلى إثبات أنه ليس بعيدًا عن القضية. أسرعا، اتصلا هاتفيًا، وأبلغا الخبر السار للسيد لينورمان أو جوريل. يجب إبلاغ مديرية الشرطة في أسرع وقت ممكن. نحن وهؤلاء السادة نعمل يدًا بيد.

أعطاهما بعض التوصيات الإضافية بشأن دورهما المزدوج كمفتشي شرطة في خدمة الأمير سيرنين، ثم صرفهما. في غرفة الانتظار، بقي زائران. أُدْخِل أحدهما. قال له الأمير: «آسف جدًّا يا دكتور، أنا كُلي آذان مصغية. كيف حال بيير ليدوك؟».

- مات.

- أوه! أوه! كنت أتوقع ذلك منذ رسالتك هذا الصباح. ولكن مع ذلك، الشاب المسكين لم يستغرق وقتًا طويلًا.

- كان منهكًا تمامًا. سكتة قلبية، وانتهى الأمر.

- ألم يتحدث؟

- لا.

- هل أنت متأكد أنه منذ اليوم الذي التقطناه فيه معًا تحت طاولة مقهى في بيلفيل، هل أنت متأكد أن أحدًا في عيادتك لم يشك في أنه هو؟! بيير ليدوك، الذي تبحث عنه الشرطة، ذلك البيير ليدوك الغامض الذي كان كيسيلباخ يريد العثور عليه بأي ثمن!

- لا أحد كان يشغل غرفة منفصلة. بالإضافة إلى ذلك، لُفت يده اليسرى بضمادة حتى لا يرى أحد الجرح في إصبعه الصغيرة. أمَّا النَّدبة على خده فهي غير مرئية تحت اللحية.

- وهل راقبته بنفسك؟

- راقبته بنفسي. ووَفقًا لتعليماتك، استغللت كل اللحظات التي بدا فيها أكثر قدرة لاستجوابه، لكنني لم أحصل إلا على تَمتَمات غير واضحة.

همس الأمير مفكرًا: «مات، بيير ليدوك مات! كانت قضية كيسيلباخ بأكملها تعتمد عليه بوضوح، وها هو ذا... ها هو ذا يختفي دون أي كشفٍ عن سِره، دون كلمة واحدة عنه، عن ماضيه. هل ينبغي أن أنخرط في هذه

المغامرة التي ما زلت لا أفهم شيئًا عنها؟ إنه أمر خطِرٌ، يمكنني أن أغرق!». فكر للحظة، ثم صاح: «آه! لا يهم! سأستمر على أي حال. ليس من المنطقي أن أتخلى عن اللعبة لمجرد أن بيير ليدوك قد مات. على العكس! والفرصة مغرية للغاية. بيير ليدوك مات. فليحيا بيير ليدوك! اذهب يا دكتور. عد إلى منزلك. سأتصل بك هاتفيًّا هذا المساء».

بعد خروج الطبيب، قال سيرنين للزائر الأخير، وهو رجل صغير ذو شعر رمادي، يرتدي ملابس نادل فندق، ولكن من الدرجة العاشرة: «حان دورنا يا فيليب». بدأ فيليب حديثه قائلًا: «سيدي، أذكركم أنكم أدخلتموني الأسبوع الماضي كخادم غرفة في فندق الإمبراطورَيْن في فرساي، لمراقبة شاب».

- نعم، أعرف. جيرار بوبريه. أين وصل؟
- يوشك ما لديه أن ينفد.
- أما تزال لديه أفكار سوداء؟
- ما تزال، يريد الانتحار!
- هل الأمر جدِّي؟
- جدِّي جدًّا. وجدت هذه الملحوظة الصغيرة بالقلم الرصاص بين أوراقه.

قال سيرنين وهو يقرأ الملحوظة: «أوه! أوه! إنه يعلن عن موته... وسيكون ذلك هذا المساء!».

- نعم سيدي، لقد اشترى الحبل وثبت الخطاف في السقف. إذًا، ووَفقًا لأوامركم، تعرفت عليه، أخبرني عن محنته، ونصحته بالتوجه إليكم. قلت له: «الأمير سيرنين غني وكريم، ربما يساعدك».
- كل هذا ممتاز. إذن سيأتي؟
- إنه هنا.
- كيف عرفت؟
- لقد تبعته. ركب القطار إلى باريس، والآن يتجول ذهابًا وإيابًا في الشارع. في أي لحظة سيقرر.

في تلك اللحظة، أحضر خادمٌ بطاقة. قرأ الأمير وقال: «أَدخِل السيد جيرار بوبريه». وخاطب فيليب: «ادخل إلى هذا المكتب، استمع ولا تتحرك». بقي الأمير وحده وتَمتَم: «كيف يمكنني التردد؟ إنه القدر الذي يرسله». بعد دقائق

قليلة، دخل شاب طويل، أشقر، نحيف، بوجه هزيل وعينين بهما حُمرة. وقف على العتبة، مرتبكًا، مترددًا، في وضع متسولٍ يريد أن يمد يده ولكنه لا يجرؤ. كانت المحادثة قصيرة: «هل أنت السيد جيرار بوبريه؟».

- نعم. نعم، أنا هو.
- ليس لي شرف...
- نعم... سيدي... هو نفسه... قيل لي...
- من قال؟
- نادل فندق يَدَّعي أنه خادم عندك.
- حسنًا، باختصار...
- حسنًا.

توقف الشاب، خجولًا، مضطربًا من موقف الأمير المتعالي. صاح الأمير: «ولكن سيدي ربما يكون من الضروري أن...».

- سيدي، قيل لي إنك ثري جدًّا وكريم، وفكرت أنه قد يكون من الممكن لك...

توقف، عاجزًا عن نطق كلمة التوسل والإذلال. اقترب سيرنين منه: «السيد جيرار بوبريه، ألم تنشر مجلدًا من الشعر بعنوان ابتسامة الربيع؟».

صاح الشاب الذي أشرق وجهه: «نعم، نعم. هل قرأته؟».

- نعم، أشعارك جميلة جدًّا، جميلة جدًّا. لكن هل تتوقع أن تعيش مما ستجنيه منها؟
- بالتأكيد، يومًا ما...
- يومًا ما، أو ربما في يوم آخر، أليس كذلك؟ وفي انتظار ذلك، أتيت لتطلب مني ما تعيش به؟
- ما آكل به، سيدي.

وضع سيرنين يده على كتفه، وقال ببرود: «الشعراء لا يأكلون. إنهم يتغذون على القوافي والأحلام. افعل مثلهم، هذا أفضل من التسول».

ارتعش الشاب من الإهانة. توجه بسرعة نحو الباب دون كلمة. أوقفَه سيرنين: «كلمة أخيرة. ألم تعد لديك أية موارد على الإطلاق؟».

- لا شيء، على الإطلاق.
- ولا تعتمد على أي شيء؟
- لديَّ أمل أخير؛ لقد كتبت إلى أحد أقاربي، متوسلًا إليه أن يرسل لي شيئًا. سأحصل على رده اليوم. طلبت منه الحد الأدنى.
- وإذا لم تحصل على إجابة، فأنت مصمم بلا شك، هذا المساء نفسه، على...
- نعم، سيدي.

قال هذا ببساطة وبوضوح. انفجر سيرنين ضاحكًا: «يا إلهي! كم أنت مضحك، أيها الشاب الشجاع! وما هذه القناعة البريئة! عُد لرؤيتي العام المقبل، هل توافق؟ سنتحدث عن كل هذا مرة أخرى. إنه أمر غريب جدًّا، ومثير للاهتمام، ومضحك جدًّا خاصة... ها ها ها!».

أخرجه من الباب وهو يهتز من الضحك، مع إيماءات متكلفة وتحيات. قال وهو يفتح الباب لنادل الفندق: «فيليب، هل سمعت؟».

- نعم، سيدي.
- ينتظر جيرار بوبريه هذا المساء تليغرافًا، وعدًا بالمساعدة.
- نعم، إنها أمله الأخير.
- هذا التليغراف، يجب ألا يستلمه. إذا وصل، التقطه في الطريق وَمزِّقه.
- حسنًا، سيدي.
- هل أنت وحدك في فندقك؟
- نعم، وحدي مع الطاهية التي لا تبيت هناك. المالك غائب.
- جيد. نحن سادة اللعبة. الليلة، قرابة الساعة الحادية عشرة. اذهب الآن!

الفصل الثاني

مَرَّ الأمير سيرنين إلى غرفته ودق جرس خادمه: «قبعتي وقفازاتي وعصاي. هل السيارة جاهزة؟».

- نعم، سيدي.

ارتدى ملابسه، وخرج واستقر في سيارة ليموزين واسعة ومريحة قادته إلى غابة بولونيا، إلى منزل الماركيز والماركيزة دي غاستين، حيث كان مدعوًّا للغداء. في الساعة الثانية والنصف غادر مضيفيه، وتوقف في جادة كليبر، واصطحب اثنين من أصدقائه وطبيبًا، ووصل في الساعة الثالثة إلا خمس دقائق إلى حديقة الأمراء. في الساعة الثالثة، تبارز بالسيف مع القائد الإيطالي سبينيلي، وفي الجولة الأولى قطع أُذن خصمه. في الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة، أدار طاولة لعب في نادي شارع كامبون، حيث انسحب منها في الساعة الخامسة والعشرين دقيقة بربح قدره سبعة وأربعون ألف فرنك. وكل هذا دون عجلة، بنوع من اللامبالاة المتعالية، كما لو أن الحركة المحمومة التي بدت وكأنها تحمل حياته في دوامة من الأفعال والأحداث كانت القاعدة نفسها لأيامه الأكثر هدوءًا. قال لسائقه: «أوكتاف، سنذهب إلى جارش». وفي الساعة السادسة إلا عشر دقائق، نزل أمام الجدران القديمة لحديقة فلينوف. رغم أنها مقسمة الآن ومتضررة، لا تزال ممتلكات فلينوف تحتفظ بشيء من الروعة التي عرفتها في الوقت الذي كانت الإمبراطورة يوجيني تأتي للراحة فيها، مع أشجارها القديمة، وبركتها، وأفق الأوراق الذي يمتد عَبْر غابات سان كلو، يتمتع المشهد بالأناقة والحزن. مُنِح جزء كبير من الممتلكات لمعهد باستور. جزء أصغر، منفصل عن الأول بكل المساحة المخصصة للجمهور،

يشكل ملكية ما تزال واسعة بما فيه الكفاية، حيث ترتفع حول دار التقاعد، وأربعة أجنحة منعزلة.

قال الأمير لنفسه وهو يرى من بعيدٍ أسقف المنزل والأجنحة الأربعة: «هناك تقيم السيدة كيسيلباخ». ومع ذلك، كان يعبر الحديقة ويتجه نحو البركة. فجأة توقف خلف مجموعة من الأشجار. كان قد رأى سيدتين متكئتين على درابزين الجسر الذي فوق البركة: «يجب أن يكون فارنييه ورجاله في الجوار. ولكن اللعنة، إنهم يختبئون بشكل جيد جدًّا. مهما بحثت...».

كانت السيدتان الآن تطآن عشب المروج، تحت الأشجار الكبيرة المهيبة.

كانت السماء الزرقاء تظهر بين الفروع التي كانت تهزها نسمة هادئة، وكانت تطفو في الهواء روائح الربيع والخضرة اليانعة. على منحدرات العشب التي تنزل نحو الماء الساكن، كان الأقحوان والزهور البرية والبنفسج والنرجس وزنبق الوادي، وكل الزهور الصغيرة لشهري أبريل ومايو تتجمع وتشكل هنا وهناك ما يشبه الكواكب بكل الألوان.

كانت الشمس تميل نحو الأفق، وفجأة ظهر ثلاثة رجال من خلف شجيرة وجاءوا للقاء المتنزهتين. اقتربوا منهما. تبادلوا بعض الكلمات. أظهرت السيدتان علامات واضحة على الخوف. تقدم أحد الرجال نحو السيدة الأصغر سنًّا، وحاول الإمساك بالمحفظة الذهبية التي كانت تحملها بيدها. صرختا، وانقض الرجال الثلاثة عليهما. قال الأمير لنفسه: «حان وقت الظهور إن لم يكن الآن فمتى؟». في عشر ثوانٍ كان قد وصل إلى حافة الماء. عند اقترابه، هرب الرجال الثلاثة. سخر منهم قائلًا: «اهربوا أيها اللصوص، اهربوا بأقصى سرعة. ها قد جاء المنقذ». وهمَّ بملاحقتهم. لكن إحدى السيدات توسلت إليه: «أوه! سيدي، أرجوك. صديقتي مريضة».

كانت الأصغر سنًّا هي من تحدثت، في حين سقطت الأخرى على العشب فاقدة الوعي. عاد مكانه وسأل بقلق: «هل هي مصابة؟ هل هؤلاء الأوغاد...؟».

- لا، لا. إنه الخوف فقط، الانفعال و...، ستفهم. هذه السيدة هي السيدة كيسيلباخ.

- أوه!

قدَّم لها قارورة أملاح. جعلتها الشابة تشمها على الفور. وأضاف: «ارفعي الحجر الكريم الموضوع كسدادة، هناك علبة صغيرة، وفي هذه العلبة، أقراص. دعي السيدة تأخذ واحدة، واحدة فقط، إنها قوية المفعول جدًّا».

كان ينظر إلى الشابة وهي تعتني بصديقتها. كانت شقراء، بسيطة المظهر، وجهها لطيف وجاد، مع ابتسامة تنعش ملامحها حتى عندما لا تبتسم. فكر وقال: «إنها جنفييف». وكرر في نفسه متأثرًا: «جنفييف! جنفييف...».

بدأت السيدة كيسيلباخ تستعيد وعيها تدريجيًّا. مدهوشةً في البداية، بدت كأنها لا تفهم. ثم عندما عادت إليها ذاكرتها، شكرت منقذها بإيماءة رأس. حينها انحنى بعمق وقال: «اسمحي لي أن أقدم نفسي، الأمير سيرنين».

قالت بصوت منخفض: «لا أعرف كيف أُعبِّر لك عن امتناني».

- بعدم التعبير عنه، سيدتي. يجب أن نشكر المصادفة، المصادفة التي وجَّهت نزهتي إلى هذا الجانب. ولكن هل يمكنني أن أوصلك؟

بعد بضع دقائق، قرعت السيدة كيسيلباخ جرس دار التقاعد، وقالت للأمير: «سأطلب منك خدمة أخيرة. سيدي، لا تتحدث عن هذا الهجوم».

- لكن سيدتي، ستكون هذه الطريقة الوحيدة لمعرفة...

- لمعرفة ذلك، سيتطلب الأمر تحقيقًا، وسيكون هناك المزيد من الضجة حولي، والاستجوابات، والتعب، وأنا منهكة القوى.

لم يصر الأمير. سألها وهو يحييها: «هل تسمحين لي بالاطمئنان على أخبارك؟».

- بالتأكيد.

عانقت جنفييف ودخلت.

بدأ الليل يهبط، لم يرغب سيرنين أن تعود جنفييف وحدها، لكنهما لم يكادا يدخلان الممر حتى اندفع شبح من الظل نحوهما. صرخت جنفييف: «جدتي!». ألقت بنفسها في أحضان امرأة عجوز غطتها بالقبلات.

- آه! عزيزتي، عزيزتي، ماذا حدث؟ كم أنت متأخرة! أنت الملتزمة دائمًا!

قدمت جنفييف جدتها للضيف: «السيدة إرنمون، جدتي. الأمير سيرنين».

ثم روت الحادثة، وكانت السيدة إرنمون تكرر: «أوه! عزيزتي، لا بد أنه أفزعك! لن أنسى أبدًا سيدي، أقسم لك! لكن لا بد أنه أفزعك يا عزيزتي الصغيرة!».

- هيا، جدتي العزيزة، اهدئي بما أنني هنا.

- نعم، ولكن الخوف قد يكون أضر بكِ، لا يمكن معرفة العواقب. أوه! هذا فظيع.

ساروا بمحاذاة سياج -يمكن تخمين أنه فناء مزروع بالأشجار من فوقه- وبعض الشجيرات، وساحة لعب، ومنزل أبيض. خلف المنزل، كانت هناك بوابة صغيرة تفتح في مأوى من شجيرات البيلسان، مرتبة على شكل عريشة. دعت السيدة العجوز الأمير سيرنين للدخول، وقادته إلى صالون صغير كان يُستخدم كغرفة استقبال. طلبت جنفييف من الأمير الإذن بالخروج لفترة وجيزة، للذهاب لرؤية تلاميذها، حيث كان وقت عشائهم قد حان.

بقي الأمير والسيدة إرنمون وحدهما. كان للسيدة العجوز وجه شاحب وحزين، أسفل شعر أبيض تنتهي خصلاته بضفيرتين إنجليزيتين. كانت بدينة بعض الشيء، ثقيلة المشي، وكان لديها -رغم مظهرها وملابسها كسيدة- شيء من الابتذال، لكن عيناها كانتا طيبتين للغاية.

بينما كانت ترتب الطاولة قليلًا مع استمرارها في التعبير عن قلقها، اقترب الأمير سيرنين منها، وأمسك رأسها بين يديه، وقَبَّلها على خديها: «حسنًا، أيتها العجوز، كيف حالك؟».

بقيت مذهولة، بعينين جاحظتين وفم مفتوح. قَبَّلها الأمير مرة أخرى ضاحكًا.

تَمتَمت: «أنت! إنه أنت! آه! يا يسوع ومريم! يا يسوع ومريم! هل هذا ممكن! يا يسوع ومريم!».

- فيكتوار العزيزة!

- لا تناديني هكذا! صرخت وهي ترتعش. فيكتوار ماتت، مربيتك القديمة لم تعد موجودة. أنا أنتمي بالكامل لجنفييف.

قالت أيضًا بصوت منخفض: «آه! يا يسوع لقد قرأت اسمك في الصحف. إذًا، هذا صحيح، أنت تعود إلى حياتك السيئة!».

- كما ترين.

- لكنك أقسمت لي إن الأمر انتهى، أنك ستغادر إلى الأبد، أنك أردت أن تصبح شريفًا.

- لقد حاولت. هأنذا أحاول منذ أربع سنوات، لا تدعي أنني خلال هذه السنوات الأربع جعلت الناس يتحدثون عني!

- حسنًا؟

- حسنًا هذه تزعجني.

تنهدت: «ما تزال كما أنت، لم تتغير. آه! انتهى الأمر، لن تتغير أبدًا. إذًا، أنت متورط في قضية كيسيلباخ؟».

- بالطبع! وإلا لماذا سأتكلف عناء تنظيم هجوم على السيدة كيسيلباخ في الساعة السادسة، لأحظى بفرصة إنقاذها من براثن رجالي في الساعة السادسة وخمس دقائق؟ بعد أن أنقذتها، هي ملزمة باستقبالي. هأنذا في قلب المكان، وبينما أحمي الأرملة، أراقب ما حولها. آه! ماذا تريدين؟ الحياة التي أعيشها لا تسمح لي بالتسكع والحياة المترفة. يجب أن أتصرف بضربات مسرحية، بانتصارات وحشية.

راقبته بذهول، وتَمتَمت: «أفهم، أفهم... كل هذا كذب، ولكن جنفييف...».

- آه! بحجر واحد، ضربت عصفورين. بما أنني كنت أُعِد لعملية إنقاذ، فلماذا لا أفعلها لاثنتين! فكري كم كان سيستغرق الأمر من وقت وجهود عبثية، لأتسلل إلى حياة هذه الفتاة الخاصة! ماذا كنت بالنسبة إليها؟ ماذا سأكون بعد؟ شخص غريب، أجنبي. الآن أنا المنقذ. في غضون ساعة سأكون الصديق.

بدأت ترتجف: «إذًا، أنت لم تنقذ جنفييف حقًّا! أنت ستورطنا في قصصك».

وفجأة، في نوبة من التمرد، أمسكت بكتفيه: «حسنًا، لا، لقد سئمت، هل تسمع؟ لقد أحضرت لي هذه الصغيرة يومًا قائلًا: خذي هذه، أَعهَد بها إليكِ، والداها ماتا، خذيها وارعِها. حسنًا، إنها تحت رعايتي، وسأعرف كيف أدافع عنها ضدك وضد كل مؤامراتك».

بدت السيدة إرنمون مستعدة لكل الاحتمالات؛ كانت واقفة، ثابتة، بقبضتيها مشدودتين، ووجه حازم.

بهدوء، دون عنف، فك الأمير سيرنين يديها اللتين كانتا تمسكان به واحدة تلو الأخرى، وبدوره أمسك بالسيدة العجوز من كتفيها، أجلسها في كرسي، انحنى نحوها، وبنبرة هادئة جدًا قال لها: «اصمتي!».

بدأت تبكي مهزومةً على الفور، وشبكت يديها أمام سيرنين: «أرجوك، دعنا وشأننا. كنا سعداء جدًا! اعتقدت أنك نسيتنا، وكنت أبارك السماء كلما مَرَّ يوم. نعم، أنا أحبك بالفعل. لكن جنفييف... أنت ترى، لا أعرف ماذا سأفعل من أجل هذه الطفلة. لقد أخذت مكانك في قلبي».

قال ضاحكًا: «أرى ذلك، ستبعثينني إلى الجحيم بسرور. هيا، كُفِّي عن هذا الهراء! ليس لديَّ وقت لأضيعه. يجب أن أتحدث إلى جنفييف».

- ستتحدث إليها!

- حسنًا! هل هذه جريمة؟

- وماذا لديك لتقوله لها؟

- سر، سر خطِرٌ جدًا، مؤثر جدًا.

ارتعبت السيدة العجوز: «وربما سيؤلمها؟ أوه! أخشى كل شيء، أخشى كل شيء من أجلها».

- ها هي ذي قادمة.

- لا، ليس الآن.

- بلى، بلى أسمعها. امسحي دموعك وكوني عاقلة.

- اسمع، اسمع، لا أعرف ما هي الكلمات التي ستنطق بها، ولا أي سر ستكشفه لهذه الطفلة التي لا تعرفها، لكنني أنا التي أعرفها، أقول لك هذا: جنفييف ذات طبيعة شجاعة، وقوية، ولكنها حساسة جدًا. انتبه لكلماتك، قد تجرح مشاعرها بطريقة لا يمكنك تخيلها.

- ولماذا، يا إلهي؟

- لأنها من صنف مختلف عن صنفك، من عالم آخر. أتحدث عن عالم أخلاقي آخر، هناك أشياء يستعصي عليك فهمها الآن. بينكما، العائق الذي لا يمكن تجاوزه. جنفييف لديها الضمير الأنقى والأسمى، وأنت...

- وأنا؟

- وأنت لست رجلًا أمينًا.

الفصل الثالث

دخلت جنفييف نشيطة وساحرة: «كل صغيراتي في مسكنهن، لديَّ عشر دقائق للراحة. حسنًا يا جدتي، ما الأمر؟ وجهك غريب، هل هي تلك القصة مجددًا؟!».

قال سيرنين: «لا يا آنسة، أعتقد أنني كنت محظوظًا بما يكفي لطمأنة جدتك. كنا فقط نتحدث عنكِ وعن طفولتك، ويبدو أنه موضوع لا تتناوله جدتك دون انفعال».

قالت جنفييف ووجهها مُحمِر: «طفولتي! آه! جدتي!».

- لا تعنفيها يا آنسة، لقد قادتنا المصادفة إلى هذا الموضوع. يتصادف أنني عبرت مرارًا بالقرية الصغيرة التي نشأت فيها.

- أسبريمون؟

- أسبريمون، بالقرب من مدينة نيس. كنتِ تسكنين هناك في منزل جديد، أبيض تمامًا.

- نعم، أبيض تمامًا، مع قليل من الطلاء الأزرق حول النوافذ. كنتُ صغيرة جدًّا، حيث غادرت أسبريمون في سن السابعة؛ لكنني أتذكر أدقَّ تفاصيل تلك الفترة، ولم أنس سطوع الشمس على الواجهة البيضاء، ولا ظل شجرة الكافور في نهاية الحديقة.

- في نهاية الحديقة يا آنسة، كان هناك حقل زيتون، وتحت إحدى أشجار الزيتون، كانت هناك طاولة حيث كانت والدتك تعمل في الأيام الحارة.

قالت متأثرة: «هذا صحيح، هذا صحيح! كنت ألعب بجانبها...».

- وهناك، رأيت والدتك عدة مرات. فورَ رؤيتك، استعدت صورتها. كانت أكثر مرحًا، وأكثر سعادة.

- أمي المسكينة! في الواقع، لم تكن سعيدة. مات والدي يومَ ولادتي، ولم يستطع شيء أن يعزيها. كانت تبكي كثيرًا. احتفظت من تلك الفترة بمنديل صغير كنت أمسح به دموعها.

- منديل صغير بنقوش وردية.

قالت، مدهوشة: «ماذا! أنت تعرف...».

- كنت هناك، يومًا ما، عندما كنت تواسينها، وكنتِ تواسينها بلطفٍ شديد لدرجة أن المشهد ظل واضحًا في ذاكرتي.

نظرت إليه بعمق، وتَمتَمت، تقريبًا لنفسها: «نعم، نعم! يبدو لي.. تعبير عينيك، ثم رنين صوتك».

أغمضت جفنيها للحظة، وتأملت كما لو كانت تحاول عبثًا تثبيت ذكرى تفلت منها. ثم استأنفت: «إذًا، كنت تعرفها؟».

- كان لديَّ أصدقاء بالقرب من أسبريمون، كنت ألتقيها عندهم. في المرة الأخيرة، بدت لي أكثر حزنًا، أكثر شحوبًا، وعندما عدت...

- كان كل شيء قد انتهى، أليس كذلك؟ نعم، رحلت بسرعة كبيرة، في غضون بضعة أسابيع. وبقيتُ وحدي مع جيران كانوا يرعونها، وفي صباح أحد الأيام حملوها بعيدًا. وفي مساء ذلك اليوم، بينما كنتُ نائمة، جاء شخص ما وحملني بين ذراعيه، ولفني ببطانيات.

- رجل؟!

- نعم، رجل. كان يتحدث إليَّ بصوت منخفض، بلطفٍ كبير. كان صوته يريحني، وفي أثناء اصطحابي على الطريق، ثم في السيارة ليلًا، كان يهدئني ويحكي لي قصصًا. الصوت نفسه، الصوت نفسه...

توقفت تدريجيًا، وعادت تنظر إليه مرة أخرى، بعمقٍ أكبر وبجهدٍ واضح لالتقاط الانطباع العابر الذي كان يلمسها من حين لآخر. قال لها: «وبعد ذلك؟ إلى أين اصطحبكِ؟».

- هنا، ذاكرتي مشوشة. إنه كما لو كنتُ قد نمت لعدة أيام، أجد نفسي فقط في بلدة فاندي حيث قضيت النصف الثاني من طفولتي، في

مونتيغو، عند الأب والأم إيزيرو، أناس طيبون أطعموني وربوني. لن أنسى أبدًا تفانيهما وحنانهما.

- وهما ماتا أيضًا؟

- نعم، بوباء حمى التيفويد في المنطقة، لكنني لم أعرف إلا في وقت لاحق. منذ بداية مرضهما، اصطُحِبت كما حدث في المرة الأولى، وفي الظروف نفسها، ليلًا، من قِبل شخص ما لفَّني أيضًا ببطانيات. فقط، كنت أكبر سنًا، قاومت، أردت أن أصرخ، واضطر إلى إغلاق فمي بوشاح.

- كم كان عمرك؟

- أربعة عشر عامًا. مَرَّ على ذلك أربع سنوات.

- إذًا، هل يمكنك التعرف على هذا الرجل؟

- لا، هذا الشخص كان يُخفي نفسه أكثر، ولم يقل لي كلمة واحدة. ومع ذلك، لطالما اعتقدت أنه كان الشخص نفسه، لأنني احتفظت بذكرى الاهتمام نفسه، الإيماءات الحريصة نفسها، والمليئة بالحذر.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، كما في الماضي، هناك نسيان، نوم. هذه المرة، كنت مريضة على ما يبدو، أُصبت بالحمى، واستيقظتُ في غرفة مبهجة ومشرقة. سيدة ذات شعر أبيض انحنت عليَّ وابتسمت لي. إنها جدتي، والغرفة هي تلك التي أشغلها هناك في الأعلى.

كانت قد استعادت وجهها السعيد وتعبيرها الجميل المشرق، وأنهت كلامها مبتسمة: «وهكذا وجدتني السيدة إرنمون ذات مساء عند عتبة بابها، نائمة كما يبدو، واحتضنتني، وأصبحت جدتي. وبعد بعض المواقف، تذوقت الفتاة الصغيرة من إرنمون أفراح الحياة الهادئة، وتُعلِّم الحساب والقواعد للفتيات المتمردات أو الكسلانات. ولكنهن يحببنها كثيرًا».

كانت تتحدث بمرح، بنبرةٍ هي مزيج من التفكير والبهجة، وكان يبدو فيها توازن الفتاة العاقلة. استمع سيرنين إليها بدهشة متزايدة، دون محاولة إخفاء اضطرابه. ثم سألها: «هل سمعتِ شيئًا عن هذا الرجل منذ ذلك الحين؟».

- مطلقًا.

- وهل ستكونين سعيدة لرؤيته مرة أخرى؟

- نعم، سعيدة جدًّا.

- حسنًا، آنسة.

ارتعشت جنفييف وقالت: «أنت تعرف شيئًا، ربما تعرف الحقيقة».

- لا، لا. فقط...

نهض وسار في الغرفة. من حين لآخر كانت نظرته تتوقف عند جنفييف، وكان يبدو وكأنه على وشك الرد بكلمات أكثر دقة على السؤال المطروح عليه. هل سيتحدث؟ كانت السيدة إرنمون تنتظر بفارغ الصبر كشف هذا السِّر الذي قد تعتمد عليه راحة الفتاة الشابة. عاد للجلوس بجانب جنفييف، وبدا مترددًا مرة أخرى، وأخيرًا قال لها: «لا، لا. جاءتني فكرة، ذكرى».

- ذكرى! ماذا؟

- كنت مخطئًا. كانت هناك تفاصيل في قصتك أدت إلى خطئي.

- هل أنت متأكد؟

تردد مرة أخرى، ثم أكَّد: «بالتأكيد». قالت بخيبة أمل: «آه! لقد ظننت أنني فهمت، أنك تعرف...».

لم تُكمل، منتظرة جوابًا عن السؤال الذي كانت تسأله، دون جرأة لطرحه بالكامل. ثم ساد صمتٌ، ثمَّ، دون إصرار أكثر، انحنت نحو السيدة إرنمون: «جدتي، يجب أن تكون الفتيات في السرير، ولكن لا يمكن لأي منهن النوم قبل أن أقبِّلها».

مدت يدها نحو الأمير: «شكرًا مرة أخرى».

قال بسرعة: «هل ستغادرين؟».

- عذرًا؛ سترافقك جدتي.

انحنى أمامها وقبَّل يدها. عند فتح الباب، استدارت وابتسمت، ثم اختفت. استمع الأمير إلى صوت خطواتها وهي تبتعد، ولم يتحرك. كان وجهه شاحبًا من العاطفة. قالت السيدة العجوز: «حسنًا، لم تتحدث!».

- لا.

- والسر؟!

- لاحقًا. اليوم... إنه أمر غريب، لم أستطع.

- هل كان الأمر صعبًا لهذه الدرجة؟ ألم تشعر هي أنك الشخص الغريب الذي حملها مرتين؟ كانت كلمة واحدة ستكفي.

- لاحقًا، لاحقًا. (قال مستعيدًا كل ثقته) تفهمين جيدًا، هذه الفتاة بالكاد تعرفني؛ يجب أولًا أن أكتسب محبتها ومودتها. عندما أعطيها الحياة التي تستحقها، حياة رائعة، كما في الحكايات، سأتحدث حينها.

هزَّت السيدة العجوز رأسها: «أخشى أن تكون مخطئًا، جنفييف ليست بحاجة إلى حياة رائعة. لديها أذواق بسيطة».

- لديها أذواق كل النساء. والثروة والرفاهية والقوة توفر أفراحًا لا تحتقرها أيٌّ منهن.

- بلى، جنفييف تحتقر كل هذا، والأجدر بك أن ...

- سنرى. الآن، دعيني أتصرف، وكوني مطمئنة. ليست لديَّ نية على الإطلاق -كما تقولين- لإدماج جنفييف في مكايدي. بالكاد ستلاحظني، ولكن كان يجب أن أبدأ التواصل، وقد حدث ذلك. وداعًا.

خرج من المدرسة، واتجه نحو سيارته. كان سعيدًا للغاية: «إنها ساحرة، وطيبة جدًّا، وجادة! ولها عينا والدتها، تلك العينان اللتان كانتا تلمسانني حتى الدموع. يا إلهي، كم هذا بعيد! وكم هي ذكرى جميلة، حزينة قليلًا، ولكن جميلة جدًّا!».

وقال بصوت عالٍ: «بالطبع نعم، سأهتم بسعادتها، وعلى الفور! ومن هذه الليلة! تمامًا، بداية من هذه الليلة، سأجد لها عريسًا! بالنسبة إلى الفتيات الشابات، أليس هذا هو شرط السعادة؟!».

الفصل الرابع

وجد سيارته على الطريق الرئيسي، قال لأوكتاف: «إلى منزلي!».

في منزله طلب اتصال في بلدة نويي، واتصل بأحد أصدقائه الذي كان يسميه الطبيب، ثم ارتدى ملابسه.

تناول العشاء في النادي في شارع كامبون، قضى ساعة في الأوبرا، ثم عاد إلى سيارته.

- اذهب بي إلى نويي يا أوكتاف! نحن ذاهبون لإحضار الطبيب. كم الساعة؟

- الساعة العاشرة والنصف.

- يا له من وقت متأخر! أسرع!

بعد عشر دقائق، توقفت السيارة عند نهاية شارع إنكيرمان، أمام فيلا معزولة. بعد إشارة بوق السيارة، نزل الطبيب. سأله الأمير: «هل الشخص جاهز؟».

- مربوط، وجاهز.

- في حالة جيدة؟

- ممتازة. إذا حدث كل شيء -كما أخبرتني عَبْر الهاتف- فلن تلاحظ الشرطة شيئًا.

- هذا واجبها. لنحمله.

نقلوا إلى السيارة نوعًا من الكيس الطويل الذي كان على شكل شخص، وبدا ثقيلًا إلى حد ما. قال الأمير: «إلى فرساي يا أوكتاف، شارع فيلاين، أمام فندق الإمبراطوريين».

قال الطبيب: «لكنه فندق مشبوه، أنا أعرفه».

- لمن تقول هذا! العمل سيكون صعبًا، على الأقل بالنسبة إليَّ. لكن بحق السماء، لن يأخذ أحد مكاني! من قال إن الحياة رتيبة!

فندق الإمبراطوريين، ممر موحل، ثم درجتان للنزول، وممر تضيئه لمبة. ضرب سيرنين بقبضته على باب صغير. ظهر خادم الفندق، كان فيليب نفسه الذي أعطاه سيرنين الأوامر صباحًا بشأن جيرار بوبريه. سأله الأمير: «ما زال هناك؟».

- بلى.

- والحبل؟

- العقدة جاهزة.

- لم يتلقَّ التليغراف الذي كان ينتظره؟

- ها هو ذا، لقد اعترضتُ وصوله إليه.

أخذ سيرنين الورقة الزرقاء وقرأ، ثم قال برضا: «رائع، لقد كان الوقت مناسبًا. كانوا يخبرونه عن شيك بقيمة ألف فرنك غدًا. حسنًا، الحظ يبتسم لي. قبل منتصف الليل بربع ساعة، في غضون ربع ساعة سيُلقي هذا المسكين بنفسه إلى الأبدية. قُدنِي يا فيليب. ابقَ هنا يا دكتور!».

أخذ الخادم الشمعة. صعدا إلى الطابق الثالث، وسارا على أطراف أصابعهما في ممر منخفض ورائحته كريهة، مليء بغرف علوية، وينتهي بسلم خشبي تتعفن عليه بقايا سجادة. سأل سيرنين: «هل يمكن لأحد أن يسمعني؟».

- لا أحد. الغرفتان معزولتان. لكن لا تخطئ، إنه في الغرفة اليسرى.

- جيد. الآن، انزل. في منتصف الليل، أنت، والطبيب، وأوكتاف، ستُحضِرون الشخص إلى حيث نحن الآن، وتنتظرون.

كان السلم الخشبي يحتوي على عشر درجات، صعدها الأمير بحذر شديد. في الأعلى، ممر وبابان. استغرق سيرنين خمس دقائق طويلة لفتح الباب

الأيمن دون أن يصدر أي صوت يكسر الصمت. كان هناك ضوء يتلألأ في ظلام الغرفة، تقدم بحذر حتى لا يصطدم بأحد الكراسي في أثناء اتجاهه نحو هذا الضوء. كان قادمًا من الغرفة المجاورة، ويتسربُ عَبر باب زجاجي مغطى بقطعة قماش.

أزاح الأمير هذه القطعة. كانت الزجاجات معتمة، لكنها مخدوشة في بعض الأمكنة، بحيث إنه وبوضع عينه، يمكنه بسهولة رؤية كل ما يحدث في الغرفة الأخرى. كان هناك رجل، رآه من الأمام، جالسًا أمام طاولة.

كان الشاعر جيرار بوبريه. كان يكتب على ضوء شمعة، فوقه كان يتدلى حبل معقود على خطاف مثبت في السقف. في نهاية الحبل، كانت هناك عقدة تتدلى. سمع صوتًا خفيفًا لساعة المدينة. فَكر سيرنين: «منتصف الليل إلا خمس دقائق. خمس دقائق أخرى». كان الشاب يكتب. بعد لحظة، وضع قلمه، رتَّب الأوراق العشر أو الاثنتي عشرة التي كتبها في الحبر، وبدأ بقراءتها. لم يبدُ أن القراءة أعجبته، لأن تعبيرًا عن الاستياء ظهرَ على وجهه. مزَّق مخطوطته، وأحرق القطع في لهب الشمعة. ثم بيدٍ محمومة، كتب بضع كلمات على ورقة بيضاء، وقَّعها بعنف ونهض. لكن عندما رأى الحبل على بعد بوصات من رأسه، جلس مجددًا برعشة من الرعب. كان سيرنين يرى بوضوح وجهه الشاحب، ووجنتيه النحيفتين اللتين يضغط عليهما بقبضتيه. انزلقت دمعة واحدة فقط، ببطء وحزن. كانت عيناه مثبتتين على الفراغ، عينان مليئتان بالحزن، وكأنهما تريان الهاوية المهيبة بالفعل.

الفصل الخامس

مضت تسع عشرة ثانية، عشرون ثانية رهيبة، أبدية. انتفض الجسد انتفاضتين أو ثلاثًا. بَحَثَت الساقان غريزيًّا عن نقطة ارتكاز. لم تعد هناك أي حركة الآن. بضع ثوانٍ أخرى، وفُتِح الباب الزجاجي الصغير. دخل سيرنين، دون أي عجلة، أمسك بورقة حيث وضع الشاب توقيعه، وقرأ:

«أنا متعب جدًا من الحياة، ومريض. أنا بلا مال وبلا أمل، لذا قتلت نفسي. لا تتهموا أحدًا بقتلي.

30 أبريل، جيرار بوبريه».

أعاد الورقة إلى الطاولة، وضعها في مكان واضح للعيان، قرَّب الكرسي، ووضعه تحت قدمي الشاب. هو نفسه تسلق الطاولة، وبينما كان يمسك الجسد بقوة، رفعه، وسَّع العقدة المنزلقة وأخرج الرأس. انحنى الجسد بين ذراعيه، تركه ينزلق على طول الطاولة وقفز إلى الأرض، ومدده على السرير. ثم وبالهدوء المعتاد نفسه فتح باب الخروج قليلًا. همس: «هل أنتم هنا؟». بالقرب منه، عند أسفل السلم الخشبي، أجاب شخص ما: «نحن هنا. هل يجب أن نحمل ما معنا؟».

- نعم.

أخذ الشمعدان وأضاء لهم. صعد الرجال الثلاثة السُّلم بصعوبة وهم يحملون الكيس الذي كان الرجل مربوطًا بداخله. قال مشيرًا إلى الطاولة: «ضعوه هنا». باستخدام سكين جيب، قطع الحبال التي كانت تحيط بالكيس. ظهرت ملاءة بيضاء أزاحها. كانت هناك جثة في هذه الملاءة، جثة بيير ليدوك. قال سيرنين: «مسكين بيير ليدوك، لن تعرف أبدًا ما خسرته بموتك

في سنٍ مبكرة! كنت سأقودك بعيدًا يا رجل. حسنًا، سنتدبر أمورنا دون خدماتك. هيا فيليب، اصعد على الطاولة، وأنتَ أوكتاف، على الكرسي. ارفعا رأسه وأدخلا العقدة المنزلقة». بعد دقيقتين، كان جسد بيير ليدوك يتأرجح في نهاية الحبل: «ممتاز، الأمر ليس صعبًا، استبدال جثث. الآن يمكنكم جميعًا الانصراف. أنت، أيها الطبيب، ستعود إلى هنا غدًا صباحًا، ستبلغ عن انتحار السيد جيرار بوبريه، هل تسمع! جيرار بوبريه، وهذه رسالة وداعه. ستستدعي الطبيب الشرعي ومفتش الشرطة، وستتدبر أمرك بحيث لا يلاحظ أيٌّ منهما أن المتوفى لديه إصبع مقطوعة وندبة على خده».

- الأمر سهل.

- وستتأكد من كتابة المحضر على الفور، وتحت إملائك.

- الأمر سهل.

- أخيرًا، تجنب إرسال الجثة إلى المشرحة، واحصل على تصريح الدفن فورًا.

- الأمر أقل سهولة.

أشار إلى الشاب الممدد بلا حراك على السرير: «هل فحصت هذا؟». أكد الطبيب: «نعم، التنفس يعود إلى طبيعته. لكننا كنا نخاطر كثيرًا. كان من الممكن أن يتأثر الشريان السباتي».

- من لا يخاطر لا يربح. بعد كم من الوقت سيستعيد وعيه؟

- خلال بضع دقائق.

- حسنًا. آه! لا ترحل أيها الطبيب، ابق في الأسفل. دورك لم ينتهِ بعد هذا المساء.

بقي الأمير وحده، أشعل سيجارة ودخن بهدوء، نافثًا حلقات صغيرة من الدخان الأزرق نحو السقف. خرج نَفَسه تنهُّدًا بسبب شروده. اقترب من السرير، بدأ الشاب يتحرك، وكان صدره يرتفع وينخفض بعنف، كنائم تحت تأثير كابوس. وضع يديه على حلقه كما لو كان يشعر بألم، وهذه الحركة جعلته ينهض فجأة، مرعوبًا، لاهثًا.

ثم رأى أمامه، سيرنين. همس دون فهم: «أنت! أنت!».

كان ينظر إليه بنظرة غبية، كما لو كان ينظر إلى شبح. مرة أخرى لمس حلقه، تحسس عنقه، رقبته. وفجأة أطلق صرخة خشنة، جنون الرعب وسَّع عينيه، جعل شعر رأسه يقف، وهزَّ كيانه بأكمله كورقة شجر! اختفى الأمير من أمامه، فرأى جيرار في نهاية الحبل الرجل المشنوق! تراجع حتى الجدار. هذا الرجل، هذا المشنوق، كان هو! كان هو نفسه. كان ميتًا، رأى نفسه ميتًا! حلم مروِّع يأتي بعد الموت؟! هلوسة أولئك الذين لم يعودوا موجودين، والذين ما زال دماغهم المضطرب ينبض ببقايا الحياة؟ تخبطت ذراعاه في الهواء. للحظة بدا وكأنه يدافع عن نفسه ضد الرؤية البغيضة. ثم منهكًا، مهزومًا. فقد الوعي للمرة الثانية.

ضحك الأمير بسخرية: «رائع، طبيعة حساسة، قابلة للتأثر. حاليًّا، الدماغ خارج مداره. حسنًا، اللحظة مناسبة، لكن إذا لم أنهِ الأمر في عشرين دقيقة، سيفلت مني».

دفع الباب الذي يفصل بين الغرفتين العلويتين، عاد إلى السرير، حمل الشاب، ونقله إلى سرير الغرفة الأخرى، ثم بلل جبينه بالماء البارد وجعله يستنشق أملاحًا منعشة. هذه المرة، لم تدم الغشية طويلًا. فتح جيرار عينيه ببطء، ورفع نظره نحو السقف. انتهى الحلم. لكن ترتيب الأثاث، وموقع الطاولة والمدفأة، وبعض التفاصيل الأخرى، كل ذلك فاجأه، ثم تذكر فعلته، والألم الذي شعر به في حلقه. قال للأمير: «لقد كان حلمًا، أليس كذلك؟».

- لا.

- كيف لا؟

وفجأة، متذكرًا: «آه! صحيح، أتذكر الآن. أردت الموت، وحتى...». انحنى بقلق: «لكن الباقي؟! الحلم؟».

- أي حلم؟

- الرجل، الحبل. هذا كان حلمًا؟

أكد سيرنين: «لا، هذا أيضًا كان حقيقة».

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟! أوه! لا، لا. أرجوك، أيقظني إن كنت نائمًا، أو دعني أمُت! لكنني ميت، أليس كذلك؟ وهذا كابوس جثة، آه! أشعر بأن عقلي يفارقني. أرجوك!

وضع سيرنين يده برفق على شعر الشاب، وانحنى نحوه: «اسمعني، اسمعني جيدًا، وافهم. أنت حي، جسدك وعقلك متطابقان وحيَّان، لكن جيرار بوبريه مات. أنت تفهمني، أليس كذلك؟ الكائن الاجتماعي الذي كان يُدعى جيرار بوبريه لم يعد موجودًا، لقد ألغيته أنت. غدًا، في سجلات الحالة المدنية، أمام هذا الاسم الذي كنت تحمله، سيُكتب «متوفى» وبجواره تاريخ وفاتك».

تَمتَم الشاب مرعوبًا: «كذب! كذب! هأنذا، أنا، جيرار بوبريه!».

- أنت لست جيرار بوبريه.

وأشار إلى الباب المفتوح: «جيرار بوبريه هناك، في الغرفة المجاورة. هل تريد رؤيته؟ إنه مُعَلَّق على المسمار الذي علَّقته عليه. على الطاولة توجد الرسالة التي وقعت بها على موته. كل هذا مرتب تمامًا، كل هذا نهائي. لا يمكن العودة عن هذه الحقيقة الحاسمة والوحشية؛ جيرار بوبريه لم يعد موجودًا!».

كان الشاب يستمع بذهول، وقد أصبح أكثر هدوءًا الآن، حيث بدأت الحقائق تأخذ معنىً أقل مأسوية، وبدأ يفهم: «وماذا بعد؟».

- وماذا بعد؟ دعنا نتحدث.

- نعم، نعم. لنتحدث.

قال الأمير: «هل تريد سيجارة؟ هل تقبل؟ آه! أرى أنك تتمسك بالحياة. هذا أفضل، سنتفاهم، وبسرعة».

أشعل سيجارة الشاب، ثم سيجارته. وعلى الفور، وبكلمات قليلة، وبصوت جاف، شرح: «المرحوم جيرار بوبريه، لقد كنت متعبًا من الحياة، مريضًا، بلا مال، وبلا أمل. هل تريد أن تكون بصحة جيدة، وغنيًّا، وقويًّا؟».

- لا أفهم.

- الأمر بسيط جدًّا. لقد وضعك القدر في طريقي، أنت شاب، وسيم، شاعر، ذكي -كما تثبت حالة اليأس والانتحار- وذو نزاهة جميلة. هذه صفات نادرًا ما تجتمع معًا. أنا أقدِّرها، وآخذها على عاتقي.

- إنها ليست للبيع.

- أحمق! من يتحدث عن البيع أو الشراء! احتفظ بضميرك. هناك جوهرة ثمينة جدًّا، أريد أن أسلمها لك.

- إذًا، ماذا تطلب مني؟

- حياتك!

وأشار إلى حلق الشاب الذي ما زال مجروحًا: «حياتك! حياتك التي لم تعرف كيف تستخدمها! حياتك التي أضعتها، فقدتها، دمرتها، والتي أدَّعي أنني سأُعيد صنعها. أنا، سأصنعها كنموذج من الجمال والعظمة والنبل سيصيبك بالدوار، يا صغيري! لو لمحت الهاوية التي تغوص فيها فكرتي السرية...».

أمسك برأس جيرار بين يديه، واستمر بحماس ساخر: «أنت حر! لا قيود! لم تعد تحمل عبء اسمك! لقد محوت هذا الرقم التسلسلي الذي طبعه المجتمع عليك كوسم حديدي على الكتف. أنت حر! في هذا العالم من العبيد حيث يحمل كل شخص بطاقته، يمكنك إمَّا أن تذهب وتأتي مجهولًا، غير مرئي، كما لو كنت تمتلك خاتم جيجيس[1]، وإمَّا أن تختار بطاقتك، تلك التي تعجبك! هل تفهم؟ هل تفهم الكنز الرائع الذي تمثله لفنان؟ لنفسك إذا أردت؟ حياة عذراء، جديدة تمامًا! حياتك هي شمع يحق لك تشكيله كما تشاء، وفقًا لنزوات خيالك أو نصائح عقلك».

أصدر الشاب إيماءة تعب: «آه! ماذا تريدني أن أفعل بهذا الكنز؟ ماذا فعلت به حتى الآن؟ لا شيء».

- أعطني إياه.

- ماذا يمكنك أن تفعل به؟

- كل شيء. إذا لم تكن فنانًا، فأنا كذلك! ومتحمس، لا أنضب، لا أُقهر. إذا لم تكن لديك النار المقدسة، فأنا لديَّ! حيث فشلت أنت، سأنجح أنا! أعطني حياتك.

صاح الشاب الذي بدأ وجهه يتحرك: «كلمات، وعود! أحلام فارغة! أعرف جيدًا ما أساوي! أعرف جُبني وإحباطي وجهودي التي تفشل، أعرف كل بؤسي. لإعادة بدء حياتي، سأحتاج إلى إرادة ليست لديَّ».

- لديَّ إرادتي.

---

(1) خاتم جيجيس هو خاتم سحري افتراضي، ذكره الفيلسوف أفلاطون في الكتاب الثاني من جمهوريته. يمنح الخاتم صاحبه القدرة على أن يصبح غير مرئي حسب الرغبة. (المترجم)

- ولا أصدقاء.
- سيكون لديك!
- ولا موارد.
- أحضرها لك، أي موارد! ستحتاج فقط إلى الاغتراف منها، كما لو كنت تغترف من صندوق سحري.

صرخ الشاب بارتباك: «لكن من أنت إذًا؟».

- بالنسبة إلى الآخرين، أنا الأمير سيرنين. بالنسبة إليك، ما أهمية ذلك؟! أنا أكثر من أمير، أكثر من ملك، أكثر من إمبراطور.

تَمتَم بوبريه: «من أنت؟ من أنت؟».

- أنا السيد، ذاك الذي يريد ويستطيع، ذاك الذي يفعل. لا حدود لإرادتي، ولا حدود لقوتي. أنا أغنى من أغنى الأغنياء، لأن ثروته ملكٌ لي. أنا أقوى من أقوى الأقوياء، لأن قوتهم في خدمتي.

أمسك برأسه مرة أخرى، وغرز نظره فيه: «كن غنيًّا أيضًا، كن قويًّا. إنها السعادة التي أقدمها لك، إنها متعة الحياة، إنه السلام لعقلك الشاعر، إنه المجد أيضًا. هل تقبل؟».

تَمتَم جيرار، مبهورًا، وتحت سيطرته: «نعم. نعم. ماذا عليَّ أن أفعل؟».

- لا شيء.
- بعد كل هذا؟!
- لا شيء، أقول لك. كل بناء مشاريعي يعتمد عليك، لكنك لا تُحسب. ليس عليك أن تلعب دورًا نشطًا. أنت، في الوقت الحالي، مجرد كومبارس. ليس ذلك حتى! أنت بيدق أحركه على رقعة شطرنج.
- ماذا سأفعل؟
- لا شيء، اكتب الشعر! ستعيش كما تشاء، سيكون لديك المال، ستستمتع بالحياة. لن أهتم حتى بك. أكرر لك، أنت لا تلعب دورًا في مغامرتي.
- ومن سأكون؟

مدَّ سيرنين ذراعه، وأشار إلى الغرفة المجاورة: «ستأخذ مكان ذلك الشخص، أنت هو».

ارتعش جيرار من التمرد والاشمئزاز: «أوه لا! ذلك الشخص ميت. وبعد ذلك، إنها جريمة. لا، أريد حياة جديدة، مصنوعة لي، متخيلة لي. اسمًا غير معروف».

صرخ سيرنين بقوة لا تقاوم من السيطرة والسلطة: «ذلك الشخص، أقول لك ستكون ذلك الشخص وليس أي شخص آخر! ذلك الشخص، لأن مصيره رائع، لأن اسمه مشهور، لأنه ينقل لك إرثًا من النبل والفخر يمتد لعشرة قرون».

تأوه بوبريه، منهارًا تمامًا: «إنها جريمة». نطق سيرنين بعنف غير مسبوق: «ستكون ذلك الشخص، ذلك الشخص! وإلا ستعود بوبريه، وعلى بوبريه، أمتلك أنا حق الحياة أو الموت. اختر». سحب مسدسه، جهَّزه وصوبه نحو الشاب، وكرر: «اختر!».

كانت تعابير وجهه لا ترحم. شعر جيرار بالخوف، وانهار على السرير باكيًا: «أريد أن أعيش!».

- هل تريد ذلك بحزم؟ بشكل لا رجعة فيه؟
- نعم، ألف مرة نعم! بعد الشيء الفظيع الذي حاولته، الموت يرعبني. أي شيء، أي شيء بدلًا من الموت! أي شيء! المعاناة، الجوع، المرض، كل التعذيب، كل الخزي. حتى الجريمة، إذا لزم الأمر. ولكن ليس الموت.

كان يرتجف من الحمى والقلق، كما لو أن العدو الكبير ما زال يحوم حوله وأنه يشعر بالعجز عن الهروب من قبضة مخالبه. ضاعف الأمير جهوده، وبصوت متوهج، ممسكًا به تحته كفريسة: «لا أطلب منك شيئًا مستحيلًا، ولا شيئًا سيئًا. إذا كان هناك أي شيء، فأنا المسؤول عنه. لا، لا توجد جريمة؛ يوجد قليل من المعاناة، على الأكثر، القليل من دمك سيسيل. لكن ما هذا مقارنة بالخوف من الموت؟».

- المعاناة لا تهمني.

صاح سيرنين: «إذًا، الآن مباشرة! الآن مباشرة! عشر ثوانٍ من المعاناة، وسيكون هذا كل شيء. عشر ثوانٍ، وستكون حياة الآخر ملكك». كان قد أمسك بذراعيه، وانحنى على كرسي، كان يمسك يده اليسرى المسطحة على الطاولة، والأصابع الخمسة متباعدة. بسرعة أخرج سكينًا من جيبه، وضع حدَّها على

الإصبع الصغيرة، بين المفصل الأول والثاني، وأمره: «اضرب! اضرب بنفسك! ضربة واحدة وهذا كل شيء!».

كان قد أمسك بيده اليمنى، وحاول إنزالها على الأخرى كمطرقة. تلوى جيرار، متشنجًا من الرعب. فهم.

تلعثم: « لا! لا!».

- اضرب! ضربة واحدة وانتهى الأمر، ضربة واحدة، وستكون مثل هذا الرجل، لن يتعرف عليك أحد.

- اسمه؟

- اضرب أولًا.

- لا! يا له من عذاب. أرجوك، لاحقًا!

- الآن! أريد ذلك، يجب ذلك.

- لا، لا، لا أستطيع.

- اضرب إذًا، أيها الأحمق، إنها الثروة، المجد، الحب.

رفع جيرار قبضته، وقال باندفاع: «الحب... نعم، من أجل ذلك، نعم!». نطق سيرنين: «ستحِب وستحَب. خطيبتك تنتظرك، أنا من اخترتها. إنها أنقى من أنقى الفتيات، أجمل من أجمل الفتيات. لكن عليك أن تفوز بها. اضرب!».

تصلبت الذراع استعدادًا لهذه الحركة العنيفة، لكن الغريزة كانت أقوى. تشنجت طاقة خارقة في الشاب، فجأة كسر قبضة سيرنين وهرب. ركض كالمجنون نحو الغرفة الأخرى. أفلتت منه صرخة رعب عند رؤية المشهد البغيض، وعاد ليسقط بجانب الطاولة، راكعًا أمام سيرنين.

قال الأخير هذا وهو يبسط الأصابع الخمسة مرة أخرى، ويضع نصل السكين: «اضرب!».

كان الأمر آليًّا. بحركة آلية، عينان جاحظتان، ووجه شاحب، رفع الشاب قبضته وضرب.

قال، وهو يئن من الألم: «آه!». قفزت قطعة اللحم الصغيرة. كان الدم يسيل. فقد الوعي للمرة الثالثة. نظر إليه سيرنين لبضع ثوانٍ وقال بهدوء: «طفل مسكين! حسنًا، سأرد لك هذا، وبمئة ضعف. أنا دائمًا أدفع بسخاء».

نزل ووجد الطبيب في الأسفل: «انتهى الأمر. دورك الآن. اصعد واصنع له جرحًا في الخد الأيمن، مماثلًا لجرح بيير ليدوك. يجب أن تكون الندبتان متطابقتين. في غضون ساعة، سأعود لأخذه».

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لأتنفس الهواء النقي. تتسارع دقات قلبي.

في الخارج تنفس بعمق. أشعل سيجارة أخرى، ثم تَمتَم: «يوم جيد. مشحون قليلًا، متعب قليلًا، لكنه مثمر، مثمر حقًا. ها أنا صديق لزوجة كيسيلباخ. ها أنا صديق جنفييف. صنعت لنفسي بيير ليدوك جديدًا قابلًا تمامًا للعرض، وتحت طاعتي الكاملة. وأخيرًا، وجدت لجنفييف زوجًا لا يمكن العثور عليه كثيرًا. الآن، مهمتي انتهت. لم يبق لي سوى جني ثمار جهودي. إنه دورك يا سيد لينورمان، أنا جاهز». وأضاف، وهو يفكر في المشوه البائس الذي أبهره بوعوده: «لكن أنا لا أعرف من كان هذا البيير ليدوك الذي منحت مكانه بسخاء لهذا الشاب الطيب. وهذا مزعج، لأنه، في النهاية، لا شيء يثبت لي أن بيير ليدوك لم يكن ابن جزار!».

الجزء الرابع

انخراط السيد لينورمان في القضية

الفصل الأول

في صباح يوم 31 مايو، ذكرت جميع الصحف أن لوبين، في رسالة موجهة إلى السيد لينورمان، قد أعلن عن تهريب الحاجب جيروم في هذا التاريخ. وقد لخصت إحداها الوضع حتى ذلك اليوم بشكل جيد:

«تعود المذبحة الفظيعة في فندق بالاس إلى يوم 17 أبريل. ماذا اكتُشف منذ ذلك الحين؟ لا شيء. كانت لدينا ثلاثة أدلة: علبة السجائر، الحرفان L وM، وحزمة الملابس المنسية في مكتب الفندق. أي فائدة استُخلصت منها؟ لا شيء. يُشتبه، على ما يبدو، في أحد المسافرين الذين كانوا يقيمون في الطابق الأول، والذي يبدو اختفاؤه مريبًا. هل عُثِر عليه؟ هل حُددت هويته؟ لا. لذا، فإن الجريمة ما تزال غامضة كما كانت في الساعة الأولى، والظلام ما زال كثيفًا كما هو. لاستكمال هذه الصورة، يُقال إن هناك خلافًا بين مفوض الشرطة ومرؤوسه السيد لينورمان، وأن هذا الأخير، الذي لم يعد يحظى بدعم قوي من رئيس الوزراء، قد قدَّم استقالته فعليًّا منذ عدة أيام. سوف تُتَابع قضية كيسيلباخ من قبل نائب مدير الأمن، السيد ويبر، العدو الشخصي للسيد لينورمان. باختصار، إنها الفوضى والانحلال. في المقابل، هناك لوبين، أي المنهجية والطاقة وروح الاستمرار. ما استنتاجنا؟ سيكون موجزًا. سيحرر لوبين شريكه اليوم، 31 مايو، كما قال».

هذا الاستنتاج، الذي وُجد في جميع الصحف الأخرى، كان أيضًا ما تبناه الجمهور. ويبدو أن التهديد لم يكن دون تأثير في المستويات العليا أيضًا، لأنه في غياب السيد لينورمان، الذي قيل إنه مريض، اتخذ مفوض الشرطة، ونائب

مدير الأمن، السيد ويبر، أشد الإجراءات صرامة. سواء في قصر العدل[1] أو في سجن سانتيه حيث كان المتهم محتجزًا.

من باب الحياء، لم يجرؤوا على تعليق الاستجوابات اليومية للسيد فورميري في ذلك اليوم، ولكن من السجن إلى شارع القصر، كانت هناك تعبئة حقيقية لقوات الشرطة تحرس شوارع المسار. وأمام دهشة الجميع، مَرَّ يوم 31 مايو ولم يحدث الهروب المعلن. كان هناك بالفعل شيء ما، بداية تنفيذ تمثلت في ارتباك في حركة الترام والحافلات والشاحنات في أثناء مرور سيارة السجن، وتلف غير مفسر لإحدى عجلات هذه السيارة. لكن المحاولة لم تتجسد في أكثر من ذلك، كان ذلك إذًا فشلًا. كان الجمهور خائبًا تقريبًا، وانتصرت الشرطة بصخب. ومع ذلك، في اليوم التالي، السبت، انتشر خبر لا يصدق في الوزارة، وتناقلته مكاتب التحرير؛ لقد اختفى الحاجب جيروم. هل كان ذلك ممكنًا؟ على الرغم من أن الطبعات الخاصة أكدت الخبر، فإن الناس كانوا يرفضون تصديقه. لكن في الساعة السادسة، جعلته ملحوظة نُشرت في جريدة «ديبيش دو سوار» خبرًا رسميًّا:

«تلقينا البلاغ التالي المُوقع من أرسين لوبين. وفقًا للتعميم الذي أرسله لوبين مؤخرًا إلى الصحافة، مما يؤكد لنا صحة الوثيقة:

سيدي المدير،

أرجو أن تعتذر نيابة عني للجمهور لعدم الوفاء بكلمتي بالأمس. في اللحظة الأخيرة، أدركت أن 31 مايو هو يوم جمعة! هل كان بإمكاني، في يوم جمعة، منح الحرية لصديقي؟ لا أعتقد أنه يجب عليَّ تحمل مثل هذه المسؤولية.

أعتذر أيضًا عن عدم تقديم تفسيرات هنا، حول كيفية حدوث هذا الحدث الصغير. أسلوبي بارع

---

(1) قصر العدل (Palais de Justice) في باريس هو واحد من أقدم وأهم المباني القضائية في فرنسا. يقع على جزيرة إيل دو لا سيتي عند نهر السين، وهو موقع تاريخي كان يستخدم لأغراض قضائية منذ العصور الوسطى. (المترجم)

وبسيط للغاية لدرجة أنني أخشى، إذا كشفته، أن يستلهم منه باقي المجرمين. في اليوم الذي سأتحدث فيه عن حيلتي، سيتعجب الناس ويقولون: أهذا كل شيء؟! لا شيء أكثر من ذلك؟! الأمر ليس كبيرًا أو معقدًا، ولكن في الحقيقة، العبقرية تكمن في بساطتها وضرورة التفكير فيها.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، سيدي المدير.

التوقيع: أرسين لوبين».

بعد ساعة، تلقى السيد لينورمان مكالمة هاتفية؛ كان فالينغلاي رئيس الوزراء، يطلبه في وزارة الداخلية.

- كم تبدو بصحة جيدة، عزيزي لينورمان! وأنا الذي كنت أعتقد أنك مريض ولم أجرؤ على إزعاجك!

- لست مريضًا، سيدي الرئيس.

- إذًا، هذا الغياب كان غضبًا! لديك دائمًا هذا الطبع السيئ.

- أعترفُ أن لديَّ طبعًا سيئًا، سيدي الرئيس. لكنني لا أغضب، لا.

- لكنك تبقى في المنزل! ولوبين يستغل ذلك لإطلاق سراح أصدقائه.

- هل كان بإمكاني منعه؟

- كيف! لكن حيلة لوبين فجَّة. وَفقًا لأُسلوبه المعتاد، أعلن تاريخ الهروب، صدق الجميع ذلك، رُسِمت محاولة شبه وهمية، لم يحدث الهروب، وفي اليوم التالي، عندما لم يعد أحد يفكر فيه، فجأة، هرب الطائر.

قال مدير الأمن بجدية: «سيدي الرئيس، لوبين يمتلك وسائل تجعلنا غير قادرين على منع ما قرره. كان الهروب مؤكدًا. فضلتُ الانسحاب، وترك السخرية للآخرين».

ضحك فالينغلاي ساخرًا: «من الواضح أن السيد مفوض الشرطة، في الوقت الحالي، والسيد ويبر ليسا سعيدَين. ولكن هل يمكنك أن تشرح لي يا لينورمان؟».

- كل ما نعرفه، سيدي الرئيس، هو أن الهروب حدث في قصر العدل. أُحضِر المتهم في سيارة الزنزانة واصطحب إلى مكتب السيد فورميري، لكنه لم يخرج من قصر العدل. ومع ذلك لا نعرف ما حدث له.

- هذا مذهل.

- مذهل بالفعل.

- وهل اكتُشف أي شيء؟

- نعم. كان الممر الداخلي المحاذي لمكاتب التحقيق مزدحمًا بحشد غير معتاد من المتهمين والحُراس والمحامين والمحضرين، وعلمنا بعد ذلك أن جميع هؤلاء الأشخاص قد تلقوا استدعاءات مزيفة للمثول في الساعة نفسها. من ناحية أخرى، لم يأتِ أي من قضاة التحقيق الذين يُفترض أنهم استدعوهم إلى مكتبه في ذلك اليوم، وذلك بسبب استدعاءات كاذبة من مكتب المدعي العام، أرسلتهم إلى جميع أنحاء باريس وضواحيها.

- هذا كل شيء؟

- لا. لقد رأينا اثنين من حُراس البلدية ومتهمًا يعبرون الساحات. في الخارج، كانت هناك عربة تنتظرهم حيث صعد الثلاثة كلهم.

- وما هي فرضيتك يا لينورمان؟ ورأيك؟

- فرضيتي سيدي الرئيس، هي أن حُراس البلدية الاثنين كانا متواطئين؛ استغلا الفوضى في الممر، وحلا محل الحراس الحقيقيين. ورأيي هو أن هذا الهروب لم يكن ليحدث إلا في ظل ظروف خاصة جدًّا، ومجموعة من الوقائع الغريبة للغاية، بحيث يجب علينا أن نقبل كحقيقة مؤكدة وجود تواطؤ غير مقبول في قصر العدل، وفي أماكن أخرى، لدى لوبين روابط تُحبِط كل حساباتنا. لديه روابط في مديرية الشرطة، وحولي. إنه تنظيم رهيب، خدمة أمنية أكثر براعة وجرأة وتنوعًا ومرونة بألف مرة من تلك التي أديرها.

- وأنت تتحمل ذلك يا لينورمان!

- لا.
- إذًا، لماذا هذا الجمود منذ بداية هذه القضية؟ ماذا فعلت ضد لوبين؟
- لقد أعددت للمعركة.
- آه! رائع! وبينما كنت تعد، كان هو يتصرف.
- أنا أيضًا كنت أتصرف.
- وهل وصلت إلى شيء؟
- الكثير.
- ماذا؟ تكلم إذًا.

أجرى السيد لينورمان -وهو متكئ على عصاه- جولة تأملية صغيرة في الغرفة الواسعة. ثم جلس مقابل فالينغلاي، ونظف بأطراف أصابعه طيات معطفه الزيتوني، وثبَّت نظارته ذات الأذرع الفضية على أنفه، وقال له بوضوح: «سيدي الرئيس، لديَّ في قبضتي ثلاث أوراق رابحة. أولًا، أعرف الاسم الذي يختبئ تحته أرسين لوبين حاليًا؛ الاسم الذي كان يعيش به في شارع هوسمان، ويستقبل كل يوم من يتعاون معه، ويعيد تشكيل وتوجيه عصابته».

- ولكن إذًا، يا للعجب! لماذا لم تعتقله؟
- لم أحصل على هذه المعلومات إلا بعد فوات الأوان. منذ ذلك الحين، اختفى الأمير. لنضع بدلًا من اسمه ثلاث نجوم؛ إنه في الخارج لأعمال أخرى.
- وإذا لم يظهر مجددًا؟
- المنصب الذي يشغله، والطريقة التي تورط بها في قضية كيسيلباخ تتطلب أن يظهر مجددًا، وتحت الاسم نفسه.
- ومع ذلك...
- سيدي الرئيس، أصل إلى ورقتي الرابحة الثانية. لقد نجحت أخيرًا في العثور على بيير ليدوك.
- حقًا!

- أو بالأحرى، لوبين هو من عثر عليه، ولوبين هو من أسكنه، قبل اختفائه، في فيلا صغيرة في ضواحي باريس.

- يا إلهي! ولكن كيف عرفت؟

- أوه! بسهولة. وَضَع لوبين بالقرب من بيير ليدوك -كمراقبين ومدافعين- اثنين من متواطئيه. هؤلاء المتواطئان هما في الواقع يعملان لديَّ، أخوان أستخدمهما في سرية تامة، وسيسلمانه لي في أول فرصة.

- ممتاز! ممتاز! وبالتالي؟

- وبالتالي، بما أن بيير ليدوك هو -إن جاز التعبير- النقطة المركزية التي تتقارب حولها كل جهود أولئك الذين يبحثون عن سر كيسيلباخ الشهير، فبواسطة بيير ليدوك، سأحصل يومًا ما على: 1) مرتكب جريمة القتل الثلاثية. حيث إن هذا البائس قد حَلَّ محل السيد كيسيلباخ في تنفيذ مشروع عظيم، وغير معروف حتى الآن. وحيث إن السيد كيسيلباخ كان بحاجة للعثور على بيير ليدوك لتنفيذ هذا المشروع. 2) سأحصل على أرسين لوبين، حيث إن أرسين لوبين يسعى إلى الهدف نفسه.

- رائع. بيير ليدوك هو الطُّعم الذي تظهره للعدو.

- والسمكة تبتلع الطُّعم، سيدي الرئيس. لقد تلقيت للتو إشعارًا بأنهم رأوا شخصًا مشبوهًا يحوم حول الفيلا الصغيرة التي يشغلها بيير ليدوك، تحت حماية عميليَّ السريِّين. في غضون أربع ساعات، سأكون في الموقع.

- والورقة الرابحة الثالثة يا لينورمان؟

- سيدي الرئيس، وصلت بالأمس رسالة إلى عنوان السيد رودولف كيسيلباخ فاعترضتها.

- اعترضتها، أنت تتجاوز حدودك!

- فتحتها، واحتفظت بها لنفسي، ها هي ذي. إنها تعود لشهرين، مختومة من كيب تاون، وتحتوي على الكلمات التالية:

> *«صديقي العزيز رودولف، سأكون في باريس في الأول من يونيو، وما زلت بائسًا كما كنت عندما*

ساعدتني. لكنني آمل كثيرًا في قضية بيير ليدوك التي أخبرتك عنها. يا لها من قصة غريبة! هل عثرت عليه؟ أين وصلنا؟ أتوق لمعرفة ذلك.

التوقيع: صديقك المخلص، شتاينفيج».

واصل السيد لينورمان حديثة: «الأول من يونيو هو اليوم. لقد كلفت أحد مفتشيَّ بالعثور على هذا المدعو شتاينفيج، لا أشك في النجاح».

صاح فالينغلاي وهو ينهض: «ولا أنا أشك في ذلك. أقدم لك كل اعتذاراتي، عزيزي لينورمان، واعترافي المتواضع أني كنت على وشك التخلي عنك، بشكل كامل! غدًا، كنت أنتظر مفوض الشرطة والسيد ويبر».

- كنت أعرف ذلك، سيدي الرئيس.

- مستحيل.

- وإلا، لماذا كنت سأزعج نفسي؟ اليوم، أنت ترى خطتي الحربية. من جهة، أنصب فخاخًا سيقع فيها القاتل في النهاية؛ بيير ليدوك أو شتاينفيج سيسلمانه لي. من الجهة الأخرى، أحوم حول لوبين. اثنان من عملائه في خدمتي، وهو يعتقد أنهما من أكثر المتعاونين إخلاصًا له. علاوة على ذلك، إنه يعمل لصالحي، حيث إنه يلاحق، مثلي، مرتكب جريمة القتل الثلاثية. إنه فقط يتخيَّل أنه يخدعني، وأنا من يخدعه. لذلك، سأنجح، ولكن بشرط واحد.

- أي شرط؟

- أن تكون لي حرية التصرف، وأن أستطيع التصرف وَفق متطلبات اللحظة دون القلق بشأن الجمهور الذي ينفد صبره، ورؤسائي الذين يتآمرون ضدي.

- اتفقنا.

- في هذه الحالة، سيدي الرئيس، في غضون بضعة أيام سأكون منتصرًا.. أو سأكون ميتًا.

الفصل الثاني

داخل فيلا صغيرة تقع على إحدى أعلى نقاط الهضبة، على طول طريق قليل الاستخدام. إنها الساعة الحادية عشرة مساءً. ترك السيد لينورمان سيارته في سان كلو، واقترب بحذر متَّبعًا الطريق. ظهر ظل لشخص: «أهذا أنت يا جوريل؟».

- نعم، يا سيادة المدير.
- هل أخبرت الأخوين دوديفيل بوصولي؟
- نعم، غرفتك جاهزة، يمكنك الذهاب للنوم ما لم يحاولوا اختطاف بيير ليدوك هذه الليلة، وهو ما لن يفاجئني، بالنظر إلى تصرفات الشخص الذي رآه الأخوان دوديفيل.

عَبَرا الحديقة، دخلا بهدوء، وصعدا إلى الطابق الأول. كان الأخوان جان وجاك دوديفيل، هناك. سألهما: «ألا توجد أخبار عن الأمير سيرنين؟»،

- لا شيء، يا سيادة المدير.
- وبيير ليدوك؟
- يبقى مستلقيًا طوال اليوم في غرفته بالطابق الأرضي، أو في الحديقة. لن يصعد أبدًا لرؤيتنا.
- هل تحسنت حالته؟
- تحسنت كثيرًا. الحياة التي يعيشها الآن تُغيِّره بشكل ملحوظ.
- هل هو مخلص تمامًا للوبين؟

- للأمير سيرنين بالأحرى، لأنه لا يشك في أنهما شخص واحد. على الأقل، أفترض ذلك، لا يمكن معرفة أي شيء معه فهو لا يتحدث مطلقًا. آه! إنه شخص غريب الأطوار. هناك شخص واحد فقط لديه القدرة على تنشيطه وجعله يتحدث، بل ويضحك أيضًا. إنها فتاة من جارش، قدمها له الأمير سيرنين، اسمها جنفييف إرنمون. لقد جاءت ثلاث مرات بالفعل، حتى اليوم. أضاف مازحًا: «أعتقد أنهما يتغازلان قليلًا، وكذلك صاحب السمو الأمير سيرنين والسيدة كيسيلباخ. يبدو أنه يغازلها بعينيه! هذا اللوبين الماكر!».

لم يرد السيد لينورمان؛ كان من الواضح أن كل هذه التفاصيل التي لم يُبد أنه يهتم بها، كانت تُسجل في أعماق ذاكرته للوقت التي سيحتاج فيه إلى استخلاص الاستنتاجات المنطقية منها. أشعل سيجارًا، مضغه دون تدخينه، أعاد إشعاله ثم تركه يسقط. طرح سؤالين أو ثلاثة أسئلة أخرى، ثم ألقى بنفسه على السرير بملابسه: «إذا حدث أي شيء، أيقظوني، وإلا فأنا نائم. هيا، كلٌّ إلى موقعه».

خرج الآخرون. مَرَّت ساعة، ساعتان... فجأة، شعر السيد لينورمان أن شخصًا يلمسه، وقال له جوريل: «انهض يا سيادة المدير، لقد فُتِحت البوابة!».

- رجل واحد أم رجلان؟
- لم أرَ سوى واحد. ظهر القمر في تلك اللحظة، وانحنى خلف شجيرة.
- والأخوان دوديفيل؟
- أرسلتهما للخارج، من الخلف. سيقطعان عليه طريق الهروب عندما يحين الوقت.

أمسك جوريل بيد السيد لينورمان وقاده إلى الأسفل، ثم إلى غرفة مظلمة: «لا تتحرك يا سيدي، نحن في غرفة استحمام بيير ليدوك. سأفتح باب الغرفة التي ينام فيها. لا تخف، لقد تناول الفيرونال[1] كما يفعل كل مساء! لا شيء سيوقظه. تعال هنا، ألا ترى أن المخبأ جيد؟ إنها ستائر سريره. من هنا، يمكنك رؤية النافذة وكل جانب الغرفة من السرير إلى النافذة».

كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها، وكان ضوء خافت يتسلل، يصبح أكثر وضوحًا في اللحظات التي يَشُق القمر فيها حجاب السحب. لم يحول

(1) يُستعمل مسكنًا ومنومًا لأمد قصير. (المترجم)

الرجلان نظرهما عن إطار النافذة الفارغ، متأكدين أن الحدث المنتظر سيحدث من هناك. صوت خفيف، صرير! همس جوريل: «إنه يتسلق المعرش».

- ما ارتفاعه؟

- مترين، مترين ونصف.

أصبح الصرير أكثر وضوحًا. همس لينورمان: «اذهب يا جوريل، التقِ آل دوديفيل. أَعِدهما إلى أسفل الجدار، وسدوا الطريق على أي شخص ينزل من هنا».

ذهب جوريل. في اللحظة نفسها، ظهر رأس على حافة النافذة، ثم عَبَر ظل الشرفة. ميز السيد لينورمان رجلًا نحيفًا، أقصر من المتوسط، يرتدي ملابس داكنة، ودون قبعة. استدار الرجل وانحنى فوق الشرفة، ونظر لبضع ثوانٍ إلى الفراغ كما لو كان يتأكد من عدم وجود خطر يهدده. ثم انحنى وتمدد على الأرض. بدا ساكنًا. ولكن بعد لحظة، أدرك السيد لينورمان أن البقعة السوداء التي شكلها في الظلام كانت تتحرك، تقترب. وصلت إلى السرير. شعر أنه يسمع تنفس هذا الكائن، وحتى إنه يتخَّيل عينيه، عينين لامعتين، حادتين، تخترقان الظلام مثل شعاع من النار، ورآه، في هذا الظلام.

تنهد بيير ليدوك بعمق واستدار. عاد الصمت من جديد، كان الكائن قد انزلق على طول السرير بحركات غير محسوسة، وظهر الظل الداكن على بياض الملاءات المتدلية. لو مدَّ السيد لينورمان ذراعه، لكان لمسه. هذه المرة ميَّز بوضوح ذلك التنفس الجديد الذي كان يتناوب مع تنفس النائم، وتخيَّل أنه يسمع أيضًا صوت قلب ينبض. فجأة، ظهر شعاع من الضوء! كان الرجل قد ضغط زرَّ مصباح كهربائي، وأصبح وجه بيير ليدوك مضاءً تمامًا. لكن الرجل نفسه بقي في الظل، ولم يستطع السيد لينورمان رؤية وجهه. رأى فقط شيئًا يلمع في مجال الضوء، وارتعش. كان نصل سكين، وبدت له هذه السكين الرفيعة والدقيقة -أقرب إلى خنجر منها إلى سكين- مطابقةً للسكين التي التقطها بالقرب من جثة تشابمان، سكرتير السيد كيسيلباخ.

بكل إرادته، تمالك نفسه لئلا يقفز على الرجل. أراد أولًا أن يرى ما جاء ليفعله. ارتفعت اليد. هل ستضرب؟ حسب السيد لينورمان المسافة ليوقِف الضربة. لكن لا، لم تكن حركة قتل، بل حركة احتياط. إذا تحرك بيير ليدوك، إذا حاول أن يصرخ، ستهبط اليد. وانحنى الرجل نحو النائم، كما لو كان يفحص شيئًا ما.

فكر السيد لينورمان: «الخد الأيمن، الندبة على الخد الأيمن. يريد أن يتأكد من أنه بيير ليدوك بالفعل».

استدار الرجل قليلًا، بحيث لم يكن يُرى سوى كتفيه، لكن ملابسه ومعطفه كانا قريبين جدًّا لدرجة أنهما كانا يلامسان الستائر التي يختبئ خلفها السيد لينورمان. فكر لينورمان: «حركة واحدة منه، رعشة قلق واحدة، وسأمسك به».

لكن الرجل لم يتحرك، منشغلًا تمامًا بفحصه. أخيرًا، بعد أن نقل خنجره إلى اليد التي تحمل المصباح، رفع غطاء السرير، قليلًا في البداية، ثم أكثر قليلًا، ثم أكثر، بحيث انكشفت الذراع اليسرى للنائم وظهرت يده. أضاء شعاع المصباح هذه اليد، كانت أربع أصابع ممدودة. الإصبع الخامسة كانت مقطوعة عند السُّلامَى الثانية.

للمرة الثانية، تحرك بيير ليدوك. على الفور انطفأ الضوء، وظل الرجل لفترة بجانب السرير، ثابتًا، منتصبًا. هل سيقرر الضرب؟ شعر السيد لينورمان بقلق الجريمة التي يمكنه منعها بسهولة، لكنه لم يرد منعها إلا في اللحظة الأخيرة.

ساد صمت طويل، طويل جدًّا. فجأة، رأى -بشكل غير دقيق- ذراعًا ترتفع. غريزيًّا تحرك، مادًّا يده فوق النائم. في أثناء حركته، اصطدم بالرجل. ابتلع صرخة مكتومة. ضرب الشخص في الفراغ، دافع عن نفسه عشوائيًّا، ثم هرب نحو النافذة، لكن السيد لينورمان قفز عليه، وطوق كتفيه بذراعيه. على الفور، شعر به يستسلم، وأنه أضعف، عاجزٌ يحاول الإفلات من القتال والانزلاق من بين ذراعيه. بكل قوته ضغطه إليه، ثناه إلى نصفه، وألقاه على ظهره على الأرض. همس لينورمان منتصرًا: «آه! لقد أمسكت بك. أمسكت بك!». وشعر بنشوة غريبة وهو يحبس في قبضته التي لا تقاوم هذا المجرم المخيف، هذا الوحش الذي لا يوصف. شعر بالحياة والارتعاش، بالغضب واليأس، حياتاهما متشابكتان، أنفاسهما متداخلة. ثم قال: «من أنت؟ من أنت؟ ستضطر إلى التحدث!». وكان يضغط جسدَ العدو بقوة متزايدة، لأنه كان لديه انطباع بأن هذا الجسد يتضاءل بين ذراعيه، أنه يتلاشى. ضغط أكثر، وأكثر.

وفجأة، ارتعش من رأسه إلى أخمص قدميه. شعر بوخزة صغيرة جدًّا في حلقه. بغضبٍ، ضغط أكثر؛ زاد الألم. وأدرك أن الرجل قد نجح في ليِّ ذراعه، وتحريك يده إلى صدره ورفع خنجره. الذراع، بالطبع، كانت مشلولة،

ولكن كلما شدَّد السيد لينورمان قبضته، كانت نقطة الخنجر تدخل في اللحم. أمال رأسه قليلًا للهروب من هذه النقطة؛ أثرت الحركة في النقطة واتسع الجرح. حينها لم يتحرك، متأثرًا بذكرى الجرائم الثلاث، وكل ما تمثله هذه الإبرة الفولاذية الصغيرة نفسها من رعب وفظاعة، والتي كانت تثقب جلده، وتغرز نفسها أيضًا، بلا رحمة. بضربة واحدة، أفلته وقفز إلى الخلف. ثم على الفور، أراد استئناف الهجوم. فات الأوان! كان الرجل يعَبُر النافذة ويقفز.

صرخ لينورمان وهو يعلم أن جوريل كان هناك، مستعدًا لاستقبال الهارب: «انتبه يا جوريل!». انحنى.

صوت حصى يُسحَق، ظِلٌّ بين شجرتين، صوت طرقة البوابة، ولا صوت آخر. لا تدخل!

نادى دون أن يهتم ببيير ليدوك: «جوريل! دوديفيل!». لا إجابة. فقط الصمت الليلي العميق للريف.

رغمًا عنه، فكر مرة أخرى في جرائم القتل الثلاث، في الخنجر الفولاذي. لكن لا، كان ذلك مستحيلًا، لم يكن لدى الرجل الوقت للضرب، ولم يكن بحاجة إلى ذلك حتى، إذ وجد الطريق مفتوحًا. قفز بدوره، وفورَ تشغيل مصباحه تعرَّف على جوريل الذي كان ملقىً على الأرض. أَقْسَمَ: «اللعنة! إذا كان ميتًا، سيدفعون الثمن غاليًا».

لكن جوريل كان حيًّا، مصابًا بالدوار فقط. وبعد بضع دقائق، عاد إلى وعيِه، وتذمر: «لكمة واحدة يا رئيس. لكمة بسيطة في وسط الصدر. لكن أي رجل قوي هذا!».

- إذًا كانا اثنين؟

- نعم، واحد صغير صعد، ثم آخر فاجأني في أثناء مراقبتي.

- وآل دوديفيل؟

- لم أرهما.

وجدوا أحدهما (جاك) بالقرب من البوابة، ملطخًا بالدماء، فكُّه محطمًا. والآخر على بُعدٍ قليل، يلهث، وصدره مهشم. سأل السيد لينورمان: «ماذا؟ ما الأمر؟». روى جاك أنه وأخاه اصطدما بشخص أخرجهما من المعركة قبل أن يتمكنا من الدفاع عن نفسيهما.

- هل كان وحده؟

- لا، عندما مَرَّ بجانبنا مرة أخرى، كان برفقة زميل أصغر منه.
- هل تعرفت على من ضربك؟
- من البنية الجسدية، بدا لي أنه الإنجليزي من فندق بالاس، الذي غادر الفندق وفقدنا أثره.
- النقيب؟
- نعم، النقيب باربري.

الفصل الثالث

بعد لحظة تفكير، قال السيد لينورمان: «لم يعد هناك مجال للشك. كانا اثنين في قضية كيسيلباخ؛ الرجل صاحب الخنجر، الذي قتل. وشريكه، النقيب».

همس جاك دوديفيل: «هذا هو رأي الأمير سيرنين».

واصل مدير الأمن حديثه: «وهذه الليلة، كانا هما أيضًا. الاثنان نفسيهما». وأضاف: «هذا أفضل. لدينا فرصة أكبر مئة مرة للقبض على مجرمين اثنين بدلًا من واحد».

عالج السيد لينورمان رجاله، وضعهم في الفراش، وبحث فيما إذا كان المهاجمون قد فقدوا أي شيء أو تركوا أي أثر. لم يجد شيئًا، فذهب للنوم. في الصباح، وبما أن جوريل وآل دوديفيل لم يعانوا كثيرًا من إصاباتهم، أمر الأخوين بتمشيط المنطقة المحيطة، وغادر مع جوريل إلى باريس، لإنهاء أعماله وإصدار أوامره. تناول الغداء في مكتبه. في الساعة الثانية، تلقى خبرًا جيدًا. أحد أفضل عملائه، ديوزي، قد قبض على الألماني شتاينفيج، مراسل رودولف كيسيلباخ، عند نزوله من قطار قادم من مرسيليا. سأل: «هل ديوزي هنا؟». أجاب جوريل: «نعم، يا سيدي، إنه هنا مع الألماني».

- أحضرهما إليَّ.

في تلك اللحظة، تلقى مكالمة هاتفية. كان جان دوديفيل يطلبه من مكتب جارش. كانت المحادثة سريعة.

- هل هذا أنت يا جان؟ هل من جديد؟

- نعم، يا سيدي، النقيب باربري...

- ماذا عنه؟

- لقد عثرنا عليه. لقد أصبح إسبانيًّا، وصبغ بشرته. رأيناه للتو، كان يدخل المدرسة الحرة في جارش. استقبلته تلك الآنسة، أنت تعرف؛ الفتاة الشابة التي تعرف الأمير سيرنين، جنفييف إرنمون.

- اللعنة!

ترك السيد لينورمان الهاتف، التقط قبعته، اندفع إلى الممر، قابل ديوزي والألماني، فصرخ بهما: «في السادسة، موعدنا هنا». نزل الدرج مسرعًا، يتبعه جوريل وثلاثة مفتشين التقطهم في طريقه، واندفع إلى سيارته: «إلى جارش! عشرة فرنكات إكرامية».

قبل حديقة فلينوف بقليل، عند منعطف الزقاق المؤدي إلى المدرسة، أمر بالتوقف. صرخ جان دوديفيل، الذي كان ينتظره، على الفور: «لقد هرب المجرم من الجانب الآخر من الزقاق، منذ عشر دقائق!».

- وحده؟

- لا، مع الفتاة الشابة.

أمسك السيد لينورمان دوديفيل من ياقته: «أيها البائس! لقد تركته يهرب! كان يجب عليك...».

- أخي يتعقبه.

- منفعة عظيمة! سيضيعه أخوك!

تولى بنفسه قيادة السيارة ودخل بحزمٍ الزقاق، غير مبالٍ بالحفر والأدغال. وصلوا بسرعة إلى طريق ريفي أوصلهم إلى مفترق طرق تتفرع منه خمسة طرق. دون تردد، اختار السيد لينورمان الطريق الأيسر، طريق سان كيكوفا. عند قمة المنحدر المؤدي إلى البحيرة، تجاوزوا الأخ دوديفيل الآخر الذي صاح: «إنهم في سيارة، على بعد كيلومتر واحد».

لم يتوقف مدير الأمن، فقد قاد السيارة في المنحدر، اجتاز المنعطفات بسرعة، دار حول البحيرة، وفجأة أطلق صيحة انتصار. على قمة تلة صغيرة أمامهم، رأى سقف سيارة لكنه لسوء الحظ، كان قد دخل في طريق سيئ. اضطر للرجوع للخلف، وعندما عاد إلى التفرع، كانت السيارة ما تزال هناك،

متوقفة. وفجأة، في أثناء استدارته، رأى امرأة تقفز من السيارة. ظهر رجل على الدرجة، مدَّت المرأة ذراعها، ودوى صوت طلقات رصاص. ربما أخطأت التصويب، لأن رأسًا ظهر من الجانب الآخر من السقف، ورأى الرجل السيارة، فضرب حصانه بسوط قوي فانطلق يجري.

وفي لحظة، اختفت السيارة خلف منعطف. في غضون ثوانٍ، أكمل السيد لينورمان المناورة، اتجه مباشرة نحو التَّلة، تجاوز الفتاة الشابة دون توقف، واستدار بجرأة. كان الطريق عبارة عن غابة شديد الانحدار وصخرية، بين غابات كثيفة، ولا يمكن اتباعه إلا ببطء شديد، مع أقصى درجات الحذر. لكن ما أهمية ذلك! على بعد عشرين خطوة إلى الأمام، كانت السيارة -نوع من العربة ذات العجلتين- تتمايل على الحجارة، يجرها، أو بالأحرى يمسكها، حصان لا يخاطر إلا بحذر وبخطوات محسوبة.

لم يعد هناك ما يخشى منه، أصبح الهروب مستحيلًا. وتدحرجت المركبتان من أعلى إلى أسفل، متخبطتين ومهتزتين. في لحظة ما، كانتا قريبتين جدًّا من بعضهما بعضًا، لدرجة أن السيد لينورمان فكر في النزول والجري مع رجاله. لكنه أدرك خطورة الفرملة على منحدر شديد كهذا، فواصل، ملاحقًا العدو عن قرب، كفريسة يحتفظ بها في مرمى نظره، وفي متناول يده.

همس المفتشون، مأخوذين بغرابة هذه المطاردة: «لقد نجحنا يا سيدي. لقد نجحنا!».

في أسفل الطريق ظهر مسار يتجه نحو نهر السين، نحو بوجيفال. على أرض مستوية، انطلق الحصان بعيدًا، دون عجلة، وهو يسير في وسط الطريق. هزَّت السيارة حركة عنيفة بدت وكأنها، بدلًا من أن تسير، تتحرك بقفزات مثل وحش ينقض، وبانزلاقها على طول المنحدر، مستعدة لتحطيم كل العوائق، لحقت بالعربة، وصلت إلى مستواها، وتجاوزتها. دَوت لعنة غضب من السيد لينورمان، وصيحات غضب. العربة كانت فارغة! العربة كانت فارغة. كان الحصان يسير بهدوء والزمام على ظهره، عائدًا على الأرجح إلى إسطبل حانة مجاورة حيث استؤجِر لليوم.

كاتمًا غضبه، قال مدير الأمن ببساطة: «لا بد أن النقيب قفز خلال الثواني القليلة التي فقدنا فيها رؤية العربة، في بداية المنحدر».

- ما علينا سوى تمشيط الغابات، يا سيدي، ونحن متأكدون...

- متأكدون من العودة بخفيَّ حُنين. الرجل بعيد الآن! اذهبوا، وهو ليس ممن يُطَارد مرتين في اليوم نفسه. آه! يا للعنة!

التقوا الفتاة الشابة التي وجدوها برفقة جاك دوديفيل، والتي لم تبد متأثرة على الإطلاق بمغامرتها. عرَّفها السيد لينورمان بنفسه، وعرض عليها إعادتها إلى منزلها، وعلى الفور سألها عن النقيب الإنجليزي باربري.

استغربت وقالت: «إنه ليس نقيبًا ولا إنجليزيًّا، ولا يُدعى باربري».

- إذًا، ما اسمه؟

- خوان ريبيرا، إنه إسباني، ومكلف من قِبل حكومته بدراسة نظام المدارس الفرنسية.

- حسنًا. اسمه وجنسيته ليسا مهمَّين. إنه بالفعل الشخص الذي نبحث عنه. منذ متى تعرفينه؟

- منذ قرابة أسبوعين. كان قد سمع عن مدرسة أسستها في جارش، واهتم بتجربتي، لدرجة أنه عرض منحة سنوية بشرط واحد، وهو أن يتمكَّن من الحضور من وقت لآخر لمتابعة تقدم طلابي. لم يكن لديَّ الحق في الرفض.

- لا، بالطبع، لكن كان عليك استشارة من حولك. ألست على علاقة بالأمير سيرنين! إنه رجل ناصح أمين.

- أوه! أنا أثق به تمامًا، لكنه مسافر حاليًّا.

- ألم يكن لديك عنوانه؟

- لا. وبعد ذلك، ماذا كنت سأقول له؟ كان هذا السيد يتصرف بشكل جيد جدًّا. فقط اليوم، لكنني لا أعرف...

- أرجوك، آنستي، تحدثي معي بصراحة، يمكنكِ أن تثقي بي أيضًا.

- حسنًا، جاء السيد ريبيرا اليوم. قال لي إنه مرسلٌ من قِبل سيدة فرنسية تعيش الآن في بوجيفال، وأن هذه السيدة لديها طفلة صغيرة ترغب في تكليفي بتعليمها، وطلبت مني الحضور دون تأخير. بدا الأمر طبيعيًّا تمامًا. وبما أن اليوم عطلة، وبما أن السيد ريبيرا قد استأجر عربة كانت تنتظره في نهاية الطريق، لم أتردد في ركوبها.

- ولكن ما كان هدفه في النهاية؟

احمرت وجنتاها وقالت: «اختطافي ببساطة. بعد نصف ساعة اعترف لي بذلك».

- ألا تعرفين أي شيء عنه؟

- لا.

- هل يسكن في باريس؟

- أعتقد ذلك.

- ألم يكتب لكِ؟ أليس لديكِ بعض السطور بخط يده، أو شيئًا نسيه، أو أي دليل يمكن أن يساعدنا؟

- لا يوجد أي دليل. آه! ولكن ربما ليس لهذا أهمية.

- تحدثي! تحدثي، أرجوكِ.

- حسنًا، قبل يومين، طلب مني هذا السيد الإذن باستخدام الآلة الكتابة التي أستخدمها، وكتب -بصعوبة، لأنه لم يكن متمرسًا- رسالة صادفت أن رأيت عنوانها.

- وما هذا العنوان؟

- كان يكتب إلى جريدة «الجورنال»، ووضع في الظرف قرابة عشرين طابعًا.

- نعم، الإعلانات المبوبة على الأرجح.

قال جوريل: «لديَّ عدد اليوم من الجريدة، يا سيدي».

فتح السيد لينورمان الجريدة وراجع الصفحة الثامنة. بعد لحظة، انتفض. كان قد قرأ هذه الجملة المكتوبة بالاختصارات المعتادة:

«نود أن نخبر أي شخص يعرف السيد شتاينفيج أننا نود معرفة ما إذا كان في باريس، وعنوانه. الرجاء الرد بالطريقة نفسها».

صاح جوريل: «شتاينفيج! ولكن هذا بالضبط الشخص الذي أحضره لنا ديوزي».

قال السيد لينورمان لنفسه: «نعم، نعم. إنه الرجل الذي اعترضت رسالته إلى كيسيلباخ، الرجل الذي دفع كيسيلباخ إلى تتبع آثار بيير ليدوك... وهكذا. هم أيضًا بحاجة إلى معلومات عن بيير ليدوك وماضيه، هم أيضًا يتخبطون». فرك يديه، لقد كان شتاينفيج تحت تصرفه. قبل ساعة واحدة سيكون شتاينفيج قد تكلم. قبل ساعة واحدة، سيُمزَّق حجاب الظلمات الذي كان يثقل عليه، والذي جعل من قضية كيسيلباخ أكثر القضايا إثارة للقلق وغموضًا من بين كل القضايا التي سعى لحلها.

الجزء الخامس

مصير السيد لينورمان

الفصل الأول

في الساعة السادسة مساءً، عاد السيد لينورمان إلى مكتبه في مديرية الشرطة. استدعى ديوزي على الفور.

- هل رَجُلك هناك؟
- نعم.
- إلى أين وصلت معه؟
- لم أصل بعيدًا، إنه لم ينبس ببنت شفة. أخبرته أنه وفقًا لمرسوم جديد، يتعين على الأجانب تقديم إعلان إقامة في المديرية وأحضرته إلى هنا، إلى مكتب سكرتيرك.
- سأستجوبه.

لكن في تلك اللحظة دخل موظف: «هناك سيدة يا سيدي، تطلب التحدث إليك على الفور».

- أين بطاقتها؟
- ها هي ذي.
- السيدة كيسيلباخ! أدخلها.

ذهب هو نفسه لاستقبال السيدة الشابة، وطلب منها الجلوس. كانت لديها النظرة الحزينة نفسها، ومظهرها المريض، وهذا الشعور بالإرهاق الشديد الذي كشف عن بؤس حياتها. مدَّت نسخة من الجريدة، مشيرة إلى مكان الإعلانات المبوبة، حيث كان هناك سطر يتحدث عن السيد شتاينفيج. قالت: «كان الأب شتاينفيج صديقًا لزوجي، ولا أشك في أنه يعرف الكثير».

قال لينورمان: «ديوزي، أحضر الشخص الذي ينتظر. زيارتكِ سيدتي، لن تكون بلا فائدة. أرجو منكِ فقط، عندما يدخل هذا الشخص، ألا تقولين كلمة واحدة؟».

فُتح الباب. ظهر رجل، رجل عجوز بلحية بيضاء، وجهه مليء بالتجاعيد العميقة، يرتدي ملابس رثَّة، يبدو كأحد البائسين الذين يجوبون العالم بحثًا عن لقمة العيش اليومية. وقف عند العتبة وعيناه ترمشان، نظر إلى السيد لينورمان، بدا منزعجًا من الصمت الذي استقبله به، وأخذ يدير قبعته بين يديه بارتباك. لكن فجأة بدا مذهولًا، اتسعت عيناه، وتلعثم: «سيدتي، السيدة كيسيلباخ».

رأى السيدة الشابة، وبهدوء، مبتسمًا، دون خجل، اقترب منها وقال بلكنة سيئة: «آه! أنا سعيد. أخيرًا! كنت أظن أنني لن... كنت مدهوشًا، لا أخبار هناك، ولا تليغراف. كيف حال رودولف كيسيلباخ الطيب؟». تراجعت السيدة الشابة كما لو أنها تلقَّت ضربة في وجهها، وفجأة سقطت على كرسي وبدأت في البكاء.

قال شتاينفيج: «ماذا! حسنًا، ماذا؟». تدخل السيد لينورمان على الفور: «أرى سيدي، أنك تجهل بعض الأحداث التي وقعت مؤخرًا. هل مضى وقت طويل منذ أن كنت في رحلة؟».

- نعم، ثلاثة أشهر. صعدت إلى المناجم، ثم عدتُ إلى كيب تاون، من حيث كتبت إلى رودولف. لكن في الطريق قبلت عملًا في بورسعيد. أفترض أن رودولف تلقى رسالتي؟

- إنه غائب. سأشرح لك أسباب هذا الغياب، ولكن قبل ذلك، هناك نقطة نود الحصول على بعض المعلومات بشأنها. إنها تتعلق بشخص عرفته، وكنت تشير إليه في محادثاتك مع السيد كيسيلباخ باسم بيير ليدوك.

- بيير ليدوك! ماذا! من أخبرك؟

اضطرب العجوز. تلعثم مرة أخرى: «من أخبرك؟ من كشف لك هذا الأمر؟».

- السيد كيسيلباخ.

- غير معقول! إنه سِر ائتمنته عليه، ورودولف يحفظ السر، خصوصًا هذا السر.

- ومع ذلك، من الضروري أن تُجيبنا. نحن نُجري حاليًا تحقيقًا حول بيير ليدوك، يجِب أن ينتهي دون تأخير، وأنت وحدك من تستطيع إفادتنا، بما أن السيد كيسيلباخ لم يعد هنا.

صاح شتاينفيج، يبدو وكأنه قرر الكلام: «حسنًا، ماذا تريدون؟».

- هل تعرف بيير ليدوك؟

- لم أره قط، لكنني منذ فترة طويلة كان لديَّ سرٌّ يتعلق به. في أعقاب أحداثٍ لا داعي لسردها، وبفضل سلسلة من المصادفات، انتهى بيَ الأمر إلى اليقين بأن الشخص الذي كان اكتشافُه يهمني، كان يعيش في باريس في حالة من الفوضى، وأنه كان يُطلق على نفسه اسم بيير ليدوك، وهو ليس اسمه الحقيقي.

- لكن هل يعرف هو اسمه الحقيقي؟

- أعتقدُ ذلك.

- وأنت؟

- أنا أعرفه.

- حسنًا، أخبرنا به.

تردد، ثم قال بعنف: «لا أستطيع. لا أستطيع!».

- وماذا بعد؟

- ليس لديَّ الحق، كل السر يكمن هنا. الآن، هذا السر، عندما كشفته لرودولف أعطاه أهميةً كبيرة لدرجة أنه قدَّم لي مبلغًا كبيرًا من المال لشراء صمتي، ووعدني بثروة، ثروة حقيقية، لليوم الذي سينجح فيه، أولًا في العثور على بيير ليدوك، وثانيًا في الاستفادة من السر.

ابتسم بمرارة: «لقد ضاع المبلغ الكبير بالفعل، جئت لأسأل عن ثروتي».

- لقد مات السيد كيسيلباخ.

قفز شتاينفيج: «مات! هل هذا ممكن؟! لا، إنه فخ. السيدة كيسيلباخ، هل هذا صحيح؟».

أحنت رأسها. بدا مهزومًا بهذه الحقيقة غير المتوقعة، وفي الوقت نفسه، يبدو أنه كان مؤلمًا للغاية بالنسبة إليه، لأنه بدأ يبكي: «رودولف المسكين، لقد رأيته صغيرًا. كان يأتي للعب معي في أوغسبورغ، كنت أحبه كثيرًا».

وناشد شهادة السيدة كيسيلباخ: «وهو أيضًا، أليس كذلك يا سيدتي؟! كان يحبني كثيرًا. لا بد أنه أخبرك. والده العجوز شتاينفيج، كما كان يسميني».

اقترب السيد لينورمان منه، وبصوته الأكثر وضوحًا: «اسمعني، لقد اغتيل السيد كيسيلباخ. هيا، كن هادئًا. الصراخ لا فائدة منه، لقد اغتيل، وكل ظروف الجريمة تثبت أن المجرم كان على علم بهذا المشروع الشهير. هل هناك شيء في طبيعة هذا المشروع قد يسمح لك بالتخمين؟».

بقي شتاينفيج مذهولًا. تَمتَم: «إنه خطئي، لو لم أضعه على هذا الطريق...».

تقدمت السيدة كيسيلباخ متوسلة: «أنت تعتقد... لديك معلومة، أوه! أرجوك، شتاينفيج...».

- ليس لديَّ فكرة، لم أفكر.

تَمتَم: «يجب أن أفكر».

قال له لينورمان: «ابحث في محيط السيد كيسيلباخ، ألم يشارك أحد في لقائكما في ذلك الوقت؟ هل يمكن أن يكون قد أفشى السر لأحد؟».

- لا أحد.

- تذكَّر جيدًا.

كلاهما، السيدة كيسيلباخ والسيد لينورمان، منحنيان عليه، ينتظران إجابته بقلق. قال: «لا، لا أرى».

كرر مدير الأمن: «فكر جيدًا، الاسم الأول واسم العائلة للقاتل لهما الأحرف الأولى L وM». كرر شتاينفيج: « L وM لا أتذكر، L, M».

- نعم، الحروف ذهبية ومطبوعة على زاوية علبة سجائر تخص القاتل.

قال شتاينفيج بجهد للتذكر: «علبة سجائر؟».

- من الفولاذ المصقول، وأحد الأقسام الداخلية مقسم إلى جزأين؛ الأصغر لورق السجائر، والآخر للتبغ.

كرر شتاينفيج، الذي بدا وكأن ذكرياته قد استيقظت بهذا التفصيل: «جزأين، جزأين. هل يمكنك أن تريني هذا الشيء؟».

قال لينورمان وهو يعطيه علبة سجائر: «ها هي ذي، أو بالأحرى هذه نسخة طبق الأصل». قال شتاينفيج وهو يأخذ العلبة: «ماذا! ماذا!». نظر إليها بعين غبية، فحصها، قلَّبها من جميع الجوانب، وفجأة أطلق صرخة،

صرخةَ رجل صدمته فكرة مروعة. وبقي هناك، شاحبًا، يداه ترتجفان، عيناه جاحظتان.

أمره لينورمان: «تكلم، تكلم إذًا!». قال في ذهول وكأن الحقيقة قد أعمته: «أوه! كل شيء يتضح».

- تكلم، تكلم إذًا.

دفعهما كليهما بعيدًا، مشى إلى النوافذ متعثرًا، ثم عاد على أعقابه، وألقى بنفسه على مدير الأمن: «سيدي، سيدي! قاتل رودولف، سأخبرك إياه، حسنًا». ثم توقف.

- مَن؟

دقيقة من الصمت. في هدوء المكتب الكبير، بين هذه الجدران التي سمعت الكثير من الاعترافات والاتهامات، هل سيتردد اسم المجرم البغيض؟ بدا للسيد لينورمان أنه على حافة الهاوية التي لا قاع لها، وأن صوتًا كان يرتفع، يرتفع نحوه. بضع ثوان أخرى وسيعرف.

تَمتَم شتاينفيج: «لا، لا، لا أستطيع». صرخ مدير الأمن غاضبًا: «ماذا تقول؟!».

- أقول إنني لا أستطيع.

- لكن ليس لديك الحق في الصمت! العدالة تتطلب ذلك.

- غدًا، سأتكلم، غدًا. يجب أن أفكر، غدًا سأخبرك كلَّ ما أعرفه عن بيير ليدوك. كل ما أفترضه بخصوص هذه العلبة. غدًا، أعدك.

كان واضحًا أنه عنيد، وستذهب كل الجهود -الأكثر حزمًا- معه سدى. استسلم السيد لينورمان: «حسنًا. أمنحك حتى الغد، لكنني أحذرك أنه إذا لم تتكلم غدًا، سأضطر إلى إبلاغ قاضي التحقيق». رنَّ الجرس، وأخذ المفتش ديوزي جانبًا: «رافقه إلى فندقه، وابقَ هناك. سأرسل إليك زميلين، وقبل كل شيء، كن يقظًا. قد يحاولون أخذه منا».

اصطحب المفتش شتاينفيج، وعاد السيد لينورمان إلى السيدة كيسيلباخ التي تأثرت بشدة بهذا المشهد، واعتذر: «أرجو أن تقبلي اعتذاري. سيدتي، أفهم إلى أي مدى يجب أن تكوني متأثرة». سألها عن الفترة التي استأنف فيها السيد كيسيلباخ علاقته مع شتاينفيج العجوز، ومدة هذه العلاقة. لكنها كانت متعبة جدًّا لدرجة أنه لم يصر. سألته: «هل يجب أن أعود غدًا؟».

- لا، لا. سأبقيك على اطلاع بكل ما سيقوله شتاينفيج. هل تسمحين بتوصيلك حتى سيارتك؟! هذه الطوابق الثلاثة صعبة النزول.

فتح الباب، وتنحى جانبًا لها. في اللحظة نفسها سُمعت صيحات في الممر، وهرع الناس، ومفتشون في الخدمة، وموظفو المكتب: «سيادة المُدير! سيادة المدير!».

- ماذا هناك؟

- ديوزي!

- خرج للتو من هنا.

- لقد وجدوه أسفل السلم.

- ميتًا؟

- لا، مصابًا في رأسه وفاقدًا الوعي.

- لكن الرجل؟! الرجل الذي كان معه؟ العجوز شتاينفيج؟!

- اختفى.

- تبًا!

الفصل الثاني

اندفع لينورمان إلى الممر، وهبط الدرج بسرعة، ووسط مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يعتنون به، وجد ديوزي ممددًا على سطح الطابق الأول. رأى جوريل يصعد: «آه! جوريل، هل أتيت من الأسفل؟ هل قابلت أحدًا؟».

- لا يا سيدي.

بدأ ديوزي يستعيد وعيه، وعلى الفور، بعينين بالكاد مفتوحتين، تَمتَم: «هنا، على السطح، الباب الصغير». صرخ مدير الأمن: «آه! اللعنة، باب الغرفة السابعة! لقد أمرت بوضوح أن يُغلق بالمفتاح. كان من المؤكد أن يأتي يوم[1]...».

اندفع نحو المقبض: «يا إلهي! القفل مغلق من الجانب الآخر الآن».

كان جزءٌ من الباب زجاجيًا. بمؤخرة مسدسه، كسرَ اللوح الزجاجي، ثم سحب القفل، وقال لجوريل: «اركض من هناك حتى مخرج ساحة دوفين». وعاد إلى ديوزي: «هيا، ديوزي، تكلم. كيف سمحت له أن يضعك في هذه الحالة؟».

- لكمة! يا سيادة المدير.

- لكمة من هذا العجوز؟! لكنه بالكاد يقف على قدميه.

---

(1) منذ أن غاب السيد لينورمان عن مديرية الأمن، هرب مجرمان من الباب نفسه، بعد أن تخلصا من الحُراس الذين كانوا يرافقونهما. وقد لزمت الشرطة الصمت بشأن هذا الهروب المزدوج. فلماذا إذًا، إذا كان هذا الممر ضروريًا، لا يُزال القفل غير الضروري على الجانب الآخر والذي يسمح للهارب بقطع أي ملاحقة، والمغادرة بهدوء عبر ممر الغرفة السابعة المدنية وعبر الممر الأول للإدارة؟

- ليس من العجوز، يا سيدي، بل من شخص آخر كان يتجول في الممر بينما كان شتاينفيج معك، وتبعنا كما لو كان يغادر هو أيضًا. عندما وصلنا إلى هنا، سألني إذا كانت لديَّ علبة كبريت. بحثت عن علبة الكبريت الخاصة بي، ثم استغل الفرصة ليوجه لي لكمة في معدتي. سقطت، وفي أثناء سقوطي، شعرت أنه فتح هذا الباب وسحب العجوز معه.

- هل يمكنك التعرف عليه؟

- نعم يا سيدي. رجل قوي ذو بشرة سمراء. شخص من الجنوب، بالتأكيد.

زمجر السيد لينورمان: «ريبيرا، هو دائمًا! ريبيرا، المعروف أيضًا باسم باربري. آه! يا له من وغد، ما هذه الجرأة! كان خائفًا من العجوز شتاينفيج. جاء ليأخذه، من هنا، وبنفسه، تحت أنفي!». وضرب الأرض بقدمه غاضبًا: «ولكن اللعنة، كيف عرف أن شتاينفيج كان هنا؟ هذا المجرم! لم يمض أكثر من أربع ساعات منذ أن كنت أطارده في غابات سان كيكوفا، والآن ها هو ذا هنا! كيف عرف؟ هل يعيش معي!». أصيب بنوبة من التأمل، حيث بدا أنه لم يعد يسمع أو يرى أي شيء. مرت السيدة كيسيلباخ في تلك اللحظة، وحيَّته دون أن يرد. لكن صوت خطوات في الممر حرك خموله: «أخيرًا، هذا أنت، ماذا عنه يا جوريل؟».

أجابه جوريل لاهثًا: «نعم يا سيدي. كانا اثنين. اتبعا هذا الطريق، وخرجا من ساحة دوفين. كانت هناك سيارة تنتظرهما. كان بداخلها شخصان، رجل يرتدي الأسود مع قبعة لينة منخفضة على عينيه...» همس السيد لينورمان: «إنه هو، إنه القاتل -شريك ريبيرا- باربري. وماذا عن الشخص الآخر؟».

- امرأة، امرأة دون قبعة، كما لو كانت خادمة. وجميلة، على ما يبدو، شقراء.

- ماذا؟ ماذا! تقول إنها كانت شقراء؟

- نعم.

استدار السيد لينورمان بسرعة، نزل الدَّرج بوقع أربع درجات في المرة الواحدة، عَبَر الساحات وخرج إلى رصيف أوريفر. صرخ: «توقف!». كانت عربة فيكتوريا التي بحصانين تبتعد، كانت عربة السيدة كيسيلباخ. سمع السائق وتوقف، قفز السيد لينورمان بالفعل على الدرجة: «أعتذر سيدتي،

مساعدتك ضرورية لي. سأطلب إذنك بمرافقتك، لكن علينا التصرف بسرعة. جوريل، سيارتي، هل أرسلتها بعيدًا؟! سيارة أخرى إذًا، أي واحدة؟».

ركض كل واحد في اتجاهه، لكن مرت عشر دقائق قبل أن يتمكنوا من إحضار سيارة أجرة. كان السيد لينورمان يغلي من نفاد الصبر. كانت السيدة كيسيلباخ واقفة على الرصيف، تترنح، وقارورة الأملاح في يدها. أخيرًا استقروا: «جوريل، اصعد بجانب السائق واتجه مباشرة إلى جارش».

قالت السيدة كيسيلباخ مدهوشة: «إلى منزلي!». لم يُجب. كان ينظر من النافذة، يلوِّح بتصريح المرور الخاص به، يُعرِّف نفسه للضباط الذين ينظمون حركة المرور في الشوارع. أخيرًا، عندما وصلوا إلى كورلارين، جلس مرة أخرى وقال: «أتوسل إليك، سيدتي، أجيبي بوضوح عن أسئلتي. هل رأيت الآنسة جنفييف إرنمون في وقت ما قرابة الساعة الرابعة؟».

- جنفييف، نعم. كنت أرتدي ملابسي للخروج.
- هل هي التي أخبرتك عن الإعلان المتعلق بشتاينفيج في الجريدة؟
- بالفعل.
- وبناءً على ذلك جئتِ لرؤيتي؟
- نعم.
- هل كنت وحدكِ في أثناء زيارة الآنسة إرنمون؟
- حسنًا، لا أعرف. لماذا؟
- تذكري. هل كانت إحدى خادماتك هناك؟
- ربما، بما أنني كنت أرتدي ملابسي.
- ما أسماؤهن؟
- سوزان وجيرترود.
- إحداهن شقراء، أليس كذلك؟
- بلى، جيرترود.
- هل تعرفينها منذ وقت طويل؟
- أختها كانت في خدمتني دائمًا، وجيرترود تعمل عندي منذ سنوات. إنها الأمانة بعينها، والثانية...

- باختصار، هل تثقين بها؟
- أوه! بالتأكيد.
- حسنًا، حسنًا!

كانت الساعة السابعة والنصف، وبدأ ضوء النهار يخفت عندما وصلت السيارة أمام دار المسنَّات. دون الاهتمام برفيقته، اندفع مدير الأمن إلى حارس البوابة: «عادت خادمة السيدة كيسيلباخ للتو، أليس كذلك؟».

- من تقصد، الخادمة؟
- بلى، جيرترود، إحدى الأختين.
- لكن جيرترود لم تخرج على الأرجح سيدي، لم نرها تخرج.
- لكن شخصًا ما عاد للتو.
- أوه! لا سيدي، لم نفتح الباب لأحد منذ، منذ السادسة مساءً.
- أليس هناك مخرجٌ آخر غير هذا الباب؟
- لا يوجد. الجدران تحيط بالممتلكات من جميع الجهات، وهي عالية.

قال السيد لينورمان لرفيقته: «السيدة كيسيلباخ، سنذهب إلى جناحك». ذهبوا جميعًا. السيدة كيسيلباخ، التي لم يكن معها المفتاح، رنَّت الجرس. ظهرت سوزان، الأخت الأخرى. سألتها السيدة كيسيلباخ: «هل جيرترود هنا؟».

- نعم سيدتي، في غرفتها.

أمر مدير الأمن: «نادِيها، آنستي». بعد لحظة، نزلت جيرترود، ودودة ولطيفة بمريلتها البيضاء المطرزة. كان لها وجه جميل بالفعل، محاط بشعر أحمر. نظر إليها السيد لينورمان طويلًا دون أن يقول شيئًا، كما لو كان يحاول اختراق ما وراء تلك العينين البريئةتين. لم يستجوبها، وبعد دقيقة، قال ببساطة: «حسنًا، آنستي، أشكرك. هيا يا جوريل؟». خرج مع جوريل، وعلى الفور، وهما يتبعان الممرات المظلمة للحديقة، قال: «إنها هي».

- هل تعتقد ذلك يا سيدي؟ تبدو هادئة جدًّا!
- هادئة أكثر من اللازم. أي شخص آخر مكانها كان سيُدهش، ويسألني لماذا استدعيتها. إنها هي، لكنها لم تسأل. وجهها كان يحاول الابتسام بأي ثمن. لكن على صدغها رأيت قطرة عرق تسيل على طول أذنها.
- وماذا إذًا؟

- إذًا، كل هذا واضح. جيرترود متواطئة مع المجرمَين اللذين يناوران حول قضية كيسيلباخ، إما لاكتشاف وتنفيذ المشروع الشهير، وإما للاستيلاء على ملايين الأرملة. ربما تكون الأخت الأخرى أيضًا جزءًا من المؤامرة. قرابة الساعة الرابعة، جيرترود، التي أُبلِغَت بأنني أعرف إعلان الجريدة وأن لديَّ موعدًا مع شتاينفيج، تستغل مغادرة سيدتها، تركض إلى باريس، تلتقي ريبيرا والرجل ذا القبعة اللينة، وتأخذهما إلى قصر العدل، حيث يصادر ريبيرا السيد شتاينفيج لصالحه. فكر وخَلُص إلى: «كل هذا يثبت لنا: 1) الأهمية التي يولونها لشتاينفيج، والخوف من تسريب السر. 2) أن هناك مؤامرة حقيقية تُحاك حول السيدة كيسيلباخ. 3) أنه ليس لديَّ وقت لأضيعه، لأن المؤامرة ناضجة».

قال جوريل: «حسنًا، لكن هناك شيئًا غير مفهوم. كيف تمكَّنت جيرترود من الخروج من الحديقة التي نحن فيها والدخول إليها دون علم حراس البوابة؟».

- بواسطة ممر سري، أنشأه المجرمون مؤخرًا.

- والذي قد ينتهي على الأرجح، إلى جناح السيدة كيسيلباخ؟

- نعم، ربما، ربما. لكن لديَّ فكرة أخرى؛ ربما تتبعت الأختان محيط الجدران. كانت الليلة صافية، وإذا كان من الصعب تمييز شبحيهما، فقد كانتا تريان بشكل كافٍ لفحص حجارة الجدران والتأكد من أنه لا توجد أي ثغرة، مهما كانت ماهرة.

اقترح جوريل: «ربما باستخدام سلم؟».

- لا، بما أن جيرترود تَمر في وضح النهار. وجود اتصال من هذا النوع لا يمكن أن ينتهي بالخارج بوضوح، يجب أن تكون الفتحة مخفية بواسطة بناء موجود بالفعل.

- هناك فقط الأجنحة الأربعة، وكلها مشغولة.

- عفوًا، الجناح الثالث، جناح هورتنس، غير مشغول.

- من أخبرك بذلك؟

- حارس البوابة. خوفًا من الضوضاء، استأجرت السيدة كيسيلباخ هذا الجناح، الذي يقع بالقرب من جناحها. من يدري ما إذا كانت، بتصرفها هكذا، قد خضعت لتأثير جيرترود؟

دار حول المنزل. كانت المصاريع مغلقة. على سبيل الاحتمال، رفع مزلاج الباب: انفتح الباب: «آه! جوريل، أعتقد أننا وصلنا. لندخل. أشعل مصباحك. أوه! الردهة، غرفة الجلوس، غرفة الطعام. هذا غير مفيد. يجب أن يكون هناك طابقٌ سفلي، لأن المطبخ ليس في هذا الطابق.

- من هنا يا سيدي. هذا هو سلم الخدمة.

نزلا بالفعل إلى مطبخ واسع نسبيًا، ومليء بكراسي الحديقة وأكواخ من القش. كانت هناك غرفة غسيل، تستخدم أيضًا كمخزن ملحقة به، وبها الفوضى نفسها من الأشياء المكدسة بعضها فوق بعضٍ.

- ما الذي يلمع هناك يا سيدي؟

انحنى جوريل والتقط دبوسًا نحاسيًا برأس لؤلؤة مزيفة. قال لينورمان: «اللؤلؤة ما تزال لامعة تمامًا، وهو ما لن يكون كذلك لو كانت قد بقيت طويلًا في هذا القبو. جيرترود مرت من هنا يا جوريل».

بدأ جوريل في هدم كومة من البراميل الفارغة، والأقفاص، والطاولات القديمة المتداعية.

- تضيع وقتك يا جوريل. إذا كان الممر هنا، فكيف يمكن أن يكون لديهم الوقت؟ أولًا لتحريك كل هذه الأشياء، ثم لإعادتها إلى مكانها خلفهم؟ انظر، هنا لوح نافذة مهترئ، لا يوجد أي سبب جدي ليكون معلقًا على الحائط بهذا المسمار. أزحه جانبًا.

نفذ جوريل طلب رئيسه. خلف اللوح، كان الجدار مثقوبًا. باستخدام ضوء الفانوس، رأيا نفقًا يغوص في العمق.

الفصل الثالث

قال السيد لينورمان: «لم أكن مخطئًا، الاتصال حديث العهد. انظر، هذه أعمال حدثت على عجل ولفترة محدودة أيضًا. لا يوجد بناء. من مكان لآخر، عارضتان متقاطعتان وعارضة تستخدم كسقف، وهذا كل شيء. ستصمد ما استطاعت، ولكن بما يكفي للغرض المنشود، أي...

- أي ماذا، يا سيدي؟
- حسنًا، أولًا للسماح بالذهاب والإياب بين جيرترود وشركائها. ثم في يوم ما، يوم قريب، اختطاف أو بالأحرى اختفاء السيدة كيسيلباخ بشكل مُعجِز وغير مفهوم.

تقدما بحذر لتجنب الاصطدام ببعض العوارض، التي لم تبدُ متينة بشكل لا يتزعزع. للوهلة الأولى، كان طول النفق أكبر بكثير من خمسين مترًا على الأقل؛ هذه المسافة التي تفصل الجناح عن سور الحديقة. لذا يجب أن ينتهي بعيدًا عن الجدران، وما وراء الطريق المحاذي للعقار. سأل جوريل: «ألسنا نتجه نحو حديقة فلينوف والبركة من هنا؟». أكد السيد لينورمان: «لا، على الإطلاق. في الاتجاه المعاكس تمامًا». كان النفق ينحدر بشكل طفيف. كانت هناك درجة، ثم أخرى، ثم انعطفا نحو اليمين. في هذه اللحظة اصطدما ببابٍ مدمج في إطار من الحجارة الملتصقة بالأسمنت بعناية. عندما دفعه السيد لينورمان، انفتح. قال وهو يتوقف: «لحظة جوريل، لنفكر. ربما يكون من الأفضل العودة».

- ولماذا؟

- ينبغي أن نفكر أن ريبيرا قد توقع الخطر، ونفترض أنه اتخذ احتياطاته في حالة اكتشاف النفق. الآن، هو يعلم أننا نفتش الحديقة، رآنا على الأرجح ندخل هذا الجناح. من يعلم، ربما ينصب لنا فخًا؟

- نحن اثنان يا سيدي.

- وماذا لو كنا عشرين شخصًا؟

نظر حوله. كان النفق يصعد، وسار نحو الباب الآخر، الذي يبعد خمسة أو ستة أمتار. قال: «لنذهب إلى هنا، سنرى». مَرَّ، يتبعه جوريل الذي أوصاه بترك الباب مفتوحًا، وسار نحو الباب الآخر، واعدًا نفسه بعدم الذهاب أبعد من ذلك. لكن هذا الباب كان مغلقًا، وعلى الرغم من أن القفل بدا يعمل، فإنه لم يتمكَّن من فتحه.

قال: «المزلاج مغلق. لن نصدر ضجيجًا ولنعد خصوصًا أننا في الخارج سنحدد الخط الذي يجب البحث بناءً عليه عن المخرج الآخر للنفق». عادا إذًا نحو الباب الأول. أطلق جوريل، الذي كان يمشي أولًا، صيحة دهشة: «انظر، إنه مغلق».

- كيف؟! لكنني أخبرتك أن تتركه مفتوحًا.

- لقد تركته مفتوحًا، يا سيدي، لكن الباب أُغلِق من تلقاء نفسه.

- مستحيل! كنا سنسمع الصوت.

- إذًا؟

- إذًا، إذًا. لا أعرف.

اقترب: «لنرَ، هناك مفتاح. إنه يدور، لكن من الجانب الآخر. يجب أن يكون هناك مزلاج».

- مَن وضعه؟

- هم بالطبع! خلف ظهرنا. ربما لديهم نفق آخر يوازي هذا، أو ربما بقوا في هذا الجناح غير المسكون. حسنًا، نحن وقعنا في الفخ.

حاول جاهدًا مع القفل، أدخل سكينه في الشق، بحث عن كل الوسائل، ثم في لحظة تعب، قال: «لا فائدة!».

- كيف يا سيدي؟ في هذه الحالة، هل نحن في ورطة؟

- حسنًا.

عادا إلى الباب الآخر، ثم عادا إلى الأول. كان كلا البابَين ضخمَين، من خشب صلب، معزَّزَين بعوارض في النهاية غير قابلة للكسر. قال لينورمان: «نحتاج إلى فأس، أو على الأقل أداة جدية، سكين حتى. يُمكننا محاولة قطع المكان المحتمل للمزلاج به، وليس لدينا شيء». أصابته نوبة غضب مفاجئة، واندفع نحو العائق، كما لو كان يأمل في إزالته. ثم عاجزًا، مهزومًا، قال لجوريل: «اسمع، سنرى ذلك في ساعة أو ساعتين، أنا منهك، سأنام. راقِب خلال هذا الوقت، وإذا جاءوا لمهاجمتنا...». قال جوريل كرجل كان سيرتاح من أجل المعركة، مهما كانت غير متكافئة: «آه! إذا جاءوا، سنكون في أمان يا سيدي».

استلقى السيد لينورمان على الأرض، بعد دقيقة كان نائمًا. عندما استيقظ، ظل لبضع ثوانٍ مترددًا، غير فاهم، وتساءل أيضًا عن نوع الألم الذي كان يعذبه. نادى: «جوريل، حسنًا! جوريل؟». لم يحصل على إجابة، فشَغَّل مصباحه، ورأى جوريل بجانبه نائمًا بعمق. فكر: «ما الذي يجعلني أعاني هكذا؟ إنها آلام حقيقية. آه! لكن أنا جائع! ببساطة، أموت جوعًا! ما الساعة الآن؟». كانت ساعته تشير إلى السابعة وعشرين دقيقة، لكنه تذكر أنه لم يُعبئها[1]. ساعة جوريل أيضًا لم تكن تعمل، ومع ذلك، وبما أن جوريل استيقظ بسبب آلام المعدة نفسها، قدَّرا أن وقت الغداء قد فات بكثير، وأنهما قد ناما بالفعل جزءًا من اليوم.

قال جوريل: «ساقاي مخدرتان تمامًا، وقدماي كأنهما في الجليد. يا له من شعور غريب!». أراد أن يُدلِّك جسده، وأضاف: «عجبًا، لكن قدماي لم تكونا في الجليد، بل في الماء. انظر يا سيدي، من جهة الباب الأول هناك بركة حقيقية».

- تسربات. لنعد إلى الباب الثاني، ستجف هناك.

- لكن ماذا ستفعل يا سيدي؟

- هل تعتقد أنني سأسمح بدفني حيًّا في هذا القبو؟ لا، لست بهذا العمر بعد. بما أن البابَين مغلقان، دعنا نحاول اختراق الجدران.

(1) الساعات الميكانيكية في ذلك الوقت كانت تحتاج إلى أن يدور الزنبرك الداخلي فيها بانتظام حتى تستمر في العمل. (المترجم)

بدأ ينزع الحجارة البارزة على مستوى يده الواحدة تلو الأخرى، على أمل فتح ممر آخر ينحدر إلى مستوى الأرض. لكن العمل كان طويلًا وشاقًا، لأن الحجارة في هذا الجزء من النفق كانت مثبتة بالأسمنت. تَمتَم جوريل بصوت مختنق: «سيدي! سيدي!».

- ماذا؟

- قدماك في الماء.

- حقًّا؟ نعم. حسنًا، ماذا تريد؟! سنجف تحت أشعة الشمس.

- لكنك لا ترى إذًا؟

- ماذا؟

- إنه يرتفع يا سيدي، إنه يرتفع.

- ما الذي يرتفع؟

- الماء.

شعر السيد لينورمان بقشعريرة تسري في جسده، فهم كل شيء فجأة. لم تكن هذه تسربات عرضية، بل فيضانًا مدبرًا بمهارة يحدث آليًّا، بشكل لا يقاوم، بفضل نظام شيطاني ما. صَرَّ بأسنانه وقال: «آه! يا للنذل، إذا أمسكت به يومًا».

- نعم، نعم يا سيدي، لكن علينا أولًا الخروج من هنا، وبالنسبة إليَّ...

بدا جوريل منهارًا تمامًا، غير قادر على التفكير في فكرة أو اقتراح خطة. ركع السيد لينورمان على الأرض وقاس سرعة ارتفاع الماء. كان قرابة ربع الباب الأول مغطى، والماء يتقدم حتى منتصف المسافة إلى الباب الثاني: «التقدم بطيء، لكنه مستمر. في غضون ساعات قليلة، سيصل إلى فوق رؤوسنا». تأوه جوريل: «هذا مروِّع يا سيدي، إنه فظيع».

- آه! اسمع، لن تزعجنا بنواحك، أليس كذلك؟ ابكِ إذا كان ذلك يسليك، لكن لا تجعلني أسمعك.

- إنه الجوع الذي يضعفني يا سيدي، ورأسي يدور.

- كُل قبضة يدك.

كما قال جوريل، كان الوضع مروِّعًا، ولو كان السيد لينورمان أقل عزيمة، لكان استسلم لمعركة عبثية كهذه. ماذا يمكن أن يفعل؟ لم يكن هناك أمل

في أن يكون لدى ريبيرا الرحمة ليفتح لهما الطريق. ولم يكن هناك أمل أكبر في أن يتمكّن الأخوان دوديفيل من إنقاذهما، لأن المفتشَيْن لم يكونا على علم بوجود هذا النفق. لذلك، لم يبق أي أمل، سوى أمل في معجزة مستحيلة. كرر السيد لينورمان: «دعنا نرَ، دعنا نرَ، هذا سخيف للغاية، لن نموت هنا! يا إلهي! يجب أن يكون هناك شيء ما. أنِر لي المكان يا جوريل».

ملتصقًا بالباب الثاني، فحصه من أسفل إلى أعلى، في جميع الزوايا. كان هناك من هذا الجانب، كما هو الحال على الأرجح من الجانب الآخر، مزلاج، مزلاج ضخم. باستخدام شفرة سكينه، فك براغيه، وانفصل المزلاج. سأل جوريل: «وماذا بعد ذلك؟».

- بعد ذلك، حسنًا، هذا المزلاج من الحديد، طويل بما فيه الكفاية، شبه مُدبب. من المؤكد أن الفأس ليست بالخيار الجيد لكنها أفضل من لا شيء و...

دون إكمال جملته، غرز الأداة في جدار النفق، قليلًا قبل عمود البناء الذي يدعم مفصلات الباب. كما كان يتوقع، فورَ اختراق الطبقة الأولى من الأسمنت والحجارة، وجد التربة اللينة: «لنبدأ العمل!».

- حسنًا يا سيدي، لكن اشرح لي.

- الأمر بسيط، علينا أن نحفر، حول هذا العمود، ممرًّا بطول ثلاثة أو أربعة أمتار يصل إلى النفق خلف الباب ويسمح لنا بالهروب.

- لكن هذا سيستغرق ساعات، وفي هذه الأثناء يرتفع الماء.

- أنِر لي يا جوريل.

كانت فكرة السيد لينورمان صائبة، وببعض الجهد، وبجذب التراب الذي كان يهاجمه أولًا بالأداة وإسقاطه في النفق، لم يستغرق وقتًا طويلًا حتى حفر ثقبًا كبيرًا بما يكفي للزحف فيه. قال جوريل: «دوري يا سيدي!».

- آه! آه! عُدت إلى الحياة؟ حسنًا، اعمل. عليك فقط أن تتبع محيط العمود.

في هذه اللحظة، كان الماء يصل إلى كاحليهما. هل سيكون لديهما الوقت لإنهاء العمل الذي بدأه؟ كلما تقدما أصبح الأمر أكثر صعوبة، لأن التربة المحفورة كانت تُعيقهما أكثر. مستلقيان على بطنيهما في الممر، كانا مضطرين باستمرار لإزالة الأنقاض التي كانت تسده. بعد ساعتين، ربما كان العمل قد أُنجز بنسبة ثلاثة أرباعه، لكن الماء كان يغطي ساقيهما. ساعة

أخرى، وسيصل إلى فتحة الثقب الذي كانا يحفرانه. هذه المرة، ستكون النهاية.

جوريل المنهك من نقص الطعام، وذو البنية الجسدية الضخمة جدًّا بدرجة لا تناسب الذهاب والإياب في هذا الممر الذي يضيق باستمرار، اضطر للاستسلام. لم يعد يتحرك، يرتجف من القلق وهو يشعر بهذا الماء البارد يدفنه تدريجيًّا. أمَّا السيد لينورمان، فكان يعمل بحماس لا يكل. عمل رهيب، عمل النمل الأبيض، يحدث في ظلام خانق. كانت يداه تنزفان، ويشعر باقتراب الإغماء من الجوع. كان يتنفس بصعوبة، فالهواء غير كافٍ، ومن وقت لآخر، كانت تنهدات جوريل تذكره بالخطر المروِّع الذي يهدده في قاع جحره، لكن لا شيء كان يمكن أن يثبط عزيمته، لأنه الآن وجد أمامه تلك الأحجار المثبتة بالأسمنت التي تشكل جدار النفق. كان هذا هو الجزء الأصعب، لكن الهدف كان يقترب. صرخ جوريل بصوت مختنق: «إنه يرتفع، إنه يرتفع». ضاعف السيد لينورمان جهوده. فجأة، انطلق قضيب المزلاج الذي كان يستخدمه في الفراغ. حُفِر الممر. لم يبق سوى توسيعه، وهو ما أصبح أسهل بكثير الآن، حيث يمكنه رمي المواد أمامه.

كان جوريل، المجنون من الرعب، يطلق صرخات حيوان يحتضر. لم يتأثر رئيسه بذلك؛ كان الخلاص في متناول يده. ومع ذلك، شعر ببضع ثوانٍ من القلق عندما لاحظ، من صوت المواد المتساقطة، أن هذا الجزء من النفق كان مليئًا بالماء أيضًا، وهو أمر طبيعي، حيث إن الباب لم يكن يُشكل سدًّا محكمًا بما فيه الكفاية. لكن ما أهمية ذلك! المخرج كان حرًّا. جهد أخير. صرخ وهو يعود للبحث عن رفيقه: «تعال يا جوريل». سحبه وهو نصف ميت، من معصميه: «هيا، انتفض أيها الأحمق، فنحن في أمان».

- هل تعتقد ذلك يا سيدي؟ هل تعتقد ذلك؟ الماء يصل إلى صدورنا.
- استمِر، ما دام لم يصل إلى فوق أفواهنا. وفانوسك؟
- لم يعد يعمل.
- لا بأس.

أطلق صيحة فرح: «درجة، درجتان! سلم! أخيرًا!». كانا يخرجان من الماء، ذلك الماء الملعون الذي كاد يبتلعهما، وكان شعورًا رائعًا بالخلاص لهما. همس السيد لينورمان: «توقف!». اصطدم رأسه بشيء ما. مدَّ ذراعيه،

ودفع العائق الذي استسلم على الفور. كان مصراع باب سقفي، وعندما فُتِح هذا الباب، وجدا نفسيهما في قبو حيث كان يتسرب -من خلال فتحة تهوية- ضوء ليلة صافية. قلَّب المصراع وتسلق الدرجات الأخيرة، سقط ستار عليه، أمسَكَت به أذرع مجهولة. شعر كما لو أنه ملفوف ببطانية، نوع من الأكياس، ثم قُيِّد بحبال. قال صوت: «إلى الآخر». لا بد أنهم قد نفذوا العملية نفسها مع جوريل، وقال الصوت نفسه: «إذا صرخا، اقتلهما على الفور. هل معك خنجرك؟».

- نعم.

- هيا بنا. أنتما الاثنان، خذا هذا. وأنتما الاثنان خذا ذاك. لا ضوء، ولا ضجيج أيضًا. سيكون الأمر خطِرًا! منذ الصباح وهم يفتشون الحديقة المجاورة، هناك عشرة أو خمسة عشر يتحركون. عودي إلى الجناح يا جيرترود، وإذا حدث أي شيء، اتصلي بي هاتفيًا في باريس». شعر السيد لينورمان بأنهم يحملونه، ثم بعد لحظة، شعر بأنهم في الخارج. قال الصوت: «قرب العربة».

سمع السيد لينورمان صوت عربة وحصان. وضعوه على ألواح خشبية، رُفِع جوريل إلى جانبه. انطلق الحصان يعدو. استمرت الرحلة قرابة نصف ساعة. أمر الصوت: «توقف! أنزلوهما. هيا! أيها السائق، أدر العربة بحيث تلامس مؤخرتها حاجز الجسر. جيد. لا توجد قوارب على نهر السين؟ لا؟ إذًا، لا ينبغي أن نضيع الوقت. آه! هل ربطتم لهما أحجارًا؟».

- نعم، أحجار الرصيف.

- في هذه الحالة، هيا بنا. استودع روحك لله، يا سيد لينورمان، وصلِّ من أجلي أنا، باربري-ريبيرا، المعروف أكثر باسم البارون ألتنهايم. هل كل شيء جاهز؟ حسنًا، رحلة سعيدة يا سيد لينورمان!

وُضِع السيد لينورمان على الحاجز. دفعوه، شعر بأنه يسقط في الفراغ، وسمع الصوت يضحك ساخرًا: «رحلة سعيدة!». بعد عشر ثوانٍ، جاء دور العريف جوريل.

الجزء السادس

باربري-ريبيرا- ألتنهايم

الفصل الأول

تلعب الفتيات الصغيرات في الحديقة تحت إشراف الآنسة شارلوت، المتعاونة الجديدة مع جنفييف. وزَّعت السيدة إرنمون الكعك عليهن، ثم عادت إلى الغرفة التي تُستخدم كصالة استقبال وغرفة جلوس، وجلست أمام مكتبٍ ورتبت أوراقه وسجلاته. فجأة، شعرت بوجود شخص غريب في الغرفة. التفتت بقلق. صاحت: «أنت! من أين أتيت؟ من أين؟». قال الأمير سيرنين: «اصمتي، استمعي إليَّ ولا تضيعي دقيقة واحدة. أين جنفييف؟».

- في زيارة للسيدة كيسيلباخ.
- متى ستعود؟
- ليس قبل ساعة.
- إذًا، سأدع الأخوين دوديفيل يأتيان، لديَّ موعد معهما. كيف حال جنفييف؟
- جيدة جدًّا.
- كم مرة رأت بيير ليدوك منذ رحيلي منذ عشرة أيام؟
- ثلاث مرات، ويجب أن تلتقيه اليوم عند السيدة كيسيلباخ التي قدَّمته إليها، وفقًا لأوامرك. فقط، سأقول لك إن هذا البيير ليدوك لا يعجبني كثيرًا. ربما تحتاج جنفييف إلى العثور على شاب طيب من طبقتها، المُعلم مثلًا.
- أنت مجنونة! جنفييف تتزوج معلم مدرسة!
- آه! لو فكرت أولًا في سعادة جنفييف.

- اسكتي يا فيكتوار، أنتِ تزعجينني بكل هذه الثرثرة. هل لديَّ الوقت للعاطفة؟ أنا ألعب مباراة شطرنج، وأحرك قطعي دون الاهتمام بما تفكرين فيه. عندما أفوز بالمباراة، سأهتم بمعرفة ما إذا كان للفارس بيير ليدوك والملكة جنفييف قلب.

قاطعته: «هل سمعت؟ صفارة!».

- إنهما الأخوان دوديفيل. اذهبي لإحضارهما، واتركينا.

فورَ دخول الأخوين، استجوبهما بدقته المعتادة: «أعرف ما قالته الصحف عن اختفاء لينورمان وجوريل. هل تعرفان المزيد؟».

- لا. تولَّى نائب مدير الأمن، السيد ويبر، القضية. منذ ثمانية أيام ونحن نفتش حديقة دار المسنات، ولا نستطيع تفسير كيف اختفيا. كل القسم في حالة استنفار، لم نرَ مثل هذا من قبل، مدير الأمن يختفي دون أن يترك أثرًا!

- والخادمتان؟

- غادرت جيرترود. ويبحثون عنها.

- وأختها سوزان؟

- استجوبها السيد ويبر والسيد فورميري، لا يوجد شيء ضدها.

- هذا كل ما لديكما لتقولاه لي؟

- أوه! لا، هناك أشياء أخرى، كل ما لم نقُله للصحف.

ثم رويا الأحداث التي ميزت اليومين الأخيرَين للسيد لينورمان، الزيارة الليلية لاثنين من اللصوص في فيلا بيير ليدوك، ثم في اليوم التالي، محاولة الاختطاف التي نفذها ريبيرا، والمطاردة عَبْر غابات سان كيكوفا، ثم وصول شتاينفيج العجوز، واستجوابه في مقر الأمن أمام السيدة كيسيلباخ، وتهريبه من قصر العدل.

- ولا أحد سواكما يعرف أيًّا من هذه التفاصيل؟

- ديوزي يعرف بحادثة شتاينفيج، في الواقع هو من أخبرنا بها.

- وما يزالون يثقون بكما في مقر الشرطة؟

- ثقة كبيرة جدًّا، لدرجة أن السيد ويبر لا يقسم إلا بنا.

- حسنًا، لم يضِع كل شيء. إذا كان السيد لينورمان قد ارتكب بعض التهور الذي كلفه حياته كما أفترض، فقد أدى -على أي حال- عملًا جيدًا من قبل، وما علينا سوى المتابعة. العدو متقدم، لكننا سنلحق به.

- سيكون الأمر صعبًا يا سيدي.

- لماذا؟ الأمر بسيط، علينا فقط العثور على شتاينفيج العجوز، لأنه هو من يملك مفتاح اللغز.

- نعم، لكن أين خبأ ريبيرا العجوز شتاينفيج؟

- في منزله، بالطبع.

- إذًا، يجب أن نعرف أين يقيم ريبيرا.

- بالطبع!

بعد أن صرفهما، توجه إلى دار المسنات. كانت هناك سيارات متوقفة عند الباب، ورجلان يذهبان ويجيئان، كما لو كانا يحرسان. في الحديقة، بالقرب من جناح السيدة كيسيلباخ، رأى جنفييف وبيير ليدوك ورجلًا بدينًا يرتدي نظارة أحادية يجلسون على مقعد. كان الثلاثة يتحدثون. لم يره أحدٌ منهم، لكن خرج عدة أشخاص من الجناح. كانوا السيد فورميري، والسيد ويبر، وكاتب، ومفتشَين. دخلت جنفييف، وتحدث الرجل ذو النظارة الأحادية مع القاضي ونائب مدير الأمن، وابتعد ببطء معهما.

اقترب سيرنين من المقعد، حيث كان بيير ليدوك جالسًا وهمس: «لا تتحرك، يا بيير ليدوك، إنه أنا».

- أنت! أنت!

نعم، هذه هي المرة الثالثة التي يرى فيها الشاب سيرنين منذ الليلة المروِّعة في فرساي، وفي كل مرة كان ذلك يزعزعه. قال له: «أجب! من الرجل ذو النظارة الأحادية؟». تلعثم بيير ليدوك، وشحب وجهه. ضغط سيرنين على ذراعه: «أجب، اللعنة! من هو؟».

- البارون ألتنهايم.

- من أين أتى؟

- كان صديقًا للسيد كيسيلباخ. وصل من النمسا قبل ستة أيام، ووضع نفسه في خدمة السيدة كيسيلباخ.

كان القضاة قد خرجوا من الحديقة، وكذلك البارون ألتنهايم. سأله: «هل استجوبك البارون؟».

- نعم، كثيرًا. حالتي تثير اهتمامه. يريد مساعدتي في العثور على عائلتي، ويستحضر ذكريات طفولتي.
- وماذا تقول له؟
- لا شيء، لأنني لا أعرف شيئًا. هل لديَّ ذكريات أصلًا؟ لقد وضعتني مكان شخص آخر، ولا أعرف حتى مَن هذا الآخر.

ضحك الأمير ساخرًا: «أنا أيضًا لا أعرف! وهذا بالضبط ما يجعل حالتك غريبة».

- آه! أنت تضحك، تضحك دائمًا. لكنني بدأتِ أسأم من هذا. أنا متورط في الكثير من الأمور القذرة، دون احتساب الخطر الذي أواجهه بلعب دور شخص آخر.
- كيف؟ لست أنت؟ أنت دوق على الأقل بقدر ما أنا أمير، ربما أكثر حتى. ثم إن لم تكن كذلك، فلتصبح كذلك، اللعنة! جنفييف لا يمكنها أن تتزوج إلا دوقًا. انظر إليها، ألا تستحق جنفييف أن تبيع روحك من أجل أعينها الجميلة؟!

دخلا، وعند أسفل الدرج، ظهرت جنفييف، رشيقة ومبتسمة. قالت للأمير: «لقد عدت! آه! هذا أفضل! أنا سعيدة. هل تريد رؤية السيدة كيسيلباخ؟». بعد لحظة، أدخلته إلى غرفة السيدة كيسيلباخ. كانت نحيلة كما في آخر يوم رآها فيه، مستلقية على أريكة، ملفوفة بأقمشة بيضاء، بدت مثل أولئك المرضى الذين يستسلمون للصراع. فهي لم تَعُد تتصارع مع الحياة بعد الآن ضد القدر الذي يثقلها بضرباته. نظر إليها سيرنين بشفقة عميقة، وبعاطفة لم يحاول إخفاءها. شكرته على التعاطف الذي أظهره لها، تحدثت أيضًا عن البارون ألتنهايم، بعبارات ودية. سألها: «هل كنت تعرفينه من قبل؟».

- بالاسم نعم، ومن خلال زوجي الذي كان على علاقة وثيقة به.
- لقد قابلت شخصًا من عائلة ألتنهايم يسكن في شارع دارو. هل تعتقدين أنه هو الشخص نفسه؟
- أوه لا؛ هذا يسكن... في الواقع، لست متأكدة تمامًا، لقد أعطاني عنوانه، لكنني لا أستطيع القول.

بعد بضع دقائق من المحادثة، ودَّعها سيرنين. في الردهة، كانت جنفييف تنتظره. قالت بسرعة: «عليَّ أن أتحدث إليك، هناك أمور خطِرة. هل رأيته؟».

- مَن؟

- البارون ألتنهايم، لكن هذا ليس اسمه، أو على الأقل لديه اسم آخر. لقد تعرَّفت عليه، إنه لا يشك في ذلك.

كانت تجره إلى الخارج وهي تمشي بانفعال شديد. قال لها: «هدئي من روعك، يا جنفييف».

- إنه الرجل الذي حاول اختطافي، لولا السيد لينورمان المسكين لكنت ضائعة. انظر، يجب أن تعرف، أنت الذي تعرف كل شيء.

- إذًا، ما اسمه الحقيقي؟

- ريبيرا.

- هل أنت متأكدة؟

- رغم أنه غيَّر وجهه ولهجته وسلوكه، فقد خمَّنتُ على الفور، من الرعب الذي يثيره في نفسي. لكنني لم أقل شيئًا، حتى عودتك.

- هل قلتِ شيئًا للسيدة كيسيلباخ؟

- لا شيء. بدت سعيدة جدًّا للعثور على صديق زوجها. لكنك ستخبرها، أليس كذلك؟ ستدافع عنها. لا أعرف ما الذي يخطط له ضدها، ضدي. الآن بعد اختفاء السيد لينورمان، لم يعد يخشى شيئًا، إنه يتصرف كسيِّد. من يستطيع كشفه؟

- أنا. أنا أتكفل بكل شيء، لكن لا تقولي كلمة لأحد.

كانا قد وصلا أمام كشك البوابين. فُتِح الباب. قال الأمير مرة أخرى: «وداعًا يا جنفييف، وكوني مطمئنة. أنا هنا».

أغلق الباب، استدار، وفورًا، تراجع بحركة خفيفة. كان أمامه -واقفًا برأسٍ مرفوع، وكتفين عريضتين، وجسمٍ قوي، كان الرجل ذو النظارة الأحادية- البارون ألتنهايم. نظرا إلى بعضهما بعضًا ثانيتين أو ثلاثًا، في صمت. كان البارون يبتسم. قال: « كنت أنتظرك، يا لوبين».

رغم تحكمه في نَفسِه، ارتعش سيرنين. جاء ليكشف خصمه، وها هو خصمه قد كشفه، من أول وهلة. وفي الوقت نفسه، كان هذا الخصم يتحدى

المواجهة، بجرأة ووقاحة، كما لو كان متأكدًا من النصر. كانت الإيماءة جريئة وأثبتت قوة هائلة.

قاس الرجلان بعضهما بعضًا بنظراتهما، في عداء شديد.

قال سيرنين: «وماذا بعد؟».

- وماذا بعد؟ ألا تعتقد أننا بحاجة إلى مقابلة بعضنا بعضًا؟

- لماذا؟

- لديَّ ما أقوله لك.

- أي يوم تريد؟

- غدًا. سنتناول الغداء معًا في المطعم.

- لماذا ليس في منزلك؟

- أنت لا تعرف عنواني.

- بلى.

التقط الأمير بسرعة صحيفة كانت تبرز من جيب ألتنهايم، صحيفة لا تزال تحمل شريط الإرسال، وقال: «29، فيلا دوبون».

قال الآخر: «حسنًا فعلت. إذًا، إلى الغد، في منزلي».

- إلى الغد، في منزلك. في أي ساعة؟

- في الساعة الواحدة بالضبط.

- سأكون هناك، تحياتي.

كانا على وشك الانفصال. توقف ألتنهايم: «آه! كلمة أخرى، أيها الأمير. احمل أسلحتك».

- لماذا؟

- لديَّ أربعة خدم، وستكون وحيدًا.

قال سيرنين: «لدي قبضتاي، ستكون المباراة متكافئة». أدار له ظهره، ثم ناداه مرة أخرى: «آه! كلمة أخرى يا بارون. وظِّف أربعة خدم آخرين».

- لماذا؟

- لقد فكرت في الأمر. سأحضر بسَوطِي.

الفصل الثاني

في الساعة الواحدة بالضبط، عَبَر فارسٌ بوابة فيلا دوبون، وهو شارع هادئ في المقاطعة، له مخرج واحد فقط يؤدي إلى شارع بيرغوليز، على بُعد خطوات من شارع البوا. تحيط به الحدائق والفنادق الجميلة، وهو في نهايته مغلق بحديقة صغيرة، حيث يوجد منزل قديم وكبير يمر بجانبه خط السكة الحديد الدائري. هناك، في الرقم 29، كان يعيش البارون ألتنهايم. ألقى سيرنين بلجام حصانه إلى خادم أرسله مسبقًا، وقال له: «أعده في الساعة الثانية والنصف».

رَنَّ الجرس. عندما فُتِح باب الحديقة، توجه نحو الشرفة حيث كان ينتظره رجلان ضخمان بالزي الرسمي، أدخلاه إلى ردهة حجرية ضخمة، باردة وخالية من أي زخرفة. أُغلِق الباب خلفه بصوت مكتوم، وعلى الرغم من شجاعته التي لا تقهر، فإنه شعر بانطباع مؤلم لكونه وحيدًا، محاطًا بالأعداء، في هذا السجن المعزول.

أعلنوا مجيءَ الأمير سيرنين. كانت الصالة قريبة، أُدخل إليها على الفور. قال البارون وهو يتقدم نحوه: «آه! ها أنت ذا، عزيزي الأمير. حسنًا! تخيَّل. دومينيك، الغداء بعد عشرين دقيقة. حتى ذلك الحين دعونا وحدنا. تخيَّل، عزيزي الأمير، إنني لم أكن أعتقد كثيرًا أنك ستأتي».

- آه! لماذا؟

- حسنًا، إعلان حربك هذا الصباح واضح جدًّا لدرجة أن أي لقاء غير مجدٍ.

- إعلان حربي؟

فتح البارون نسخة من الجريدة الكبرى، وأشار بإصبعه إلى مقال مكتوب كالتالي:

*«**بلاغ**. إن اختفاء السيد لينورمان لم يمر دون أن يثير أرسين لوبين. بعد تحقيق موجز، وكمتابعة لمشروعه في توضيح قضية كيسيلباخ، قرر أرسين لوبين أنه سيجد السيد لينورمان حيًّا أو ميتًا، وسيُسلم للعدالة مرتكب أو مرتكبي هذه السلسلة البشعة من الجرائم».*

- هذا البلاغ منك، عزيزي الأمير؟
- إنه مني بالفعل.
- بالتالي، كنت على حق، إنها الحرب.
- نعم.

أَجلَس ألتنهايم الأمير سيرنين. جلس هو نفسه، وقال له بنبرة توفيقية: «حسنًا، لا، لا يمكنني قبول ذلك. من المستحيل أن يتحارب رجلان مثلنا ويؤذيا بعضهما بعضًا. ما علينا سوى التوضيح، والبحث عن الوسائل؛ نحن مخلوقان للتفاهم».

- أَظُن على العكس، إن رجلين مثلنا ليسا مخلوقين للتفاهم.

كبت الآخر إيماءة نفاد صبر وتابع: «اسمع يا لوبين، بالمناسبة، هل تسمح لي بمناداتك لوبين؟».

- كيف سأناديك أنا؟ ألتنهايم، ريبيرا، أم باربري؟
- أوه! أوه! أرى أنك أكثر اطلاعًا مما اعتقدت! يا للعجب! أنت مستعد للهجوم، سبب إضافي للاتفاق.

انحنى نحوه: «اسمع يا لوبين، فكر جيدًا في كلماتي، ليست هناك كلمة واحدة لم أزنها بعناية. إليك، نحن متكافئان في القوة. أنت تبتسم؟ هذا خطأ. قد تكون لديك موارد ليست لديَّ، لكن لديَّ أنا موارد أنت تجهلها. بالإضافة إلى ذلك، كما تعلم، ليس لديَّ الكثير من الضمير، المهارة، والقدرة على تغيير الشخصية التي يجب أن يقدرها سيد مثلك. باختصار، الخصمان متساويان.

لكن يبقى سؤال: لماذا نحن خصوم؟ نحن نسعى وراء الهدف نفسه، ستقول: وماذا بعد ذلك؟ هل تعرف ما سيحدث من تنافسنا؟ أن كل واحدٍ منَّا يَشلُّ جهود الآخر ويدمر عمله، وسنفشل كلانا في الهدف! لمصلحة من؟ لينورمان ما أو لص ثالث! هذا غباء شديد».

اعترف سيرنين: «إنه غباء شديد بالفعل، لكن هناك وسيلة».

- ما هي؟

- انسحب أنت.

- لا تمزح. الأمر جاد. العرض الذي سأقدمه لك من تلك العروض التي لا يمكن رفضها دون دراستها. باختصار، في كلمتين، إليك: لنتحالف.

- أوه! أوه!

- بالطبع، سنبقى أحرارًا، كلٌّ على حدة، فيما يخصنا. لكن بالنسبة إلى القضية المعنية، نضافر جهودنا معًا. هل يناسبك ذلك؟ يدًا بيد، والقسمة اثنين.

- ماذا تقدم؟

- أنا؟

- نعم. أنت تعرف ما أنا عليه؛ لقد أثبتُّ جدارتي. في التحالف الذي تقترحه عليَّ، أنت تعرف تقريبًا ما أريد. ماذا تريد أنت؟

- شتاينفيج.

- هذا قليل.

- إنه هائل. بواسطة شتاينفيج، نعرف حقيقة بيير ليدوك. بواسطة شتاينفيج، نعرف ما هو المشروع الشهير لكيسيلباخ.

انفجر سيرنين ضاحكًا: «وهل تحتاجني في ذلك؟».

- كيف؟

- انظر يا صغيري، عرضك سخيف. بما أن شتاينفيج بين يديك، إذا كنت ترغب في تعاوني، فهذا يعني أنك لم تنجح في جعله يتكلم، وإلا لكنت استغنيت عن خدماتي.

- وماذا بعد؟

- إذن، أرفض عرضك!

نهض الرجلان مرة أخرى، متجهمان وعنيفان. نطق سيرنين: «أرفض. لوبين لا يحتاج إلى أحد للعمل. أنا من أولئك الذين يسيرون وحدهم. لو كنت نِدًّا لي، كما تدَّعي، لما خطرت لك فكرة التحالف أبدًا. عندما يكون المرء بحجم قائد فإنه يأمر. التحالف يعني الطاعة. أنا لا أطيع!».

كرر ألتنهايم، وقد شحب وجهه من الإهانة: «أنت ترفض؟ أنت ترفض؟».

- كل ما يمكنني فعله من أجلك يا صغيري، هو أن أعرض عليك مكانًا في فرقتي. جندي بسيط، للبداية. تحت أوامري، سترى كيف يربح جنرال معركة، وكيف يضع الغنيمة في جيبه، له وحده، ومن أجله وحده. هل يعجبك ذلك أيها الجندي الصغير؟

كان ألتنهايم يصرُّ على أسنانه، لا يتحكم في نفسه. تَمتَم: «أنت مخطئ يا لوبين، أنت مخطئ. أنا أيضًا لست بحاجة إلى أحد، وهذه القضية لا تربكني أكثر من القضايا الأخرى التي أنجزتها حتى النهاية. ما قلته كان من أجل الوصول إلى الهدف بشكل أسرع، ودون إزعاج».

قال لوبين، بازدراء: «أنت لا تزعجني».

- هيا إذًا! إذا لم نتحالف، فواحد فقط سيصل.

- هذا يكفيني.

- ولن يصل إلا بعد أن يمر فوق جثة الآخر. هل أنت مستعد لهذا النوع من المبارزة يا لوبين؟ مبارزة حتى الموت، هل تفهم؟ طعنة السكين، إنها وسيلة تحتقرها، ولكن ماذا لو تلقيتها هنا يا لوبين؟ في حلقك مباشرة؟

- آه! آه! في النهاية، هذا ما تقترحه عليَّ؟

- لا، أنا لا أحب الدم كثيرًا، انظر إلى قبضتي، أنا أضرب والناس يسقطون. لديَّ ضربات خاصة بي، لكن الآخر يقتل. تذكر، الجرح الصغير في الحلق. آه! ذلك الشخص. لوبين، احذر منه. إنه رهيب ولا يرحم، لا شيء يوقفه.

نطق هذه الكلمات بصوت منخفض، وبانفعال شديد لدرجة أن سيرنين ارتعش من الذكرى البغيضة للمجهول. سخِر سيرنين: «سيادة البارون، يبدو أنك تخاف شريكك!».

- أخاف على الآخرين، على أولئك الذين يعترضون طريقنا، عليك يا لوبين. اقبل وإلا فأنت هالك. أنا نفسي، إذا لزم الأمر، سأتصرف. الهدف قريب جدًّا، أنا ألمسه. اذهب يا لوبين!

كان قويًّا، لديه طاقة وإرادة محمومة، وكان وحشيًّا لدرجة أنه بدا مستعدًّا لضرب العدو على الفور. رفع سيرنين كتفيه، قال وهو يتثاءب: «يا إلهي! كم أنا جائع! كم يتأخر تناول الطعام عندك!». فُتِح الباب. أعلن رئيس الخدم: «الطعام جاهز، سيدي».

- آه! هذا كلام جيد!

على عتبة الباب، أمسك ألتنهايم بذراعه، ودون الاهتمام بوجود الخادم: «نصيحة جيدة، اقبل. الوقت خطِر، والعرض جيد، أقسم لك، إنه الأفضل. اقبل!».

صاح سيرنين: «كافيار! آه! هذا لطيف جدًّا. لقد تذكرت أنك تستضيف أميرًا روسيًّا».

جلسا وجهًا لوجه، وأخذ كلب الصيد الخاص بالبارون -وهو حيوان كبير ذو شعر فضي طويل- مكانه بينهما: «أقدم لك سيريوس، أوفى أصدقائي».

قال سيرنين: «كلب روسي، من بلدي. لن أنسى أبدًا ذلك الذي تفضل القيصر بإعطائه لي عندما كان لي شرف إنقاذ حياته».

- آه! كان لك الشرف. مؤامرة إرهابية بلا شك؟

- نعم، مؤامرة نظمتها. هل تصدق أن هذا الكلب الذي كان يُسمى سيباستوبول.

استمر الغداء بمرح، واستعاد ألتنهايم مزاجه الجيد، وتبارى الرجلان في الذكاء والكياسة. حكى سيرنين قصصًا مضحكة، فردَّ عليه البارون بقصص أخرى، وكانت هذه القصص عن الصيد والرياضة والسفر، حيث ظهرت فيها باستمرار أسماء أوروبا العريقة، من نبلاء إسبانيا، وسادة إنجلترا، والمجريين، والدوقات النمساويين. قال سيرنين: «آه، يا له من عمل جميل هذا الذي نقوم به! إنه يضعنا على اتصال مع أفضل الناس على وجه الأرض. هنا يا سيريوس، قليل من هذا الدجاج المحشو بالكمأة».

لم يفارق الكلب عينيه، وكان يلتهم كل ما يقدمه له سيرنين في لقمة واحدة. قال البارون: «كأس من الشامبيرتان يا أمير؟».

- بكل سرور سيادة البارون.
- أوصيك به، إنه من قبو الملك ليوبولد.
- هدية؟
- نعم، هدية قدَّمتها لنفسي.
- إنه لذيذ، له رائحة زكية! مع فطيرة الكبد هذه، إنها اكتشاف. تحياتي سيادة البارون، طاهيك من الدرجة الأولى.
- طاهية يا أمير. لقد أخذتها بثمن باهظ من ليفرود، النائب الاشتراكي. جرِّب هذا البارد بالكاكاو، وألفتُ انتباهك إلى الكعك الجاف الذي يرافقه. هذه الكعكات، إنها اختراع عبقري.
- إنها جذابة الشكل على أي حال. إذا كان كمالها في الشكل يضاهي طعمها... هنا، سيريوس، يجب أن تحب هذا. لوكست لم يكن ليحسن صنعه.

بسرعة أخذ إحدى الكعكات، وعرضها على الكلب. ابتلعها الكلب في لقمة واحدة، وبقي ثابتًا ثانيتين أو ثلاثًا، كما لو كان مذهولًا، ثم دار حول نفسه وسقط ميتًا.

تراجع سيرنين إلى الوراء حتى لا يُفاجأ بأحد الخدم، وبدأ يضحك قائلًا: «أخبرني يا بارون، عندما تريد تسميم أحد أصدقائك، حاول أن تظل هادئًا وألا ترتجف يداك، وإلا فإن المرء سيشك. لكني كنت أعتقد أنك تشمئز من القتل؟».

- من الطعن بالسكين، نعم. لكني لطالما أردت تسميم شخص ما. أردت أن أعرف كيف يكون طعمه.
- تبًّا يا رفيقي! تختار أهدافك بعناية. أمير روسي!

اقترب من ألتنهايم، وقال بنبرة خافتة: «هل تعرف ما الذي كان سيحدث لو نجحت؟! أي لو لم يرَ أصدقائي عودتي بحلول الساعة الثالثة على الأقل؟! حسنًا، في الساعة الثالثة ونصف، كان مدير الشرطة يعلم بالضبط ما يجب فعله بشأن من يُدعى البارون ألتنهايم، الذي كان سيُقبَض عليه قبل نهاية اليوم، ويُحتَجز في السجن.

قال ألتنهايم: «تافه! يمكن الهروب من السجن، بينما لا يمكن العودة من المملكة التي كنت سأرسلك إليها».

- بالتأكيد، لكن كان عليك أولًا إرسالي إليها، وهذا ليس سهلًا.
- كانت تكفي لقمة واحدة من إحدى هذه الكعكات.
- هل أنت متأكد من ذلك؟
- جرِّب.
- في النهاية، يا صغيري، ليس لديك بعد قوام سيد عظيم في المغامرة، وربما لن يكون لديك أبدًا، بما أنك تنصب لي فخاخًا من هذا النوع. عندما يعتقد المرء أنه جدير بقيادة الحياة التي لدينا شرف قيادتها، يجب أن يكون قادرًا على ذلك أيضًا، ولهذا، أن يكون مستعدًّا لجميع الاحتمالات، حتى لعدم الموت إذا حاول أي نذل تسميمك. روح شجاعة في جسد لا يُهزم، هذا هو المثال الذي يجب أن نسعى إليه، ونحققه. أنا جريء ولا يمكن اختراقي. تذكر الملك ميثريداتس[1].

وعاد للجلوس: «إلى المائدة الآن! لكن بما إنني أحب إثبات الفضائل التي أمنحها لنفسي، ومن ناحية أخرى، لا أريد إزعاج طباخك، أعطني إذًا هذا الطبق من الكعك».

أخذ واحدة، كسرها إلى نصفين، وقدم نصفًا للبارون: «كُل!». تراجع الآخر. قال سيرنين: «جبان!». وأمام أعين البارون ومساعديه المدهوشة، بدأ يأكل النصف الأول، ثم النصف الثاني من الكعكة، بهدوء، وبضمير، كما يأكل المرء حلوى يأسف على فقدان أصغر فتات منها.

---

(1) مثريدات (Mithridate) هو نوع من الترياق القديم أو المضاد للسموم. سُمِّيَ على اسم ميثريداتس السادس يوباتور، ملك بونتوس في القرن الأول قبل الميلاد. (المترجم)

الفصل الثالث

لقد التقيا مجددًا. في المساء ذاته، دعا الأمير سيرنين البارون ألتنهايم إلى الملهى الليلي فاتيال، وجعله يتناول العشاء مع شاعر وموسيقي ومنتج واثنتين من الممثلات الجميلات، أعضاء في المسرح الفرنسي. في اليوم التالي، تناولا الإفطار معًا في البوا، وفي المساء التقيا في الأوبرا. وكل يوم، طوال أسبوع، كانا يلتقيان. يبدو أنهما لم يستطيعا الاستغناء عن بعضهما بعضًا، وكأن صداقة كبيرة تجمعهما، مبنية على الثقة والتقدير والمودة. كانا يستمتعان كثيرًا، يشربان النبيذ الجيد، يدخنان السيجار الفاخر، ويضحكان بجنون.

في الواقع، كانا يترصدان بعضهما بعضًا بشراسة. عدوان قاتلان، تفصل بينهما كراهية وحشية، وكل منهما، واثق من الانتصار ويريد ذلك بإرادة لا تُكبَح، كان ألتنهايم ينتظر اللحظة المناسبة، ليقضي على سيرنين، وكان سيرنين ينتظر اللحظة الحاسمة ليدفع ألتنهايم إلى الهاوية التي يحفرها أمامه. كلاهما كان يدرك أن النهاية لا يمكن أن تتأخر. أحدهما أو الآخر سيفقد حياته، وكانت مسألة ساعات، أيام على الأكثر.

دراما مثيرة، يجب أن يتذوق رجل مثل سيرنين نكهتها الغريبة والقوية. معرفة خصمك والعيش إلى جانبه، والعلم بأنه عند أقل خطوة، عند أقل تهور، الموت هو ما ينتظرك، أي متعة هذه!

يومًا ما، في حديقة نادي شارع كامبون الذي كان ألتنهايم أيضًا عضوًا فيه، كانا بمفردهما، في ساعة الغسق حيث يبدأ الناس بتناول العشاء في شهر يونيو، وحيث لم يصل لاعبو المساء بعد. كانا يتجولان حول العشب، على طول جدار محاط بالشجيرات، يخترقه بابٌ صغير. وفجأة، بينما كان ألتنهايم

يتحدث، شعر سيرنين بأن صوته أصبح أقل ثباتًا، مرتعشًا تقريبًا. راقبه من زاوية عينه. كانت يد ألتنهايم مغروزة في جيب سترته، ورأى سيرنين، عَبْر القماش، تلك اليد التي كانت تتشبث بمقبض خنجر، مترددة، غير حاسمة، عازمة تارة، وبلا قوةٍ تارة أخرى. لحظة لذيذة! هل سيضرب؟ من سينتصر؟ الغريزة الخائفة التي لا تجرؤ، أم الإرادة الواعية، المتوترة تمامًا المتوجهة نحو فعل القتل؟

بصدر منتصب، والذراعين خلف ظهره، انتظر سيرنين، مع رعشات من القلق والمتعة. صمت البارون، وفي أثناء الصمت كانا يمشيان جنبًا إلى جنب. صاح الأمير: «اضرب إذًا!». توقف، والتفت نحو رفيقه، وقال: «اضرب إذًا، إنها اللحظة وإلا فلن تجدها أبدًا! لا أحد يستطيع رؤيتك. يمكنك الهرب عَبْر هذا الباب الصغير المُعلق مفتاحه بالمصادفة على الحائط. وإلى اللقاء، أيها البارون. لن يراك أحد، لن يعرفك أحد، لكني أفكر، كل هذا كان مخططًا له. أنت من أحضرني إلى هنا، وأنت تتردد؟ اضرب إذًا!».

كان ينظر إليه في أعماق عينيه. كان الآخر شاحبًا، يرتجف من طاقة عاجزة. سخر سيرنين: «جبان! لن أستطيع أن أفعل شيئًا بك. هل تريد أن أخبرك بالحقيقة؟ حسنًا، أنا أخيفك! نعم، أنت لست متأكدًا مما سيحدث لك عندما تكون في مواجهتي. أنت من يريد التصرف، لكن أفعالي، أفعالي المحتملة، هي التي تسيطر على الموقف. لا، بالتأكيد، أنت لست بعد الشخص الذي سيجعل نجمي يزول!».

لم يكد ينتهي من هذه الكلمة حتى شعر أنه ممسوكٌ من رقبته، ومسحوبٌ للخلف. شخصٌ ما، كان يختبئ وسط الشجيرات، بالقرب من الباب الصغير، قد أمسك به من رأسه. رأى ذراعًا ترتفع، مسلحة بسكين كانت شفرتها لامعة تمامًا. هبطت الذراع، وأصابه نصل السكين في حنجرته مباشرة. في اللحظة نفسها، قفز ألتنهايم عليه لينهي الأمر، وتدحرجا إلى أحواض الزهور. كان الأمر مسألة عشرين إلى ثلاثين ثانية على الأقل. مهما كان قويًا، ومدربًا على تمارين المصارعة، استسلم ألتنهايم تقريبًا على الفور، مطلقًا صرخة ألم. نهض سيرنين وركض نحو الباب الصغير الذي كان قد أغلق للتو على ظل قاتم للشخص الذي هرب. سمع صوت المفتاح في القفل، لم يستطع فتحه.

- آه! يا وغد! أقسم، اليوم الذي سأمسك بك فيه سيكون يوم جريمتي الأولى!

عاد، انحنى، وجمع قطع الخنجر الذي كان قد انكسر عند ضربه. بدأ ألتنهايم يتحرك. قال له: «حسنًا أيها البارون، هل تحسَّن حالك؟ لم تكن تعرف هذه الضربة، أليس كذلك؟ هذا ما أسميه الضربة المباشرة على الضفيرة الشمسية، أي إنها تطفئ شمسك الحيوية، مثل شمعة. إنها نظيفة، سريعة، دون ألم، وغير قابلة للفشل. بينما ضربة خنجر؟ بووه! كل ما عليك فعله هو ارتداء واقي رقبة صغير من شبكة الفولاذ». مدَّ له يده: «هيا، انهض يا بارون. أدعوك للعشاء، وتذكر جيدًا سِر تفوقي: روحٌ شجاعة في جسد لا يُهزم».

دخل صالونات النادي، حجز طاولةً لشخصين، جلس على أريكة وانتظر ساعة العشاء وهو يفكر: «بالطبع اللعبة مسلية، لكنها أصبحت خطِرة. يجب إنهاؤها وإلا، هؤلاء الحيوانات سيرسلونني إلى الجنة أسرع مما أريد. المزعج هو أنني لا أستطيع فعل شيء ضدهم قبل أن أجد العجوز شتاينفيج لأنه -في النهاية- هذا هو الشيء المهم، العجوز شتاينفيج. وإذا كنت أتشبث بالبارون، فذلك لأنني آمل دائمًا في جمع أي دليل. ماذا فعلوا به؟ لا شك أن ألتنهايم يتواصل معه يوميًا، لا شك أنه يحاول المستحيل لانتزاع المعلومات منه بشأن مشروع كيسيلباخ. ولكن أين يراه؟ أين أخفاه؟ عند الأصدقاء؟ أم في منزله في 29 من فيلا دوبون؟».

فكر لفترة طويلة، ثم أشعل سيجارة، وأخذ منها ثلاث نفثات ورماها. لا بد أن هذا كان إشارة، لأن شابين جاءا للجلوس بجانبه، بدا أنه لا يعرفهما، لكنه تحدث معهما خلسة. كانا الأخوين دوديفيل، بزي مدني في ذلك اليوم.

- ما الأمر يا زعيم؟

- خذا ستة من رجالنا، اذهبوا إلى 29 من فيلا دوبون، وادخلوا.

- تبًّا! كيف؟

- باسم القانون. ألستم مفتشي الأمن؟ عملية تفتيش.

- لكن ليس لدينا الحق.

- خذوه.

- والخدم؟

- هم فقط أربعة.

- إذا صرخوا؟

- لن يصرخوا.

- إذا عاد ألتنهايم؟

- لن يعود قبل الساعة العاشرة، سأتولى أمره. لديكم ساعتان ونصف. هذا أكثر مما تحتاجون لتفتيش المنزل من القاعدة إلى السطح. إذا وجدتم العجوز شتاينفيج، تعالوا لتخبروني.

اقترب البارون ألتنهايم، فتقدَّم نحوه: «سنتعشى، أليس كذلك؟ الحادثة الصغيرة في الحديقة فتحت شهيتي. بالمناسبة يا باروني العزيز، لديَّ بعض النصائح لأقدِّمها لك».

جلسا إلى الطاولة. بعد العشاء، اقترح سيرنين عليه مباراة بلياردو، فقبلَها. ثم بعد انتهاء مباراة البلياردو، ذهبا إلى صالة الباكارا[1]. كان الموزع ينادي: «البنك بخمسين لويًا[2]، لا أحد يريده؟». قال ألتنهايم: «مئة لوي». نظر سيرنين إلى ساعته. العاشرة. لم يعد الأخوان دوديفيل. إذن، ما تزال الأبحاث غير مثمرة. قال: «بانكو[3]». جلس ألتنهايم ليوزِّع البطاقات: «هل أوزع؟».

- لا.

- سبعة.

- ستة.

قال سيرنين: «خسرت. ضعف البانكو؟».

- حسنًا.

وزع البطاقات. قال سيرنين: «ثمانية». أظهر البارون: «تسعة». استدار سيرنين على عقبيه وهمس: «كلفتني ثلاثمائة لوي، لكنني مرتاح». بعد

---

(1) الباكارا هي لعبة ورق شهيرة في الكازينوهات. (المترجم)

(2) هي عملة ذهبية كانت متداولة في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. سميت العملة نسبةً إلى الملك الفرنسي لويس الثالث عشر (Louis XIII)، الذي أصدر هذه العملة لأول مرة في عام 1640 واستمر تداولها حتى عام 1792. فيما بعد، أُطلق على قطعة العشرين فرنك اسم «لوي» وهي المقصودة في النص. (المترجم)

(3) «Banco» تعني أن اللاعب يريد المراهنة بكامل المبلغ الموجود الذي يملكه. (المترجم)

لحظة، أوصلته سيارته إلى 29 من فيلا دوبون، وعلى الفور، وجد الأخوين دوديفيل ورجالهما مجتمعين في الردهة. «هل عثرتم على العجوز؟».

- لا.

- اللعنة! لا بد أنه هنا في مكان ما! أين الخدم؟

- هناك، في المطبخ، مربوطون.

- جيد، أفضل ألا أُرى. غادِروا جميعًا. جان، ابق في الأسفل واحرس. جاك، أرني المنزل.

بسرعة، تفقد القبو، والعُليَّة. لم يتوقف تقريبًا، مدركًا أنه لن يكتشف في بضع دقائق ما لم يتمكن رجاله من اكتشافه في ثلاث ساعات، لكنه سجل بعناية ترتيب الغرف. عندما انتهى، عادَ إلى غرفة كان دوديفيل قد أشار له بأنها غرفة ألتنهايم، وفحصها بعناية. قال وهو يرفع ستارة كانت تخفي خزانة صغيرة مليئة بالملابس: «هذا ما أحتاجه، من هنا، أرى كل الغرفة».

- وإذا فتش البارون منزله؟

- لماذا؟

- لأنه سيعرف من خدمه أننا جئنا.

- نعم، لكنه لن يتخيَّل أن أحدنا قد استقر في منزله. سيقول لنفسه إن المحاولة فشلت، هذا كل شيء، وبالتالي، سأبقى.

- وكيف ستخرج؟

- آه! أنت تطلب الكثير. الأهم كان الدخول. اذهب دوديفيل، أغلق الأبواب. التحِق بأخيك وغادر إلى الغد، أو بالأحرى...

- أو بالأحرى؟!

- لا تهتم بي، سأعطيك إشارة في الوقت المناسب.

جلس على صندوقٍ صغير موضوع في قاع الخزانة. كانت صفوف الملابس المعلقة تحميه بشكلٍ جيد. ما لم يكن هناك تحقيقَ دقيق، كان بأمان تام هناك. مرت عشر دقائق. ثم سمع خطوات خافتة لحصان، من جهة الفيلا، وصوت جرس. توقفت عربة، وانفتح الباب في الأسفل، وفي الحال تقريبًا سمع أصواتًا، وصيحات، وضوضاء ترتفع -ربما- كلما حُرِّر أحد الأسرى من كمامته.

فكر: «إنهم قصوا عليه ما حدث، غضبُ البارون يجب أن يكون في أوجه. الآن يفهم سبب تصرفي هذا المساء في النادي، وكيف خدعته بمهارة. خدعته! هذا يعتمد... لأن شتاينفيج ما زال يفلت مني. هذا هو أول شيء سيهتم به: هل استعادوا شتاينفيج؟ لمعرفة ذلك، سيذهب إلى مخبئه. إذا صعد، فهذا يعني أن المخبأ في الأعلى. إذا نزل فهذا يعني أنه في الأقبية».

أنصت جيدًا؛ كانت الأصوات ما تزال مستمرة في الطابق الأرضي، لكن بدا أنهم لا يتحركون. ألتنهايم لا بد أنه يستجوب شركاءه. بعد نصف ساعة، سمع سيرنين خطوات تصعد السلم. قال لنفسه: «إذًا هو في الأعلى، لكن لماذا تأخروا كل هذا الوقت؟». قال صوت ألتنهايم: «ليذهب الجميع إلى النوم». دخل البارون الغرفة مع أحد رجاله وأغلق الباب: «وأنا أيضًا دومينيك، سأنام. عندما نتناقش طوال الليل، لن نحقق تقدمًا». قال الآخر: «برأيي، أنه أرسلهم للبحث عن شتاينفيج».

- هذا رأيي أيضًا، ولهذا السبب أضحك في داخلي، لأن شتاينفيج ليس هنا.
- لكن في النهاية، أين هو؟ ماذا فعلت به؟
- هذا سرِّي، وتعلم أنني أحتفظ بأسراري لنفسي. كل ما يمكنني قوله لك هو أن السجن جيد، ولن يخرج منه إلا بعد أن يتكلم.
- إذًا الأمير ذهب خالي الوفاض؟
- أعتقد ذلك. ومع ذلك، يجب أن أجعله يدفع ثمنًا باهظًا للوصول إلى هذه النتيجة. لا، حقًا، ما يجعلني أضحك! الأمير البائس! استمر الآخر: «على أي حال، يجب أن نتخلص منه».
- اطمئن يا صديقي، لن يتأخر الأمر. قبل مرور ثمانية أيام، سأهديك محفظة شرف، مصنوعة من جلد لوبين. دعني أنم، أنا متعب.

صوت باب يُغلق. ثم سمع سيرنين البارون وهو يغلق القفل، ثم يُفرِغ جيوبه، ويعيد ضبط ساعته ويخلع ملابسه.

كان سعيدًا، يهمهم ويغني، ويتحدث بصوت عالٍ: «نعم، من جلد لوبين. وقبل ثمانية أيام.. قبل أربعة أيام! وإلا فإنه سيبتلعنا، اللعين! لا يهم، لقد أخفق هذا المساء. مع أن افتراضه كان منطقيًا، شتاينفيج لا يمكن أن يكون إلا هنا، ولكن...».

صعد إلى السرير وأطفأ الكهرباء فورًا. تقدم سيرنين بالقرب من الستارة التي رفعها قليلًا، ورأى ضوء الليل الخافت يتسرب من النوافذ، تاركًا السرير في ظلام دامس. قال لنفسه: «بالطبع أنا الأحمق. لقد خدعت نفسي تمامًا. حالما يبدأ بالشخير سأهرب».

لكن صوتًا مكتومًا أدهشه، صوتًا لم يتمكن من تحديد طبيعته جاء من السرير. كان مثل صرير، بالكاد مسموع: «حسنًا يا شتاينفيج، أين نحن؟». كان البارون يتحدث! لم يكن هناك شك في أنه هو الذي يتحدث، ولكن كيف يمكن أن يتحدث إلى شتاينفيج، حيث إن شتاينفيج ليس في الغرفة؟ واستمر ألتنهايم: «هل ما زلت عنيدًا؟ نعم! أحمق! يجب أن تقرر أن تروي ما تعرفه. لا؟ حسنًا إذن، إلى الغد».

«أنا أحلم، أنا أحلم!» قال سيرنين لنفسه. أو أنه هو الذي يحلم بصوت عالٍ. لنرَ، شتاينفيج ليس بجانبه، ليس في الغرفة المجاورة، ليس حتى في المنزل. ألتنهايم قال ذلك. إذًا، ما هذه القصة المذهلة؟ تردد. هل سيقفز على البارون، يمسكه من عنقه ويحصل منه، بالقوة والتهديد، على ما لم يستطع الحصول عليه بالخداع؟ سخافة! لن يسمح ألتنهايم لأي شيء أن يرهبه. همس: «هيا، سأغادر، سأكتفي بليلة ضائعة». لم يغادر. شعر أنه من المستحيل أن يغادر، أنه يجب أن ينتظر، وأن الحظ قد يخدمه بعد.

عَلَّق بعناية فائقة أربع أو خمس بدلات ومعاطف، بسطها على الأرض، وجلس، ظهره مستند إلى الجدار، ونام بهدوء. لم يستيقظ البارون مبكرًا. دقت الساعة في مكان ما تسع دقات عندما قفز من السرير، واستدعى خادمه. قرأ البريد الذي أحضره الخادم، ارتدى ملابسه دون أن يقول كلمة، وبدأ يكتب رسائل، بينما كان الخادم يعلق الملابس بعناية في الخزانة، وكان سيرنين، بقبضتيه المتهيئتين، يقول لنفسه: «لنرَ، هل يجب أن أحطم ضلوع هذا الشخص؟».

في العاشرة، أمر البارون الخادم: «اذهب!».

- ما تزال هناك هذه السترة.

- قلت لك اذهب. ستعود عندما أطلب منك، ليس قبل ذلك.

دفع الباب بنفسه على الخادم، انتظر، كرجل لا يثق بالآخرين، واقترب من طاولة عليها جهاز هاتف، رفع السماعة: «ألو! آنسة، من فضلك أعطني جارش. نعم، آنسة». بقي بالقرب من الجهاز. كان سيرنين يرتجف.

هل سيتواصل البارون مع شريكه الغامض في الجريمة؟ رَنَّ الجرس. قال ألتنهايم: «ألو، آه! هذا جارش. ممتاز آنسة، أريد الرقم 38. نعم، 38، مرتين، أربعة». وبعد بضع ثوانٍ، بصوت أخفض، أخفض وأوضح قدر الإمكان، قال: «الرقم 38؟ أنا، لا، كلمات غير ضرورية... البارحة؟ نعم، لقد أخطأت في الحديقة. مرة أخرى، بالطبع، لكن الأمر مُلح. لقد فتَّش المنزل في المساء. سأخبرك، لم يجدوا شيئًا، بالطبع. ماذا؟ ألو! لا، العجوز شتاينفيج يرفض التحدث. التهديدات، الوعود، لم تنجح. ألو... نعم، بالطبع، يعلم أننا لا نستطيع فعل شيء. نحن نعرف مشروع كيسيلباخ وقصة بيير ليدوك جزئيًّا. هو الوحيد الذي يملك حل اللغز. أوه! سيتحدث، أؤكد لك ذلك، وهذه الليلة تحديدًا وإلا... هيه! ماذا تريد؟! كل شيء إلا أن ندعه يفلت! ترى أن يسرقه الأمير منا! أوه! هذا الرجل، في ثلاثة أيام، يجب أن يحصل على نصيبه... لديك فكرة؟ بالفعل. الفكرة جيدة. أوه! أوه! ممتازة. سأهتم بذلك. متى سنلتقي؟ الثلاثاء، هل تود ذلك؟ جيد. سوف آتي يوم الثلاثاء، في الساعة الثانية».

أعاد الجهاز إلى مكانه وغادر. سمعه سيرنين وهو يعطي الأوامر: «انتبهوا هذه المرة، لا تدعوهم يقبضون عليكم ببلاهة كما حدث البارحة، لن أعود قبل الليل». انغلق الباب الثقيل للردهة، ثم كان صوت قفل البوابة في الحديقة وجرس حصان يبتعد.

بعد عشرين دقيقة، جاء خادمان، فتحا النوافذ ونظفا الغرفة. عندما غادرا، انتظر سيرنين فترة طويلة، حتى وقت وجبتهما المفترض. ثم معتقدًا أنهما في المطبخ، انزلق خارج الخزانة وبدأ في فحص السرير والجدار الذي يستند إليه السرير. قال: «غريب، حقًّا غريب. لا يوجد هنا شيء مميز. السرير لا يحتوي على قاع مزدوج. لا توجد فخاخ أسفله، لنرَ الغرفة المجاورة. بهدوء، انتقل إلى الجانب الآخر. كانت غرفة فارغة، دون أي أثاث: «ليس هنا مكان العجوز. في سُمك هذا الجدار؟ مستحيل، إنه جدار رقيق جدًّا. يا للغرابة! لا أفهم شيئًا».

فحص الأرضية بوصة بوصة، والجدار والسرير، ضيَّع وقته في تجارب غير مجدية. هناك خدعة ما، بسيطة جدًّا ربما، لكنه لم يستطع فهمها في

الوقت الحالي. قال لنفسه: «ألتنهايم كان يهذي... هذا هو الافتراض الوحيد المقبول. وللتحقق من ذلك، لديَّ طريقة واحدة فقط، هي البقاء، وسأبقى. ليحدث ما يحدث».

عاد إلى مخبئه ولم يتحرك منه، كان يحلم ويغفو ويتعذب، كل هذا مع شعور بالجوع الشديد. غابت الشمس، وحلَّ الظلام. لم يعد ألتنهايم إلا بعد منتصف الليل. صعد إلى غرفته، وحيدًا هذه المرة، خلع ملابسه، ذهب إلى السرير، وفي الحال، كما في الليلة السابقة، أطفأ الكهرباء. الانتظار القَلِق نفسه. الصرير غير المفهوم نفسه. نطق ألتنهايم: «حسنًا، كيف حالك صديقي؟ ... شتائم؟ لا، لا يا عزيزي، هذا ليس ما نطلبه منك على الإطلاق! أنت مخطئ. ما أحتاجه هو اعترافات جيدة، كاملة، مفصلة، تتعلق بكل ما كشفته لكيسيلباخ، قصة بيير ليدوك، إلخ، هل هذا واضح؟».

استمع سيرنين بذهول. لم يكن هناك شك، هذه المرة، البارون كان يتحدث بالفعل إلى العجوز شتاينفيج. حوار مثير للإعجاب! بدا له أنه يتنصت على حوار غامض بين حي وميت، محادثة مع كائن لا يوصف، يتنفس في عالم آخر، كائن غير مرئي، غير ملموس، غير موجود.

واصل البارون، بسخرية وقسوة: «هل أنت جائع؟ كُل إذًا يا عزيزي. فقط، تذكر أنني أعطيتك دفعة واحدة كل ما لديك من خبز، وأنك، بتناولك منه بضع فتات كل أربع وعشرين ساعة، لديك ما يكفيك لمدة أسبوع على الأقل. دعنا نقل عشرة أيام! في غضون عشرة أيام، ستكون نهايتك، ما لم توافق على التحدث خلال هذه الفترة. لا؟ سنرى ذلك غدًا... نم يا عزيزي».

في اليوم التالي، في الواحدة ظهرًا، بعد ليلة وصباح دون حادث، خرج الأمير سيرنين بسلام من فيلا دوبون، ورأسه ضعيف، وساقاه مرتخيتان، متوجهًا نحو أقرب مطعم، لخص الوضع كالتالي: «وهكذا الثلاثاء المقبل، لدى ألتنهايم وقاتل فندق بالاس موعد في جارش، في منزل يحمل رقم الهاتف 38. إذًا، الثلاثاء سأقوم بتسليم الجُناة وتحرير السيد لينورمان. في المساء نفسه، سيكون دور العجوز شتاينفيج، وسأعرف أخيرًا ما إذا كان بيير ليدوك هو ابن جزار أم لا، وإذا ما كان يمكنني جعله زوجًا لجنفييف بشكل لائق أم لا. ليكن كذلك!».

في صباح الثلاثاء، قرابة الساعة الحادية عشرة، استدعى فالينغلاي رئيس الوزراء، مفوض الشرطة، ونائب مدير الأمن السيد ويبر، وأراهما رسالة مستعجلة، موقَّعة باسم الأمير سيرنين، كان قد تلقاها للتو.

«السيد رئيس الوزراء،

مع العلم بكل الاهتمام الذي تُولونه للسيد لينورمان، أحيطكم علمًا بالحقائق التي عرفتها مصادفةً. السيد لينورمان محتجز في أقبية فيلا «الجليسين»، في جارش، بجوار دار المسنات. قرر قُطاع الطرق في فندق بالاس قتله اليوم في الساعة الثانية. إذا كانت الشرطة بحاجة إلى مساعدتي، سأكون في الساعة الواحدة والنصف في حديقة دار التقاعد، أو عند السيدة كيسيلباخ، التي أتشرف بكوني صديقها.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

توقيع: الأمير سيرنين».

قال فالينغلاي: «هذا أمر خطِرٌ للغاية، يا سيد ويبر. سأضيف أننا يجب أن نثق تمامًا بتصريحات الأمير بول سيرنين. لقد تناولت العشاء معه عدة مرات. إنه رجل جاد، ذكي». قال نائب مدير الأمن: «هل تسمح لي سيدي الرئيس، بأن أشارككم رسالة أخرى تلقيتها أيضًا هذا الصباح؟».

- عن القضية نفسها؟

- نعم.

- لنرَ.

أخذ الرسالة وقرأ:

«سيدي،

أحيطك علمًا أن الأمير بول سيرنين، الذي يَدَّعي أنه صديق السيدة كيسيلباخ، ليس سوى أرسين لوبين.

دليل واحد يكفي: بول سيرنين هو إعادة ترتيب حروف أرسين لوبين. هي الحروف نفسها. لا أكثر ولا أقل.

توقيع: M. L».

وأضاف السيد ويبر، بينما كان فالينغلاي ما زال مذهولًا: «في هذه المرة، يجد صديقنا لوبين خصمًا قدر مستواه. بينما هو يتهمه، الآخر يسلمه إلينا. وها هو الثعلب يقع في الفخ».

قال فالينغلاي: «وماذا بعد؟».

- وماذا بعد؟! سيدي الرئيس، سنحاول أن نجعلهما يسويان الأمر مع بعضهما بعضًا. ولهذا، سأحضر معي مائتي رجل.

الجزء السابع

المعطف الزيتوني

الفصل الأول

بعد الساعة الثانية عشرة والربع، داخل مطعم بالقرب من كنيسة المادلين، يتناول الأمير سيرنين الغداء. على الطاولة المجاورة، يجلس شابان. يحييهما، ويبدأ في التحدث إليهما كأصدقاء صادفهما: «أنتما من ضمن الفرقة المبعوثة من الشرطة، أليس كذلك؟».

- نعم.
- كم عدد الرجال في المجموع؟
- ستة على ما يبدو، كل واحد يذهب من جانبه. الموعد في الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة مع السيد ويبر بالقرب من دار المسنات.
- حسنًا، سأكون هناك.
- ماذا؟
- أليس من الضروري أن أكون أنا من يجد السيد لينورمان بما أنني أعلنت ذلك علنًا؟
- هل تعتقد إذًا يا سيدي أن السيد لينورمان لم يَمُت؟
- أنا متأكد من ذلك. نعم، منذ الأمس، لديَّ اليقين أن ألتنهايم وعصابته قادوا السيد لينورمان وجوريل إلى جسر بوجيفال وألقوا بهما من فوقه. غرق جوريل، ونجا السيد لينورمان. سأقدم كل الأدلة اللازمة عندما يحين الوقت.
- لكن إذا كان حيًّا، لماذا لا يُظهر نفسه؟
- لأنه ليس حرًّا.

- هل ما قلته صحيح؟ هو موجود في أقبية فيلا الجليسين؟
- لديَّ كل الأسباب التي تجعلني أَظُن ذلك.
- لكن كيف عرفت؟ ما الدليل؟
- هذا سِري. ما يمكنني إخباركما إياه هو أن المفاجأة ستكون... كيف أقول؟! مثيرة للغاية. هل انتهيتما؟
- نعم.
- سيارتي خلف كنيسة المادلين، الحقا بي!

في جارش، أرسل سيرنين السيارة بعيدًا، وساروا حتى الممر المؤدي إلى مدرسة جنفييف. هناك، توقف وقال لرجُليه: «استمعا إليَّ جيدًا. هذا غاية في الأهمية. ستقرعان الجرس في دار المسنات بصفتِكما مفتِّشين، لديكما حق الدخول، أليس كذلك؟ ستذهبان إلى جناح هورتنس، وهو غير مشغول. هناك، ستنزلان إلى الطابق السفلي، وستجدان مِصراعًا قديمًا، يكفي رفعُه لكشف فتحة نفق اكتشفته هذه الأيام، الذي يؤسس اتصالًا مباشرًا مع فيلا الجليسين. هناك كانت جيرترود والبارون ألتنهايم يلتقيان. ومن هناك مَرَّ السيد لينورمان لينتهي به الأمر في النهاية بين أيدي أعدائه».

- هل تعتقد ذلك يا سيدي؟
- نعم، أعتقد ذلك. والآن، إليكما ما يجب القيام به. ستتأكدان أنَّ النفق في الحالة نفسها التي تركته عليها الليلة الماضية، وأن البابَين اللذين يسُدانه مفتوحان، وأن هناك دائمًا، في حفرة تقع بالقرب من الباب الثاني، حزمة ملفوفة بقماش أسود وضعتها بنفسي.
- هل يجب أن نفتح الحزمة؟
- لا داعي، إنها ملابس للتغيير. هيا، ولا تلفِتا الانتباه كثيرًا. أنتظركما.

بعد عشر دقائق، كانا قد عادا. قال دوديفيل: «البابان مفتوحان».

- وحزمة القماش الأسود؟
- في مكانها، بالقرب من الباب الثاني.
- ممتاز! إنها الساعة الواحدة وخمس وعشرون دقيقة، سيصل ويبر مع أبطاله. لنراقب الفيلا، ونحاصرها فورَ دخول ألتنهايم. أنا، بالاتفاق مع ويبر، سأقرع الجرس. لديَّ خطتي. هيا، أعتقد أننا لن نشعر بالملل.

وبعد أن صرفهما سيرنين، ابتعد عَبْر ممر المدرسة وهو يحدث نفسه: «كل شيء على ما يرام. ستجرِي المعركة على الأرض التي اخترتها. سأفوز بها حتمًا، وأتخلص من خصمي، وسأجد نفسي وحيدًا منخرطًا في قضية كيسيلباخ. وحيدًا، مع ورقتين رابحتين جميلتين: بيير ليدوك وشتاينفيج. بالإضافة إلى الملك، لكن هناك شعرة. ماذا يمكن أن يفعل ألتنهايم؟ من الواضح أن لديه أيضًا خطة هجوم. من أين سيهاجمني؟ وكيف نقبل أنه لم يهاجمني بعد؟ هذا مُقلِق. هل أَبلَغ عني الشرطة؟».

مَرَّ بجانب الفناء الصغير للمدرسة، حيث كان التلاميذ في الفصل آنذاك، وطرق بابَ المدخل. قالت السيدة إرنمون وهي تفتح: «آه، هذا أنت! هل تركت جنفييف في باريس؟».

- لكي أفعل ذلك، كان يجب أن تكون جنفييف في باريس.
- لكنها كانت هناك، بما أنك استدعيتها.
- ماذا تقولين؟ صاح وهو يمسك بذراعها.
- كيف؟ لكنك تعرف أفضل مني!
- أنا لا أعرف شيئًا. لا أعرف شيئًا! تكلمي!
- ألم تكتب لجنفييف لتلتقي بك في محطة سان لازار؟
- وهل غادرت؟
- بالطبع. كان من المفترض أن تتناولا الغداء معًا في فندق ريتز.
- الرسالة، أريني الرسالة.

صعدت لإحضارها وأعطتها له.

- لكن يا للمصيبة! ألم تري أنها مزورة؟ الخط مقلد جيدًا، لكنها مزورة. هذا واضح.

ضغط صدغيه بقبضتيه بغضب: «هذه هي الضربة التي كنت أسأل عنها. آه! يا للوغد! إنه يهاجمني من... لكن كيف عرف؟ آه! لا، إنه لا يعرف. ها هي المرة الثانية التي يحاول فيها المغامرة، وهذا من أجل جنفييف، لأنه وقع في غرامها. أوه! هذا مستحيل، أبدًا! اسمعي، فيكتوار. هل أنتِ متأكدة أنها لا تحبه؟ آه! لكنني أفقد عقلي! دعيني... دعيني أفكر، ليس هذا هو الوقت

المناسب». نظر في ساعته «الساعة الواحدة وخمس وثلاثون دقيقة، لديَّ الوقت. أيها الأحمق! الوقت لفعل ماذا؟ هل أعرف أين هي؟».

كان يذهب ويجيء كالمجنون، وبدت مربيته العجوز مذهولة لرؤيته في مثل هذا الاضطراب، غير متحكم في نفسه إلى هذا الحد. قالت له: «لا شيء يُثبت أنها لم تشمَّ الفخ في اللحظة الأخيرة».

- أين يمكن أن تكون؟

- لا أعرف، ربما عند السيدة كيسيلباخ.

صاح وقد ملأه الأمل فجأة: «هذا صحيح، هذا صحيح! أنتِ على حق».

وانطلق جريًا نحو دار التقاعد. على الطريق، بالقرب من الباب، التقى الأخوين دوديفيل اللذين كانا يدخلان إلى البوابة المطلة على الطريق، مما سمح لهمَا بمراقبة محيط فيلا الجليسين. دون توقف، ذهب مباشرة إلى جناح الإمبراطورة، نادى سوزان، وطلب منها أن تقوده إلى السيدة كيسيلباخ. قال: «جنفييف؟».

- جنفييف؟!

- نعم، ألم تأتِ؟

- لا، منذ عدة أيام.

- لكنها يجب أن تأتي، أليس كذلك؟

- هل تعتقد ذلك؟

- لكنني متأكد. أين تريدينها أن تكون؟ حاولي أن تتذكري.

- مهما حاولت، لا أتذكر. أؤكد لك أنه لم يكن من المفترض أن نلتقي أنا وجنفييف.

وفجأة، وقد أصابها الخوف: «لكنك قلِق! هل حدث شيء لجنفييف؟».

- لا، لم يحدث شيء.

غادر المكان. خطرت له فكرة. ماذا لو لم يكن البارون ألتنهايم في فيلا الجليسين؟ ماذا لو تغيَّر موعد اللقاء؟

كان يقول لنفسه: «يجب أن أراه. يجب ذلك بأي ثمن». وكان يجري بخطوات مضطربة، غير مبالٍ بأي شيء. لكن أمام منزل البوابة، استعاد هدوءه على الفور، فقد رأى نائب مدير الأمن، الذي كان يتحدث في الحديقة

مع الأخوين دوديفيل. لو كان يتمتع بفطنته المعتادة، لكان لاحظ الارتعاش الصغير الذي أصاب السيد ويبر عند اقترابه، لكنه لم يرَ شيئًا. قال: «السيد ويبر، أليس كذلك؟».

- بلى. مع من أتشرف بالحديث؟
- الأمير سيرنين.
- آه! حسنًا جدًّا، لقد أخبرني السيد مفوض الشرطة بالخدمة الكبيرة التي تقدمها لنا، سيدي.
- هذه الخدمة لن تكتمل إلا عندما أُسلِم العصابة.
- لن يطول الأمر. أعتقد أن أحد هؤلاء المجرمين قد دخل للتو. رجل قوي البنية نوعًا ما، يرتدي نظارة أحادية.
- بالفعل، إنه البارون ألتنهايم. هل رجالك هنا سيد ويبر؟
- نعم، مختبئون على الطريق، على بعد مائتي متر.
- حسنًا سيد ويبر، يبدو لي أنه يمكنك جمعهم وإحضارهم أمام هذا المنزل. من هناك سنذهب إلى الفيلا. سأقرع الجرس. بما أن البارون ألتنهايم يعرفني، أَفترضُ أنهم سيفتحون لي، وسأدخلُ معك.

قال السيد ويبر: «الخطة ممتازة. سأعود على الفور». خرج من الحديقة وذهب عَبْر الطريق، في الاتجاه المعاكِس لفيلا الجليسين. بسرعة، أمسك سيرنين بذراع أحد الأخوين دوديفيل وقال: «الحق به يا جاك. اشغله، لأتمكن من الدخول إلى الجليسين، ثم أَخِّر الهجوم لأطول وقت ممكن! اخترع الأعذار! أحتاج إلى عشر دقائق ليحيطوا بالفيلا، لكن دون أن يدخلوها. وأنت يا جان، اذهب وتمركز في جناح هورتنس، عند مخرج النفق. إذا أراد البارون الخروج من هناك، حطم رأسه».

ابتعد الأخوان دوديفيل. انسل الأمير إلى الخارج، وركض حتى بوابة عالية، مصفحةٍ بالحديد، كانت مدخل فيلا الجليسين. هل سيقرع الجرس؟ لا أحد حوله. بقفزة واحدة تسلق البوابة، واضعًا قدمه على حافة القفل، ومتشبثًا بالقضبان، مستندًا بركبتيه، رافعًا نفسه بقوة معصميه. نجح، رغم خطر السقوط على الأطراف الحادة للقضبان، في عبور البوابة والقفز.

كان هناك فناءٌ مرصوف عَبَره بسرعة، وصعدَ درجات رواقٍ ذي أعمدة كانت تُطِلُّ عليه نوافذ كانَت جميعها مغطاة حتى النوافذ العلويةِ، بمصاريع

خشبية مصمتة. بينما كان يُفكِّر في وسيلةٍ للدخول إلى المنزل، فُتِح الباب قليلًا بصوت حديدي ذكَّره بباب فيلا دوبون، وظهر ألتنهايم.

- قل لي يا أمير، أهكذا تدخلُ إلى الممتلكات الخاصة؟ سأضطر إلى الاستعانة بالحراسة، يا عزيزي.

أمسك سيرنين برقبته، وألقاه على أريكة: «جنفييف. أين جنفييف؟ إن لم تخبرني ما فعلته بها، أيها البائس!».

تَمتَم البارون: «أرجوك، لاحظ أنكَ تمنعُني من الكلام».

أطلق سيرنين سراحه: «حقًّا! وبسرعة! أجِب، أين جنفييف؟». أجاب البارون: «هناك أمرٌ أكثر إلحاحًا بكثير، وخصوصًا عندما يتعلقُ الأمر برجال من نوعنا، وهو أن نكون في منزلنا».

وبعناية، أغلق الباب الذي حصَّنه بالمزاليج. ثم مصطحبًا سيرنين إلى الصالون المجاور، وهو صالون بلا أثاث، بلا ستائر، قال له: «الآن، أنا رهنُ إشارتِك. بماذا يمكنني خدمتك يا أمير؟».

- جنفييف؟

- إنها بصحة ممتازة.

- آه! أنت تعترف إذًا؟

- بالطبع! سأقول لك حتى إنَّ تهورك في هذا الصدد قد أدهشَني. كيف لم تتخذ بعض الاحتياطات؟ كان من الحتمي...

- كفى! أين هي؟

- أنت لست مهذبًا.

- أين هي؟

- بين أربعة جدران، حرة.

- حرة؟!

- نعم، حرة في التحرك من جدار إلى آخر.

- في فيلا دوبون، بالتأكيد؟ في السجن الذي ابتكرته لشتاينفيج؟

- آه! أنت تعرف. لا، إنها ليست هناك.

- ولكن أين إذًا؟ تكلم، وإلا...

- انظر يا أميري، هل تعتقد أنني سأكون أحمق بما يكفي لأكشف لك السر الذي أخفيه عليك؟! أنت تحب الفتاة الصغيرة.

صاح سيرنين، فاقدًا أعصابه: «اصمت! أمنعك!».

- وبعد ذلك؟ هل هو عار؟ أنا أحبها أيضًا، وقد خاطرت...

لم يكمل، مرتعِبًا من غضب سيرنين المُخيف؛ غضبٌ مكبوت، صامت، قلَّب ملامحه. نظرا بعضهما إلى بعضٍ لفترة طويلة، كلٌّ منهما يبحث عن نقطة ضعف خصمه. أخيرًا، تقدَّم سيرنين وبصوت واضح، كرجل يهدد أكثر مما يقترح صفقة: «اسمعني، هل تتذكر عرض الشراكة الذي قدمته لي؟ قضية كيسيلباخ لنا نحن الاثنين. نعمل معًا، نقسم الأرباح. لقد رفضت، أقبل اليوم».

- فات الأوان.

- انتظر. أنا أقبل ما هو أكثر من ذلك؛ أتخلى عن القضية. لن أتدخل في أي شيء بعد الآن، ستحصل على كل شيء. سأساعدك إذا لزم الأمر.

- الشرط؟

- أخبرني، أين توجد جنفييف؟

هزَّ الآخر كتفيه: «أنت تهذي يا لوبين. هذا يؤسفني، طوال عمرك...». توقُّف جديد بين العدوين، توقف رهيب. ضحك البارون ساخرًا: «إنه لمُتعة مقدسة أن أراك هكذا تبكي وتطلب الصدقة. الجنديُّ البسيط على وشك أن يهزم جنراله». تَمتَم سيرنين: «أيها الأحمق».

- أيها الأمير، سأرسل لك شهودي[1] هذا المساء. إذا كنت ما تزال على قيد الحياة.

كرر سيرنين باحتقار لا متناهٍ: «أيها الأحمق!».

- هل تفضل إنهاء الأمر الآن؟ كما تشاء يا أميري، لقد حانت ساعتك الأخيرة. يمكنك أن توصي بوصيَّتك. أنت تبتسم؟ هذا خطأ. لديَّ ميزة هائلة لا توجد لديك: أنا أقتل، عند الضرورة.

---

(1) في تلك الفترة، إرسال الشهود كان خطوة تقليدية لترتيب مبارزة تحدٍّ بين شخصين. هؤلاء الشهود يُعَدون ممثلين عن الطرفين لتحديد شروط المواجهة. (المترجم)

قال سيرنين مرة أخرى: «أيها الأحمق!». أخرج ساعته: «الساعة الثانية يا بارون. لم تبق لك سوى بضع دقائق. في الساعة الثانية وخمس دقائق، الثانية وعشر دقائق على أقصى تقدير، سيقتحم السيد ويبر وبضع عشرات من الرجال الأقوياء، عديمي الضمير، مدخل وَكرِك ويلقون القبضَ عليك. لا تبتسم أنت أيضًا. المخرج الذي تعتمد عليه قد اكتُشِف، أنا أعرفه، إنه تحت الحراسة. أنت إذًا مقبوضٌ عليك. إنها المقصلة يا صديقي العزيز».

كان ألتنهايم شاحبًا. تَمتَم: «لقد فعلت ذلك؟ هل كنت حقيرًا لهذه الدرجة؟».

- المنزل محاصر، الهجوم وشيك. تكلم وأنا أنقذك.

- كيف؟

- الرجال الذين يحرسون مخرج الجناح هم رجالي. سأعطيك كلمة لهم، وأنت في أمان.

فكر ألتنهايم لبضع ثوان، بدا مترددًا، لكنه فجأة، وقد حسم أمره، أعلن: «هذا هراء. لم تكن أحمق بما يكفي لتلقي بنفسك في فم الذئب».

- أنت تنسى جنفييف. لولاها، هل تعتقد أنني سأكون هنا؟! تكلم!

- لا.

- حسنًا، لننتظر. تريد سيجارة؟

- بكل سرور.

قال سيرنين بعد بضع ثوان: «هل تسمع؟». قال ألتنهايم وهو ينهض: «نعم، نعم». دوت ضربات على البوابة. قال سيرنين: «حتى دونَ الإنذارات المعتادة، دون مقدمات. هل ما زلت مصممًا؟».

- أكثر من أي وقت مضى.

- هل تعلم أنه مع الأدوات التي لديهم لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا؟

- حتى لو كانوا في هذه الغرفة، سأرفض.

استسلمت البوابة. سُمِع صرير المفصلات. واصل سيرنين: «استسلم، أتفهم ذلك! أن تمد يديك بنفسك للأصفاد، هذا غباءٌ شديد. هيا، لا تكن عنيدًا. تكلم واهرب».

- وأنت؟

- أنا سأبقى. ماذا لديَّ لأخاف؟

- انظر.

أشار البارون إلى فتحة عَبْر الأبواب، وضع سيرنين عينه عليه وتراجع بارتعاش: «آه! أيها الوغد، أنت أيضًا وشيت بي! مع ويبر ليس فقط عشرة رجال، بل خمسون، مائة، مائتا رجل». ضحك البارون: «وإذا كان هناك الكثير، فذلك لأن الأمر يتعلق بلوبين. بالطبع، لو كنتُ أنا المقصود، لكان يكفيني بضعةُ رجال».

- هل أبلغت الشرطة؟

- نعم.

- ما الدليل الذي قدمته؟

- اسمك، بول سيرنين، أي أرسين لوبين.

- وهل اكتشفت ذلك بنفسك؟ ما لم يفكر فيه أحد من قبل؟ هيا! إنه الشخص الآخر، اعترف بذلك.

نظر من خلال الشق. انتشرت أسراب من الشرطة حول الفيلا، والآن دوَّت الضربات على الباب. كان عليه أن يفكر إما في الانسحاب، وإمَّا في تنفيذ الخطة التي تخيَّلها لكن الابتعاد، ولو للحظة، يعني ترك ألتنهايم، ومن يستطيع أن يؤكد أن البارون لم يكن لديه مخرج آخر للهرب؟ هذه الفكرة أزعجت سيرنين. البارون حر! البارون حرٌّ في العودة إلى جنفييف، وتعذيبها، وإخضاعها لحبه البغيض!

عاجزًا عن خططه، مضطرًّا إلى ارتجال خطة جديدة -في تلك اللحظة بالذات- وإخضاع كل شيء للخطر الذي تواجهه جنفييف، مَرَّ سيرنين بلحظة تردُّد فظيعة. عيناه مثبتتان على عيني البارون، كان يريد أن ينتزع سره منه ويغادر، ولم يعد يحاول حتى إقناعه، لأن كل كلمة بدت له عديمة الفائدة. وبينما كان يواصل تأملاته، كان يتساءل عما يمكن أن تكون أفكار البارون، ما هي أسلحته، أمله في النجاة.

باب الردهة، رغم أنه كان مغلقًا بإحكام، ومصفحًا بالحديد، بدأ يهتز. كان الرجلان أمام هذا الباب جامدين. كان رنين الأصوات ومعنى الكلمات يصل إليهما. قال سيرنين: «تبدو واثقًا جدًّا من نفسك». صاح الآخر وهو يعرقله أسقطه أرضًا، ثم لاذ بالفرار: «تبًّا!». نهض سيرنين على الفور، وعَبَر بابًا

صغيرًا تحت السلم الكبير حيث اختفى ألتنهايم، وهبط درجات الحجر نزولًا إلى الطابق السفلي. هناك ممر، ثم قاعة واسعة ومنخفضة، شبه مظلمة، كان البارون راكعًا، يرفع مصراع باب سري.

صاح سيرنين وهو يلقي بنفسه عليه: «أيها الأحمق، أنت تعلم جيدًا أننا سنجد رجالي في نهاية هذا النفق، ولديهم أوامر بقتلك كالكلب، إلا إذا... إلا إذا كان لديك مَخرجٌ يتصل بهذا. آه! هذا هو، لقد خمَّنت، وأنت تتخيل».

كان الصراع ضاريًا. ألتنهايم، وهو عملاق حقيقي يتمتع بعضلات استثنائية، طوَّق خصمه بذراعيه، شالًّا ذراعيه ومحاولًا خنقه. نطق الآخر بصعوبة: «بالطبع، بالطبع. بالطبع، إنها خطة جيدة، بما أنني لا أستطيع استخدام يدي لكسر شيء ما فيك، ستكون... ولكن هل تستطيع؟».

ارتعد. بدا أن الباب السري الذي أُغلِق، والذي كانا يضغطان عليه بكل ثقلهما، يتحرك تحتهما. شعر بالجهود المبذولة لرفعه، ولا بد أن البارون شعر بذلك أيضًا، لأنه كان يحاول بيأس تغيير أرض المعركة حتى يمكن فتح الباب السري.

فكر سيرنين بنوعٍ من الرعب غير المنطقي الذي كان يُسببه له هذا الكائن الغامض: «إنه الآخر. إنه الآخر! إذا مَرَّ فأنا هالك». بحركات غير محسوسة، نجح ألتنهايم في تغيير موضعه، وكان يحاول جرَّ خصمه معه. لكن الأخير كان يتشبث بساقي البارون، وفي الوقت نفسه، كان يحاول تدريجيًّا تحرير إحدى يديه. فوقهما، كانت هناك ضربات قوية، كأنها ضربات كبش.

فكر سيرنين: «لدي خمس دقائق». في غضون دقيقة، يجب أن يكون هذا الرجل... وبصوت عالٍ قال: «انتبه، يا صغيري. تماسك جيدًا». قرَّب ركبتيه من بعضهما بقوة لا تصدق. صرخ البارون، وقد التوت إحدى فخذيه. عندها، استغل سيرنين ألم خصمه، وبذل جهدًا، وحرر يده اليمنى، وأمسك برقبة خصمه.

- ممتاز! هكذا نحن في وضع أفضل بكثير. لا، لا داعي للبحث عن سكينك وإلا سأخنقك كالدجاجة. أنت ترى، أنا ألتزم باللياقة، لا أضغط بشدة، فقط بما يكفي لكيلا ترغب حتى في التحرك.

في أثناء حديثه، أخرج من جيبه حبلًا رفيعًا جدًّا، وبيد واحدة، بمهارة فائقة، ربط معصميه. على أي حال، كان البارون قد أُنهِك تمامًا، ولم يَعد يُبدي أي مقاومة. ببضع حركات دقيقة، أوثقه سيرنين بإحكام.

- كم أنت مطيع! هذا أفضل! لا أكاد أتعرف عليك. انتظر، في حال أردت الهرب، هذه لفة من السلك ستكمل عملي الصغير. المعصمين أولًا، الكاحلين الآن. ها قد انتهينا. يا إلهي! كم أنت لطيف!

استعاد البارون أنفاسه تدريجيًّا. تَمتَم: «إذا سلمتني، ستموت جنفييف».

- حقًّا! وكيف؟ اشرح!

- إنها محبوسة، لا أحد يعرف مخبأها. إذا قُضِيَ عليَّ، ستموت جوعًا مثل شتاينفيج.

ارتعد سيرنين. ثم تابع: «نعم، لكنك ستتكلم».

- أبدًا.

- بلى، ستتكلم. ليس الآن، الوقت متأخر جدًّا، ولكن ستتكلم هذه الليلة.

انحنى عليه وهمس في أذنه: «اسمع يا ألتنهايم، وافهمني جيدًا. بعد قليل سيُقبَضُ عليك. هذا المساء ستنام في السجن الاحتياطي. هذا أمر حتمي، لا مفر منه. أنا نفسي لم أعد أستطيع تغيير أي شيء في ذلك. وغدًا، سينقلونك إلى سجن سانتيه. وبعد ذلك، أنت تعرف إلى أين. حسنًا، سأمنحك فرصة أخيرة للنجاة. هذه الليلة، أتسمع؟! هذه الليلة سأدخل إلى زنزانتك في السجن الاحتياطي، وستخبرني أين جنفييف. بعد ساعتين، إذا لم تكن قد كذبت، ستكون حرًّا. وإلا فهذا يعني أنك لا تهتم كثيرًا بحياتك».

لم يرد الآخر. نهض سيرنين وأصغى. في الأعلى، ضجيج كبير. كان الباب الرئيسي يستسلم. دقَّت الأقدام على بلاط الردهة وأرضية الصالون، كان السيد ويبر ورجاله يبحثون.

- وداعًا أيها البارون، فكِّر حتى هذا المساء. الزنزانة مستشارٌ جيد.

دفع سجينه، لتحرير الباب السري ورفعه. كما توقع، لم يكن هناك أحد في الأسفل. على درجات السلم، نزل حريصًا على ترك الباب السري مفتوحًا خلفه، كما لو كان ينوي العودة. كانت هناك عشرون درجة، ثم في الأسفل، كانت بداية الممر الذي سَلَكه السيد لينورمان وجوريل في الاتجاه المعاكس. دخله وأطلق صرخة. بدا له أنه لمح وجود شخص ما، أضاء مصباحه اليدوي،

كان الممر فارغًا. عندئذ، هزَّ مسدسه وقال بصوت عالٍ: «الأمر سيئ بالنسبة إليك. سأطلق النار!».

لا إجابة. لا صوت.

فكر: «ربما كان وهمًا، هذا الكائن يهوسني. حسنًا، إذا أردت النجاح والوصول إلى الباب، يجب أن أسرع. الحفرة، التي وضعت فيها حزمة الملابس، ليست بعيدة. سآخذ الحزمة، وتنتهي الحيلة. وأي حيلة! واحدة من أفضل حيل لوبين».

وصل إلى بابٍ كان مفتوحًا وتوقف على الفور. على اليمين كان هناك تجويف، ذلك الذي حفره السيد لينورمان للهروب من الماء المتصاعد. انحنى وسلَّط ضوءه على الفتحة. قال وهو يرتعش: «أوه! لا، هذا مستحيل. لا بد أن دوديفيل هو من دفع الحزمة أبعد». لكنه بحث عبثًا، وفحص الظلام. لم تعد الحزمة هناك، ولم يشكَّ أن الكائن الغامض هو من أخذها مرة أخرى.

- يا للخسارة! كان كل شيء مرتبًا جيدًا! كانت المغامرة تستأنف مسارها الطبيعي، وكنت سأصل إلى النهاية بشكل أكثر أمانًا. الآن يجب أن أهرب بأقصى سرعة. دوديفيل في الجناح، انسحابي مضمون. كفى مزاحًا، يجب الإسراع وإعادة ترتيب الأمور إن أمكن! وبعد ذلك، سنهتم به، آه! فليحذر من مخالبي، ذلك الشخص.

لكن صرخة دهشة أفلتت منه؛ لقد وصل إلى الباب الآخر، وهذا الباب الأخير قبل الجناح، كان مغلقًا. اندفع نحوه. ما الفائدة؟ ماذا يمكنه أن يفعل؟ همس: «هذه المرة، أنا بالفعل في ورطة». وأصابه نوع من الإعياء، فجلس. كان يشعر بضعفه أمام هذا الكائن الغامض. لم يكن ألتنهايم يهمه كثيرًا. لكن الآخر، ذلك الشخص المُشكَّل من الظلام والصمت، الآخر كان يسيطر عليه، ويُخَرِّب كل خططه، ويستنزفه بهجماته الماكرة والجهنمية.

لقد هُزِم. سيجده ويبر هناك، مثل حيوان محاصر في كهفه.

الفصل الثاني

قال وهو ينهض فجأة: «آه! لا، لا! لو كان الأمر يتعلق بي وحدي، ربما! لكن هناك جنفييف، جنفييف التي يجب إنقاذها الليلة، لم أخسر كل شيء بعد. إذا كان الكائن الآخر قد اختفى للتو، فهذا يعني أن هناك مخرجًا ثانيًا في الجوار. هيا، هيا! ويبر وعصابته لم يمسكوا بي بعد».

بدأ بالفعل في البحث عن النفق والمصباح في يده، فحص الطوب الذي تشكلت منه الجدران، عندما وصلت إليه صرخة، صرخة مروِّعة، بشعة، جعلته يرتعد من القلق. كان مصدرها من جهة الباب السري. وفجأة تذكَّر أنه ترك هذا الباب مفتوحًا عندما كان ينوي الصعود مرة أخرى إلى ڤيلا الجليسين. أسرع بالعودة، وعَبَر الباب الأول. في الطريق، وحين انطفأ مصباحه، شعر بشيء ما، بل بشخص ما يلامس ركبتيه، شخص يزحف على طول الجدار. وعلى الفور، شعر بأن هذا الكائن اختفى، تلاشى، لم يكن يعرف أين. في تلك اللحظة، اصطدم بدرجة. فكر: «هذا هو المخرج، المخرج الثاني الذي يمر منه هذا الكائن».

في الأعلى، دوَّت الصرخة مرة أخرى، أقل حدة، تبعتها أنات، وحشرجات. صعد الدرج راكضًا، وظهر في القاعة السفلية، واندفع نحو البارون. كان ألتنهايم يحتضر وحلقه ينزف، كانت قيوده مقطوعة، لكن الأسلاك التي تربط معصميه وكاحليه كانت سليمة. ولعدم قدرته على تحريره، ذبح هذا الكائن البارون.

كان سيرنين يتأمل هذا المشهد برعب. كان العرق الباردُ يغمره، كان يفكر في جنفييف المسجونة دون مساعدة، حيث إن البارون وحده كان يعرف مكان احتجازها. سمع بوضوح أن العملاء كانوا يفتحون الباب الصغير

السري في الردهة، سمعهم بوضوح وهم ينزلون درج الخدمة. لم يكن يفصله عنهم سوى باب واحد، باب القاعة السفلية، حيث كان موجودًا. أغلق الباب في اللحظة التي أمسك فيها المهاجمون بالمقبض، كان الباب السري مفتوحًا بجانبه. كانت هذه النجاة الممكنة، حيث كان هناك مخرج ثانٍ.

قال لنفسه: «لا، جنفييف أولًا. بعد ذلك، إذا كان لديَّ الوقت، سأفكر في نفسي». ركع سيرنين، ووضع يده على صدر البارون. كان القلب ما يزال ينبض. انحنى أكثر: «تسمعني، أليس كذلك؟». اهتزت الجفون بضعف. كان هناك نَفسٌ من الحياة في البارون المحتَضِر. هل يمكن استخلاص شيء منه؟

هاجم العملاء الباب، آخر حصن. همس سيرنين: «سأنقذك، لديَّ علاجات لا تخطئ. كلمة واحدة فقط، أين جنفييف؟». بدا وكأن هذه الكلمة من الأمل أثارت بعض القوة. حاول ألتنهايم النطق. أَصَر سيرنين: «أجب، أجب وسأنقذك. إنها الحياة اليوم، الحرية غدًا. أجب!».

كان الباب يهتز تحت الضربات. حاول البارون نطق مقاطع غير مفهومة. منحنيًا عليه، مذعورًا، كل طاقته وكل إرادته مشدودة، كان سيرنين يلهث من القلق. العملاء، اعتقاله الحتمي، السجن، لم يكن يفكر حتى في ذلك، لكن جنفييف، جنفييف تموت جوعًا، وكلمة واحدة من هذا البائس يمكن أن تحررها!

- أجب، يجب عليك.

كان يأمر، يتوسل. تَمتَم ألتنهايم، كما لو كان تحت تأثير التنويم المغناطيسي، مهزومًا بهذه السلطة التي لا تقهر: «ري... ريفولي».

- شارع ريفولي، أليس كذلك؟ لقد حبستها في منزل في هذا الشارع. ما هو الرقم؟

ضجيج، صيحات انتصار، وسقط الباب. صرخ السيد ويبر: «اهجموا عليه، أمسكوه! أمسكوا بهما معًا!».

- الرقم! أجب! إذا كنت تحبها، أجب. لماذا تصمت الآن؟

- عشرون، سبعة وعشرون.

تنفس البارون.

لمست عشرات الأيادي سيرنين، هددته عشر مسدسات. واجهه رجال الشرطة، الذين تراجعوا بخوف غريزي.

صرخ السيد ويبر: «إذا تحركت يا لوبين، والسلاح مصوَّب، سأطلق النار عليك». قال سيرنين بجدية: «لا تطلقِ النار، هذا غير ضروري، أنا أستسلم».

- هراء! إنها حيلة أخرى من حيلك.

كرر سيرنين: «لا، المعركة حُسِمت. ليس لديك الحق في إطلاق النار، أنا لا أدافع عن نفسي». أخرج مسدسين وألقاهما على الأرض.

كرر السيد ويبر بلا رحمة: «هراء! مباشرة إلى القلب يا رجال! عند أدنى حركة أطلقوا النار! عند أدنى كلمة النار!». كان هناك عشرة رجال. أضاف خمسة عشر آخرين، وجَّه الخمسة عشر ذراعًا نحو الهدف. وبغضب، مرتعشًا من الفرح والخوف، كان يَصِّر على أسنانه: «إلى القلب! إلى الرأس! ولا رحمة! إذا تحرك، إذا تكلم. من مسافة قريبة، النار!».

كان سيرنين يبتسم، يداه في جيبيْه، وهادئًا. على بعد بوصتين من صدغيه، كان الموت يترصده. الأصابع تشنجت على الأزندة. ضحك السيد ويبر ساخرًا: «آه! إنه لأمر مبهج أن نرى هذا. وأتخيل أننا هذه المرة قد أصبنا الهدف، وبطريقة سيئة بالنسبة إليك، سيد لوبين!».

أمر بفتح مصاريع نافذة قبو كبيرة، فاندفع فجأة ضوء النهار، والتفت نحو ألتنهايم. لكن لدهشته الشديدة، فتح البارون الذي ظنه ميتًا عينيه، عينين باهتتين، مرعبتين، مملوءتين بالفراغ بالفعل. نظر إلى السيد ويبر، ثم بدا وكأنه يبحث عن شيء، وعندما رأى سيرنين، انتابته نوبة من الغضب. بدا كما لو أنه استيقظ من خموله، وكأن كراهيته التي استيقظت فجأة أعادت إليه جزءًا من قواه. استند على معصميه وحاول التحدث.

قال السيد ويبر: «هل تتعرف عليه؟».

- نعم.

- إنه لوبين، أليس كذلك؟

- بلى، لوبين.

استمع سيرنين، وهو ما زال مبتسمًا، وقال: «يا إلهي! كم أنا مستمتع!».

سأل السيد ويبر البارون الذي رأى شفتيه تتحركان بيأس: «هل لديك أشياء أخرى لتقولها؟».

- نعم.

- ربما بخصوص السيد لينورمان؟

- نعم.

- هل حبستموه؟ أين؟ أجب!

بكل كيانه المرفوع، وبكل نظرته المشدودة، أشار ألتنهايم إلى خزانة في زاوية الغرفة. قال: «هناك، هناك».

ضحك لوبين: «آه! آه! نحن نقترب». فتح السيد ويبر الخزانة. على إحدى الرفوف، كانت هناك حزمة ملفوفة بقماش أسود. فكَّها ووجد قبعة، وصندوقًا صغيرًا، وملابس. ارتعش؛ لقد تعرف على المعطف الزيتوني للسيد لينورمان. صرخ: «آه! أيها الأوغاد! لقد اغتالوه». أشار ألتنهايم برأسه: «لا».

- إذًا؟

- إنه هو. هو!

- ماذا تعني بهو؟ هل لوبين هو من قتل مدير الأمن؟

- لا.

بإصرار شرس، تمسك ألتنهايم بالحياة، متلهفًا للتحدث والاتهام. كان السر الذي أراد الكشف عنه على طرف لسانه، ولكنه لم يستطع، لم يعد يعرف كيف يترجمه إلى كلمات. أصر نائب المدير: «لنفهم، السيد لينورمان ميت بالتأكيد، أليس كذلك؟».

- لا.

- هل هو حي؟

- لا.

- لا أفهم. دعنا نفهم، هذه الملابس! هذا المعطف!

أدار ألتنهايم عينيه نحو سيرنين. خطرت فكرة للسيد ويبر.

- آه! أفهم! لقد سرق لوبين ملابس السيد لينورمان، وكان ينوي استخدامها للهروب.

- نعم، نعم.

صاح نائب مدير الأمن: «ليس أمرًا سيئًا، إنها بالفعل إحدى حيله. في هذه الغرفة، كنا سنجد لوبين متنكرًا في هيئة السيد لينورمان، مقيدًا على الأرجح؛ حتى نحاول إنقاذه. لكنه لم يكن لديه الوقت. هذا صحيح، أليس كذلك؟».

- بلى، بلى.

لكن من نظرة المحتضر، شعر السيد ويبر أن هناك شيئًا آخر، وأن هذا لم يكن تمامًا السر. فما هو إذًا؟ ما اللغز الغريب وغير القابل للفك الذي أراد المحتضر الكشف عنه قبل أن يموت؟ سأل: «والسيد لينورمان، أين هو؟».

- هناك.

- كيف هناك؟

- نعم.

- لكن لا يوجد سوانا في هذه الغرفة!

- هناك، هناك.

- ولكن تحدث!

- هناك، سير... سيرنين.

- سيرنين! ماذا؟ ماذا؟

- سيرنين، لينورمان.

قفز السيد ويبر. أصابه وميض مفاجئ، همس: «لا، لا، هذا مستحيل! هذا جنون!».

راقب سجينه، بدا سيرنين مستمتعًا جدًّا ويشاهد المشهد كهاوٍ يتسلى ويود معرفة النهاية.

منهكًا، سقط ألتنهايم فجأةً. هل سيموت قبل أن يعطي مفتاح اللغز الذي طرحته كلماته الغامضة؟

كان السيد ويبر، مهزوزًا بفرضية سخيفة، غير معقولة، لم يردها لكنها ظلت تطارده، اندفع مرة أخرى.

- اشرح لي! ما الذي يختبئ وراء هذا؟ أي سر؟

لم يُبد الآخر أنه يسمع، كان جامدًا، وعيناه ثابتتان. انحنى السيد ويبر عليه ونطق بوضوح، بحيث تخترق كل مقطع أعماق هذه الروح الغارقة في الظلام بالفعل: «اسمع. لقد فهمت جيدًا، أليس كذلك؟ لوبين والسيد لينورمان...».

كان عليه أن يبذل جهدًا ليكمل، فقد بدت الجملة وحشيَّة جدًّا. ومع ذلك، بدت العينان الباهتتان للبارون تنظران إليه بقلق. أكمل، مرتجفًا من الانفعال، كما لو كان ينطق بتجديف: «هذا هو، أليس كذلك؟ هل أنت متأكد؟ كلاهما، هما الشخص نفسه؟».

لم تتحرك العينان كان خيط رفيع من الدم يتسرب من زاوية الفم، بضع شهقات، تشنج أخير. هذا كل شيء.

في القاعة السفلية المزدحمة بالناس، ساد صمتٌ طويل. كاد جميع رجال الشرطة الذين كانوا يحرسون سيرنين يديرون ظهورهم، مذهولين دون فهم، أو رافضين الفهم، كانوا ما يزالون يستمعون إلى الاتهام الذي لا يصدق، والذي لم يستطع اللص صياغته.

فتح السيد ويبر الصندوق الموجود في حزمة القماش الأسود. كان يحتوي على شعر مستعار رمادي، ونظارة بإطارات فضية، ووشاح بني، وفي قاع مزدوج، أوعية مكياج، وصندوق به خصلات صغيرة من الشعر الرمادي، كل ما يلزم لصنع وجه السيد لينورمان بالضبط. اقترب من سيرنين، وبعد أن تأمله مفكرًا لبضع لحظات دون أن ينطق بكلمة، أعاد بناء جميع مراحل المغامرة، وهمس: «إذًا، هذا صحيح؟».

رد سيرنين، الذي لم يفقد هدوءه المبتسم، قائلًا: «الفرضية لا تفتقر المصداقية ولا الجرأة. لكن قبل كل شيء، أبلغ رجالك أن يتركوني بسلام بعيدًا عن ألعابهم». وافق السيد ويبر، مشيرًا إلى رجاله: «حسنًا. والآن، أجب».

- على ماذا؟

- هل أنت السيد لينورمان؟

- نعم.

ارتفعت الهتافات. جان دوديفيل، الذي كان هناك بينما كان شقيقه يراقب المخرج السري، جان دوديفيل، شريك سيرنين نفسه، كان ينظر إليه بدهشة. السيد ويبر ظل مذهولًا ومترددًا. قال سيرنين: «أبهرتك، أليس كذلك؟ أعترف أن الأمر مضحك جدًا. يا إلهي، كم أضحكتني أحيانًا، عندما كنا نعمل معًا، أنت وأنا: المدير ونائبه! والأظرف من ذلك، أنك كنت تظن أن السيد لينورمان هذا قد مات. مات مثل ذلك المسكين جوريل. لكن لا، لا يا صديقي، الصغير كان لا يزال حيًّا».

أشار إلى جثة ألتنهايم: «انظر، إنه هذا اللص الذي رماني في الماء، داخل كيس، مع حجر حول خصري. فقط، نسيَ أن يأخذ مني سكيني. ومع سكين، يمكن فتح الأكياس وقطع الحبال. هذا هو الأمر، ألتنهايم المسكين. لو فكرت في ذلك، لما كنت في هذا الوضع، لكن يكفي حديثًا. السلام على رمادك!».

كان السيد ويبر يستمع، غير قادر على التفكير. في النهاية، أبدى إشارةً من اليأس، كأنه تخلى عن محاولة تكوين رأي منطقي. قال فجأة بقلق: «الأصفاد». قال سيرنين: «هل هذا كل ما لديك؟ أنت تفتقر الخيال. على أي حال، إذا كان هذا يسليك...».

ثم ناظرًا إلى دوديفيل في الصف الأول من مهاجميه، مدَّ يديه إليه: «ها، يا صديقي، لك الشرف، وليست هناك حاجة لإرهاق نفسك، لأنه ليست هناك طريقة أخرى». قال ذلك بنبرة جعلت دوديفيل يفهم أن المعركة انتهت في الوقت الحالي، وأنه ليس هناك سوى الاستسلام. وضع دوديفيل الأصفاد عليه. دون تحريك شفتيه، دون أي تعبير على وجهه، همس سيرنين: «27، شارع ريفولي... جنفييف».

لم يستطع السيد ويبر أن يقمع حركة من الرضا عند رؤية مثل هذا المشهد. قال: «هيا! إلى مديرية الأمن!». صرخ سيرنين: «نعم، إلى الأمن. السيد لينورمان سيحبس أرسين لوبين، الذي سيحبس الأمير سيرنين».

- لديك الكثير من الذكاء يا لوبين.

- صحيح يا ويبر، لا يمكننا التفاهم.

خلال الرحلة، داخل السيارة التي كانت ترافقها ثلاث سيارات أخرى محملة برجال الشرطة، لم ينطق بكلمة. لم يتوقفوا سوى عند مديرية الأمن. تذكر السيد ويبر الهروب الذي نظمه لوبين، فجعله يصعد فورًا إلى القسم الجنائي للقياس الجسدي لأخذ مقاساته، ثم أخذه إلى سجن سانتيه. أَبلَغ الإدارة عَبْر الهاتف، وكان ينتظر. كانت إجراءات التسجيل والتفتيش سريعة. في السابعة مساءً، عَبَر الأمير بول سيرنين عتبة الزنزانة رقم 14، داخل القسم الثاني. قال: «ليست سيئة، شقتكم ليست سيئة على الإطلاق. الضوء الكهربائي، التدفئة المركزية، المراحيض. باختصار، كل وسائل الراحة الحديثة. إنه مثالي، نحن متفقون. سيدي المدير، إنه من دواعي سروري البالغ أن أحجز هذه الشقة».

رمي بنفسه على السرير بكامل ملابسه: «آه! سيدي المدير، لديَّ طلب صغير أطلبه منكم».

- ما هو؟

- ألا يحضروا لي الشوكولاتة في الصباح قبل الساعة العاشرة، أنا منهك من التعب.

استدار نحو الحائط. بعد خمس دقائق، كان نائمًا بعمق.

الجرائم الثلاث لأرسين لوبين

الجزء الثامن

سجن سانتيه

الفصل الأول

كانت هناك نوبة من الضحك في جميع أنحاء العالم. بالتأكيد، أحدث القبض على أرسين لوبين عاطفة كبيرة، ولم يبخل الجمهور على الشرطة بالثناء الذي تستحقه على هذا الانتقام، الذي طال انتظاره والذي تحقَّق بشكل كامل. لقد قُبِض على المغامر العظيم، البطل الاستثنائي والعبقري والخفي يقبع الآن -مثل الآخرين- بين جدران الزنزانة، مسحوقًا بدوره بتلك القوة الهائلة التي تسمى العدالة، والتي عاجلًا أم آجلًا، وبشكل حتمي، تُحطم العقبات التي توضع أمامها وتُدمر عمل خصومها. قيل كل هذا، وطُبِع، وتكرر، وعُلِق عليه، ورُدد. حصل مفوض الشرطة على وسام القائد، وحصل السيد ويبر على وسام الضابط. أُشيد بمهارة وشجاعة أكثر المتعاونين تواضعًا. صفق الناس، غنوا للنصر، كُتِبت المقالات وأُلقيت الخطب. حسنًا! ولكن شيئًا ما طغى على هذا الحفل الرائع من الثناء وهذا الفرح الصاخب، كان ضحكًا جنونيًا، هائلًا، عفويًا، وصاخبًا لا ينطفئ.

أرسين لوبين كان مدير الأمن منذ أربع سنوات! كان كذلك منذ أربع سنوات! كان كذلك فعليًا، قانونيًا، بكل الحقوق التي يمنحها هذا المنصب، مع احترام رؤسائه، وبرضا الحكومة، وبإعجاب الجميع. منذ أربع سنوات كان أمن السكان وحماية الممتلكات موكلين إلى أرسين لوبين. كان يسهر على تنفيذ القانون، كان يحمي البريء ويلاحق المذنب. وما أعظم الخدمات التي قدَّمها! لم يسبق أن كان النظام أقل اضطرابًا، ولم يسبق أن كُشِفت الجريمة بشكل أكثر براعة وسرعة! تذكروا قضية دينيزو، وسرقة بنك كريدي ليونيه، والهجوم على قطار أورليان السريع، واغتيال البارون دورف.. كلها انتصارات

غير متوقعة وساحقة، كلها إنجازات رائعة يمكن مقارنتها بأشهر انتصارات أكثر رجال الشرطة شهرة.

في الماضي، في أحد خطاباته، بمناسبة حريق اللوفر والقبض على المجرمين، صرخ رئيس الوزراء فالينغلاي للدفاع عن الطريقة التعسفية نوعًا ما التي تصرف بها السيد لينورمان: «ببصيرته، وطاقته، وصفاته في اتخاذ القرار والتنفيذ، وإجراءاته غير المتوقعة، وموارده التي لا تنضب، يذكرنا السيد لينورمان بالرجل الوحيد الذي كان يمكن أن يقف في وجهه لو كان ما يزال على قيد الحياة، أي: أرسين لوبين. السيد لينورمان هو أرسين لوبين، ولكن أرسين لوبين في خدمة المجتمع».

وها هو السيد لينورمان ليس سوى أرسين لوبين! كونه أميرًا روسيًّا، لم يكن أحد يهتم بذلك! كان لوبين معتادًا على هذه التحولات، لكن كونه مدير الأمن! يا لها من سخرية ساحرة! يا له من خيال في إدارة هذه الحياة الاستثنائية بين كل الحيوات! السيد لينورمان! أرسين لوبين!

اليوم يمكن تفسير الأعمال الخارقة، المعجزة في الظاهر، التي حيرت الجماهير وأربكت الشرطة حتى وقت قريب. أصبح من المفهوم الآن اختفاء شريكه في وسط قصر العدل، في وضح النهار، في التاريخ المحدد. ألم يقل هو نفسه: «في اليوم الذي سأتحدث فيه عن حيلتي، سيتعجب الناس ويقولون: أهذا كل شيء؟! لا شيء أكثر من ذلك؟! الأمر ليس كبيرًا أو معقدًا، ولكن في الحقيقة، العبقرية تكمن في بساطتها وضرورة التفكير فيها». كان الأمر في الواقع بسيطًا كبساطة الأطفال؛ كان يكفي أن تكون مدير الأمن. حسنًا، كان لوبين مدير الأمن، وكان جميع العملاء، بطاعتهم لأوامره، شركاء غير إراديين وغير واعين للوبين.

يا لها من كوميديا رائعة! يا له من خداع مذهل! يا لها من مزحة ضخمة ومنعشة في عصرنا الضعيف! رغم أنه سجين، رغم أنه هُزِم بشكل لا رجعة فيه، كان لوبين، رغم كل شيء، المنتصر الأكبر. من زنزانته، كان يشع على باريس. أكثر من أي وقت مضى كان المعبود، أكثر من أي وقت مضى كان السيد!

عندما استيقظ في اليوم التالي في شقته، كما أطلق عليها، في سجن سانتيه، كان لدى أرسين لوبين رؤية واضحة جدًّا للضجة الهائلة التي سيحدثها اعتقاله تحت الاسمين المزدوجين سيرنين ولينورمان، وتحت

اللقبين المزدوجين أمير ومدير الأمن. فرك يديه وقال: «لا شيء أفضل من الشعور بالاستحسان. أيها المجد! يا شمس الأحياء!».

في الضوء، بدت زنزانته أكثر جاذبية. النافذة الموضوعة عاليًا كانت تسمح برؤية فروع شجرة يمكن رؤية زرقة السماء من خلالها. الجدران كانت بيضاء، لم يكن هناك سوى طاولة وكرسي، مثبتين في الأرض، لكن كل هذا كان نظيفًا ولطيفًا. قال: «حسنًا، فترة راحة صغيرة هنا لن تخلو من السحر، ولكن دعونا نأخذ حمامنا. هل لديَّ كل ما أحتاجه؟ لا. في هذه الحالة، نقرتان لخادمة الغرفة». ضغط، بالقرب من الباب، على آلية أطلقت إشارة في الممر. بعد لحظة، سُحِبت الأقفال والقضبان الحديدية من الخارج، فُتِح القفل، وظهر حارس. قال لوبين: «ماء ساخن يا عزيزي».

نظر إليه الآخر، مدهوشًا وغاضبًا في آن واحد. صرخ لوبين: «آه! ومنشفة إسفنجية! يا للهول! لا توجد منشفة إسفنجية!». تَمتَم الرجل: «أنت تسخر مني، أليس كذلك؟ هذا غير مقبول». كان ينسحب، عندما أمسك لوبين بذراعه بعنف: «مائة فرنك إذا وافقت على إرسال رسالة إلى مكتب البريد». أخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة المائة فرنك، كان قد أخفاها عن التفتيش، وقدَّمها له. قال الحارس وهو يأخذ المال: «الرسالة».

- ها هي ذي، أعطني لحظة لأكتبها.

جلس على الطاولة، كتب بضع كلمات بالقلم الرصاص على ورقة وضعها في مظروف وكتب عليه:

«السيد س. ب.

42. مكتب بريد، باريس».

أخذ الحارس الرسالة وذهب. قال لوبين لنفسه: «هذه رسالة، ستصل إلى عنوانها نفسه بالتأكيد كما لو كنت أحملها بنفسي. خلال ساعة على الأكثر، سأحصل على الإجابة. بالضبط الوقت اللازم لفحص وضعي».

استقر على كرسيه وبصوت منخفض، لخص: «في المجمل، لديَّ خصمان أحاربهما حاليًّا: 1) المجتمع الذي يحتجزني، والذي لا أبالي به. 2) شخصية مجهولة لا تحتجزني، لكنني لا أستهين بها على الإطلاق. هو من أَبلَغ الشرطة أنني سيرنين. هو من خمَّن أنني السيد لينورمان. هو من أغلق باب النفق، وهو من جعلني أُلقى في السجن». فكر أرسين لوبين للحظة، ثم واصل: «لذا،

في النهاية، المعركة هي بيني وبينه. ولخوض هذه المعركة، أي لاكتشاف وتحقيق قضية كيسيلباخ، أنا مسجون، بينما هو حر، مجهول، لا يمكن الوصول إليه، يتصرف في الورقتين الرابحتين اللتين اعتقدت أنهما لي، بيير ليدوك والعجوز شتاينفيج. باختصار، إنه يقترب من الهدف، بعد أن أبعدني عنه نهائيًا». وقفة تأملية جديدة، ثم حديث ذاتي جديد: «الوضع ليس مُشرقًا. من جانب كل شيء، ومن الجانب الآخر لا شيء. أمامي رجل بقوتي، بل أقوى حتى، لأنه ليست لديه الضوابط التي أتقيد بها. ولمهاجمته، لا توجد أسلحة». كرَّر هذه الكلمات الأخيرة عدة مرات بصوت آلي، ثم صمت واضعًا رأسه بين يديه، ظَلَّ مفكرًا لوقت طويل. قال وهو يرى الباب يُفتح: «تفضل بالدخول، سيدي المدير».

- كنت تنتظرني إذًا؟

- ألم أكتب لك سيدي المدير لأطلب منك المجيء؟ حسنًا، لم أشك للحظة أن الحارس سيحمل رسالتي إليك. شككت في ذلك لدرجة أنني كتبت على المظروف الأحرف الأولى من اسمك: س. ب. وعمرك: 42.

كان اسم مدير السجن بالفعل ستانيسلاس بوريلي، وكان عمره اثنين وأربعين عامًا. كان رجلًا ذا وجه لطيف، هادئ الطبع، وكان يعامل السجناء بأكبر قدر ممكن من التسامح. قال للوبين: «لم تخطئ في تقدير نزاهة مرؤوسي. ها هو مَالُك. سيُعاد إليك عند إطلاق سراحك. الآن ستعود إلى غرفة التفتيش».

تبع لوبين السيد بوريلي إلى الغرفة الصغيرة المخصصة لهذا الغرض، خلع ملابسه، وبينما كانوا يفتشون ملابسه بشكٍّ مُبرر، خضع هو نفسه لفحص دقيق للغاية. ثم أُعيد إلى زنزانته، وقال السيد بوريلي: «أنا أكثر اطمئنانًا الآن، بعد ما حدث».

- وحدث بشكل جيد، سيدي المدير. يؤدي رجالك هذه المهام بحساسية أود أن أشكرهم عليها بهذا التعبير عن رضاي.

أعطى ورقة نقدية من فئة المائة فرنك للسيد بوريلي الذي انتفض: «ماذا؟ ولكن من أين جاءت؟».

- لا داعي لإرهاق نفسك بالتفكير، سيدي المدير. رجل مثلي، يعيش الحياة التي أعيشها، مستعد دائمًا لجميع الاحتمالات، ولا تأخذه أي مصيبة على حين غرة، مهما كانت مؤلمة، حتى السجن.

أمسك بين إبهام وسبابة يده اليمنى الإصبع الوسطى ليده اليسرى، نزعها بحركة سريعة، وقدمها بهدوء للسيد بوريلي.

- لا تقفز هكذا، سيدي المدير. هذه ليست إصبعي، بل مجرد أنبوب من الغشاء الرقيق، ملون بشكل فني، ويُطبق بدقة على إصبعي الوسطى، بطريقة تعطي وهم الإصبع الحقيقية.

وأضاف ضاحكًا: «وبالطبع، لإخفاء ورقة نقدية ثالثة من فئة المائة فرنك. ماذا تريد؟ المرء لديه المحفظة التي يستطيع، ويجب الاستفادة». توقف أمام وجه السيد بوريلي المذهول: «أرجوك سيدي المدير، لا تعتقد أنني أريد إبهارك بمواهبي الاجتماعية الصغيرة. أريد فقط أن أُريك أنك تتعامل مع عميل من نوع خاص نوعًا ما، وأن أقول لك إنه يجب ألا تُدهش إذا ارتُكِبت بعض المخالفات للقواعد العادية لمؤسستك».

استعاد المدير رباطة جأشه. صرح بوضوح: «أريد أن أعتقد أنك ستمتثل لهذه القواعد، وأنك لن تجبرني على اتخاذ إجراءات صارمة ســـ...».

- ستؤلمك، أليس كذلك سيدي المدير؟ هذا بالضبط ما أريد تجنيبك إياه بإثباتٍ مُسبقٍ أنها لن تمنعني من التصرف كما أشاء؛ من التواصل مع أصدقائي، من الدفاع عن المصالح الخطِرة الموكلة إليَّ في الخارج، من الكتابة للصحف الخاضعة لإلهامي، من متابعة تنفيذ مشاريعي، وفي النهاية، من التحضير لهروبي.

- هروبك!

ضحك لوبين بصدق: «فكِّر سيدي المدير. عذري الوحيد لكوني في السجن هو الخروج منه». لم تبدُ الحجة كافية للسيد بوريلي. حاول أن يضحك بدوره: «الرجل المُحذر يعادل رجلين».

- هذا ما أردت. خذ كل الاحتياطات سيدي المدير، لا تهمل شيئًا، حتى لا يكون هناك ما تُلام عليه لاحقًا. من جانبي، سأرتب الأمور بحيث مهما كانت المتاعب التي ستتحملها بسبب هذا الهروب، فإن مسيرتك

المهنية على الأقل لن تتأثر. هذا ما أردت قوله لك سيدي المدير. يمكنك الانصراف.

وبينما كان السيد بوريلي يغادر، منزعجًا بشدة من هذا النزيل الغريب، وقلقًا للغاية بشأن الأحداث التي كانت تتحضر، ألقى السجين بنفسه على سريره وهو يتَمتَم: «حسنًا! يا لوبين العجوز، لديك جرأة كبيرة! يبدو حقًّا كما لو كنت تعرف بالفعل كيف ستخرج من هنا!».

الفصل الثاني

سجن سانتيه هو سجن مصمم وفقًا لنظام إضاءة محدد. في وسط الجزء الرئيسي، هناك دوران تتلاقى فيه جميع الممرات، بحيث لا يستطيع أي سجين الخروج من زنزانته دون أن يراه على الفور الحُراس المتمركزون في الكابينة الزجاجية التي تحتل منتصف هذا الدوران. ما يدهش الزائر الذي يتجول في السجن هو أن يصادف في كل لحظة سجناء دون مرافقة، ويبدو أنهم يتنقلون كما لو كانوا أحرارًا. في الواقع، للانتقال من نقطة إلى أخرى، من زنزانتهم على سبيل المثال إلى سيارة السجن التي تنتظرهم في الفناء لنقلهم إلى قصر العدل، أي إلى التحقيق، يعبرون خطوطًا مستقيمة تنتهي كلٌّ منها بباب يفتحه لهم حارس، وهذا الحارس مكلفٌ فقط بفتح هذا الباب، ومراقبة الخطين المستقيمين اللذين يتحكم فيهما. وهكذا يُرسَل السجناء، الأحرار ظاهريًّا، من باب إلى باب، من نظرة إلى نظرة، مثل الطرود التي تُمَرَّر من يدٍ إلى يد. في الخارج، يستلم الحُراس الشيء ويدخلونه في أحد أشعة «سلة السلَطَة». هذا هو العرف.

مع لوبين لم يُراع أيٌّ من ذلك. اشتُبِه في هذه الجولة عَبْر الممرات، اشتُبِه في سيارة الزنزانة، اشتُبِه في كل شيء. جاء السيد ويبر شخصيًّا، برفقة اثني عشر عميلًا من الشرطة -أفضل رجاله، رجال مختارون، مسلحون حتى أسنانهم- وأخذ السجين الرهيب من عتبة غرفته، وقاده إلى عربة كان سائقها أحد رجاله. على اليمين واليسار، في الأمام والخلف، كان الحراس يهرولون.

صاح لوبين: «برافو! مراسم عظيمة. حرس شرف. يا للهول، ويبر، لديك حِس بالتسلسل الهرمي! أنت لا تنسى ما تدين به لرئيسك المباشر». وضاربًا

على كتفه: «ويبر، أنوي تقديم استقالتي. سأُعينك خليفةً لي». قال ويبر: «الأمر شبه منتهٍ».

- يا لها من أخبار جيدة! كانت لديَّ مخاوف بشأن هروبي. أنا مطمئن الآن، حالما يصبح ويبر مدير الأمن...

لم يرد السيد ويبر على السخرية. في أعماقه، كان يشعر بشعور غريب ومعقد في مواجهة خصمه، شعور مكون من الخوف الذي كان ينشره لوبين، والاحترام الذي كان يكنه للأمير سيرنين، والإعجاب المحترم الذي كان يظهره دائمًا للسيد لينورمان. كل هذا ممزوج بالضغينة والحسد والكراهية المَرضِية.

وصلوا إلى قصر العدل. في أسفل «المصيدة»، كان رجال الأمن ينتظرون، من بينهم الأخوان دوديفيل. سُرَّ السيد ويبر برؤية أفضل مساعديه. قال لهما: «هل السيد فورميري هنا؟».

- نعم يا سيدي، السيد قاضي التحقيق في مكتبه.

صعد السيد ويبر الدرج، يتبعه لوبين الذي يحيط به الأخوان دوديفيل. همس السجين: «جنفييف؟».

- أنقِذت.

- أين هي؟

- عند جدتها.

- السيدة كيسيلباخ؟

- في باريس، فندق بريستول.

- سوزان؟

- اختفت.

- شتاينفيج؟

- لا نعرف شيئًا.

- هل فيلا دوبون عليها حراسة؟

- نعم.

- صحافة هذا الصباح جيدة؟

- ممتازة.

- حسنًا. في حالة الكتابة لي، هذه هي تعليماتي.

وصلوا إلى الممر الداخلي في الطابق الأول. أسقط لوبين في يد أحد الأخوين كرة صغيرة من الورق.

كانت للسيد فورميري عبارة لطيفة، عندما دخل لوبين مكتبه برفقة نائب الرئيس: «آه! ها أنت ذا! لم أكن أشك في أننا سنضع أيدينا عليك يومًا ما».

قال لوبين: «لم أكن أشك في ذلك أيضًا، سيدي قاضي التحقيق. وأنا سعيد بأن القدر قد اختارك لتحقيق العدالة للرجل الشريف الذي أنا عليه».

فكر السيد فورميري: «إنه يسخر مني». وبالنبرة الساخرة نفسها والجدية، أجابه: «الرجل الشريف الذي أنت عليه سيدي، يجب أن يُفسر في الوقت الحالي ثلاثمائة وأربع وأربعين قضية سرقة، سطو، احتيال، تزوير، ابتزاز، إخفاء، إلخ. ثلاثمائة وأربع وأربعين!».

صاح لوبين: «ماذا! ليس أكثر؟! أنا حقًا أشعر بالخجل».

- الرجل الشريف الذي أنت عليه يجب أن يفسر اليوم اغتيال المدعو ألتنهايم.

- انظر، هذا جديد. الأمر موكل إليك، سيدي قاضي التحقيق.

- بالضبط.

- ذكي جدًّا! حقًّا، أنت تحرز تقدمًا يا سيد فورميري.

- الوضع الذي ضُبِطت فيه لا يترك أي مجال للشك.

- لا شك على الإطلاق، لكن سأسمح لنفسي بأن أسألك سؤالًا: من أي جرح مات ألتنهايم؟

- من جرح في الحلق أُحدِث بسكين.

- وأين هذا السكين؟

- لم يُعثر عليه.

- كيف لم يُعثر عليه، إذا كنت أنا القاتل، حيث ضُبِطت بجانب الرجل الذي كنت قد قتلته؟

- وبرأيك، القاتل...

- ليس سوى الذي ذبح السيد كيسيلباخ، تشابمان، إلخ... طبيعة الجرح هي دليل كافٍ.

- من أين هرب؟

- عَبر بابٍ سري ستكتشفونه في الغرفة نفسها التي وقعت فيها الجريمة.

ابتسم السيد فورميري ابتسامة ماكرة.

- وكيف حدث أنك لم تتبع هذا المثال المفيد؟

- حاولت اتباعه، لكن المخرج كان مسدودًا بباب لم أتمكن من فتحه. في أثناء هذه المحاولة، عاد الآخر إلى الغرفة، وقتل شريكه خوفًا من أن يُفصِح عنه. في الوقت نفسه، أَخفى في أعماق الخزانة حزمة الملابس التي كنت قد أعددتها حيث عثرتم عليها.

- ولماذا كانت هذه الملابس؟

- للتنكر. عند قدومي إلى جليسين، كانت خطتي كالتالي: تسليم ألتنهايم للعدالة، وإلغاء هويتي للأمير سيرنين، والظهور مجددًا بملامح...

- السيد لينورمان، ربما؟

- بالضبط.

- لا.

- ماذا؟

ابتسم السيد فورميري بسخرية، وهزَّ إصبعه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. كرر: «لا».

- ماذا! لا؟

- قصة السيد لينورمان هي جيدة للجمهور يا صديقي، لكنك لن تجعل السيد فورميري يبتلع فكرة أن لوبين ولينورمان كانا شخصًا واحدًا.

انفجر ضاحكًا: «لوبين، مدير الأمن! لا! افعل كل ما تريد، ولكن ليس هذا! هناك حدود. أنا رجل طيب، ولكن مع ذلك دعنا نفهم، لأي سبب هذه الحماقة الجديدة؟ أعترف أنني لا أفهم جيدًا».

نظر إليه لوبين بذهول. رغم كل ما كان يعرفه عن السيد فورميري، لم يكن يتخيل مثل هذا المستوى من الغرور والعمى. لم يكن هناك شخص واحد لا يصدق الشخصية المزدوجة للأمير سيرنين في الوقت الحالي. السيد فورميري وحده! التفت لوبين إلى نائب المدير الذي كان يستمع، فاغرًا فاه، وقال: «سيدي ويبر، يبدو أن ترقيتك في خطر كبير. لأنه في النهاية، إذا لم

يكن السيد لينورمان أنا، فهذا يعني أنه موجود. وإذا كان موجودًا، لا أشك في أن السيد فورميري بكل حدسه سينتهي به الأمر باكتشافه، وفي هذه الحالة...».

صاح قاضي التحقيق: «سيُكتَشف، سيد لوبين. أنا أتولى ذلك، وأعترف أن المواجهة بينك وبينه لن تكون عادية». كان يضحك بصوت عالٍ، ويقرع على الطاولة كالطبول: «كم هذا مسلٍّ! آه! لا نشعر بالملل معك. إذًا، أنت ستكون السيد لينورمان، وأنت من قمت باعتقال شريكك ماركو!».

- بالضبط! ألم يكن من الضروري إرضاء رئيس الوزراء وإنقاذ الحكومة؟ هذه حقيقة تاريخية.

كان السيد فورميري يمسك بجانبيه من الضحك: «آه! إنه أمر يدعو للموت! يا إلهي، كم هذا مضحك! الإجابة ستجوب العالم. وفقًا لنظامك، إذًا، هل كنت أنت من أجريت معه التحقيق من البداية في القصر، بعد اغتيال السيد كيسيلباخ؟».

رد لوبين بنبرة ساخرة: «لقد تابعت معي قضية التاج عندما كنت دوق شارميراس». قفز السيد فورميري، وقد زالت كل بهجته بسبب هذه الذكرى البغيضة. أصبح جادًّا فجأة، وقال: «إذًا، أنت مُصر على هذا الكلام العبثي؟».

- أنا مضطر إلى ذلك لأنها الحقيقة. سيكون من السهل عليك، عند ركوب السفينة إلى كوشينشينا، أن تجد في سايغون أدلة على وفاة السيد لينورمان الحقيقي، الرجل الطيب الذي حللت محله، والذي سأقدم لك شهادة وفاته.

- هراء!

- حسنًا، سيدي قاضي التحقيق، سأعترف لك أن الأمر لا يهمني على الإطلاق. إذا كان لا يعجبك أنني السيد لينورمان، فلن نتحدث عن ذلك بعد الآن. إذا كان يعجبك أنني قتلت ألتنهايم، كما تشاء. ستتسلى بتوفير الأدلة. أكرر لك، كل هذا ليست له أي أهمية بالنسبة إليَّ. جهز كل أسئلتك وكل إجاباتي لاغية وباطلة. تحقيقك لا يهم، لسبب بسيط، وهو أنني سأكون في مكان بعيد عندما ينتهي الأمر. فقط...

بلا خجل، أخذ كرسيًّا وجلس قبالة السيد فورميري على الجانب الآخر من المكتب. وبنبرة حادة: «قلتُ (فقط)، وهذا هو توضيحي: ستعلم، سيدي، أنه

على الرغم من المظاهر وعلى الرغم من نياتك، فإنني ليست لديَّ نية لإضاعة وقتي. لديك أعمالك، ولديَّ أعمالي. أنت تتقاضى راتبًا للقيام بأعمالك. أنا أقوم بأعمالي وأدفع لنفسي. الآن، القضية التي أتابعها حاليًا هي من تلك التي لا تحتمل دقيقة واحدة من التشتت، ولا ثانية واحدة من التوقف في إعداد وتنفيذ الأعمال التي يجب أن تحققها. لذلك، أنا أتابعها، وبما أنك تضعني في الإجبار المؤقت بفرك أصابعي بين أربعة جدران لزنزانة، فأنتما الاثنان، سادتي، مَن أكلفكما بمصالحي. هل هذا مفهوم؟».

كان واقفًا، بموقف وقح ووجه متعالٍ، وكانت قوة هيمنة هذا الرجل كبيرة لدرجة أن محدثيه لم يجرؤوا على مقاطعته. اختار السيد فورميري أن يضحك، كمراقب يتسلى: «إنه مضحك! إنه سخيف!».

- سخيف أم لا يا سيدي؟ هكذا سيكون الأمر. محاكمتي، حقيقة ما إذا كنت قد قتلت أم لا، البحث عن خلفيتي، عن جرائمي أو جناياتي السابقة، كلها أمور تافهة أسمح لك بالتسلية بها، شريطة ألا تنسى ولو للحظة واحدة هدف مهمتك.

سأل السيد فورميري، بشكل ساخر: «وما هو هدف مهمتي؟».

- من الذي يحل مكاني في تحقيقاتي المتعلقة بمشروع السيد كيسيلباخ؟ وخصوصًا اكتشاف السيد شتاينفيج، المواطن الألماني الذي اختطفه واحتجزه الراحل البارون ألتنهايم؟

- ما هذه القصة؟

- هذه القصة من تلك التي احتفظت بها لنفسي عندما كنت أو بالأحرى عندما كنت أعتقد أنني السيد لينورمان. جزء منها دار في مكتبي، بالقرب من هنا، وويبر لا ينبغي أن يكون جاهلًا بها تمامًا. بكلمتين، يعرف العجوز شتاينفيج الحقيقة حول هذا المشروع الغامض الذي كان يتبعه السيد كيسيلباخ، وألتنهايم، الذي كان أيضًا على الطريق، اختُطِف السيد شتاينفيج.

- لا يمكن اختطاف الناس بهذه الطريقة، لا بد أن يكون شتاينفيج في مكان ما.

- بالتأكيد.

- هل تعرف أين هو؟

- نعم.
- أود أن أعرف.
- هو في العنوان التالي: 29 فيلا دوبون.

رفع السيد ويبر كتفيه: «إذًا، هو عند ألتنهايم؟ في الفيلا التي كان يسكنها؟».

- نعم.
- هذه هي الحقيقة التي ترغب أن تُعلَّق على هذا الهراء! لقد وجدتُ عنوان البارون في جيبه. بعدها بساعة، كانت الفيلا مشغولة برجالي!

أطلق لوبين تنهيدة ارتياح: «آه، يا للخبر السار! كنت أخشى تدخل الشريك، ذلك الذي لم أتمكن من الوصول إليه، واختطاف شتاينفيج. وماذا عن الخدم؟».

- رحلوا!
- نعم، مكالمة هاتفية من الشريك الآخر حذرتهم، لكن شتاينفيج هناك.

تضايق السيد ويبر: «لكن لا يوجد أحد، أكرر لك أن رجالي لم يغادروا الفيلا».

- السيد نائب مدير الأمن، أمنحك التفويض لتفتيش الفيلا بنفسك في دوبون. ستبلغني غدًا بنتائج تفتيشك.

رفع السيد ويبر كتفيه مرة أخرى، ودون أن يرد على الوقاحة: «لديَّ أمور أكثر إلحاحًا».

- سيدي نائب مدير الأمن، لا يوجد شيء أكثر إلحاحًا. إذا تأخرت، فإن جميع خططي ستذهب سُدى. العجوز شتاينفيج لن يتحدث أبدًا.
- لماذا؟
- لأنه سيكون قد مات جوعًا إذا لم تحضر له ما يأكله في غضون يوم، أو يومين على الأكثر.

الفصل الثالث

تَمتَم السيد فورميري بعد دقيقة من التفكير: «الأمر خطِرٌ جدًّا، خطِرٌ جدًّا لسوء الحظ!». ابتسم: «لسوء الحظ، حقيقتك مشوبة بعيب كبير».

- آه! ما هو؟

- أن كل هذا، سيد لوبين، ليس سوى خدعة كبيرة. ماذا تريد؟ لقد بدأت أعرف حيلك، وكلما بدت لي غامضة أكثر، أصبحت أكثر شكًّا.

تَمتَم لوبين: «أحمق».

نهض السيد فورميري قائلًا: «ها قد انتهينا. كما ترى، لم يكن سوى استجواب شكلي، مواجهة بين المبارزين. الآن وقد تشابكت السيوف، لم يعد ينقصنا سوى الشاهد الإلزامي لهذه المبارزة، محاميك».

- حسنًا! هل هذا ضروري؟

- ضروري.

- مجيء أحد أساتذة المحاماة من أجل مناقشات... مشكوك فيها؟

- يجب ذلك.

- في هذه الحالة، أختار الأستاذ كيمبل.

- نقيب المحامين. حسنًا، سيكون لديك دفاع جيد.

انتهت هذه الجلسة الأولى. في أثناء نزوله درج «المصيدة»، بين الأخوين دوديفيل، نطق السجين بجمل قصيرة آمرة: «راقبا منزل جنفييف. أربعة رجال بشكل دائم، السيدة كيسيلباخ أيضًا. إنهن مهددات. ستُفتش فيلا

دوبون، كونوا هناك. إذا عثروا على شتاينفيج، رتبوا الأمر كي يصمت. قليل من المسحوق، إذا لزم الأمر».

- متى ستكون حرًا يا سيدي؟

- لا شيء يمكن فعله في الوقت الحالي. على أي حال، لا داعي للعجلة، أنا أستريح.

في الأسفل، التحق بالحُراس الذين كانوا يحيطون بالسيارة. صاح: «إلى المنزل يا أبنائي، وبسرعة. لديَّ موعد مع نفسي في الساعة الثانية تمامًا». انتهت الرحلة دون حوادث. عند عودته إلى زنزانته، كتب لوبين رسالة طويلة بتعليمات مُفصلة للأخوين دوديفيل ورسالتين أخيرتين، كانت إحداهما لجنفييف:

«جنفييف، أنتِ تعرفين من أنا الآن، وستفهمين لماذا أخفيت عنك اسم الشخص الذي حملكِ مرتين، وأنت صغيرة، بين ذراعيه. جنفييف، كنت صديقًا لوالدتك، صديقًا بعيدًا كانت تجهل وجوده المزدوج، ولكنها كانت تعتقد أنها تستطيع الاعتماد عليه. ولهذا السبب، قبل أن تموت، كتبت لي بضع كلمات، وتوسلت إليَّ أن أرعاكِ. مهما كنتُ غير جدير باحترامكِ يا جنفييف، سأبقى وفيًّا لهذه الأمنية. لا تطرديني تمامًا من قلبك.

أرسين لوبين».

الرسالة الأخرى كانت موجهة إلى السيدة كيسيلباخ.

«المصلحة وحدها هي التي قادت الأمير سيرنين إلى السيدة كيسيلباخ، لكن حاجة هائلة للتفاني من

أجلها أبقته هناك. اليوم، حيث الأمير سيرنين لم يعد سوى أرسين لوبين، يطلب من السيدة كيسيلباخ ألا تحرمه حق حمايتها من بعيد، وكما يحمي المرء شخصًا لن يراه مرة أخرى».

كانت هناك مظاريف على الطاولة. أخذ واحدًا، ثم اثنين، ولكن عندما أخذ الثالث، لاحظ ورقة بيضاء أدهشه وجودها، وعليها كلمات ملصقة، قُصَّت بوضوح من صحيفة. قرأ:

«المعركة مع ألتنهايم لم تنجح معك. توقف عن الاهتمام بالقضية، ولن أعارض هروبك.

التوقيع: L. M .ل».

مرة أخرى، شعر لوبين بالنفور والرعب الذي كان ينشره هذا الكائن الذي لا اسم له، كائن خرافي، الإحساس بالاشمئزاز الذي يشعر به المرء عند لمس حيوان سام، زاحف. قال: «هو مرة أخرى، وهنا!». ما أفزعه، هو الرؤية المفاجئة التي كانت لديه. هذه القوة المعادية، قوة عظيمة مثل قوته، وتمتلك وسائل هائلة لم يكن هو نفسه يدركها. على الفور اشتبه في حارسه، لكن كيف تمكنوا من إفساد هذا الرجل ذي الوجه القاسي والتعبير الصارم؟

صاح: «حسنًا! الأفضل بعد كل شيء! لم أتعامل قط إلا مع أغبياء. لمحاربة نفسي، كان عليَّ أن أُعين نفسي مديرًا للأمن. هذه المرة لديَّ أمور تخدمني جيدًا! ها هو رجل يضعني في جيبه، كما لو كان يلعب بي. إذا تمكنت، من أعماق سجني من تجنب ضرباته وهزيمته، ورؤية العجوز شتاينفيج وانتزاع اعترافه، وإعداد قضية كيسيلباخ، وتحقيقها بالكامل، وحماية السيدة كيسيلباخ وتحقيق السعادة والثروة لجنفييف. حسنًا حقًّا، هذا يعني أن لوبين سيبقى دائمًا لوبين. ولهذا، لنبدأ بالنوم». استلقى على سريره وهو يتَمتَم: «شتاينفيج، تحلَّ بالصبر حتى لا تموت حتى مساء الغد، وأقسم لك...».

نام لبقية اليوم، وطوال الليل وطوال الصباح. نحو الساعة الحادية عشرة، جاءوا ليخبروه أن الأستاذ كيمبل ينتظره في غرفة المحامين، فأجاب الحارس: «اذهب وأخبر الأستاذ كيمبل أنه إذا كان بحاجة إلى معلومات عن أفعالي وتصرفاتي، فما عليه سوى الرجوع إلى الصحف منذ عشر سنوات. ماضيَّ ينتمي إلى التاريخ».

في الظهيرة، حدثت المراسم نفسها، والاحتياطات نفسها كما في اليوم السابق لاصطحابه إلى قصر العدل. رأى مرة أخرى الأخ الأكبر دوديفيل الذي تبادل معه بعض الكلمات، وسلَّمه الرسائل الثلاث اللاتي كان قد أعدَّهن، ثم أُدخل إلى مكتب السيد فورميري.

كان الأستاذ كيمبل هناك، حاملًا حقيبة مليئة بالوثائق. اعتذر لوبين على الفور: «كل أسفي أستاذي العزيز، لعدم تمكني من استقبالك، وكل أسفي أيضًا على المتاعب التي تتكبدها، وهي متاعب عبثية، بما أن...». قاطعه السيد فورميري: «نعم، نعم، نحن نعلم، أنك ستكون في رحلة، هذا متفق عليه. لكن حتى ذلك الحين، دعنا نقُم بعملنا. أرسين لوبين، رغم كل بحثنا، ليست لدينا أي معلومات دقيقة عن اسمك الحقيقي».

- كم هذا غريب! أنا أيضًا ليس لديَّ.
- لا نستطيع حتى أن نؤكد أنك أرسين لوبين نفسه الذي كان محتجزًا في سجن سانتيه، في الزنزانة رقم 19، والذي هرب للمرة الأولى.
- «للمرة الأولى» تعبير دقيق جدًّا.

تابع السيد فورميري: «في الواقع، إن سجل أرسين لوبين الذي عُثِر عليه، في القسم الجنائي للقياس الجسدي، يعطي وصفًا لأرسين لوبين يختلف في كل النقاط عن وصفك الحالي».

- هذا أكثر غرابة بكثير.
- معلومات مختلفة، قياسات مختلفة، بصمات مختلفة.. حتى الصورتان الفوتوغرافيتان ليس بينهما تشابه. لذلك أطلب منك أن توضح لنا هويتك الدقيقة.
- هذا بالضبط ما أردت أن أسألك عنه. لقد عشت تحت أسماء مختلفة كثيرة لدرجة أنني نسيت اسمي، لم أعد أعرف نفسي.
- إذن ترفض الإجابة؟

- نعم.

- ولماذا؟

- لأن...

- هل هذا موقف متعمد؟

- نعم. قلت لك: تحقيقك لا يهم. لقد كلفتك أمس بمهمة تهمني. أنتظر النتيجة.

صرخ السيد فورميري: «وأنا، قلت لك أمس أنني لا أصدق كلمة واحدة من قصتك عن شتاينفيج، وأنني لن أهتم بها».

- إذًا، لماذا، أمس، بعد مقابلتنا، ذهبت إلى فيلا دوبون؟ وقمت برفقة السيد ويبر بتفتيش دقيق لها؟

قال قاضي التحقيق، منزعجًا إلى حد ما: «كيف عرفت؟».

- من الصحف.

- آه! أنت تقرأ الصحف!

- يجب أن أبقى على اطلاع.

- لقد قمت بالفعل، من باب تأدية الواجب، بزيارة هذا المكان، بشكل سطحي، ودون إعطائه أي أهمية.

- بل على العكس، تعطيه أهمية كبيرة، وتؤدي المهمة التي كلفتك بها بدور يستحق الثناء، لدرجة أن نائب مدير الأمن يفتش بنفسه هناك، في الوقت الحالي.

بدا السيد فورميري مذهولًا. تلعثم: «أي كذبة هذه! لدينا، أنا والسيد ويبر، الكثير من الأمور الأخرى لنهتم بها».

في تلك اللحظة، دخل حاجب، وقال بعض الكلمات في أُذن السيد فورميري. صاح هذا الأخير: «دعه يدخل! دعه يدخل!». وبسرعة قال: «حسنًا، سيد ويبر. ما الجديد؟ هل وجدت هذا الرجل؟». لم يتكلف عناء إخفاء الأمر، فقد كان متلهفًا لمعرفة الخبر. أجاب نائب مدير الأمن: «لا شيء».

- آه! هل أنت متأكد؟

- أؤكد أنه لا يوجد أحد في هذا المنزل، لا حي ولا ميت.

- ومع ذلك...

- هذا ما هو عليه الأمر، سيدي قاضي التحقيق.

بدا كلاهما خائبًا، كما لو أن قناعة لوبين قد أثرت فيهما بدورها. قال السيد فورميري، بنبرة أسف: «أترى يا لوبين؟!». وأضاف: «كل ما يمكننا افتراضه هو أن العجوز شتاينفيج، بعد أن حُبِس هناك لم يعد موجودًا». صرح لوبين: «قبل أمس صباحًا كان ما يزال هناك». أكمل السيد ويبر: «وفي الساعة الخامسة مساءً، كان رجالي يحتلون المبنى». استنتج السيد فورميري: «إذًا يجب أن نفترض، أنه اختُطِف بعد الظهر». قال لوبين: «لا».

- هل تعتقد ذلك؟

كانت هذه إشادة ساذجة ببصيرة لوبين، هذا السؤال الغريزي من قاضي التحقيق، هذا النوع من الخضوع المسبق لكل ما سيقرره الخصم. أكد لوبين بوضوح تام: «أكثر من مجرد اعتقاد، من المستحيل أن يكون السيد شتاينفيج قد حُرِّر جسديًّا في ذلك الوقت. شتاينفيج موجود في فيلا دوبون». رفع السيد ويبر ذراعيه إلى السقف: «لكن هذا جنون! لأنني للتو عدت من هناك! لأنني فتشت كل غرفة! لا يمكن إخفاء رجل مثل قطعة نقود».

تأوه السيد فورميري: «إذًا، ماذا نفعل؟». أجاب لوبين: «ماذا تفعل سيدي قاضي التحقيق؟ الأمر بسيط جدًّا. اركب سيارة، وخذني معك مع كل الاحتياطات التي تريد اتخاذها، إلى فيلا دوبون. الساعة الآن الواحدة. في الساعة الثالثة، سأكون قد اكتشفت شتاينفيج».

كان العرض محددًا، آمرًا، مطالبًا. خضع القاضيان لثقل هذه الإرادة القوية. نظر السيد فورميري إلى السيد ويبر. بعد كل شيء، لماذا لا؟ ما الذي يمنع هذا الاختبار؟

- ما رأيك سيد ويبر؟

- اممم... لست متأكدًا تمامًا.

- نعم، ولكن مع ذلك، إذا كان الأمر يتعلق بحياة إنسان...

قال نائب مدير الأمن الذي بدأ يفكر: «بالطبع».

فُتِح الباب. أحضر حاجبٌ رسالة فتحها السيد فورميري، وقرأ فيها هذه الكلمات:

«احذر. إذا دخل لوبين فيلا دوبون، سيخرج منها حرًّا. هروبه مُعد. - L. M».

شحب وجه السيد فورميري، أرعبه الخطر الذي كاد يقع فيه. مرة أخرى، كان لوبين يتلاعب به. شتاينفيج غير موجود. همس السيد فورميري بكلمات شكر. لولا معجزة هذه الرسالة المجهولة، لكان ضاع وفقد شرفه المهني. قال: «يكفي الاستجواب اليوم، سنستأنف العمل غدًا. حُراس، أعيدوا السجين إلى سجن سانتيه!».

لم يتحرك لوبين، قال لنفسه إن الضربة جاءت من الكائن الآخر. قال لنفسه إن هناك عشرين فرصة مقابل واحدة، إن إنقاذ شتاينفيج لن يكون ممكنًا الآن، لكن في النهاية، بقيت هذه الفرصة الواحدة والعشرون، وأنه لا يوجد سبب لأن يفقد هو -لوبين- الأمل. لذلك قال ببساطة: «سيدي قاضي التحقيق، أعطيك موعدًا غدًا صباحًا في الساعة العاشرة، في فيلا دوبون».

- أنت مجنون! ولكن بما أنني لا أريد...

- أنا أريد، وهذا يكفي. إلى الغد في العاشرة. كن دقيقًا في الموعد.

الفصل الرابع

كعادته، فورَ عودته إلى زنزانته استلقى لوبين، وبينما كان يتثاءب فكر: «في النهاية، لا شيء أكثر فاعلية لإدارة أعمالي من هذه الحياة. كل يوم أعطي دفعة صغيرة تضع الآلة بأكملها في حركة، وما عليَّ سوى الانتظار حتى اليوم التالي، لتحدث الأحداث من تلقاء نفسها. أي راحة هذه لرجل مرهق!» وبينما كان يستدير نحو الحائط: «شتاينفيج، إذا كنت تريد الحياة، لا تَمُت الآن! أطلب منك القليل من حسن النية، افعل مثلي ونم».

باستثناء وقت الوجبة، نام لوبين مرة أخرى حتى الصباح. لم يوقظه سوى صوت الأقفال والمزاليج. قال له الحارس: «انهض، ارتدِ ملابسك. الأمر عاجل!». استقبله السيد ويبر ورجاله في الممر، واصطحبوه إلى العربة. قال لوبين وهو يصعد: «أيها السائق، 29 شارع فيلا دوبون، وبسرعة!». قال نائب مدير الأمن: «آه! إذًا أنت تعرف أننا ذاهبون إلى هناك؟».

- بالطبع أعرف، لأنني بالأمس حددت موعدًا مع السيد فورميري في فيلا دوبون، في تمام الساعة العاشرة. عندما يقول لوبين شيئًا، يتحقق هذا الشيء. والدليل...

فورَ الوصول إلى شارع بيرغوليز، أثارت الاحتياطات المتعددة التي اتخذتها الشرطة سرور السجين. كانت فِرق من الضباط تملأ الشارع. أمَّا فيلا دوبون، فقد مُنِع المرور بالقرب منها تمامًا. ضحك لوبين ساخرًا: «حالة طوارئ. ويبر، ستوزع نيابة عني لويًا واحدًا لكل واحد من هؤلاء المساكين الذين أزعجتهم بلا سبب. كم أنتم مرعوبون! لو كان الأمر مختلفًا قليلًا، لكنت وضعت الأصفاد في يديَّ». قال السيد ويبر: « كنت أنتظر فقط رغبتك».

- حسنًا إذًا يا عزيزي. يجب أن نجعل المباراة متكافئة بيننا! فَكِّر في الأمر، أنتم لستم سوى ثلاثمائة اليوم!

بيديه المقيدتين، نزل من العربة أمام الشرفة، وعلى الفور وُجِّه إلى غرفة حيث كان السيد فورميري. خرج الضباط، بقي السيد ويبر وحده. قال لوبين: «اعذرني، سيدي قاضي التحقيق، ربما تأخرت دقيقة أو دقيقتين. كن متأكدًا أنني سأرتب الأمر في المرة القادمة».

كان السيد فورميري شاحبًا. كان يرتعش بعصبية. تلعثم: «السيدة فورميري...». اضطر إلى التوقف، لاهثًا، وحلقه مختنق. سأل لوبين باهتمام: «كيف حالها؟ السيدة فورميري الطيبة! لقد كان لي شرف الرقص معها هذا الشتاء، في حفلة مبنى البلدية، وهذه الذكرى...». أكمل قاضي التحقيق: «تلقَّت السيدة فورميري مكالمة هاتفية من والدتها مساء أمس، تطلب منها الحضور على عجل. غادرت السيدة فورميري على الفور، للأسف من دوني، لأنني كنت أدرس ملفك».

- كنت تدرس ملفي؟ ها هو الخطأ بالتأكيد.

واصل القاضي: «حسنًا، عند منتصف الليل، عندما لم تعد السيدة فورميري، وكنت قلقًا بعض الشيء، ركضت إلى منزل والدتها، لم تكن السيدة فورميري هناك. لم تتصل بها والدتها، كل هذا لم يكن سوى أكثر الفخاخ بشاعة. حتى هذه اللحظة، لم تعد السيدة فورميري بعد». قال لوبين باستنكار: «آه!». وبعد التفكير: «على حد علمي، السيدة فورميري جميلة جدًّا، أليس كذلك؟».

لم يبدُ أن القاضي فهم. تقدَّم نحو لوبين، وبصوت قَلِق، وموقف مسرحي إلى حد ما: «سيدي، لقد أخطِرت هذا الصباح برسالة تفيد بأن زوجتي سوف تعود فور العثور على المدعو شتاينفيج. هذه هي الرسالة، إنها موقعة باسم لوبين. هل هي منك؟».

فحص لوبين الرسالة، وخلص بجدية: «إنها مني».

- مما يعني أنك تريد الحصول مني بالإكراه على توجيه البحث إلى المدعو شتاينفيج؟

- أنا أطالب بذلك.

- وهل ستكون زوجتي حُرة بعد ذلك مباشرة؟

- ستكون حُرة.

- حتى في حالة فشل هذا البحث؟

- هذه الحالة غير مقبولة.

صرخ السيد فورميري، في نوبة تمرد غير متوقعة: «وإذا رفضت؟». همس لوبين: «قد يكون للرفض عواقب وخيمة، السيدة فورميري جميلة...». صَرَّ السيد فورميري بأسنانه: «حسنًا. ابحث، أنت سيد اللعبة».

وعقد السيد فورميري ذراعيه، كرجل يعرف عند الاقتضاء كيف يستسلم أمام القوة العليا للأحداث. لم ينبس السيد ويبر ببنت شفة، لكنه كان يعض شاربه بغضب، وكان من السهل ملاحظة ما كان يشعر به من غضب للاستسلام مرة أخرى لنزوات هذا العدو، المهزوم والمنتصر دائمًا».

قال لوبين: «لنصعد». ثم صعدوا. أمرهم: «افتحوا باب هذه الغرفة!». فتحوه: «انزعوا الأصفاد من يديَّ!». كانت هناك لحظة تردد، تبادل السيد فورميري والسيد ويبر النظرات. كَرَّر لوبين: «انزعوا الأصفاد من يديَّ!». أكد نائب مدير الأمن: «أنا أتحمل المسؤولية!». وأشار إلى الرجال الثمانية الذين كانوا يرافقونه: «جهزوا السلاح في أيديكم! عند أول أمر، أطلقوا النار!». أخرج الرجال مسدساتهم.

أمر لوبين: «أخفضوا أسلحتكم، وضعوا أيديكم في جيوبكم». وأمام تردد الضباط، أعلن بقوة: «أقسم بشرفي إنني هنا لإنقاذ حياة رجل يحتضر، وإنني لن أحاول الهرب». تَمتَم أحد الضباط: «شرف لوبين!». ركلة حادة على ساق الضابط جعلته يطلق صرخة ألم. قفز جميع الضباط غاضبين.

صرخ السيد ويبر متدخلًا: «توقفوا! اذهب يا لوبين. أعطيك ساعة. إذا في غضون ساعة...». اعترض لوبين بحزم: «لا أريد شروطًا». زمجر نائب مدير الأمن بغضب: «حسنًا! افعل ما تشاء، أيها الحيوان!». وتراجع، ساحبًا رجاله معه.

قال لوبين: «رائع. هكذا، يمكننا العمل بهدوء». جلس في كرسي مريح، طلب سيجارة، أشعلها، وبدأ ينفث حلقات الدخان نحو السقف، بينما كان الآخرون ينتظرون بفضول لم يحاولوا إخفاءه. بعد لحظة: «ويبر، حَرِّك السرير».

حُرِّك السرير.

- أزيلوا جميع ستائر الكوة.

أُزِيلت الستائر.

بدأ صمت طويل، كان الأمر يشبه إحدى تجارب التنويم المغناطيسي التي نشهدها بسخرية ممزوجة بالقلق، مع الخوف الغامض من الأشياء الغامضة التي قد تحدث. ربما سنرى محتضرًا يظهر من الفضاء، مستدَعى بتعويذة المشعوذ التي لا تقاوم. ربما سنرى...

صرخ السيد فورميري: «ماذا؟ بالفعل!». قال لوبين: «هذا هو. هل تعتقد سيدي قاضي التحقيق أنني لا أفكر في شيء في زنزانتي؟ وأنني جعلت نفسي أُحضَر إلى هنا دون أن يكون لديَّ بعض الأفكار المحددة حول المسألة؟ قال السيد ويبر: «وماذا إذًا؟»».

- أرسِل أحد رجالك إلى لوحة الأجراس الكهربائية، يجب أن تكون معلقة بالقرب من المطابخ!

غادر أحد الضباط.

- الآن، اضغط زِرَّ الجرس الكهربائي الموجود هنا، في الكوة، على مستوى السرير. حسنًا، اضغط بقوة! لا تفلته! كفى هكذا. الآن، استدعِ الرجل الذي أرسلناه إلى الأسفل.

بعد دقيقة، عاد الضابط.

- حسنًا! أيها الفنان، هل سمعت الجرس؟

- لا.

- هل انطلق أحد أرقام اللوحة؟

- لا.

- ممتاز، لم أخطئ. ويبر، هلا تفضلت بفك هذا الجرس المزيف، كما ترى. ها هو ذا! ابدأ بإدارة الجرس الصغير من الخزف الذي يحيط بالزر. ممتاز، والآن، ماذا ترى؟

أجاب السيد ويبر: «نوع من القُمع، يبدو كنهاية أنبوب».

- انحنِ، ضع فمك على هذا الأنبوب، كما لو كان بوقًا.

- ها قد فعلت.

- نادِ. نادِ: «شتاينفيج! يا شتاينفيج!» لا داعي للصراخ، تحدث بشكل طبيعي. حسنًا؟

- لا أحد يجيب.

- هل أنت متأكد؟ استمع. لا أحد يجيب؟!

- لا.

- للأسف، هذا يعني أنه ميت، أو غير قادر على الرد.

صاح السيد فورميري: «في هذه الحالة، كل شيء ضاع». قال لوبين: «لم يضع شيء، لكن الأمر سيستغرق وقتًا أطول. لهذا الأنبوب طرفان مثل جميع الأنابيب، علينا أن نتتبعه حتى الطرف الثاني».

- لكن سيتعين علينا هدم المنزل بأكمله.

- لا، لا. سترون.

بدأ هو نفسه في العمل، محاطًا بجميع الضباط الذين كانوا مشغولين بمراقبة ما كان يفعله أكثر من مراقبته هو. دخل إلى الغرفة الأخرى، وعلى الفور، كما توقع، رأى أنبوبًا من الرصاص يبرز من زاوية ويرتفع نحو السقف مثل أنبوب مياه. قال لوبين: «آه! آه! إنه يصعد! ليس غبيًا. عادة ما يبحثون في الأقبية».

اكتُشِف الخيط، لم يكن عليهم سوى اتباع الدليل. وهكذا وصلوا إلى الطابق الثاني، ثم الثالث، ثم غرف العُليَّة. ورأوا أن سقف إحدى هذه الغرف كان مثقوبًا، وأن الأنبوب كان يمر عَبْر سقيفة منخفضة جدًا، كانت هي نفسها مثقوبة في جزئها العلوي. وفوق ذلك كان السطح.

نصبوا سلمًا وعَبَروا نافذة سقف. كان السطح مصنوعًا من ألواح الصفيح. قال للوبين: «ألا ترون أن المسار خاطئ؟». هزَّ لوبين كتفيه: «على الإطلاق».

- ولكن بما أن الأنبوب ينتهي تحت ألواح الصفيح...

- هذا يثبت فقط أنه بين ألواح الصفيح هذه والجزء العلوي من العُليَّة، هناك مساحة فارغة حيث سنجد ما نبحث عنه.

- مستحيل!

- سنرى. ارفعوا الألواح! لا، ليس هناك. هنا حيث يجب أن يخرج الأنبوب.

نفذ ثلاثة ضباط الأمر. أطلق أحدهم صيحة: «آه! وجدناه!».

انحنوا. كان لوبين على حق، تحت الألواح التي كانت تدعمها شبكة من القضبان الخشبية شبه المتعفنة، كان هناك فراغ بارتفاع متر واحد على

الأكثر، في أعلى نقطة. نزل أول ضابط وخرق الأرضية، وسقط في العُليَّة. كان عليهم الاستمرار على السطح بحذر، مع رفع ألواح الصفيح. على بعد مسافة قصيرة، كانت هناك مدخنة. توقف لوبين، الذي كان يسير في المقدمة ويتابع عمل الضباط، وقال: «ها هو ذا».

كان هناك رجل -أو بالأحرى جثة- ممدد، رأوا في ضوء النهار الساطع وجهه الشاحب المتشنج من الألم. كانت السلاسل تربطه بحلقات حديدية مثبتة في المدخنة. كان هناك وعاءان بجانبه. قال قاضي التحقيق: «إنه ميت». قال لوبين: «كيف عرفت؟».

انزلق لوبين إلى الأسفل، تحسس الأرضية بقدمه التي بدت له أكثر صلابة في هذا المكان، واقترب من الجثة. قلَّد السيد فورميري ونائب مدير الأمن ما فعل. بعد لحظة من الفحص، قال لوبين: «ما زال يتنفس». قال السيد فورميري: «نعم. القلب ينبض بضعف، لكنه ينبض. هل تعتقد أننا نستطيع إنقاذه؟». قال لوبين بثقة كبيرة: «بالطبع! بما أنه لم يمت». وأمر: «حليب، على الفور! حليب مخلوط بماء فيشي. بسرعة! وأنا أضمن كل شيء».

بعد عشرين دقيقة، فتح شتاينفيج العجوز عينيه. همس لوبين، الذي كان راكعًا بجانبه، ببطء ووضوح، بطريقة تَحفر كلماته في دماغ المريض: «اسمع يا شتاينفيج، لا تكشف لأحد سر بيير ليدوك. أنا، أرسين لوبين، سأشتريه منك بالسعر الذي تريده. دعني أتصرف».

أمسك قاضي التحقيق لوبين من ذراعه، وقال بجدية: «أين السيدة فورميري؟».

- السيدة فورميري حرة، إنها تنتظرك بفارغ الصبر.

- كيف ذلك؟

- انظر، سيدي قاضي التحقيق، كنت أعلم جيدًا أنك ستوافق على الرحلة الصغيرة التي اقترحتها عليك. لم يكن الرفض من جانبك مقبولًا.

- لماذا؟

- لأن السيدة فورميري جميلة جدًّا.

الجزء التاسع

صفحة من التاريخ الحديث

الفصل الأول

ألقى لوبين بعنف قبضتيه اليمنى واليسرى، ثم أعادهما إلى صدره، ثم أطلقهما مجددًا، وأعادهما مرة أخرى. هذه الحركة، التي نفذها ثلاثين مرة متتالية، تبعها انحناء للجذع إلى الأمام والخلف، تلاه رفع متناوب للساقين، ثم دوران متناوب للذراعين. استمر هذا لمدة ربع ساعة، وهو الوقت الذي كان يُخصصه كل صباح لتمارين الجمباز السويدية لتليين عضلاته. بعد ذلك، جلس أمام طاولته، وأخذ أوراقًا بيضاء كانت مرتبة في حِزمٍ مرقمة، وبِطي إحداها صنع منها مغلفًا، وهو عمل كرره مع سلسلة من الأوراق المتتالية. كان هذا هو العمل الذي قَبِله والذي كان يُلزم نفسه به كل يوم، حيث كان للسجناء الحق في اختيار الأعمال التي تروقهم: لصق المغلفات، صنع المراوح الورقية، الحقائب المعدنية، إلخ... وبهذه الطريقة، بينما كان يشغل يديه بتمرين آلي، ويلين عضلاته بحركات ميكانيكية، لم يتوقف لوبين عن التفكير في شؤونه.

صوت الأقفال يهدر، وضجيج القفل.

- آه! هذا أنت، أيها السجَّان الممتاز. هل حان وقت الزينة؟ جئت من أجل قص الشعر؟

قال الرجل: «لا».

- التحقيق إذًا؟ النزهة إلى قصر العدل؟ هذا يدهشني، لأن السيد فورميري الطيب أخبرني مؤخرًا أنه من الآن فصاعدًا، وحرصًا على الحذر، سيستجوبنني في زنزانتي نفسها، وهو ما أعترفُ أنه يعارض خططي.

قال الرجل بإيجاز: «زيارة لك».

فكر لوبين: «إنه هو». وبينما كان في طريقه إلى غرفة الزيارة، كان يقول لنفسه: «يا إلهي، إذا كان هذا ما أعتقد، فأنا رجل ماهر حقًا! خلال أربعة أيام، ومن قاع زنزانتي، استطعت تحريك هذه القضية، إنها ضربة معلم!».

مزودين بتصريح رسمي، مُوقع من مدير القسم الأول في مديرية شرطة باريس، يدخل الزائرين إلى الزنازين الضيقة التي تُستخدم كغرف زيارة. هذه الزنازين، المقسومة في الوسط بشبكتين تفصل بينهما مسافة خمسين سنتيمترًا، لها بابان يُفتحان على ممرين مختلفين. يدخل السجين من باب، والزائر من الآخر. لذلك لا يمكنهما لمس بعضهما بعضًا، ولا التحدث بصوت منخفض، ولا إجراء أي تبادل للأشياء بينهما. بالإضافة إلى ذلك، في بعض الحالات، يمكن لحارسٍ أن يحضر المقابلة. في هذه الحالة، كان رئيس الحُراس هو من حظِّي بهذا الشرف. صاح لوبين وهو يدخل: «من بحق الجحيم حصل على إذن لزيارتي؟ هذا ليس يوم استقبالي». بينما كان الحارس يغلق الباب، اقترب من الشبكة، وفحص الشخص الذي كان يقف خلف الشبكة الأخرى، والذي كانت ملامحه تُرى بشكل غامض في الظلام الجزئي. قال بفرح: «آه! إنه أنت يا سيد ستريباني! يا لها من مصادفة سعيدة!».

- نعم، إنه أنا، عزيزي الأمير.
- لا، لا للألقاب، أرجوك عزيزي السيد. هنا، تخَلَّيت عن كل هذه الزخارف التافهة للغرور البشري. نادني لوبين، فهذا أكثر ملاءمة للوضع.
- حسنًا، لكن الأمير سيرنين هو من عرفته، الأمير سيرنين هو من أنقذني من البؤس وأعاد لي السعادة والثروة، وستفهم أنه بالنسبة إليَّ، ستظل دائمًا الأمير سيرنين.
- حسنًا! سيد ستريباني، إلى الموضوع! لحظات رئيس الحُراس ثمينة، وليس لدينا الحق في إساءة استخدامها. باختصار، ما الذي أتى بك؟
- ما الذي أتى بي؟ آه! يا إلهي، الأمر بسيط جدًا. بدا لي أنك ستكون غير راضٍ عني إذا لجأت إلى شخص آخر غيرك لإكمال العمل الذي بدأته. وبعد ذلك، أنت وحدك من كان لديك جميع العناصر التي سمحت لك، في ذلك الوقت، بإعادة بناء الحقيقة والمساهمة في إنقاذي. وبالتالي، أنت وحدك القادر على التصدي للضربة الجديدة التي تهددني. هذا ما فهمه السيد مفوض الشرطة عندما شرحت له الوضع.

- كنت أتعجب بالفعل أنهم سمحوا لك.

- كان الرفض مستحيلًا، عزيزي الأمير. تدخُّلك ضروري في قضية تتعلق بمصالح كثيرة، ومصالح ليست فقط مصالحي، ولكنها تخص الشخصيات رفيعة المستوى التي تعرفها.

كان لوبين يراقب الحارس بزاوية عينه. كان يستمع باهتمام بالغ وجذعه منحنٍ، حريصًا على التقاط المعنى السري للكلمات المتبادلة.

سأل لوبين: «وبالتالي؟!».

- وبالتالي، عزيزي الأمير، أتوسل إليك أن تجمع كل ذكرياتك بخصوص تلك الوثيقة المطبوعة، المكتوبة بأربع لغات، والتي كانت بدايتها على الأقل تتعلق...

بضربة قوية على الفك، تحت الأذن قليلًا، ترنح رئيس الحُراس ثانيتين أو ثلاثًا، وسقط كالكتلة دون أنين على ذراعي لوبين.

قال لوبين: «ضربة جيدة يا لوبين، هذا عمل رائع. قل لي يا شتاينفيج، هل معك الكلوروفورم؟».

- هل أنت متأكد أنه فاقد الوعي؟

- هل تمزح! سيبقى هكذا لمدة ثلاث أو أربع دقائق، لكن هذا لن يكفي.

أخرج الألماني من جيبه أنبوبًا نحاسيًّا مدَّه مثل التلسكوب، وفي نهايته كانت قارورة صغيرة جدًّا مثبَّتة. أخذ لوبين القارورة، وسكب بضع قطرات على منديل، ووضع هذا المنديل تحت أنف رئيس الحراس.

- ممتاز! لقد نال الرجل نصيبه، سأحصل على ثمانية أو خمسة عشر يومًا في الحبس الانفرادي كعقوبة... لكن هذه هي المكاسب الصغيرة للمهنة.

- وماذا عني؟

- أنت؟ ماذا يمكن أن يفعلوا لك؟

- حسنًا! اللكمة...

- أنت لست مسؤولًا عن ذلك.

- والإذن برؤيتك؟ إنه مُزور.

- أنت لست مسؤولًا عن ذلك.

- لكنني استفدت منه.

- عفوًا! لقد قدمت قبل يومين طلبًا رسميًا باسم ستريبياني. هذا الصباح، تلقيت ردًا رسميًا. الباقي لا يعنيك. أصدقائي وحدهم الذين صنعوا الباقي، يمكن أن يتعرضوا للمساءلة. اذهب وانظر إن كانوا سيأتون!

- وماذا لو طاردونا؟

- لماذا؟

- لقد بدوا مصدومين هنا عندما أخرجت تصريحي لرؤية لوبين. استدعاني المدير، وفحص التصريح من كل الجوانب. لا أشك أنهم يتصلون بمديرية الشرطة.

- وأنا متأكد من ذلك.

- إذًا؟

- كل شيء مخطط له، يا صديقي العزيز. لا تقلق، ودعنا نتحدث. أفترضُ أنك إذا جئت إلى هنا، فأنت تعرف ما هو الأمر.

- نعم. أصدقاؤك شرحوا لي.

- وأنت توافق؟

- الرجل الذي أنقذني من الموت يمكنه التصرف بي كما يشاء، مهما كانت الخدمات التي يمكنني تقديمها له، سأظل مدينًا له.

- قبل أن تكشف سرك، فكر في الوضع الذي أنا فيه؛ سجين عاجز.

ضحك شتاينفيج: «لا، أرجوك، لا تمزح! لقد كشفت سري لكيسيلباخ لأنه كان غنيًا ويمكنه -أفضل من أي شخص آخر- الاستفادة منه، لكن رغم أنك سجين وعاجز، أعتبرك أقوى مائة مرة من كيسيلباخ بملايينه المئة».

- أوه! أوه!

- وأنت تعرف ذلك جيدًا! مائة مليون لم تكن كافية لاكتشاف الحفرة التي كنت أحتضر فيها، ولا لإحضاري إلى هنا لمدة ساعة، أمام السجين العاجز الذي أنت عليه. الأمر يتطلب شيئًا آخر. وهذا الشيء الآخر، لديك.

- في هذه الحالة، تحدث. ولنتابع بالترتيب. اسم القاتل؟

- هذا مستحيل.

- كيف يكون مستحيلًا؟ لكن بما أنك تعرفه، يجب أن تكشف لي كل شيء.

- كل شيء، ولكن ليس هذا.
- لكن...
- لاحقًا. عندما تكون حرًّا، سنبحث معًا. ما الفائدة على أي حال! وبعد ذلك، حقًّا، لا أستطيع.
- أنت خائف منه؟
- نعم.
- حسنًا. هذا ليس الأمر الأكثر إلحاحًا. بالنسبة إلى البقية، هل أنت مصمم على التحدث؟
- عن كل شيء.
- حسنًا! أجب. ما اسم بيير ليدوك؟
- هيرمان الرابع، الدوق الأكبر لدوقية بون-فيلدينز، أمير برنكاستل، الكونت فيستينغن، سيد منطقة فيسبادن وأماكن أخرى.

شعر لوبين برعشة من السعادة، عند معرفة أن بيير ليدوك لم يكن في النهاية ابن جزار.

تَمتَم: «يا للهول! لدينا ألقاب! على حد علمي، دوقية[1] بون-فيلدينز الكبرى تقع في بروسيا!».

- نعم، على نهر الموزيل. بيت فيلدينز هو فرع من بيت بالاتينات تسفايبروكن. احتل الفرنسيون الدوقية الكبرى بعد سلام لونيفيل[2]، وكانت جزءًا من إقليم مون-تونير. في عام 1814، أُعِيد تشكيلها لصالح هيرمان الأول، الجد الأكبر لبيير ليدوك. كان للابن، هيرمان الثاني، شبابٌ مضطرب؛ أفلس، بدَّد أموال بلاده، وأصبح لا يُطاق بالنسبة لرعاياه الذين انتهى بهم الأمر بحرق جزء من القلعة القديمة في فيلدينز، وطرد سيدهم من دولته. ثم أُدِيرت الدوقية الكبرى من قِبل ثلاثة أوصياء، باسم هيرمان الثاني، الذي، بشكل غريب بعض الشيء،

(1) ولاية صَغيرة أميرها يُلقب بالدُوق. (المترجم)

(2) سلام لونيفيل (La paix de Lunéville) هو معاهدة سلام وقعت في 9 فبراير 1801 بين الجمهورية الفرنسية الأولى والإمبراطورية الرومانية المقدسة، ممثلة في الإمبراطور فرانسيس الثاني. وُقعت المعاهدة في مدينة لونيفيل في فرنسا. (المترجم)

لم يتنازل عن العرش، واحتفظ بلقبه كدوق أكبر حاكم. عاش فقيرًا نسبيًا في برلين، وفيما بعد شارك في الحملة على فرنسا، إلى جانب بسمارك الذي كان صديقه، وقُتل بشظية قذيفة في حصار باريس، وعند موته، عَهِد إلى بسمارك بابنه هيرمان، هيرمان الثالث.

قال لوبين: «والد ليدوك الحالي بالطبع؟».

- نعم. نال هيرمان الثالث عناية المستشار، واستعان به في مناسبات مختلفة كمبعوث سري إلى شخصيات أجنبية. عند سقوط حاميه، غادر هيرمان الثالث برلين، سافر واستقرَّ في النهاية في دريسدن. عندما توفي بسمارك، كان هيرمان الثالث هناك، هو نفسه توفي بعد عامين. هذه هي الحقائق العامة، المعروفة للجميع في ألمانيا، هذا هو تاريخ «الثلاثة هيرمان»، الدوقات الكبار لدوقية بون-فيلدينز في القرن التاسع عشر.

- لكن الرابع، هيرمان الرابع الذي يهمنا؟!

- سنتحدث عنه لاحقًا. دعنا ننتقل الآن إلى الحقائق المجهولة.

- والمعروفة لك وحدك.

- لي وحدي، ولبعض الآخرين.

- كيف لبعض الآخرين؟ إذًا، السر غير محفوظ؟

- بلى، بلى، السر محفوظ جيدًا من أولئك الذين يعرفونه. لا تقلق، أولئك لديهم كل المصلحة، أؤكد لك عدم الكشف عنه.

- إذًا! كيف عرفته؟

- من خادم سابق وسكرتير خاص للدوق الأكبر هيرمان الثالث، آخر من يحمل الاسم. هذا الخادم، الذي توفي بين ذراعي في كيب تاون، أخبرني أولًا أن سيده قد تزوج سرًا وأنه ترك ابنًا، ثم كشف لي السر الشهير.

- السر نفسه الذي كشفته لاحقًا لكيسليباخ؟

- نعم.

- تحدث.

في اللحظة التي قال فيها هذه الكلمة، سُمع صوت مفتاح في القفل.

الفصل الثاني

همس لوبين: «لا تتحدث!». انسحب إلى الحائط، بجانب الباب. فُتح مصراع الباب. أغلقه لوبين بعنف، دافعًا رجلًا. صرخ الحارس، أمسك لوبين بحنجرته: «اصمت يا صديقي، إذا تذمرت فأنت في ورطة». أرقده على الأرض: «هل أنت عاقل؟ هل تفهم الموقف؟ نعم؟ ممتاز. أين منديلك؟ أعطني معصميك الآن. حسنًا، أنا مطمئن. اسمع، لقد أرسلوك كإجراء احترازي، أليس كذلك؟ لمساعدة رئيس الحراس عند الحاجة؟ إجراءٌ ممتاز، لكنه متأخر قليلًا. كما ترى، رئيس الحراس ميت! إذا تحركت، إذا ناديت، ستلقى المصير نفسه». أخذ مفاتيح الرجل، وأدخل أحدها في القفل. «هكذا، نحن مطمئنون». قال شتاينفيج العجوز: «من جانبكم. لكن من جانبي!».

- لماذا يرسلون غيره؟
- إذًا سمع أحد الصرخة التي أطلقها؟
- لا أعتقد. لكن في كل الأحوال، أصدقائي أعطوك المفاتيح المزيفة، أليس كذلك؟
- بلى.
- إذًا، سد القفل. هل انتهيت؟ حسنًا! الآن لدينا على الأقل عشر دقائق جيدة. كما ترى يا عزيزي، كيف إن الأشياء التي تبدو صعبة للغاية في الظاهر بسيطة في الواقع. يكفي القليل من الهدوء، والقدرة على التكيف مع الظروف. هيا، لا تنزعج، وتحدث. بالألمانية، هل تريد؟ ليس من الضروري أن يشارك هذا الشخص في أسرار الدولة التي نناقشها. هيا يا صديقي، وبهدوء. نحن هنا في منزلنا.

استأنف شتاينفيج: «في مساء وفاة بسمارك نفسه، صعد الدوق الأكبر هيرمان الثالث وخادمه الوفي -صديقي في كيب تاون- إلى قطار أخذهما إلى ميونيخ، لركوب القطار السريع إلى فيينا. من فيينا ذهبا إلى القسطنطينية، ثم إلى القاهرة، ثم إلى نابولي، ثم إلى تونس، ثم إلى إسبانيا، ثم إلى باريس، ثم إلى لندن، إلى سانت بطرسبرغ، إلى وارسو. ولم يتوقفا في أي من هذه المدن. كانا يقفزان إلى عربة، يحملان حقيبتيهما، يركضان عَبْر الشوارع، يتجهان إلى محطة قريبة أو إلى الميناء، ويستأنفان رحلتهما بالقطار أو السفينة».

استنتج أرسين لوبين: «باختصار، كانا يحاولان التخلص من الملاحقة».

- في إحدى الليالي، غادرا مدينة ترير، مرتديَيْن سترات وقبعات عمال، مع عصا على ظهريهما، وحزمة في نهاية العصا. مشيا على الأقدام لخمسة وثلاثين كيلومترًا والتي تفصلهما عن فيلدينز، حيث يقع القصر القديم لدوق بون، أو بالأحرى أطلال القصر القديم.

- لا داعي للوصف.

- طوال اليوم، ظلَّا مختبئَين في غابة مجاورة. في الليلة التالية، اقتربا من الأسوار القديمة. هناك، أمر هيرمان خادمه بانتظاره، وتسلق الجدار عند موقع ثغرة تسمى ثغرة الذئب. بعد ساعة عاد. في الأسبوع التالي، بعد تجوال جديد، عاد إلى منزله في دريسدن. انتهت الرحلة.

- وما كان هدف هذه الرحلة؟

- لم ينبس الدوق الأكبر ببنت شفة لخادمه. لكن هذا الأخير، من خلال بعض التفاصيل، ومن خلال تزامن الأحداث التي وقعت، تمكن من إعادة بناء الحقيقة، على الأقل جزئيًّا.

- بسرعة يا شتاينفيج، الوقت يضيق الآن، وأنا متلهف لمعرفة المزيد.

- بعد خمسة عشر يومًا من الرحلة، حضر الكونت فالديمار -ضابط في حرس الإمبراطور- وأحد أصدقائه الشخصيين، إلى منزل الدوق الأكبر برفقة ستة رجال. بقي هناك طوال اليوم، محبوسًا في مكتب الدوق الأكبر. في عدة مناسبات، سُمع صوت مشاجرات، ونزاعات عنيفة. حتى إن هذه الجملة سمعها الخادم، الذي كان يمر في الحديقة، تحت النوافذ: (لقد سُلِّمت لكِ هذه الأوراق، جلالته متأكد من ذلك. إذا كنت

لا تريد تسليمها لي طواعية...) باقي الجملة، ومعنى التهديد، وكل المشهد بالتأكيد، يمكن تخمينه بسهولة من خلال ما تبع ذلك: فُتش منزل هيرمان من الأعلى إلى الأسفل.

- لكن هذا كان غير قانوني.
- كان سيكون غير قانوني لو عارضه الدوق الأكبر، لكنه رافق الكونت بنفسه في أثناء تفتيشه.
- وما الذي كانوا يبحثون عنه؟ مذكرات المستشار؟
- أفضل من ذلك. كانوا يبحثون عن حزمة من الأوراق السرية التي كانوا يعرفون بوجودها من خلال تسريبات حدثت، وكانوا يعرفون بشكل مؤكد أنها سُلمت للدوق الأكبر هيرمان.

كان لوبين متكئًا بمرفقيه على الشبكة، وأصابعه متشنجة على قضبان الحديد. همس بصوت متأثر: «أوراق سرية! ومهمة جدًّا بلا شك؟».

- غاية في الأهمية. نَشر هذه الأوراق ستكون له نتائج لا يمكن التنبؤ بها، ليس فقط من وجهة نظر السياسة الداخلية، ولكن أيضًا من وجهة نظر العلاقات الخارجية.

كرر لوبين وهو يرتجف: «آه! آه! هل هذا ممكن! ما دليلك؟».

- ما دليلي؟ شهادة زوجة الدوق الأكبر نفسها، والاعترافات التي قدَّمتها للخادم بعد وفاة زوجها.

تَمتَم لوبين: «بالفعل، بالفعل. لدينا شهادة الدوق الأكبر نفسه». صرخ شتاينفيج: «بل هناك ما هو أكثر من ذلك!».

- ماذا؟
- وثيقة! وثيقة مكتوبة بخط يده، موقعة بتوقيعه وتحتوي على...
- وتحتوي على؟
- قائمة الأوراق السرية التي أودِعت إليه.
- لخص بكلمتين.
- بكلمتين، هذا مستحيل. الوثيقة طويلة، مليئة بالتعليقات والملاحظات التي تكون أحيانًا غير مفهومة. سأذكر لك فقط عنوانَين يتوافقان مع حزمتين من الأوراق السرية: **الرسائل الأصلية من ولي العهد**

الألماني إلى بسمارك. التواريخ تُظهر أن هذه الرسائل كُتبت خلال الأشهر الثلاثة لحكم فريدرش الثالث[1]. لتخيل ما يمكن أن تحتويه هذه الرسائل، عليك أن تتذكر مرض فريدرش الثالث، نزاعاته مع ابنه.

- نعم، نعم أعرف. والعنوان الآخر؟

- **صور لرسائل فريدرش الثالث إلى الملكة فيكتوريا[2] ملكة إنجلترا.**

قال لوبين بصوت مختنق: «هل هذا موجود؟ هل هذا موجود؟!».

- استمع إلى تعليقات الدوق الأكبر: **نص المعاهدة مع إنجلترا وفرنسا.** وهذه الكلمات الغامضة قليلًا: **ألزاس-لورين، المستعمرات، تحديد البحرية.**

تَمتَم لوبين: «هل هذا موجود؟! وأنت تقول إنه غامض؟ كلمات براقة، على العكس! آه! هل هذا ممكن!».

ضوضاء عند الباب. طرق أحدهم. قال لوبين: «ممنوع الدخول، أنا مشغول!». طرقٌ عند الباب الآخر، من جهة شتاينفيج. صرخ لوبين: «قليل من الصبر، سأكون قد انتهيت في غضون خمس دقائق». قال للعجوز بلهجة آمرة: «كن مطمئنًا، واستمر. إذًا، برأيك، لم يكن لدى الدوق الأكبر وخادمه في رحلتهما إلى قلعة فيلدينز غرض آخر سوى إخفاء هذه الأوراق؟

- الشك غير مقبول.

- حسنًا. لكن الدوق الأكبر ربما سحبها منذ ذلك الحين.

- لا، لم يغادر دريسدن حتى وفاته.

---

(1) فريديريش الثالث (بالألمانية: Friedrich III) (ولد في بوتسدام في 18 أكتوبر 1831 - مات في 15 يونيو 1888) كان قيصر للرايخ الثاني الألماني لمدة 99 يومًا، وقد تربع على العرش بعد وفاة أبيه القيصر فيلهلم الأول في عام 1888، ولكنه مات بعد 99 يومًا بعد إصابته بسرطان الحنجرة في عام 1887. وخلفه القيصر فيلهلم الثاني. (المترجم)

(2) الملكة فيكتوريا (بالإنجليزية: Queen Victoria) (24 مايو 1819– 22 يناير 1901) كانت ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا من 20 يونيو 1837 حتى وفاتها في عام 1901. استمر حكمها لمدة 63 عامًا و216 يومًا، وهي الأطول حكمًا من أي حاكم آخر من أسلافها. (المترجم)

- لكن أعداء الدوق الأكبر، الذين لديهم مصلحة في استعادتها وتدميرها، هؤلاء ربما بحثوا عنها حيث كانت، هذه الأوراق!

- تحقيقهم قادهم بالفعل إلى هناك.

- كيف عرفت؟

- تفهم جيدًا أنني لم أبق خاملًا، وأن أول رد فعل لي عندما كُشِفت لي هذه المعلومات، كان الذهاب إلى فيلدينز، والتحقق بنفسي من القرى المجاورة. علمت أنه، مرتين بالفعل، اقتحمت القلعة مجموعة من اثني عشر رجلًا قدموا من برلين مُعتمدين من قِبل الحكام.

- حسنًا، والنتيجة؟

- لم يجدوا شيئًا، لأنه منذ ذلك الوقت، لم يُسَمح بزيارة القلعة.

- ولكن من يمنع الدخول إليها؟

- حامية من خمسين جنديًّا يراقبونها ليل نهار.

- جنود الدوق الأكبر؟

- لا، جنود من الحرس الشخصي للإمبراطور.

ارتفعت أصوات في الممر، وطرقوا مرة أخرى، منادين رئيس الحراس.

قال لوبين الذي تعرف على صوت السيد بوريلي: «إنه نائم، يا سيدي».

- افتح! آمرك بفتح الباب.

- مستحيل، القفلُ معطل. إذا كانت لديَّ نصيحة لك، فهي إجراء قطع حول القفل.

- افتح!

- وماذا عن مصير أوروبا الذي نناقشه؟ ماذا ستفعلون به؟

التفت إلى العجوز: «إذًا، لم تتمكن من دخول القلعة؟».

- لا.

- لكنك مقتنع بأن الأوراق الشهيرة مخبأة هناك.

- انظر! ألم أعطِك كل الأدلة؟ ألست مقتنعًا؟

همس لوبين: «نعم، نعم. مخبأة هناك، لا شك. مخبأة هناك». كان يبدو وكأنه يرى القلعة. كان يبدو وكأنه يستحضر المخزن السري. رؤية كنز لا

ينضب، استحضار صناديق مليئة بالمجوهرات والثروات، لم تكن لتحركه أكثر من فكرة هذه الأوراق التي يحرسها جنود القيصر. يا لها من غزوة رائعة يجب القيام بها! وكم كانت جديرة به! وكم أثبت مرة أخرى بصيرته وحدسه بإطلاقه على هذا المسار المجهول! في الخارج، كانوا يعملون على القفل. سأل لوبين العجوز شتاينفيج: «ممَّ مات الدوق الأكبر؟».

- من التهاب الرئة، في غضون بضعة أيام. بالكاد كان يستطيع استعادة وعيه، وما كان مرعبًا هو الجهود الهائلة التي كان يبذلها بين نوبات الهذيان، لتجميع أفكاره ومحاولة النطق بالكلمات. من وقت لآخر كان ينادي زوجته، ينظر إليها بنظرة يائسة ويحرك شفتيه بلا جدوى.

قال لوبين فجأة وهو متوتر من العمل الذي يجري حول القفل: «بإيجاز، هل تحدث؟».

- لا، لم يتحدث. ولكن في لحظة أوضح، وبفضل الطاقة، نجح في رسم بعض العلامات على ورقة قدَّمتها له زوجته.

- حسنًا! وماذا عن هذه العلامات؟

- غير قابلة للفهم، في معظمها.

قال لوبين بشغف: «في معظمها، ولكن الباقي؟ الباقي؟!».

- هناك أولًا ثلاثة أرقام واضحة تمامًا: 8، و1 و3.

- 813، نعم، أعرف. وبعد؟

- بعد ذلك، حروف. عدة حروف، من بينها لا يمكن تجميع سوى مجموعة من ثلاثة أحرف، ومجموعة من حرفين بشكل مؤكد.

- «Apoon»، أليس كذلك؟

- آه! أنت تعرف.

- القفل يتزعزع، فمعظم المسامير قد نُزِعت.

سأل لوبين بقلق مفاجئ من فكرة أن يقاطعوا الحديث: «إذًا، هذه الكلمة غير المكتملة «Apoon» وهذا الرقم 813 هما الرموز التي ورَّثها الدوق الأكبر لزوجته وابنه لكي يتمكنا من العثور على الأوراق السرية؟

- نعم.

تشبث لوبين بكلتا يديه بالقفل ليمنعه من السقوط: «سيدي المدير، ستوقظ رئيس الحراس. هذا ليس لطيفًا. دقيقة واحدة بعد، هل تود...؟ شتاينفيج، ماذا حدث لزوجة الدوق الأكبر؟».

- ماتت بعد زوجها بفترة قصيرة، يمكن أن نقول من الحزن.
- وهل تبنَّت العائلة الطفل؟
- أي عائلة؟ الدوق الأكبر لم يكن لديه إخوة أو أخوات. علاوة على ذلك، كان متزوجًا زواجًا مورغانيًا [1] وسريًا. لا، الطفل أخذه خادم هيرمان العجوز، الذي رباه تحت اسم بيير ليدوك. كان فتى سيئًا نوعًا ما، مستقلًا، غريب الأطوار، صعب المراس. في يوم من الأيام رحل، ولم يُرَ مرة أخرى.
- هل كان يعرف سر ولادته؟
- نعم، ورأى الورقة التي كتب عليها هيرمان الحروف والأرقام، 813، إلخ.
- وإفشاء هذه الأسرار فيما بعد، لم يكن إلا لك؟
- نعم.
- وأنت لم تثق إلا بالسيد كيسيلباخ؟
- هو وحده. لكن من باب الحذر، بينما أريته ورقة العلامات والحروف، وكذلك القائمة التي تحدثت عنها، احتفظت بهاتين الوثيقتين. الأحداث أثبتت أنني كنت على حق.
- وهذه الوثائق، هل هي لديك؟
- نعم.
- هل هي في أمان؟
- تمامًا.
- في باريس؟
- لا.

(1) «الزواج المورغناتي». في هذا النوع من الزواج، يتزوج شخص من الطبقة الأرستقراطية أو النبيلة شخصًا من طبقة أدنى، مع الاتفاق على أن الزوج أو الزوجة والأبناء الناتجين عن هذا الزواج لن يكون لهم حق في الألقاب أو الميراث النبيل. (المترجم)

- حسنًا. لا تنسَ أن حياتك في خطر، وأنهم يلاحقونك.

- أعلم ذلك. في أي خطوة خاطئة، أنا مفقود.

- بالضبط. لذا خذ احتياطاتك، وتتبع العدو، واذهب لتحضر أوراقك، وانتظر تعليماتي. الأمور تحت السيطرة. في غضون شهر على الأكثر، سنذهب لزيارة قلعة فيلدينز معًا.

- وإذا كنتُ في السجن؟

- سأخرجك.

- هل هذا ممكن؟

- في اليوم التالي ليوم خروجي. لا، أنا مخطئ، في المساء نفسه، بعد ساعة.

- هل لديك وسيلة؟

- منذ عشر دقائق، نعم، ولا تُخطئ. هل لديك ما تقوله لي؟

- لا.

- إذن، سأفتح.

سحب الباب، وانحنى أمام السيد بوريلي: «سيدي المدير، لا أعرف كيف أعتذر». لم يكمل كلامه، لم يترك له المدير والرجال الثلاثة الوقت لذلك. كان السيد بوريلي شاحبًا من الغضب والاستياء. منظر الحارسين الممددين أزعجه. صرخ: «مقتولان!». ضحك لوبين: «لا، لا. انظر، هذا يتحرك. تكلم، أيها الحيوان!». تابع السيد بوريلي وهو يندفع نحو رئيس الحُراس: «والآخر؟».

- نائم فقط سيدي المدير. كان متعبًا جدًّا، لذا منحتُه بضع لحظات من الراحة. أشفع له. سأكون حزينًا إذا أصاب هذا الرجل المسكين...

قال السيد بوريلي بعنف: «كفى مزاحًا». ووجَّه حديثه للحراس: «أعيدوه إلى زنزانته، أمَّا بالنسبة إلى هذا الزائر...».

لم يعلم لوبين المزيد عن نية السيد بوريلي تجاه العجوز شتاينفيج، لكن ذلك بالنسبة إليه مسألة غير ذات أهمية على الإطلاق. لقد أخذ معه في عزلته مشكلات ذات أهمية أكبر بكثير من مصير العجوز، كان يمتلك سر السيد كيسيلباخ.

الجزء العاشر

مناورة لوبين الكبرى

الفصل الأول

بدهشة كبيرة، نجا لوبين من الحبس الانفرادي. جاء السيد بوريلي بنفسه ليخبره بعد بضع ساعات أنه يرى أن هذه العقوبة غير ضرورية.

رد لوبين: «أكثر من غير ضرورية، سيدي المدير، بل خطِرة، خطِرة غير حكيمة، ومثيرة للفتنة». سأل السيد بوريلي الذي بدا أنه يزداد قلقًا من سجينهم: «وكيف ذلك؟».

- سيدي المدير، لقد عدت للتو من مقر الشرطة حيث رويت لمن يهمه الأمر تمرد السجين لوبين، وأظهرت تصريح الزيارة الممنوح للسيد ستريباني. كان عذرك بسِيطًا تمامًا، حيث إنه عندما قدَّم لك السيد ستريباني التصريح، اتخذت الحيطة بالاتصال هاتفيًا بمقر الشرطة وأظهرت دهشتك، وفي مقر الشرطة أجابوك أن التصريح صحيح تمامًا.

- آه! أنت تعرف.

- أعرف ذلك تمامًا، لأن أحد وكلائي هو الذي أجابك في مقر الشرطة. على الفور، وبناءً على طلبك، أجرِي تحقيق فوري من الشخص المسؤول، الذي اكتشف أن التصريح ليس سوى تزوير. يبحثون الآن عمن فعل ذلك، وكن مطمئنًا، لن يكتشفوا شيئًا.

ابتسم السيد بوريلي، احتجاجًا.

تابع لوبين: «إذًا، يستجوبون صديقي ستريباني الذي لم يتردد في الكشف عن اسمه الحقيقي، شتاينفيج! هل هذا ممكن! ولكن في هذه الحالة، يكون السجين لوبين قد نجح في إدخال شخص إلى سجن سانتيه، والتحدث إليه

لمدة ساعة! يا لها من فضيحة! من الأفضل إخفاؤها، أليس كذلك؟ يُطلق سراح السيد شتاينفيج، ويُرسل السيد بوريلي كسفير لسجين لوبين من أجل شراء صمته. أليس هذا صحيحًا سيدي المدير؟».

قال السيد بوريلي، الذي اختار المزاح لإخفاء ارتباكه: «صحيح تمامًا! يبدو وكأنك لديك موهبة الرؤية المزدوجة. إذًا، هل تقبل شروطنا؟». انفجر لوبين بالضحك: «بمعنى أنني أوافق على توسلاتكم! نعم سيدي المدير، طمئِن هؤلاء السادة في مقر الشرطة، سألتزم الصمت. بعد كل شيء، لديَّ ما يكفي من الانتصارات لأمنحكم فضل صمتي. لن أُدلي بأي تصريح للصحافة، على الأقل حول هذا الموضوع».

كان هذا يعني أنه يحتفظ بحرية الإدلاء بتصريحات حول مواضيع أخرى. في الواقع، كانت كل أنشطة لوبين تتجه نحو هدف مزدوج: التواصل مع أصدقائه، ومن خلالهم، قيادة واحدة من حملات الصحافة التي كان يتقنها. منذ لحظة اعتقاله بالفعل، أعطى التعليمات اللازمة للأخوين دوديفيل، وكان يعتقد أن التجهيزات على وشك الانتهاء. كان يجتهد كل يوم في إعداد الأظرف التي كانت المواد الخاصة بها تُجلَب إليه كل صباح في حزم مرقمة، والتي كانت تُعاد كل مساء، مطوية ومغلفة بالغراء. وبما أن توزيع الحزم المرقمة كان يحدث دائمًا بالطريقة نفسها بين السجناء الذين اختاروا هذا النوع من العمل، كان من المحتم أن الحزمة الموزعة على لوبين يجب أن تحمل الرقم نفسه كل يوم. بالتجربة، كان الحساب صحيحًا. لم يتبقَّ سوى إغراء أحد موظفي الشركة الخاصة التي كانت مسؤولة عن توريد وإرسال الأظرف، وكان ذلك سهلًا.

لذلك، كان لوبين واثقًا من النجاح، ينتظر بهدوءٍ ظهور العلامة المتفق عليها بينه وبين أصدقائه على الورقة العليا من الحزمة. علاوة على ذلك، كان الوقت يمر بسرعة. نحو منتصف النهار، كان يتلقى الزيارة اليومية للسيد فورميري، وفي حضور السيد كيمبل محاميه، الصامت دائمًا، كان لوبين يخضع لاستجواب مكثف. كان ذلك متعته. بعد أن أقنع السيد فورميري في النهاية بعدم مشاركته في اغتيال البارون ألتنهايم، اعترف للقاضي بجرائم خيالية تمامًا، والتحقيقات التي أمر بها السيد فورميري على الفور كانت تؤدي إلى نتائج مذهلة، إلى أخطاء فاضحة، حيث كان الجمهور يتعرف على الأسلوب الشخصي الساخر للمعلم الكبير، وهو لوبين. ألعاب صغيرة بريئة، كما كان يقول. أليس من الضروري التسلية؟

لكن وقت الأعمال الأكثر جدية كان يقترب. في اليوم الخامس، لاحظ أرسين لوبين على الحزمة التي أُحضرت له العلامة المتفق عليها، وهي علامة ظفر، عَبْر الورقة الثانية. قال: «أخيرًا، وصلنا». أخرج من مخبئه زجاجة صغيرة، فتحها، بلل طرف إصبعه بالسائل الذي تحتويه، ومرَّر إصبعه على الورقة الثالثة من الحزمة. بعد لحظة، تشكلت الخطوط، ثم الحروف، ثم الكلمات والعبارات. قرأ:

«كل شيء على ما يرام. شتاينفيج حر، يختبئ في الريف. جنفييف إرنمون في صحة جيدة، تزور غالبًا فندق بريستول لرؤية السيدة كيسيلباخ المريضة. تلتقي هناك في كل مرة بيير ليدوك. أجِب بالطريقة نفسها. لا يوجد خطر».

إذًا، كانت الاتصالات مع الخارج قد حدثت. فهذا يعني أن جهود لوبين قد تُوجت بالنجاح مرة أخرى. لم يتبقَّ له الآن سوى تنفيذ خطته، واستغلال اعترافات العجوز شتاينفيج، والفوز بحريته بإحدى أروع وأذكى الخطط التي وُلِدت في ذهنه. بعد ثلاثة أيام، ظهرت في الجريدة الكبرى هذه السطور:

«باستثناء مذكرات بسمارك التي -وفقًا للمطلعين- لا تحتوي سوى على التاريخ الرسمي للأحداث التي شارك فيها المستشار الأكبر[1]، هناك سلسلة من الرسائل السرية ذات أهمية كبيرة.

عُثِر على هذه الرسائل. نعلم من مصدر موثوق أنها ستُنشر قريبًا».

---

(1) لقب «المستشار الأكبر» أو «الجراند شانسلير» (Grand Chancelier) يشير عادة إلى أعلى منصب إداري أو قضائي في مملكة أو إمبراطورية. كان يستخدم تاريخيًا في العديد من البلدان الأوروبية. في السياق الألماني، يشير غالبًا إلى «المستشار» وهو اللقب الذي كان يحمله أوتو فون بسمارك، الذي كان المستشار الأول للإمبراطورية الألمانية (1871-1890) وإحدى الشخصيات البارزة في توحيد ألمانيا. (المترجم)

يتذكر الجميع الضجة التي أثارتها هذه الملحوظة الغامضة في جميع أنحاء العالم، والتعليقات التي حدثت بشأنها، والتكهنات التي طُرحت، وبخاصة الجدالات التي أثارتها الصحافة الألمانية. من كتب هذه السطور؟ عن أي رسائل نتحدث؟ من كتبها إلى المستشار أو مَن استلمها منه؟ هل هي انتقام بعد الوفاة؟ أم هو إفشاء سري من قِبل مراسل بسمارك؟

حددت ملحوظة ثانية الرأي حول بعض النقاط، ولكنها زادتها غموضًا بطريقة غريبة. كانت الملحوظة كما يلي:

«سجن سانتيه، الزنزانة 14، القسم الثاني،

السيد مدير الجريدة الكبرى،

لقد أدرجت في عدد جريدتك ليوم الثلاثاء الماضي ملحوظة صغيرة استنادًا إلى بضع كلمات أفلتت مني في إحدى المحاضرات التي ألقيتها في سجن سانتيه حول السياسة الخارجية. هذه الملحوظة، الصحيحة في أجزائها الأساسية، تحتاج إلى تصحيح صغير.

الرسائل موجودة بالفعل، ولا يمكن لأحد أن ينكر أهميتها الاستثنائية، نظرًا لأنها كانت هدفًا للبحث المستمر من قبل الحكومة المَعنِية منذ عشر سنوات. ولكن لا أحد يعرف أين هي، ولا أحد يعرف كلمة واحدة مما تحتويه...

أنا واثق أن الجمهور لن يلومني على جعله ينتظر، قبل إشباع فضوله المشروع. بالإضافة إلى أنني لا أملك جميع العناصر اللازمة للبحث عن الحقيقة، فإن مهامي الحالية لا تسمح لي بتكريس الوقت الذي أريده لهذه القضية.

كل ما يمكنني قوله في الوقت الحالي هو أن هذه الرسائل سُلمت من الشخص المحتضر إلى أحد أصدقائه المخلصين، وأن هذا الصديق تحمّل لاحقًا العواقب الوخيمة لتفانيه. لقد تحمَّل التجسس، التفتيش المنزلي، لم يُعفَ شيء.

لقد أعطيت أوامر لأفضل اثنين من وكلاء الشرطة السريين للعودة إلى بداية هذه القضية، ولا أشك في أنه في غضون يومين، سأكون قادرًا على كشف هذا اللغز المثير.

التوقيع: أرسين لوبين».

إذًا، كان أرسين لوبين هو من يقود القضية! كان هو، من أعماق سجنه، من يُدير المسرحية أو المأساة التي أعلن عنها في الملحوظة الأولى. يا لها من مغامرة! مع فنان مثله، لا يمكن أن يفشل في جعل العرض مثيرًا وغير متوقع. بعد ثلاثة أيام، قرأ الجمهور في الجريدة الكبرى:

«حصلت على اسم الصديق المخلص الذي أشرت إليه. إنه الدوق الأكبر هيرمان الثالث، الأمير الحاكم -رغم تجريده من الحكم- لدوقية بون-فيلدينز، والمقرب من بسمارك، الذي كان يتمتع بكل صداقته. أُجرِي تفتيش في منزله بواسطة الكونت W مصحوبًا باثني عشر رجلًا. كانت نتيجة هذا التفتيش سلبية، ولكن ثبُت أن الدوق الأكبر كان بحوزته الأوراق.

أين أخفاها؟ هذا سؤال لا يمكن لأحد في العالم، على الأرجح، أن يحله في الوقت الحالي.

أطلب أربعًا وعشرين ساعة لحله.

التوقيع: أرسين لوبين».

في الواقع، بعد أربع وعشرين ساعة، ظهرت الملحوظة الموعودة:

«الرسائل الشهيرة مخبأة في قلعة فيلدينز الإقطاعية، عاصمة دوقية بون-فيلدينز، القلعة التي دُمرت جزئيًّا خلال القرن التاسع عشر. أين بالضبط؟ وما الرسائل بالضبط؟ هاتان هما المشكلتان اللتان أعمل على حلهما، وسأعرض حلهما في غضون أربعة أيام.

التوقيع: أرسين لوبين».

في اليوم الموعود، اندفع الجميع للحصول على الجريدة الكبرى. ولخيبة أمل الجميع، لم تكن المعلومات الموعودة هناك. في اليوم التالي، الصمت نفسه، وفي اليوم التالي أيضًا. ماذا حدث إذًا؟ علمنا بذلك عَبْر تسريب في مقر الشرطة. يبدو أن مدير سجن سانتيه قد أُبلِغ أن لوبين يتواصل مع شركائه بفضل حزم الأظرف التي كان يصنعها. لم يكن هناك أي دليل، ولكن على سبيل الاحتياط، مُنِع السجين المزعج من القيام بأي عمل.

قال السجين المزعج: «بما أنني لم أعد أملك شيئًا لأفعله، سأعتني بقضيتي. أبلغوا المحامي، رئيس النقابة كيمبل». كان هذا صحيحًا. لوبين، الذي حتى الآن كان يرفض أي محادثة مع السيد كيمبل، وافق على استقباله وإعداد دفاعه.

الفصل الثاني

في اليوم التالي، طلب المحامي كيمبل، مبتهجًا، رؤية لوبين في غرفة الزيارة المخصصة للمحامين. كان رجلًا مسنًّا يرتدي نظارة ذات عدسات مكبرة بشكل كبير، تجعل عينيه تبدوان ضخمتين. وضع قبعته على الطاولة، نشر ما بداخل حقيبته، وبدأ على الفور بسلسلة من الأسئلة التي كان قد حضرها بعناية. أجاب لوبين عليها بامتثال شديد، حتى إنه أفاض في تفاصيل كثيرة دوَّنها كيمبل على بطاقات مثبتة بعضها فوق بعضٍ: «إذًا، كنت تقول في تلك الفترة؟».

رد لوبين: «نعم، أقول إنه في تلك الفترة». بحركات تدريجية، طبيعية تمامًا، استند لوبين على الطاولة. خفض ذراعه ببطء، أدخل يده تحت قبعة كيمبل، ومرَّر إصبعه داخل البطانة الجلدية، وأخرج إحدى الشرائط الورقية المطوية التي أُدخِلت بين الجلد والبطانة لأن القبعة كبيرة جدًّا. فتح الورقة. كانت رسالة من دوديفيل، مكتوبة برموز متفق عليها:

«لقد عُينت كخادم لدى السيد كيمبل. يمكنك الرد بأمان بالطريقة نفسها.

إنه L. M. القاتل، هو من أبلغ عن حيلة الأظرف. لحسن الحظ، كنت قد توقعت هذه الضربة!».

تلا ذلك تقرير مفصل عن جميع الأحداث والتعليقات الناتجة عن إفشاءات لوبين. أخرج لوبين من جيبه شريطًا ورقيًّا مشابهًا، يحتوي على تعليماته،

واستبدله برفق بالآخر، وأعاد يده إلى مكانها. تمت الخدعة. واستؤنِفت مراسلات لوبين مع الجريدة الكبرى دون تأخير:

«أعتذر للجمهور عن عدم الوفاء بوعدي، خدمة البريد في سانتيه سيئة للغاية. على أي حال، نحن نقترب من النهاية. لديَّ جميع الوثائق التي تُثبت الحقيقة على أسس لا جدال فيها. سأنتظر لنشرها. على الجميع أن يعلموا هذا: من بين الرسائل، هناك ما كُتب إلى المستشار الألماني من قِبل شخص كان يعلن في ذلك الوقت أنه تلميذه ومعجب به، والذي يجب أن يتخلص من هذا المعلم المزعج بعد عدة سنوات ويصبح حاكمًا. هل أفهمتكم بشكل كافٍ؟».

نُشِر في اليوم التالي ما يلي:

«كُتِبت هذه الرسائل في أثناء مرض الإمبراطور الأخير. هل يكفي ذلك لتوضيح أهميتها؟ *أربعة أيام من الصمت، ثم هذه الملحوظة الأخيرة التي لم تُنسَ قط:*

انتهى تحقيقي، الآن أعرف كل شيء. بعد تفكيرٍ طويل، اكتشفت سر المخبأ.

أصدقائي سيتوجهون إلى فيلدينز، ورغم كل العقبات، سيدخلون القلعة عَبْر مخرج أُرشدهم إليه.

ستنشر الصحف صور هذه الرسائل التي أعرف محتواها بالفعل، ولكنني أريد أن أُعيد إنتاجها بنصها الكامل. هذا النشر المؤكد، الحتمي. سيحدث ذلك بعد أسبوعين، يوم 22 أغسطس المقبل. حتى ذلك الحين، سأصمت، وأنتظر».

وفي الواقع، توقفت المراسلات مع الجريدة الكبرى، لكن لوبين لم يتوقف عن التواصل مع أصدقائه عَبْر «طريق القبعة»، كما كانوا يسمونها بينهم. كان الأمر بسيطًا جدًّا! لا خطر فيه. من يمكن أن يخطر بباله أن قبعة السيد كيمبل كانت بمنزلة صندوق بريد لوبين؟ كل يومين أو ثلاثة، عند كل زيارة، كان المحامي الشهير يحمل بأمانة بريد موكله: رسائل من باريس، رسائل من الأقاليم، رسائل من ألمانيا، كل ذلك مقلص، مكثف بواسطة دوديفيل، في صيغ مختصرة وبلغة مشفرة. وبعد ساعة، كان كيمبل يحمل بجدية أوامر لوبين. ولكن في أحد الأيام، تلقى مدير سجن سانتيه رسالة هاتفية موقعة من M. L، تحذره أن السيد كيمبل قد يكون -على الأرجح- يخدم لوبين كناقلٍ غير

واعٍ، وأنه سيكون من المفيد مراقبة زيارات الرجل الطيب. أبلغ المدير السيد كيمبل، الذي قرر بعد ذلك أن يرافقه سكرتيره.

وهكذا، مرة أخرى، على الرغم من كل جهود لوبين، على الرغم من عبقرية الفكرة، على الرغم من معجزات البراعة التي كان يجددها بعد كل هزيمة، فإن لوبين وجد نفسه مرة أخرى، مفصولًا عن العالم الخارجي بسبب العبقرية الشيطانية لخصمه الرهيب. انفصل في اللحظة الأكثر حرجًا، في اللحظة الحاسمة التي كان فيها من عمق زنزانته، يلعب آخر ورقة ضد القوات المتحالفة التي كانت تثقله بشدة.

في 13 أغسطس، بينما كان جالسًا مقابل المحامين، جذبت انتباهه صحيفة تغلف بعض أوراق السيد كيمبل.

كعنوان، بحروف كبيرة: «813».

كعنوان فرعي: جريمة قتل جديدة. الاضطراب في ألمانيا، هل سيُكتشف سر Apoon؟

شحب لوبين من القلق. أسفل العنوان قرأ هذه الكلمات:

«وصلتنا برقيتان مثيرتان في اللحظة الأخيرة.

لقد عُثِر بالقرب من أوغسبورغ على جثة عجوز مذبوح بطعنة سكين. تعرفوا على هويته: إنه السيد شتاينفيج، الذي تحدثوا عنه في قضية كيسيلباخ.

من جهة أخرى، وصلتنا رسالة تلغرافية تفيد بأن المحقق الإنجليزي الشهير شيرلوك هولمز، قد استدعوه على وجه السرعة إلى كولونيا. وسيلتقي هناك بالإمبراطور، ومن هناك سيتوجهان معًا إلى قلعة فلدنز. يُقال إن شيرلوك هولمز قد تعهد بكشف سر Apoon.

إذا نجح، فسيكون ذلك إفشالًا لا رحمة فيه للحملة الغامضة التي يقودها أرسين...».

الفصل الثالث

لكن ربما لم تتحرك فضولية العامة بقدر ما اهتزَّت بسبب المبارزة المعلنة بين هولمز ولوبين، مبارزة غير مرئية في هذه الحالة، قد يمكن القول إنها مجهولة الهوية، لكنها مبارزة مثيرة للإعجاب بسبب كل الفضائح التي كانت تحدث حول المغامرة، وبسبب الرهان الذي يتنازع عليه العدوان اللدودان، اللذان كانا يتواجهان مرة أخرى. في الجوهر، كان الجميع يأملون فقط في لوبين، في عادته المعروفة في جعل الجمهور شاهدًا على أفعاله. ماذا سيفعل؟ كيف يمكنه تفادي الخطر الرهيب الذي يهدده؟ هل كان على علم به؟ ولم يكن الأمر يتعلق بمصالح صغيرة خاصة، أو سرقات تافهة، أو شهوات فردية بائسة، بل كان يتعلق بقضية عالمية حقًّا، حيث كانت سياسة ثلاث دول كبرى في الغرب متورطة، والتي يمكن أن تزعزع سلام العالم.

لا ننسى أنه في ذلك الوقت كانت أزمة المغرب مفتوحة بالفعل. شرارة واحدة، وسيكون هناك انقسام. لذا كان الناس ينتظرون بقلق، دون أن يعرفوا بالضبط ما الذي كانوا ينتظرونه، لأنه في النهاية، إذا خرج المحقق منتصرًا من المبارزة، إذا وجد الرسائل، من سيعرف؟ ما الدليل الذي سيكون لدينا على هذا الانتصار؟ لكن ما الفائدة! أليس كل شيء قد انتهى؟

بين جدران زنزانته الأربعة، كان السجين يطرح تقريبًا الأسئلة نفسها، ولم يكن الفضول التافه هو الذي يحفِّزه، بل كان القلق الحقيقي، والذعر المستمر. كان يشعر أنه وحيد بشكل لا يمكن اجتنابه، بيدين عاجزتين، وإرادة عاجزة، وعقل عاجز. مهما كان ماهرًا، مبتكرًا، شجاعًا، وبطلًا، لم يكن لذلك أي فائدة. كانت المعركة تجري خارجه. الآن دوره قد انتهى. لقد جمَّع القطع، وهز جميع مفاتيح الآلة الكبيرة التي كان من المفترض أن تُنتج، والتي كانت يجب

أن تصنع حريته بشكل ميكانيكي، وكان من المستحيل عليه أن يفعل أي حركة لتحسين ومراقبة عمله. في تاريخ محدد، سيحدث التحرر. حتى ذلك الحين، يمكن أن تنشأ ألف حادثة معاكسة، وألف عقبة، دون أن تكون لديه وسيلة لمكافحة هذه الحوادث أو تسوية هذه العقبات.

عَرف لوبين وقتها الساعات الأكثر إيلامًا في حياته، شكَّ في نفسه، تساءل عما إذا كانت حياته ستُدفن في رعب السجن. هل أخطأ في حساباته؟ أليس من الطفولية أن يعتقد أنه في التاريخ المحدد سيحدث الحدث المحرر؟ كان يصيح: «هذا جنون! حساباتي خاطئة. كيف يمكن قبول مثل هذا التوافق من الظروف؟ سيكون هناك حدث صغير يدمر كل شيء، قشَّة...». لم تكن وفاة شتاينفيج واختفاء الوثائق التي كان ينبغي للعجوز أن يسلِّمها له تزعجه. كان من الممكن، بشكل أو بآخر، أن يستغني عن الوثائق، ومع الكلمات القليلة التي قالها له شتاينفيج كان يمكنه بفضل التنبؤ والعبقرية، أن يعيد تشكيل محتوى رسائل الإمبراطور، وأن يضع خطة المعركة التي ستمنحه النصر. لكنه كان يفكر في شيرلوك هولمز الذي كان هناك، في قلب ساحة المعركة، والذي كان يبحث، وسيجد الرسائل، مهددًا بذلك الهيكل الذي بناه بصبرٍ كبير.

وكان يفكر في الكائن الآخر، في العدو الذي لا يرحم، المتربص حول السجن، المختبئ ربما في السجن، والذي يتنبأ بأكثر خططه سرية، قبل أن تولد حتى في سرية تفكيره. مرَّ يوم 17 أغسطس، و18 أغسطس، و19 أغسطس. ويومان آخران، بالأحرى قرنان من الزمن! آه! الدقائق التي لا تنتهي! كان لوبين -الذي عادةً ما يكون هادئًا- مسيطرًا على نفسه، مبتكرًا في التسلية، عصبيًّا، تارةً منتعشًا وتارةً مكتئبًا، بلا قوة ضد العدو، مُشككًا في كل شيء، وكئيبًا.

في 20 أغسطس

كان يرغب في التصرف، ولكنه لم يستطع. مهما فعل، كان من المستحيل أن يُعجِّل بساعة النهاية. تلك النهاية كانت ستحدث أو لا تحدث، ولكن لوبين لم يكن على يقين، حتى تمر الساعة الأخيرة من اليوم الأخير، حتى الدقيقة الأخيرة. حينها فقط سيعرف فشل مخططه بشكل نهائي. كان يكرر باستمرار: «فشل لا مفر منه، فالنجاح يعتمد على ظروف دقيقة للغاية، ولا يمكن تحقيقه إلا بوسائل نفسية جدًّا. لا شك أنني أُوهم نفسي بشأن قيمة

وأهمية أسلحتي، ومع ذلك...». كان الأمل يعود إليه. كان يُقيم فرصه. كانت تبدو له فجأة واقعية وقوية، كانت الأمور ستحدث كما توقع، وللأسباب التي حسب حسابها. كان ذلك لا مفر منه.

نعم، لا مفر منه. إلا إذا عرف شيرلوك هولمز مكان الاختباء.

ومرة أخرى، كان يفكر في شيرلوك هولمز، ومرة أخرى كان يصاب بإحباط شديد.

اليوم الأخير

استيقظ متأخرًا، بعد ليلة ملأى بالأحلام السيئة. لم يرَ أحدًا في ذلك اليوم، لا القاضي المحقق، ولا محاميه. تسلل بعد الظهر ببطء وكآبة، وجاء المساء، مساء الزنازين القاتم. أصيب بالحمى، قلبه كان يقفز في صدره مثل وحش مذعور. وكانت الدقائق تمر، بلا عودة.

في الساعة التاسعة، لا شيء. في الساعة العاشرة، لا شيء. بكل أعصابه المشدودة مثل وتر القوس، كان يستمع إلى الأصوات غير الواضحة للسجن، محاولًا التقاط كل ما يمكن أن يتسرب من الحياة الخارجية عَبْر هذه الجدران التي لا ترحم. آه! كم كان يريد أن يوقف مسار الزمن، ويمنح القدر بعض الوقت الإضافي. صرخ: «آه! سيُصيبني الجنون. لينتهي كل هذا! سيكون أفضل. سأبدأ من جديد بطريقة أخرى، سأحاول شيئًا آخر. لكني لا أستطيع، لا أستطيع!». كان يمسك رأسه بكلتا يديه، ويضغط بقوة، وينغلق على نفسه ويركز كل تفكيره على هدف واحد، كما لو كان يريد أن يخلق الحدث الهائل، المذهل، غير المقبول، الذي ربط به استقلاله وثروته. همس: «يجب أن يحدث ذلك، يجب أن يحدث، ويجب أن يحدث، ليس لأنني أريده، ولكن لأن ذلك منطقي. وسوف يحدث، سوف يحدث!». ضرب رأسه بقبضتيه، وصعدت كلمات الهذيان. أحدث القفل صوتًا. بسبب غضبه، لم يسمع صوت الخطوات في الممر، وفجأة دخل شعاع من الضوء إلى زنزانته وفُتِح الباب.

دخل ثلاثة رجال. لم يشعر لوبين بلحظة واحدة من الدهشة. المعجزة الرائعة تحدث، وبدا له ذلك على الفور طبيعيًا، عاديًّا، في توافق تام مع الحقيقة والعدالة، لكن فيضانًا من الفخر اجتاحه. في هذه اللحظة بالذات، شعر بقوته وذكائه. قال أحد الرجال الثلاثة، والذي تعرَّف عليه لوبين بأنه

مدير السجن: «هل يجب أن أشعل الكهرباء؟». أجاب الأطول بين مرافقيه بلكنة أجنبية: «لا، هذا الفانوس يكفي».

- هل يجب أن أغادر؟

أجابه الشخص ذاته: «افعل ما يقتضيه واجبك، يا سيدي».

- وَفقًا للتعليمات التي أعطاني إياها السيد مفوض الشرطة، يجب أن ألتزم برغباتك تمامًا.

- في هذه الحالة يا سيدي، من الأفضل أن تغادر.

غادر السيد بوريلي، تاركًا الباب شبه مغلق، وبقي خارجًا، على مقربة من الصوت. تحدث الزائر قليلًا مع الشخص الذي لم يتحدث بعد، وحاول لوبين عبثًا تمييز ملامحهما في الظلام. لم يرَ سوى ظلال سوداء، ترتدي معاطف سائقي السيارات الواسعة، وتضع قبعات ذات حواف مطوية. قال الرجل، موجهًا ضوء الفانوس إلى وجه لوبين: «هل أنت أرسين لوبين؟».

ابتسم لوبين: «نعم، أنا المعروف بأرسين لوبين، المحتجز حاليًا في سجن سانتيه، زنزانة 14 رقم، القسم الثاني».

- هل أنت من نشر في الجريدة الكبرى سلسلة من الملاحظات، أكثرها خيالية حيث تحدثت عن رسائل مزعومة؟

قاطعه لوبين: «عذرًا يا سيدي، لكن قبل متابعة هذا الحوار، الذي هدفه بيننا ليس واضحًا بالنسبة إليَّ، سأكون ممتنًا للغاية لو أخبرتني باسم من أتحدث إليه». قال الأجنبي: «لا فائدة على الإطلاق». أكد لوبين: «الأمر ضروري جدًّا».

- لماذا؟

- لأسباب تتعلق بالأدب يا سيدي. تعرف اسمي ولا أعرف اسمك؛ هناك نقص في اللباقة لا أستطيع تحمله.

تضايق الأجنبي: «حقيقة أن مدير هذا السجن يدخلنا هنا توضح أن...». قال لوبين: «إن السيد بوريلي يجهل الأدب. السيد بوريلي كان يجب أن يقدمنا إلى بعضنا. نحن هنا على قدم المساواة يا سيدي. ليس هناك متفوق وتابع، سجين وزائر يتنازل لرؤيته. هناك رجلان، وأحد هذين الرجلين يعتمر قبعة لا ينبغي له أن يعتمرها».

- آه! لكن...

قال لوبين: «افهم من الدرس كيفما تشاء يا سيدي». اقترب الأجنبي وحاول التحدث. استمر لوبين: «القبعة أولًا، القبعة!».

- أنت تسمعني؟!

- لا.

- نعم.

- لا.

تفاقمت الأمور بشكل غبي. وضع الأجنبي الذي ظل صامتًا يده على كتف رفيقه، وقال له بالألمانية: «دعني أفعل».

- ماذا! لقد اتفقنا!

- اصمت واذهب.

- لن أتركك وحدك!

- بلى ستفعل.

- لكن الباب؟

- ستغلقه وتبتعد.

- لكن هذا الرجل، تعرفه.. أرسين لوبين.

- اذهب!

خرج الآخر غاضبًا. صرخ الزائر الثاني: «أغلق الباب جيدًا.. أفضل من ذلك، تمامًا. جيد؟!». ثم التفت، أخذ الفانوس ورفعه تدريجيًا. سأل: «هل يجب أن أخبرك من أنا؟». أجاب لوبين: «لا».

- ولماذا؟

- لأنني أعرف.

- آه!

- أنت من كنت أنتظره.

- أنا!

- نعم يا سيدي.

الجزء الحادي عشر

الإمبراطور

الفصل الأول

قال الأجنبي بسرعة: «لا تنطق بهذه الكلمة».

- كيف يجب أن أناديك؟

- من دون أي اسم.

سكت كلاهما، ولم يكن هذا الصمت من النوع الذي يسبق معركة بين خصمين مستعدَّين للقتال. الأجنبي كان يمشي ذهابًا وإيابًا كالسيد المعتاد على الأوامر والطاعة. لوبين ثابت في مكانه، لم تكن لديه الوضعية المعتادة للتحدي ولا ابتسامته الساخرة. كان ينتظر بوجه جاد. ولكن في أعماق كيانه كان يشعر بالفرح العارم والمجنون من الموقف الرائع الذي وجد نفسه فيه، هناك في زنزانة السجن هو السجين، هو المغامر، هو اللص والمحتال، هو أرسين لوبين. وأمامه هذا النوع من إله العالم الحديث، كيان مهيب، وريث قيصر وشارلمان.

غرقت قوته الخاصة به للحظة. دمعت عيناه وهو يفكر في انتصاره. توقف الأجنبي. ومنذ اللحظة الأولى كانا في صميم الموضوع. قال الأجنبي: «غدًا هو 22 أغسطس. يجب نشر الرسائل غدًا، أليس كذلك؟».

- هذه الليلة. خلال ساعتين، يجب أن يُودِع أصدقائي في الجريدة الكبرى ليس الرسائل بل القائمة الدقيقة لهذه الرسائل، مشروحة من قِبل الدوق الأكبر هيرمان.

- لن تُودَع هذه القائمة.

- لن تُودَع.

- ستسلمها لي.

- ستُسلَّم إلى يديك.

- جميع الرسائل أيضًا.

- جميع الرسائل أيضًا.

- دون أن تُصوِّر أيٌّ منها.

- دون أن تُصَوَّر أيٌّ منها.

كان الأجنبي يتحدث بصوت هادئ، لم تكن فيه أدنى نبرة من الرجاء، ولا أدنى إشارة إلى السُّلطة. لم يكن يأمر ولا يستجوب، كان يعلن الأفعال الحتمية لأرسين لوبين. سيحدث ذلك على هذا النحو. وسيحدث ذلك، مهما كانت متطلبات أرسين لوبين، ومهما كان الثمن الذي سيحدده لتحقيق هذه الأفعال. مسبقًا، كانت الشروط مقبولة. قال لوبين لنفسه: «يا لها من دهشة! أنا أتعامل مع خصم قوي. إذا خاطب كرمي، فسأضيع». الطريقة نفسها التي بدأت بها المحادثة، الصراحة في الكلمات، جاذبية الصوت والأُسلوب، كل ذلك أعجبه للغاية. انتصب كيلا يضعف، ولا يفقد المزايا التي حصل عليها بصعوبة. واستمرَّ الأجنبي: «هل قرأت هذه الرسائل؟».

- لا.

- لكن أحد رجالكم قرأها؟

- لا.

- إذًا؟

- إذًا لديَّ القائمة وملاحظات الدوق الأكبر. بالإضافة إلى ذلك، أعرف المكان الذي وَضَع فيه جميع أوراقه.

- لماذا لم تأخذها بعد؟

- لم أكن أعرف سر المكان إلا منذ إقامتي هنا. حاليًّا، أصدقائي في الطريق.

- القلعة محروسة، اثنان من أفضل رجالي يحتلَّانها.

- عشرة آلاف لن تكفي.

بعد دقيقة من التفكير، سأل الزائر: «كيف عرفت السر؟».

- خمَّنته.

- لكن كانت لديك معلومات أخرى، عناصر لم تنشرها الصحف!

- لا شيء.

- ومع ذلك، خلال أربعة أيام، فُتِّشت القلعة.

- شيرلوك هولمز بحث بشكل سيئ.

قال الأجنبي في نفسه: «آه! هذا غريب، هذا غريب! وأنت متأكد أن افتراضك صحيح؟».

- ليس افتراضًا، إنه يقين.

همس الأجنبي: «حسنًا، حسنًا. لن تكون هناك راحة حتى تختفي هذه الأوراق».

وقف فجأة أمام أرسين لوبين: «كم تريد؟». قال لوبين مذهولًا: «ماذا؟».

- كم تريد لتلك الأوراق؟ كم تريد لكشف السر؟

كان ينتظر رقمًا. اقترح هو نفسه: «خمسون ألفًا؟ مائة ألف؟». وعندما لم يرد لوبين، قال ببعض التردد: «أكثر؟ مئتا ألف؟ حسنًا! أوافق». ابتسم لوبين، وقال بصوت منخفض: «الرقم جميل. ولكن أليس من المحتمل أن مَلِكًا مثل ملك إنجلترا سيذهب إلى المليون؟».

- أعتقد ذلك.

- وأن هذه الرسائل، بالنسبة إلى الإمبراطور، لا تقدر بثمن، وأنها تساوي مليونين كما تساوي مائتي ألف فرنك، تساوي ثلاثة ملايين كما تساوي مليونين؟

- أعتقد ذلك.

- وإذا لزم الأمر، هل سيقدم الإمبراطور الملايين الثلاثة؟

- نعم.

- إذًا سيكون الاتفاق سهلًا.

صرخ الأجنبي بقلق: «على هذا الأساس؟».

- على هذا الأساس، لا. أنا لا أبحث عن المال، أريد شيئًا آخر أكثر قيمة بالنسبة إليَّ من الملايين.

- ما هو؟

- الحرية.

تفاجأ الأجنبي: «ماذا! حريتك! لكنني لا أستطيع، هذا أمر يخص بلدك. العدالة! ليست لديَّ أي سلطة». اقترب لوبين، وخفض صوته أكثر: «لديك كل السلطة سيدي. حريتي ليست حدثًا استثنائيًا لدرجة أن يُرفض طلبك».

- إذًا يجب أن أطلبها؟

- نعم.

- ممن؟

- من فالينغلاي، رئيس مجلس الوزراء.

- لكن السيد فالينغلاي نفسه لا يستطيع أكثر مني.

- يمكنه أن يفتح أبواب هذا السجن لي.

- ستكون تلك فضيحة.

- عندما أقول يفتح يكفي أن يتركها مواربة. سوف نمثله هروبًا، الجمهور يتوقع ذلك لدرجة أنه لن يطالب بأي تفسير.

- حسنًا، حسنًا. لكن السيد فالينغلاي لن يوافق أبدًا.

- سيوافق.

- لماذا؟

- لأنك ستعبر له عن رغبتك في ذلك.

- رغباتي ليست أوامر له.

- لا، لكن بين الحكومات هناك أمور تُفعَل، وفالينغلاي سياسي للغاية.

- إذن تفترض أن الحكومة الفرنسية ستقوم بعمل تعسفي لمجرد إرضائي؟

- لن تكون هذه الفرحة الوحيدة.

- ما هي الأخرى؟

- فرحة فرنسا بقبول الاقتراح الذي سيرافق طلب الحرية.

- أنا من سيقترح؟

- نعم، سيدي.

- ما هو؟

- لا أعرف، لكن يبدو لي أن هناك دائمًا أرضية مواتية للتفاهم. هناك إمكانات للاتفاق!

نظر إليه الأجنبي دون أن يفهم. انحنى لوبين وكأنه يبحث عن كلماته، كما لو كان يتخيل فرضية: «أفترض أن بلدين يختلفان حول مسألة تافهة، أن لديهما وجهة نظر مختلفة حول قضية ثانوية، قضية استعمارية على سبيل المثال، حيث تكون كبرياؤهما على المحك أكثر من مصالحهما، هل من المستحيل أن يصل زعيم أحد هذين البلدين إلى حل هذه القضية بروح من التفاهم الجديد؟ ويعطي التعليمات اللازمة!». قال الأجنبي وهو يضحك: «لكي أترك المغرب لفرنسا».

بدت له الفكرة التي اقترحها لوبين أكثر الأشياء الهزلية في العالم، وكان يضحك من قلبه. كانت هناك فجوة كبيرة بين الهدف المطلوب والوسائل المقدمة! استمر الأجنبي، محاولًا عبثًا أن يستعيد جديته، بالطبع الفكرة أصلية: «بالطبع، بالطبع، السياسة الحديثة بأكملها تتغير لكي يكون أرسين لوبين حرًّا! خطط الإمبراطورية تتدمر، لكي يتمكن أرسين لوبين من مواصلة مغامراته! لا، لكن لماذا لا تطلب مني الألزاس[1] واللورين[2]؟».

قال لوبين: «فكرت في ذلك يا سيدي». زاد ضحك الأجنبي: «رائع! وقد أعفيتني من ذلك؟».

- في هذه المرة، نعم.

تقاطعت ذراعا لوبين. هو أيضًا كان يستمتع بالمبالغة في دوره، واستمر بجدية مصطنعة: «قد تحدث يومًا ما سلسلة من الظروف التي تجعلني أملك

---

(1) «l'Alsace»، إقليم في شرق فرنسا، يقع على الحدود مع ألمانيا وسويسرا. يُعرف بثقافته الممزوجة بين الفرنسية والألمانية، وتاريخه المعقد الذي شهد تباينًا في السيادة بين الفرنسيين والألمان. (المترجم)

(2) «La Lorraine» هي منطقة تقع في شمال شرق فرنسا، تحدها ألمانيا من الشمال، ولوكسمبورغ من الشرق، وبلجيكا من الشمال الغربي. تُعرف بتاريخها الغني والمتشابك، وكانت جزءًا من إقليم لورين السابق في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن ثم أصبحت جزءًا من فرنسا بعد عدة فترات من تبادل السيطرة مع ألمانيا. (المترجم)

القوة للمطالبة بهذه الاستعادة. في ذلك اليوم، لن أتردد. حاليًا، الأسلحة التي أمتلكها تجبرني على التواضع. يكفيني السلام في المغرب[1]».

- فقط ذلك؟

- فقط ذلك.

- المغرب مقابل حريتك؟

- ليس أكثر، أو بالأحرى لأنه لا ينبغي أن نفقد الهدف الرئيسي لهذا الحديث، أو بالأحرى قليل من النية الحسنة من أحد البلدين العظيمين المعنيين. وفي المقابل، التخلي عن الرسائل التي في حوزتي.

تَمتَم الأجنبي بغيظ: «تلك الرسائل! تلك الرسائل! بعد كل هذا، قد لا تكون ذات قيمة».

- بعضها من كتابتك سيدي، وقد أعطيتها قيمة كافية لتأتي إلى هنا في هذه الزنزانة.

- حسنًا! ما المهم؟

- هناك رسائل أخرى لا تعرف مصدرها، ويمكنني أن أعطيك بعض المعلومات عنها.

رد الأجنبي بقلق: «آه! تردد لوبين». أمره الأجنبي: «تحدث، تحدث بصراحة! تحدث بوضوح!». بعد الصمت العميق، أعلن لوبين بجدية معينة: «قبل عشرين عامًا، طُرح مشروع معاهدة بين ألمانيا وإنجلترا وفرنسا».

- هذا غير صحيح! هذا مستحيل! من كان يمكنه؟!

- والد الإمبراطور الحالي وملكة إنجلترا، جدته، كلاهما تحت تأثير الإمبراطورة.

- مستحيل! أكرر أنه مستحيل!

- المراسلات موجودة في مخبأ قلعة فيلدينز، مخبأ لا يعرف سره سوى أنا.

---

(1) يشير الكاتب إلى أزمة أكادير (1911) وتسمى كذلك باسم أزمة المغرب الثانية، هي أزمة عالمية، نتجت عن المنافسة الألمانية الاستعمارية لفرنسا في المغرب. (المترجم)

كان الأجنبي يذهب ويأتي بعصبية. توقف وقال: «هل نص المعاهدة جزء من هذه المراسلات؟».

- نعم سيدي. وهو بخط والدك.
- وماذا يقول؟
- وفقًا لهذه المعاهدة، كانت إنجلترا وفرنسا تتنازلان وتَعِدان ألمانيا بإمبراطورية استعمارية ضخمة، هذه الإمبراطورية التي لا تمتلكها، والتي هي ضرورية اليوم لضمان عظمتها، كبيرة بما يكفي لتتخلى عن أحلام الهيمنة، وتكتفي بأن تكون مجرد ما هي عليه.
- ومقابل هذه الإمبراطورية، ماذا كانت تطلب إنجلترا؟
- تحديد أسطول ألمانيا.
- وماذا عن فرنسا؟
- الألزاس واللورين.

صمت الإمبراطور، مستندًا إلى الطاولة، يفكر بعمق. واصل لوبين: «كان كل شيء جاهزًا. كانت حكومتا باريس ولندن مستعدتَين وموافقتَين. كانت الأمور قد انتهت، كانت معاهدة التحالف الكبرى على وشك التوقيع، ممهدة للسلام العالمي والدائم. وفاة والدك[1] قضت على هذا الحلم الجميل. ولكن أسأل جلالتك، ماذا سيظن شعبك؟ ماذا سيظن العالم عندما يعلمون أن فريدرش الثالث، أحد أبطال عام 70، ألماني، ألماني نقي، محترم من جميع مواطنيه وحتى من أعدائه، كان يقبَل وبالتالي يرى أنه من العدل، إعادة الألزاس واللورين؟».

صمت للحظة، تاركًا السؤال ليبرز بوضوح أمام ضمير الإمبراطور، أمام ضميره كإنسان، كابن وكحاكم. ثم اختتم: «الأمر متروك لجلالته ليقرر ما إذا كان يريد أو لا يريد أن يسجل التاريخ هذه المعاهدة. أمَّا أنا يا سيدي، فترى أن شخصيتي المتواضعة ليس لها مكان كبير في هذا النقاش».

تبع كلمات لوبين صمت طويل. انتظر بروح مضطربة، كان مصيره يتحدد في هذه اللحظة التي تصورها، والتي خلقها نوعًا ما بالكثير من الجهد والكثير من العزيمة. لحظة تاريخية وِلدت من عقله، حيث كان لشخصيته

(1) تُشير المحادثة هنا إلى إمبراطور ألمانيا فيلهلم الثاني ابن فريدرش الثالث. (المترجم)

«المتواضعة»، مهما قال، تأثيرٌ كبير على مصير الإمبراطوريات وعلى سلام العالم.

أمام لوبين وفي ظله، كان القيصر يتأمل. ماذا سيقول؟ ما الحل الذي سيقدمه للمشكلة؟ مشى في الزنزانة بأكملها، خلال لحظات بدت بلا نهاية للوبين. ثم توقف وقال: «هل هناك شروط أخرى؟».

- نعم سيدي، لكنها غير مهمة.
- ما هي؟
- لقد وجدت ابن الدوق الأكبر لدوقية بون-فيلدينز. ستُعاد الدوقية الكبرى إليه.
- ثم؟
- هو يحب فتاة شابة، وهي تحبه أيضًا، أجمل وأفضل النساء. سيتزوج هذه الفتاة.
- ثم؟
- هذا كل شيء.
- لا يوجد شيء آخر؟
- لا شيء. يتبقى فقط لجلالتكم إرسال هذه الرسالة إلى مدير الجريدة الكبرى لكي يدمر المقال الذي سيصله في أي لحظة.

مدَّ لوبين الرسالة، قلبه يخفق، يده ترتعش. إذا أخذ الإمبراطور الرسالة، فذلك كان علامة قبوله.

تردد الإمبراطور، ثم بحركة غاضبة، أخذ الرسالة، وضع قبعته، وارتدى معطفه، وخرج دون كلمة.

ظَلَّ لوبين لبضع ثوانٍ متمايلًا، كمن أصابه الدوار.

ثم فجأة، سقط على كرسيه صارخًا بالفرح والفخر.

الفصل الثاني

- سيدي قاضي التحقيق، يؤسفني أن أقول لك وداعًا اليوم.
- ماذا يا سيد لوبين؟ هل تنوي مغادرتنا إذًا؟
- دون رغبة مني، سيدي قاضي التحقيق، تأكد من ذلك، لأن علاقتنا كانت ودية للغاية. لكن لا توجد متعة دون نهاية. انتهى علاجي في سانتيه. واجبات أخرى تتطلب وجودي، يجب أن أهرب هذه الليلة.
- حظًّا سعيدًا إذًا يا سيد لوبين.
- شكرًا لك يا سيدي قاضي التحقيق.

انتظر أرسين لوبين بصبر لحظة هروبه، متسائلًا عن كيفية تنفيذه، وما هي الوسائل التي ستستخدمها فرنسا وألمانيا، متحدتين لتحقيق هذا العمل الجليل، دون إثارة الكثير من الفضيحة. في منتصف الظهيرة، أمره الحارس بالتوجه إلى ساحة المدخل. ذهب بسرعة، ووجد المدير الذي سلّمه إلى السيد ويبر والذي جعله يصعد إلى سيارة حيث كان شخص ما قد جلس بالفعل.

على الفور، انفجر لوبين في ضحكٍ عميق: «ماذا! أنت، يا ويبر المسكين، أنت من يتحمل عناء هذه المهمة! أنت ستكون مسؤولًا عن هروبي؟ اعترف أنك لم تكن محظوظًا! آه! يا صديقي المسكين، يا لها من مفاجأة! بعد أن اشتهرت بإلقاء القبض عليَّ، ها أنت الآن تصبح خالدًا بفضل هروبي». نظر إلى الشخص الآخر: «حسنًا، سيدي مفوض الشرطة، أنت أيضًا في هذه القضية؟ يا لها من هدية سيئة أعطوك إياها، أليس كذلك؟ إذا كانت لديَّ نصيحة لك، فهي أن تبقى في الكواليس. كل الشرف لويبر! إنه يستحق ذلك. كم هو قوي هذا الرجل!».

انطلقت السيارة بسرعة على طول نهر السين وعَبَر بولوني، وعبروا سانت-كلود. صرخ لوبين: «رائع، نحن ذاهبون إلى جارش! يحتاجون إليَّ لإعادة تمثيل وفاة ألتنهايم. سننزل إلى الأنفاق، سأختفي، وسيقولون إنني هربت عَبْر مخرج آخر، معروف لي فقط. يا له من غباء!». بدا عليه الاستياء: «غباء، منتهى الغباء! أشعر بالخجل. وهؤلاء هم الناس الذين يحكموننا! يا لها من حقبة! ولكن يا بؤساء كان عليكم الاتصال بي. كنت سأرتب لكم هروبًا صغيرًا من النوع المعجزة. لديَّ هذه الأشياء في خزائني! كان الجمهور سيصرخ من الدهشة ويرقص من الفرح. بدلًا من ذلك. حسنًا، صحيح أنكم كنتم قد فوجئتم قليلًا، ولكن على أي حال...».

كان البرنامج كما توقع لوبين تمامًا. دخلوا عَبْر دار المسنات إلى جناح هورتنس. نزل لوبين ورفيقاه وعبروا النفق. في نهايته، قال له نائب مدير الأمن: «أنت حر». قال لوبين: «هكذا! ليس الأمر أكثر ذكاءً من ذلك! كل شكري يا ويبر العزيز، واعتذاري عن الإزعاج. سيدي مفوض الشرطة، احترامي لسيادتكم».

صعد الدرج الذي يؤدي إلى فيلا الجليسين، رفع الفتحة وقفز إلى الغرفة. سقطت يدٌ على كتفه، أمامه كان يقف زائره الأول من الليلة الماضية، الشخص الذي كان يرافق الإمبراطور. أربعة رجال كانوا بجانبه. قال لوبين: «آه! ما هذه المزحة؟ لم أكن حرًّا إذًا؟». تَمتَم الألماني بصوته الخشن: «نعم، نعم، أنت حر. أنت حر في السفر معنا نحن الخمسة، إذا كان ذلك يناسبك». نظر لوبين إليه لثانية برغبة مجنونة في تعليمه معنى اللكمة على الأنف، لكن كان يبدو على الرجال الخمسة الإصرار. زعيمهم لم تكن لديه أي مشاعر، وفكر لوبين أن الرجل سيكون سعيدًا جدًّا باستخدام الوسائل القصوى. ما الذي يهمه في ذلك؟ ضحك: «إذا كان ذلك يناسبني! لكن هذا كان حلمي!».

في الساحة، كانت تنتظر سيارة ليموزين ضخمة. صعد رجلان في المقدمة، وصعد اثنان آخران في الداخل. جلس لوبين والأجنبي على المقعد الخلفي. صرخ لوبين بالألمانية: «إلى الطريق، إلى فيلدينز». قال له الكونت: «اصمت! هؤلاء الناس لا ينبغي أن يعرفوا شيئًا. تحدث الفرنسية، إنهم لا يفهمون. ولكن لماذا تتحدث؟». قال لوبين لنفسه: «صحيح، لماذا أتحدث؟».

قضوا المساء والليل في السفر، دون أي حوادث. زودوا السيارة بالوقود مرتين في مدن صغيرة نائمة. تبادل الألمان حراسة سجينهم الذي لم يفتح

عينيه إلا في الصباح الباكر. توقفوا لتناول أول وجبة في نُزل يقع على تل، بالقرب من علامة طريق. رأى لوبين أنهم كانوا على المسافة نفسها من ميتز ولوكسمبورغ. هناك أخذوا طريقًا يتجه نحو الشمال الشرقي باتجاه ترير. قال لوبين لرفيقه في السفر: «هل لي الشرف بالتحدث إلى الكونت فالديمار، مستشار الإمبراطور السري، الذي فتش منزل هيرمان الثالث في دريسدن؟». بقي الغريب صامتًا. فكر لوبين: «أنت يا صغيري، لديك وجه لا يعجبني. سأحصل عليه يومًا ما. أنت قبيح، أنت سمين، أنت ضخم، باختصار، أنت لا تعجبني».

وأضاف بصوت عالٍ: «السيد الكونت مخطئ في عدم الرد عليَّ. كنت أتحدث لمصلحته؛ لقد رأيت في اللحظة التي كنا نصعد فيها سيارة تظهر خلفنا في الأفق. هل رأيتها؟».

- لا، لماذا؟

- لا شيء.

- ومع ذلك...

- لا، لا شيء على الإطلاق. مجرد ملحوظة. على أي حال، لدينا عشر دقائق من التقدم، وسيارتنا على الأقل أربعون حصانًا.

قال الألماني، الذي راقبه بقلق من زاوية عينه: «ستون».

- أوه! إذًا، نحن مطمئنون.

صعدوا منحدرًا صغيرًا. في الأعلى، انحنى الكونت من النافذة وقال: «يا للعنة!». قال لوبين: «ماذا؟». استدار الكونت نحوه، وبصوت مهدد أجابه: «احذر! إذا حدث أي شيء، فهذا سوء حظك».

- آه! آه! يبدو أن الآخر يقترب. ولكن ماذا تخشى عزيزي الكونت؟ ربما هو مسافر، ربما مساعدة يرسلونها إليك.

تذمر الألماني: «لست بحاجة إلى مساعدة». انحنى مرة أخرى. لم تعد السيارة سوى على بعد مائتين أو ثلاثمائة متر. قال لرجاله مشيرًا إلى لوبين: «قيدوه! وإذا قاوم...». سحب مسدسه. سخر لوبين: «لماذا أقاوم أيها الألماني اللطيف؟». وأضاف بينما كانوا يقيدون يديه: «من المثير للفضول حقًا أن نرى كيف يتخذ الناس احتياطات عندما يكون ذلك غير ضروري، ولا

يتخذونها عندما يجب عليهم ذلك. ما الذي يمكن أن تفعله هذه السيارة لك؟ شركاء لي؟ أي فكرة!».

دون أن يجيب، كان الألماني يعطي الأوامر للسائق: «إلى اليمين! أبطئ... دعهم يمرون... إذا أبطأوا أيضًا، توقف!». لكن دهشته الكبيرة، هي أن السيارة بدأت تزيد من سرعتها. مرت كالإعصار أمام السيارة، في سحابة من الغبار. وقف في مؤخرة السيارة التي كانت مكشوفة جزئيًا، كان يمكن تمييز شكل رجل يرتدي الأسود. رفع ذراعه. دوت طلقتان. الكونت، الذي كان يحجب الباب الأيسر بأكمله، سقط في السيارة. قبل حتى الاهتمام به، قفز الرفيقان على لوبين وأكملا تقييده. صرخ لوبين الذي كان يرتجف من الغضب: «أيها الأغبياء! الحمقى! أطلقوا سراحي بدلًا من ذلك! حسنًا، ها هم يتوقفون! أيها الأغبياء الثلاثة، اركضوا وراءه! الحقوا به! إنه الرجل الأسود، القاتل! آه! يا للحمقى!». كمموه، ثم اهتموا بالكونت. لم يبد الجرح خطِرًا وسرعان ما ضُمِّد، لكن المريض، المتهيج للغاية، أصيب بنوبة حمى وبدأ يهذي.

كانت الساعة الثامنة صباحًا. كانوا في الريف المفتوح، بعيدًا عن أي قرية. لم تكن لدى الرجال أي إشارة عن الهدف الدقيق للرحلة. إلى أين يذهبون؟ من يخبرون؟ ركنوا السيارة بطول الغابة وانتظروا. مرَّ اليوم كله بهذه الطريقة. فقط في المساء، وصل فصيل من الفرسان، أُرسل من ترير للبحث عن السيارة. بعد ساعتين، نزل لوبين من السيارة الليموزين وما يزال برفقة الألمان، صعد، بضوء فانوس، درجات سلم أدى إلى غرفة صغيرة نوافذها مغطاة بقضبان حديدية. قضى الليلة هناك.

في صباح اليوم التالي، اصطحبه ضابط، عَبْر فناء مزدحم بالجنود، إلى وسط سلسلة طويلة من المباني التي كانت تدور حول سفح تل، حيث كانت تُرى أطلال ضخمة. أُدخِل إلى غرفة واسعة مؤثثة بشكل بسيط. جالسًا أمام مكتب، كان زائره من أول أمس يقرأ الصحف والتقارير التي كان يشطب عليها بخطوط حمراء عريضة بقلم رصاص. قال للضابط: «دعونا وحدنا». واقترب من لوبين وقال: «الأوراق!».

لم تعد النبرة هي نفسها. كانت الآن نبرةً آمرة وجافة من سيد في بيته، يخاطب مرؤوسًا، وأي مرؤوس! محتال، مغامر من أسوأ نوع، كان مضطرًا إلى التذلل أمامه! كرر: «الأوراق!». لم يفقد لوبين رباطة جأشه. قال بهدوء: «إنها في قلعة فيلدينز».

- نحن في ملحقات قلعة فيلدينز.

- الأوراق في هذه الأطلال.

- هيا بنا، قُدني!

لم يتحرك لوبين.

- حسنًا؟

- حسنًا! يا سيدي، الأمر ليس بهذه البساطة كما تعتقد. يتطلب الأمر بعض الوقت لتفعيل العناصر اللازمة لفتح هذا المخبأ.

- كم ساعة تحتاج؟

- أربعًا وعشرين.

إيماءة غضب، سرعان ما كُبِحت.

- آه! لم يكن هناك حديث عن هذا بيننا.

- لم نُحدد أي شيء سيدي، لا هذا ولا الرحلة الصغيرة التي جعلني جلالتكم أقوم بها بين ستة حراس شخصيين. يجب أن أُسلم الأوراق، هذا كل شيء.

- وأنا لا ينبغي أن أمنحك الحرية إلا مقابل تسليم هذه الأوراق.

- مسألة ثقة سيدي. كنت سأعتبر نفسي ملزمًا بالقدر نفسه بإعادة هذه الأوراق لو كنت حرًّا، عند خروجي من السجن. وجلالتكم يمكن أن يكون متأكدًا من أنني لم أكن لآخذها تحت ذراعي. الفرق الوحيد هو أنها كانت ستكون بالفعل في حوزتكم يا سيدي، لأننا أضعنا يومًا. ويوم واحد في هذه القضية، هو يوم زائد. فقط، هكذا، كان يجب أن تكون هناك ثقة.

نظر الإمبراطور بنوع من الذهول إلى هذا المنبوذ، هذا اللص الذي بدا مستاءً من عدم الثقة بكلمته. دون أن يجيب، قرع الجرس. ثم أمر: «ضابط الخدمة!». ظهر الكونت فالديمار، شاحبًا جدًّا: «آه! هذا أنت، فالديمار، هل تعافيت؟».

- تحت أمركم يا سيدي.

- خذ خمسة رجال معك، الرجال نفسهم بما أنك واثق منهم. لن تترك هذا السيد حتى صباح الغد.

نظر إلى ساعته.

- حتى صباح الغد، العاشرة. لا، سأعطيه حتى الظهر. ستذهب حيث يريد أن يذهب، ستفعل ما يطلب منك أن تفعله. باختصار، أنت تحت تصرفه. في الظهر، سألحق بك. إذا لم يسلمني حزمة الرسائل عند الدقة الأخيرة من الظهر، ستعيده إلى سيارتك، دون إضاعة ثانية واحدة، ستعيده مباشرة إلى سجن سانتيه.

- إذا حاول الهرب...

- تدبر الأمر.

خرج الإمبراطور. أخذ لوبين سيجارًا من فوق الطاولة، وألقى بنفسه على كرسي.

- على الرحب والسعة! أفضِّل هذه الطريقة في التصرف، إنها صريحةٌ وحاسمة.

أدخل الكونت رجاله. قال للوبين: «هيا بنا!». أشعل لوبين سيجاره، ولم يتحرك. قال الكونت: «قيدوا يديه!».

وعندما نُفذ الأمر، كرر: «هيا! لننطلق!».

- لا.

- كيف لا؟

- أنا أفكر.

- في ماذا؟

- في المكان الذي قد يوجد فيه هذا المخبأ.

قفز الكونت: «ماذا! أنت لا تعرف؟». سخر لوبين: «بالطبع لا! وهذا هو الجزء الأكثر طرافة في المغامرة، ليست لديَّ أدنى فكرة عن هذا المخبأ الشهير، ولا عن وسائل اكتشافه. ها، ما رأيك عزيزي فالديمار؟ إنه أمر مضحك، ليست لديَّ أدنى فكرة!».

الجزء الثاني عشر

خطابات الإمبراطور

الفصل الأول

أطلال فيلدينز، المعروفة لدى جميع زوار ضفاف نهر الراين وإقليم الموزيل، تشمل بقايا القلعة الإقطاعية القديمة، التي بُنِيت في عام 1277 من قِبل رئيس أساقفة فيستينغن. وإلى جانب برج ضخم، تمزقت جوانبه بفعل قوات تورين، كانت هناك جُدران قصر كبير -من عصر النهضة- ما زال سليمًا، حيث أقام دوقات فيلدينز العظام لثلاثة قرون.

هذا هو القصر الذي نُهب على يد الرعايا الثائرين لهيرمان الثاني. النوافذ الفارغة تفتح مائتي فجوة على الواجهات الأربع. لقد حرقوا كل الأعمال الخشبية، الأقمشة، ومعظم الأثاث. نمشي على العوارض المتفحمة للأرضيات، وتظهر السماء من مكان لآخر عَبْر الأسقف المدمرة.

بعد ساعتين، جال لوبين برفقة حراسه وقال: «أنا سعيد جدًّا بك يا عزيزي الكونت. لا أعتقد أنني قد التقيت مرشدًا مثقفًا مثلك، ونادرًا ما يكون صامتًا. الآن، إذا سمحت، دعونا نتناول الغداء».

في الواقع، لم يكن لوبين يعرف أكثر مما كان يعرف في البداية، وكان ارتباكه يتزايد. للهروب من السجن ولإثارة إعجاب زائره، كان يخادع، متظاهرًا بمعرفته بكل شيء، وما زال يبحث عن مكان للبدء في البحث. كان يقول أحيانًا لنفسه: «الأمور تسوء، الأمور تسوء للغاية».

لم يكن لديه الوضوح المعتاد. كانت فكرة واحدة تسيطر عليه، فكرة المجهول، القاتل، الوحش الذي ما زال يتبع خطاه. كيف كانت الشخصية الغامضة تتعقب آثاره؟ كيف علم بخروجه من السجن ورحلته نحو لوكسمبورغ وألمانيا؟ هل كان ذلك حدسًا خارقًا؟ أم نتيجة لمعلومات دقيقة؟

ولكن إذا كان الأمر كذلك، فبأي ثمنٍ، وبأي وعودٍ أو تهديداتٍ يمكنه الحصول على تلك المعلومات؟ كل هذه الأسئلة كانت تطارد عقل لوبين. بحلول الساعة الرابعة، بعد جولة جديدة في الأطلال، حيث فحص الحجارة بلا جدوى، وقياس سُمك الجدران، وتفحَّص شكل الأشياء ومظهرها، سأل الكونت: «هل بقي أي خادم من آخر دوق كان يعيش في القلعة؟».

- كل الخدم من ذلك الوقت قد تفرقوا. واحد فقط استمر في العيش في المنطقة.

- وماذا عنه؟

- مات قبل عامين.

- لديه أطفال؟

- كان لديه ابن تزوج وطُرد هو وزوجته بسبب سلوكهما الفاضح. تركا أصغر أطفالهما، فتاة صغيرة تدعى إيسيلدا.

- أين تعيش؟

- تعيش هنا في نهاية المرافق. كان جدها يعمل مرشدًا للزوار، في الوقت الذي كان يمكن فيه زيارة القلعة. منذ ذلك الحين، عاشت الصغيرة إيسيلدا دائمًا في هذه الأطلال، حيث يتسامح الناس معها بدافع الشفقة؛ إنها كائن مسكين بريء، تتحدث بالكاد ولا تعرف ما تقوله.

- هل كانت دائمًا على هذا الحال؟

- يبدو أنه لا. بدأ عقلها يضيع تدريجيًّا في سن العاشرة.

- نتيجة لحزن أو خوف؟

- لا، دون سبب، كما قيل لي. كان الأب مدمنًا على الكحول، وانتحرت الأم في نوبة من الجنون.

فكر لوبين، وقال: «أود أن أراها». ابتسم الكونت ابتسامة غريبة بعض الشيء وقال: «يمكنك رؤيتها بالتأكيد».

كانت موجودة بالفعل في إحدى الغرف خُصِّصت لها. فوجئ لوبين برؤية مخلوقة صغيرة، نحيفة جدًّا، شاحبة جدًّا، لكنها تقريبًا جميلة بشعرها الأشقر ووجهها الرقيق. كانت عيناها بلون أخضر مائي، تحملان تعبيرًا غامضًا، حالمةً كأعين العمياء. طرح عليها بعض الأسئلة التي لم تُجب عنها، وأخرى

أجابت عنها بجمل غير مترابطة، كما لو أنها لا تفهم معنى الكلمات الموجهة إليها، ولا حتى الكلمات التي تنطقها.

أصر لوبين وأخذ يدها بلطف شديد، وسألها بصوت مليء بالعطف عن الفترة التي كانت فيها عاقلة، عن جدها، وعن الذكريات التي يمكن أن تثيرها فيها حياتها كطفلة، حرة بين الأطلال المهيبة للقلعة. كانت صامتة، عيناها ثابتتان، غير متحركة، ربما متأثرة، لكن دون أن تستطيع مشاعرها إيقاظ عقلها النائم.

طلب لوبين قلمًا وورقة. باستخدام القلم كتب على الورقة البيضاء «813».

ابتسم الكونت مرة أخرى. صرخ لوبين منزعجًا: «آه! ماذا يجعلك تضحك؟».

- لا شيء، لا شيء! إنه يثير اهتمامي، يثير اهتمامي كثيرًا.

نظرت الفتاة الصغيرة إلى الورقة التي قدمت أمامها، وأدارت رأسها بتعبير مشتت. قال الكونت بتهكم: «هذا لا يفيد». كتب لوبين الحروف «Apoon». وجد عدم الانتباه نفسه لدى إيسيلدا. لم يتخلَّ عن المحاولة، ورسم الحروف نفسها مرارًا وتكرارًا، لكنه كان يترك مسافات متفاوتة بينها في كل مرة. وفي كل مرة كان يراقب وجه الفتاة. لم تتحرك، وعيناها مثبتتان على الورقة بلا مبالاة، لم تتأثر بأي شيء. لكن فجأة أمسكت بالقلم، وانتزعت الورقة الأخيرة من يد لوبين، وكأنها تحت تأثير إلهام مفاجئ، كتبت حرف «L» مرتين في وسط الفجوة التي تركها لوبين. ارتعش لوبين، تكونت كلمة «Apollon» لكنها لم تترك القلم ولا الورقة، وبأصابع متشنجة وجهد واضح كانت تحاول جعل يدها تنفذ أوامر عقلها المتردد. انتظر لوبين بقلق. كتبت بسرعة وكأنها مسحورة كلمة « Diane». صرخ بعنف: «كلمة أخرى! كلمة أخرى!».

لوَت أصابعها حول القلم، كسرت رأسه، ورسمت بحافته حرف «J» كبير، ثم تركت القلم منهكة. أمر لوبين وهو يمسك بذراعها: «كلمة أخرى! أريدها!». لكنه رأى في عينيها اللتين عادتا إلى اللامبالاة، أن الومضة هذه لم تعد تضيء. قال: «دعنا نذهب!». كان قد بدأ يبتعد، عندما بدأت تركض وسدت طريقه. توقف: «ماذا تريدين؟». مدت يدها المفتوحة: «قال موجهًا كلامه إلى الكونت: «ماذا! المال؟ هل تعتاد التسوُّلَ؟». قال الكونت: «لا، لا أستطيع تفسير ذلك».

أخرجت إيسيلدا قطعتين ذهبيتين من جيبها، وجعلتهما تطنطنان بسعادة. فحصهما لوبين، كانتا قطعتين فرنسيتين جديدتين تمامًا مؤرختين من هذا العام. صاح لوبين بقلق: «من أين حصلتِ على هذا؟ قطع فرنسية! من أعطاكِ إياها؟ ومتى؟ هل هو اليوم؟ تكلمي! أجيبي!». رفع كتفيه: «يا لي من أحمق! وكأنها تستطيع أن تجيبني! يا عزيزي الكونت، هل تتكرم بإقراضي أربعين ماركًا. شكرًا. تفضلي إيسيلدا، هذا لكِ».

أخذت القطعتين وجعلتهما تطنطنان مع القطعتين الأخريين في راحة يدها، ثم ممددة ذراعها، أشارت إلى أطلال قصر النهضة، بإيماءة تبدو كأنها تشير بشكل خاص إلى الجناح الأيسر وقمة ذلك الجناح. هل كانت هذه حركة آلية؟ أم ينبغي أن يَعدها شكرًا على القطعتين الذهبيتين؟

راقب الكونت الذي لم يتوقف عن الابتسام لهذا المشهد. قال لوبين في نفسه: «ما الذي يجعله يضحك هذا الحيوان؟! يبدو أنه يسخر مني». من باب الاحتياط، توجَّه نحو القصر، متبوعًا بحراسه. كان الطابق الأرضي يتكون من قاعات استقبال ضخمة، تتصل بعضها ببعضٍ، حيث جُمِع بعض الأثاث الذي نجا من الحريق.

في الطابق الأول، كان هناك ممر طويل في الجانب الشمالي، تُفتح عليه اثنتا عشرة قاعة جميلة متشابهة تمامًا. يتكرر الممر نفسه في الطابق الثاني، لكن مع أربع وعشرين غرفة، متشابهة مع بعضها. كل ذلك فارغ، متدهور، بائس. في الأعلى لا شيء. كانت الغرف العلوية قد احترقت. لمدة ساعة، مشى لوبين، وركض، وركض سريعًا، بلا كلل، وعيناه يقظتان. عند حلول المساء، ركض نحو إحدى القاعات الاثنتي عشرة في الطابق الأول، كما لو كان يختارها لأسباب خاصة معروفة له وحده. كان مدهوشًا تمامًا عندما وجد الإمبراطور يدخن وهو جالس في كرسي كان قد جلبه.

دون أن يهتم بوجوده، بدأ لوبين بفحص القاعة، وفق الأساليب التي اعتاد استخدامها في مثل هذه الحالات، مقسمًا الغرفة إلى قطاعات يفحصها واحدة تلو الأخرى. بعد عشرين دقيقة، قال: «سأطلب منكم سيدي أن تُحَرِك مقعدك. توجد مدفأة». هزَّ الإمبراطور رأسه قائلًا: «هل من الضروري حقًا أن أزيح المقعد؟».

- نعم يا سيدي، هذه المدفأة...

- هذه المدفأة مثل كل الأخريات، وهذه الغرفة لا تختلف عن جيرانها.

نظر لوبين إلى الإمبراطور دون أن يفهم. نهض وقال ضاحكًا: «أعتقد يا سيد لوبين أنك قد سخرت مني قليلًا».

- كيف ذلك سيدي؟

- آه! ليس بالأمر الكبير! لقد حصلت على الحرية بشرط أن تسلمني الأوراق التي تهمني، وليست لديك أدنى فكرة عن مكان وجودها. أنا بالفعل... كيف تقولون بالفرنسية؟ خُدِعت «Roulé»؟

- هل تعتقد ذلك يا سيدي؟

- نعم! ما نعرفه لا نبحث عنه، وها قد مضت عشر ساعات وأنت تبحث. ألا تعتقد أن العودة الفورية إلى السجن ضرورية؟

بدا لوبين مذهولًا: «ألم تحدد جلالتكم منتصف غد كحد أقصى؟».

- لماذا الانتظار؟

- لماذا؟ للسماح لي بإكمال عملي.

- عملك؟ لكن عملك لم يبدأ حتى يا سيد لوبين.

- في هذا جلالتك خاطئ.

- أثبِت ذلك وسأنتظر حتى منتصف الغد.

فكر لوبين وقال بجدية: «بما أن جلالتك تحتاج إلى إثباتات لتثق بي، فها هي ذي. القاعات الاثنتا عشرة التي تطل على هذا الممر تحمل كلٌّ منها اسمًا مختلفًا، والذي يظهر أول حرف منه على باب كل منها. أحد هذه النقوش، التي تلاشت بشكل أقل بسبب النيران، لفت انتباهي عندما مررت عَبْر الممر. فحصت الأبواب الأخرى، فوجئت بأحرف أولية غير واضحة، لكنها كلها محفورة في الممر فوق الأعمدة.

إذًا أحد هذه الأحرف كان D، الحرف الأول من ديانا Diane. وآخر كان A، الحرف الأول من أبولون Apollon. وهذه الأسماء هي أسماء آلهة ميثولوجية. هل تحمل الأحرف الأخرى الطابع نفسه؟ اكتشفت J، الحرف الأول من جوبيتر Jupiter؛ V، الحرف الأول من فينوس Vénus؛ M، الحرف الأول من ميركوري Mercure؛ S، الحرف الأول من ساتورن Saturn ، إلخ... وجدنا حلًّا لهذا الجزء من اللغز: كل واحدة من القاعات الاثنتي عشرة تحمل اسمًا لإله من آلهة الأولمب، وتركيبة Apoon، التي أكملتها إيسيلدا، تشير إلى قاعة

أبولون. إذًا، هنا، في القاعة التي نحن فيها، الرسائل مخبأة. قد يستغرق الأمر بضع دقائق فقط لاكتشافها».

قال الإمبراطور ضاحكًا: «بضع دقائق أو بضع سنوات... وربما حتى!». كان يبدو أنه يستمتع كثيرًا، وكان الكونت أيضًا يبدي سعادة كبيرة. سأل لوبين: «هل يمكن لجلالتكم أن تشرح لي؟».

- سيد لوبين، التحقيق الممتع الذي أجريته اليوم والذي تعطينا نتائجه الباهرة، أجريته بالفعل. نعم، قبل أسبوعين، بصحبة صديقك شيرلوك هولمز. معًا، استجوبنا الفتاة الصغيرة إيسيلدا، معًا استخدمنا الطريقة نفسها التي استخدمتها أنت، ومعًا وجدنا الأحرف الأولية في الممر، وجئنا هنا، إلى قاعة أبولون.

بدا لوبين شاحبًا. تلعثم: «آه! هولمز... وصل إلى هنا؟».

- نعم، بعد أربعة أيام من البحث. صحيح أننا لم نتقدم كثيرًا، لأننا لم نجد شيئًا. لكن مع ذلك، أعلم أن الرسائل ليست هنا.

مرتعشًا من الغضب، ومصابًا في عمق كبريائه، كان لوبين يشعر بالإهانة بشكل لم يشعر به من قبل. في غضبه، كان سيفتك بالكونت السمين الذي كان ضحكه يثير غضبه. متحكمًا في نفسه، قال: «احتاج هولمز أربعة أيام، يا جلالة الملك. أمًا أنا، فقد احتجت بضع ساعات. وكنت سأحتاج أقل من ذلك، لو لم أُعرقل في بحثي».

- ممن؟ يا إلهي؟ من الكونت الوفي لي؟ آمل أنه لم يجرؤ.

- لا يا سيدي، لكن من أخطر وأقوى أعدائي، من هذا الكائن الجهنمي الذي قتل شريكه ألتنهايم.

صرخ الإمبراطور الذي لم يكن غريبًا عليه أي شيء من تفاصيل هذه القصة: «هل هو هنا؟ تعتقد ذلك؟».

- هو موجود في كل مكان أكون فيه، يهددني بكراهيته المستمرة. هو من اكتشفني تحت اسم السيد لينورمان مدير الأمن، هو من أوقع بي في السجن، هو الذي يلاحقني منذ اليوم الذي خرجت فيه منه. بالأمس، محاولًا إصابتي في السيارة، أصاب الكونت دي فالديمار.

- لكن من يضمن لك؟ من يقول لك إنه في فيلدينز؟

- إيسيلدا تلقت قطعتين ذهبيتين، قطعتين فرنسيتين!

- ولماذا يأتي؟ لأي هدف؟

- لا أعلم يا سيدي، لكنه روح الشر ذاتها. لتحذر منه جلالتك! يمكنه فعل أي شيء.

- مستحيل! لديَّ مئتا رجل في هذه الأطلال. لم يتمكن من الدخول، كانوا سيرونه.

- لا بد أن أحدًا قد رآه.

- من؟

- إيسيلدا.

- لنسألها! فالديمار، خذ سجينك إلى تلك الفتاة.

أشار لوبين إلى يديه المربوطتين: «ستكون المعركة صعبة، هل يمكنني القتال بهذه الطريقة؟». قال الإمبراطور للكونت: «فك وثاقه وأبقني على اطلاع».

وهكذا، من خلال جهد مفاجئ، بإدخال الرؤية المكروهة للقاتل في النقاش بجرأة ودون أي دليل، كان أرسين يكسب الوقت ويستعيد زمام البحث. قال لنفسه: «ما زالت أمامي ست عشرة ساعة، إنها أكثر مما أحتاج». وصل إلى المكان الذي كانت تعيش فيه إيسيلدا، في نهاية المباني القديمة، المباني التي كانت تستخدم كحامية لحراس الأطلال المائتين، والتي كانت جناحها الأيسر، هذا بالتحديد، مخصصٌ للضباط. لم تكن إيسيلدا هناك.

أرسل الكونت اثنين من رجاله. عادا. لم يرها أحد. ومع ذلك، لم تكن تستطيع مغادرة محيط الأطلال. أمَّا قصر النهضة، فقد كان محاصرًا بنصف القوات، ولم يكن أحد يستطيع الدخول إليه. أخيرًا، أعلنت زوجة أحد الضباط، التي كانت تسكن في المنزل المجاور، أنها لم تترك نافذتها، وأن الفتاة لم تخرج. صرخ فالديمار: «إذا لم تكن قد خرجت، لكانت هنا، لكنها ليست هنا». علق لوبين: «هل هناك طابق علوي؟».

- نعم، لكن من هذه الغرفة إلى الطابق العلوي، لا يوجد سلم.

- نعم، هناك سلم.

أشار إلى باب صغير مفتوح على مخزن مظلم، في الظل كانت تلوح الدرجات الأولى لسلم حاد.

قال لفالديمار الذي كان يريد الصعود: «من فضلك، يا عزيزي الكونت، دعني أتشرف بهذا».

- لماذا؟

- هناك خطر.

اندفع، وفورًا، قفز إلى سقيفة ضيقة ومنخفضة. صرخ: «آه!». قال الكونت وهو يقترب: «ما الأمر؟».

- هنا، على الأرض... إيسيلدا!

انحنى، لكن على الفور، عند الفحص الأولي أدرك أن الفتاة كانت فاقدة الوعي فقط، ولم تكن هناك أي علامة على الإصابة، باستثناء بعض الخدوش على معصميها ويديها. كان هناك منديل في فمها، كان يشكل كمامة. قال: «هذا صحيح، كان القاتل هنا معها. عندما وصلنا، ضربها بلكمة، وكممها حتى لا نتمكن من سماع أنينها».

- ولكن من أين هرب؟

- من هناك. انظر، هناك ممر يربط جميع الغرف في الطابق الأول.

- ومن هناك؟

- من هناك، نزل عَبْر الدرج لأحد المساكن.

- لكن لا بد أن أحدهم قد رآه!

- آها! هل يمكن لأحد أن يعرف؟ هذا الكائن غير مرئي. على أي حال، أرسِل رجالكم لجمع المعلومات. دعهم يفتشوا كل الغرف وكل المساكن في الطابق الأرضي! تردد. هل سيذهب أيضًا في مطاردة القاتل؟ لكن صوتًا أعاده إلى الفتاة، لقد كانت واقفة وعشرات القطع الذهبية تتدحرج من يديها. فحصها، كانت جميعها فرنسية. قال: «حسنًا، لم أكن مخطئًا. ولكن لماذا كل هذا الذهب؟ مقابل ماذا؟».

فجأة، رأى كتابًا على الأرض وانحنى لالتقاطه. لكن بحركة سريعة، اندفعت الفتاة، أمسكت الكتاب، وضغطته على صدرها بقوة وحشية، كما لو كانت مستعدة للدفاع عنه ضد أي محاولة. قال لوبين: «هذا هو، قُدمت القطع الذهبية مقابل هذا المجلد، لكنها ترفض التخلي عنه. هذا ما يفسر الخدوش على يديها، سيكون من المثير للاهتمام معرفة لماذا أراد القاتل الحصول على

هذا الكتاب. هل تمكن من قراءته من قبل؟». قال لفالديمار: «عزيزي الكونت، أعطِ الأمر، من فضلك!».

أشار فالديمار إلى رجاله. اندفع ثلاثة منهم نحو الفتاة، وبعد معركة شديدة حيث تململت الفتاة المسكينة وصرخت، انتزعوا منها المجلد. قال لوبين: «بهدوء طفلتي، بهدوء. هذا كله من أجل القضية النبيلة، دعوها تحت المراقبة! وفي هذه الأثناء، سأفحص موضوع النزاع».

كان المجلد في غلاف قديم يعود لأكثر من قرن، جزءًا منفصلًا من مؤلفات مونتسكيو Montesquieu، ويحمل عنوان: «رحلة إلى معبد غيد» «Voyage au Temple de Guide». لكن حالما فتح لوبين الكتاب قال: «عجيب، هذا غريب. على وجه كل صفحة، لُصِقت ورقة من المخطوطة، وعلى هذه الورقة، على هذه الأوراق، هناك سطور مكتوبة بشكل ضيق ودقيق». قرأ في البداية: (يوميات الفارس جيل دو ميريش) «Gilles de Mairèche»، خادم فرنسي لصاحب السمو الملكي أمير فيلدينز، بدأت في عام النعمة 1794».

قال الكونت: «كيف؟ هل هناك شيء كهذا؟».

- ما الذي يدهشك؟

- جد إيسيلدا، الرجل العجوز الذي مات قبل عامين، كان يُدعى مالريش «Malreich»، أي: الاسم نفسه لكن باللغة الألمانية.

- ممتاز! كان جد إيسيلدا على الأرجح ابنًا أو حفيدًا للخادم الفرنسي الذي كتب يومياته على جزء منفصل من مؤلفات مونتسكيو، وهكذا انتقلت هذه اليوميات إلى إيسيلدا.

تصفح عشوائيًّا:

«15 سبتمبر 1796– خرج صاحب السمو للصيد».

«20 سبتمبر 1796– خرج صاحب السمو على ظهر الحصان، كان يركب كيوبيدون».

قال لوبين: «آه، حتى الآن ليس هذا مشوقًا». واصل:

«12 مارس 1803– دفعت عشرة إيكو[1] إلى هيرمان. هو طاهٍ في لندن».

(1) إيكو هي عملة ذهبية سُكَّت في عهد لويس التاسع ملك فرنسا، في عام 1266. وقد تباينت قيمة الإيكو بشكل كبير مع مرور الوقت. (المترجم)

بدأ لوبين يضحك: «أوه! أوه! هيرمان فقد مكانته. الاحترام يتلاشى». أشار فالديمار: «الدوق الحاكم الحالي، طُرِد بالفعل من أراضيه من قبل القوات الفرنسية». واصل لوبين:

«1809 – اليوم، الثلاثاء، نابليون نام في فيلدينز. أنا من أعد سرير جلالته، وفي اليوم التالي، أنا من أفرغ مياه حمَّامه».

قال لوبين: «آه! نابليون توقف في فيلدينز؟».

- نعم، نعم. في أثناء انضمامه إلى جيشه في حملة النمسا، التي انتهت بمعركة فاغرام «Wagram». كانت العائلة الدوقية، لاحقًا، فخورة جدًّا بهذا الشرف.

واصل لوبين القراءة:

«28 أكتوبر 1814– عاد صاحب السمو الملكي إلى دولته».

«29 أكتوبر– هذه الليلة، قُدت صاحب السمو إلى المخزن، وسررت أن أريه أن لا أحد اكتشف وجوده. على أي حال، كيف يمكن لأحد أن يتصور أن هناك مخزنًا في...».

توقف فجأة، إيسيلدا هربت فجأة من الرجال الذين كانوا يحرسونها، وانطلقت نحوه، وهربت حاملة الكتاب.

صرخ لوبين: «آه! الفتاة الشقية! أسرعوا! من الأسفل. سألاحقها عَبْر الممر». لكنها أغلقت الباب خلفها وأحكمت إغلاقه. اضطر إلى النزول والدوران عَبْر المباني، كما فعل الآخرون، بحثًا عن درج يعيده إلى الطابق الأول.

كان المسكن الرابع فقط مفتوحًا، فتمكَّن من الصعود لكن الممر كان فارغًا، واضطر إلى طرق الأبواب، وكسر الأقفال، والدخول إلى غرف غير مأهولة، بينما كان فالديمار المتحمس للمطاردة مثله، يخترق الستائر والأغطية بطرف سيفه. سُمِعت نداءات قادمة من الطابق الأرضي، نحو الجناح الأيمن. اندفعوا. كانت إحدى زوجات الضباط تشير إليهم إلى نهاية الممر، وأخبرتهم أن الفتاة كانت في غرفتها. سأل لوبين: «كيف عرفتِ؟».

- حاولت دخول غرفتي. كان الباب مغلقًا، وسمعت ضوضاء.

لم يتمكن لوبين من فتح الباب. صرخ: «النافذة! يجب أن تكون هناك نافذة». أرشدوه إلى الخارج، وعلى الفور، أخذ سيف الكونت، وكسر الزجاج بضربة واحدة. ثم بمساعدة رجلين، تسلق الجدار، مدَّ يده، فُتِح القفل، وسقط

في الغرفة. كانت إيسيلدا جاثمة أمام المدفأة، تظهر وسط اللهب. صرخ لوبين: «أوه! الفتاة الشريرة! ألقت به في النار!». دفعها بعنف، وحاول انتزاع الكتاب، وأحرق يديه. ثم باستخدام الملقط سحب الكتاب من الموقد، وغمره بسجادة الطاولة لإطفاء اللهب، لكن كان الأوان قد فات. صفحات المخطوط القديم كلها محترقة، وسقطت في الرماد.

الفصل الثاني

نظر لوبين إليها فترةً طويلة. قال الكونت: «يبدو أنها تعلم ما تفعل».

- لا، لا، هي لا تعلم ذلك. يجب أن يكون جدها قد أسند إليها هذا الكتاب ككنز، كنز لا ينبغي أن يراه أحد، وبغبائها الفطري، فضَّلت أن تلقيه في النيران بدلًا من التخلي عنه.

- وبعد؟

- وبعد ماذا؟

- ألا تستطيع العثور على المكان؟

- آه، آه يا عزيزي الكونت، فقد تخيلت لحظة أن نجاحي كان ممكنًا؟ ولم يعد لوبين يبدو لك كمحتال تمامًا! كن مطمئنًا فالديمار، لوبين لديه عدة أساليب في جعبته. سأنجح.

- قبل الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة؟

- قبل الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة. ولكن أنا أموت جوعًا. وربما كان ذلك نتيجة كرمك...

أدخِل إلى صالة لضباط الصفوف السفلى، وقُدمت له وجبة دسمة، في حين ذهب الكونت لتقديم تقريره إلى الإمبراطور. بعد عشرين دقيقة، عاد فالديمار. وجلسا أمام بعضهما بعضًا، ساكتَين ومفكرين.

- فالديمار، سيجارة جيدة ستكون موضع ترحيب. شكرًا لك. هذا السيجار يشعل كما ينبغي للأشجار التي تحترم نفسها.

أشعل سيجاره، وبعد دقيقة أو اثنتين قال: «يمكنك أن تدخن يا كونت، لن يزعجني ذلك». مرت ساعة، وكان فالديمار يغفو، ومن حين لآخر يستيقظ ويشرب كأسًا من الشمبانيا الفاخرة. الجنود يتحركون ذهابًا وإيابًا، ويخدمون. طلب لوبين: «قهوة». أحضروا له قهوة. تذمر لوبين: «إنها سيئة للغاية. إذا كان هذا هو الذي يشربه القيصر... كوب آخر يا فالديمار. قد تكون الليلة طويلة. أيتها القهوة القذرة!». أشعل سيجارًا آخر، ولم يتكلم بعد ذلك. مرَّت الدقائق. لم يتحرك ولم يتكلم. فجأة، نهض فالديمار على قدميه، وقال للوبين بغضب: «هيا، انهض!».

في هذه اللحظة، كان لوبين يَصْفِر. واستمر صفيره بسلام.

- انهض، قلت لك انهض.

استدار لوبين. دخل جلالة الإمبراطور. قال الإمبراطور: «إلى ماذا وصلنا الآن؟».

- أعتقد يا سيدي أنه سيكون من الممكن أن أرضي جلالتك قريبًا.

- ماذا؟ أنت تعرف...

- المكان؟ تقريبًا يا سيدي. بعض التفاصيل لا تزال تفلت مني، ولكن على الأرض كل شيء سيوضح، لا شك لديَّ في ذلك.

- هل يجب أن نبقى هنا؟

- لا يا سيدي، سأطلب منكم مرافقتي إلى قصر النهضة. لكن لدينا الوقت، وإذا سمحت جلالتك، أود أن أفكر في نقطتين أو ثلاثٍ الآن. ودون أن ينتظر الإجابة، جلس لوبين مما أثار غضب فالديمار. بعد لحظة عاد الإمبراطور الذي ابتعد وتشاور مع الكونت.

- هل السيد لوبين جاهز هذه المرة؟

ظل لوبين صامتًا. وعند سؤاله مرة أخرى، انحنى برأسه غاضبًا، هزه فالديمار بشدة من كتفه. سقط لوبين من كرسيه، وانهار على الأرض، واهتز مرتين أو ثلاثًا، ولم يتحرك بعدها.

- ولكنه نائم، في الحقيقة، يُخيَّل للمرء أنه نائم.

صرخ الإمبراطور بغضب: «ما الذي أصابه؟ هو ليس بميت، أتمنى ذلك!». أخذ الإمبراطور مصباحًا وانحنى: «ما أشد شحوبه! وجهه كالشمعة! انظر يا

فالديمار، افحص قلبه. إنه حي، أليس كذلك؟». قال الكونت بعد لحظة: «بلى سيدي، القلب ينبض بانتظام».

- إذًا ما الأمر؟ لم أعد أفهم، ماذا حدث؟

- هل أَذهب لأُحضر الطبيب؟

- اذهب، أسرع.

وجد الطبيب لوبين في الحالة نفسها، خاملًا وهادئًا. جعله يستلقي على سرير، فحصه لفترة طويلة واستفسر عما أكله المريض.

- هل تخشى تسممًا يا دكتور؟

- لا سيدي، لا توجد آثار للتسمم. لكنني أعتقد، ما هذا الطبق وهذه الكأس؟

قال الكونت: «قهوة».

- لك؟

- لا، له. أنا لم أشرب منها.

صبَّ الطبيب لنفسه قهوة، تذوقها واستنتج: «لم أكن مخطئًا؛ المريض نُوِّم باستخدام مخدر». صرخ الإمبراطور بغضب: «ولكن من؟ لنفهم يا فالديمار، كل ما يحدث هنا لا يُحتمل!».

- سيدي!

- نعم، لقد سئمت! بدأت أصدق فعلًا أن هذا الرجل مُحق، وأن هناك شخصًا في القصر. هذه القطع الذهبية، هذا المخدر...

- لو كان هناك من دخل هذه المنطقة، لكنَّا علمنا. سيدي، لقد مضت ثلاث ساعات ونحن نبحث في كل مكان.

- مع ذلك، أنا لم أعد القهوة، أؤكد لك. إلا إذا كنت أنت...

- أوه! سيدي!

- حسنًا! ابحث! فتش! لديك مائتي رجل تحت تصرفك، والمباني العامة ليست كبيرة بهذا القدر! لأنه في النهاية، اللص يجول حولنا هنا، حول هذه المباني، من جهة المطبخ. من يعرف؟ اذهب! تحرك!

لليلة كاملة، تحرك فالديمار السمين بجدية، لأنه كان أمرًا ساخرًا، ولكن بلا إقناع، لأنه كان من المستحيل أن يختبئ شخص غريب بين الأنقاض التي

كانت تُراقَب بشكل جيد. وفي الواقع، أظهرت الأحداث أنه كان على حق؛ كانت التحقيقات بلا جدوى، ولم يتمكن من اكتشاف اليد الغامضة التي أعدت المشروب المنوم. أمضى لوبين هذه الليلة على فراشه، لم يتحرك. في الصباح، أجاب الطبيب الذي لم يفارقه، على مبعوث من الإمبراطور، أن المريض ما زال نائمًا. لكن في الساعة التاسعة، بذل لوبين محاولة أولى للاستيقاظ.

وبعد ذلك، تَمتَم: «كم الساعة؟».

- التاسعة وخمس وثلاثون دقيقة.

بذل مجهودًا جديدًا، وبدا أن كل كيانه كان يتوتر من حالة الخمول، كأنه ينادي بالعودة إلى الحياة.

سُمعت ساعة تقرع عشر ضربات. انتابته ارتعاشة وقال: «احملوني! احملوني إلى القصر!». بموافقة الطبيب، دعا فالديمار رجاله وأبلغ الإمبراطور. وضعوه على نقالة، وانطلقوا نحو القصر. همس لوبين: «في الطابق الأول». رُفِع على الدرج. قال: «عند نهاية الممر، آخر غرفة على اليسار». أحضروه إلى الغرفة الأخيرة، التي كانت الثانية عشرة، وأعطوه كرسيًا جلس عليه منهكًا.

وصل الإمبراطور، لم يتحرك لوبين، وجهه دون تعبير، نظرته فارغة. ثم بعد بضع دقائق، بدا وكأنه استيقظ، نظر إلى الجدران حوله والسقف والناس وقال: «مُخَدِّر، أليس كذلك؟». أكد الطبيب: «نعم».

- هل وجدوا الرجل؟

- لا.

بدا وكأنه يتأمل، عدة مرات راقبوا رأسه بتأمل، لكن سرعان ما اكتشفوا أنه كان ينام. اقترب الإمبراطور من فالديمار، وقال: «أعطِ الأوامر لتحرك سيارتك».

- آه؟ ولكن بعد كل ذلك سيدي؟

- ماذا! بدأت أعتقد أنه يستهزئ بنا، وأن كل هذا ليس إلا مسرحية لكسب الوقت.

- ربما... في الواقع!

- بالطبع! إنه يستغل بعض المصادفات الغريبة، لكنه لا يعرف شيئًا، وقصته عن القطع الذهبية والمخدر، كلها اختراعات! إذا كنا نتفق أكثر مع هذه اللعبة الصغيرة، سيفلت من بين أيدينا. سيارتك يا فالديمار.

أعطى الكونت الأوامر وعاد. لم يستيقظ لوبين. قال الإمبراطور -الذي كان يفتش عن القاعة- لفالديمار: «هذه قاعة مينيرفا «Minerve»، هنا، أليس كذلك؟».

- بلى سيدي.

- لكن في هذه الحالة، لماذا نجد حرف «الـ N»؟

كان هناك حقًا حرف «الـ N»، واحد فوق المدفأة، والآخر فوق ساعة قديمة مدمرة معلقة على الحائط، حيث يمكن رؤية آليتها المعقدة، والأوزان الخاملة في نهاية حبال الساعة. قال فالديمار: «هذان الحرفان...». لم يستمع الإمبراطور إلى الإجابة. كان لوبين قد تحرك مرة أخرى، فتح عينيه، ونطق بمقاطع غير واضحة. سار عَبْر الغرفة، وسقط مرة أخرى متعبًا.

كان ذلك بمنزلة صراع، صراع عنيد بين دماغه وأعصابه وبين إرادته، ضد ذلك الخمول الرهيب الذي شله، صراع المحتضر ضد الموت، صراع الحياة ضد العدم. وكان مشهدًا مؤلمًا للغاية. همس فالديمار: «إنه يتألم». صرح الإمبراطور: «أو على الأقل يمثل المعاناة، ويمثلها ببراعة. يا له من ممثل!».

تَمتَم لوبين: «حقنة، دكتور، حقنة كافيين، على الفور!». سأل الطبيب: «هل تسمح يا سيدي؟».

- بالطبع، حتى الظهر كل ما يريده يجب أن نفعله. أنا عند وعدي.

تابع لوبين: «كم تبقى من الدقائق حتى الظهر؟». قيل له: «أربعون».

- أربعون؟ سأصل، من المؤكد أنني سأصل، يجب أن أفعل.

أمسك رأسه بكلتا يديه: «آه! لو كان لديَّ عقلي الحقيقي، عقلي الجيد الذي يفكر! لكانت المسألة، ثانية واحدة! لم تبق سوى نقطة ظلام واحدة. لكنني لا أستطيع، أفكاري تهرب مني، لا أستطيع الإمساك بها. إنه فظيع». ارتجفت كتفاه. هل كان يبكي؟ سُمع وهو يكرر: «813، 813...». وبصوت أخفض: «813، 8/ 1/ 3. نعم، بالطبع. لكن لماذا؟ هذا لا يكفي».

همس الإمبراطور: «إنه يؤثر فيَّ. أجد صعوبة في تصديق أن رجلًا يمكنه تمثيل دور بهذه الطريقة».

الساعة الحادية عشرة والنصف، الساعة الثانية عشرة إلا ربع. ظل لوبين ثابتًا، قبضتاه ملتصقتان بصدغيه. انتظر الإمبراطور، عيناه مثبتتان على ساعة التوقيت التي يحملها فالديمار: «تبقت عشر دقائق أخرى، خمس دقائق أخرى».

- فالديمار، هل السيارة جاهزة؟ هل رجالك مستعدون؟

- نعم يا سيدي.

- هل ساعة التوقيت الخاصة بك مزودة بجرس؟

- نعم يا سيدي.

- إذًا عند الدقة الأخيرة للساعة الثانية عشرة...

- ولكن...

- عند الدقة الأخيرة للساعة الثانية عشرة يا فالديمار.

حقًّا كان المشهد شيئًا مأسويًّا، نوعًا من العظمة والرسمية التي تكتسبها الساعات مع اقتراب معجزة محتملة. يبدو أنه صوت القدر نفسه الذي سيعبر عن نفسه. لم يُخف الإمبراطور قلقه. هذا المغامر الغريب الذي يُدعى أرسين لوبين، والذي كان يعرف حياته المذهلة، كان يزعجه هذا الرجل. وعلى الرغم من تصميمه على إنهاء كل هذه القصة الغامضة، فإنه لم يستطع منع نفسه من الانتظار، والأمل. دقيقتان أخريان، دقيقة أخرى. ثم بدأ العد بالثواني. بدا لوبين نائمًا.

قال الإمبراطور للكونت: «هيا استعد». تقدم الأخير نحو لوبين ووضع يده على كتفه. رن الصوت الفضي لساعة التوقيت؛ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

- فالديمار، اسحب أثقال الساعة القديمة.

كان لوبين هو من تحدث بهذه الجملة، بهدوء شديد.

لحظة من الذهول. رفع فالديمار كتفيه، مستاءً من المخاطبة غير الرسمية. قال الإمبراطور: «أطع يا فالديمار».

أصر لوبين الذي استعاد سخريته: «نعم، أطِع كونتي العزيز، إنها في نطاق قدراتك، وما عليك سوى سحب حبال الساعة بالتناوب؛ واحد، اثنان... رائع، هكذا كانوا يعيدون تشغيلها في الزمن القديم».

في الواقع، اشتغل البندول وسُمع دقاته المنتظمة. قال لوبين: «العقارب الآن. ضعها قليلًا قبل الظهر. لا تتحرك، دعني أفعل». نهض وتقدم نحو القُرص، على بعد خطوة واحدة على الأكثر، عيناه ثابتتان، كل كيانه منتبه. دقت الساعة اثنتي عشرة دقة، دقات ثقيلة وعميقة. صمت طويل. لم يحدث شيء.

ومع ذلك كان الإمبراطور ينتظر، كما لو كان متأكدًا أن شيئًا ما سيحدث. ولم يتحرك فالديمار، وعيناه متسعتان. لوبين الذي كان منحنيًا على القرص، انتصب وتَمتَم: «هذا مثالي، لقد وصلت».

عاد إلى كرسيه وأمر: «فالديمار أعد العقارب إلى الثانية عشرة إلا دقيقتين. آه! لا يا صديقي العجوز، ليس في الاتجاه المعاكس، في اتجاه الحركة. نعم، سيستغرق ذلك بعض الوقت، لكن ماذا؟». دقت كل الساعات وكل الأنصاف حتى منتصف الساعة الحادية عشرة. قال لوبين وكان يتحدث بجدية، دون سخرية، كما لو كان هو نفسه متأثرًا وقلقًا: «اسمع فالديمار، هل ترى على القرص نقطة صغيرة مستديرة تشير إلى الساعة **الواحدة**؟ هذه النقطة تهتز، أليس كذلك؟ ضع عليها إصبع السبابة ليدك اليسرى واضغط. جيد. افعل الشيء نفسه بإبهامك على النقطة التي تشير إلى الساعة **الثالثة**. جيد. بيدك اليمنى، ادفع النقطة التي تشير إلى الساعة **الثامنة**. جيد. أشكرك، اذهب واجلس عزيزي».

مضت لحظة، ثم تحرك العقرب الكبير، لامس النقطة الثانية عشرة، ودقت الساعة الثانية عشرة مرة أخرى. صمت لوبين، الذي شحب وجهه للغاية. في الصمت، رنت كل دقة من الدقات الاثنتي عشرة. عند الدقة الثانية عشرة، كان هناك صوت فك. توقفت الساعة فجأة. توقف البندول. وفجأة، سقط الزخرف البرونزي الذي كان يعلو القرص والذي كان يمثل رأس كبش، كاشفًا عن نوع من التجويف الصغير المنحوت في الحجر نفسه. في هذا التجويف، كان هناك صندوق فضي مزين بنقوش.

قال الإمبراطور: «آه! كنت على حق». قال لوبين: «هل كنت تشك في ذلك يا سيدي؟». أخذ الصندوق وقدَّمه له: «ليتفضل جلالتكم بفتحه بنفسه. الرسائل التي كلفتني بالبحث عنها موجودة هنا». رفع الإمبراطور الغطاء، وبدا مدهوشًا للغاية. كان الصندوق فارغًا.

الفصل الثالث

كان الصندوق فارغًا! كانت لحظة مسرحية مذهلة وغير متوقعة. بعد نجاح الحسابات التي أجراها لوبين، وبعد الاكتشاف الماهر لسر الساعة، بدا الإمبراطور، الذي لم يعد يشك في النجاح النهائي، مرتبكًا.

أمامه، كان لوبين شاحبًا، وفكُّه متشنجًا، وعيناه مُحمرتين، يصر على أسنانه من الغضب والحنق. مسح جبينه المغطى بالعرق، ثم أمسك بسرعة الصندوق، وقلَّبه، وفحصه، كما لو كان يأمل في العثور على قاع مزدوج. أخيرًا، وفي نوبة من الغضب، سحقه بقبضة لا تقاوم. أراحه ذلك. تنفس براحة أكبر.

قال له الإمبراطور: «مَن فعل هذا؟».

- دائمًا الشخص نفسه سيدي، ذلك الذي يتبع الطريق نفسه الذي سَلَكه ويسير نحو الهدف نفسه، قاتل السيد كيسيلباخ.

- متى؟

- الليلة الماضية. آه! سيدي، لو تركتني حرًّا عند خروجي من السجن! حرًّا، كنت سأصل هنا دون أن أضيع ساعة واحدة. كنت سأصل قبله! قبله كنت سأعطي الذهب لإيسيلدا! قبله كنت سأقرأ يوميات مالريش، الخادم الفرنسي العجوز!

- هل تعتقد إذًا أن ذلك بسبب إفشاء هذه اليوميات؟

- بالطبع يا سيدي، لقد كان لديه الوقت لقراءتها. وفي الخفاء لا أعرف من أين اطَّلع على كل تحركاتنا، لا أعرف كيف! جعلني أنام من أجل التخلص مني هذه الليلة.

- لكن القصر كان محروسًا.

- محروسًا من قبل جنودك، سيدي. هل هذا يهم لكائن مثله؟ لا أشك على أي حال أن فالديمار ركّز بحثه على الملحقات، مما جعل أبواب القصر غير محمية.

- لكن صوت الساعة؟ تلك الدقات الاثنتا عشرة في الليل؟

- لعبة يا سيدي! لعبة منع الساعة من الدق!

- كل هذا يبدو لي غير معقول جدًّا.

- كل هذا يبدو لي واضحًا جدًّا يا سيدي. لو كان من الممكن تفتيش جيوب كل رجالك الآن، أو معرفة كل النفقات التي سيقومون بها خلال العام القادم، سنجد اثنين أو ثلاثة منهم يمتلكون حاليًّا بعض الأوراق النقدية، أوراق نقدية فرنسية بالطبع.

احتج فالديمار: «أوه!».

- نعم كونتي العزيز، إنها مسألة سعر، وهذا الرجل لا يبالي بالثمن. لو أراد، أنا متأكد أنك نفسك...

لم يكن الإمبراطور يستمع، مستغرقًا في تفكيره سار ذهابًا وإيابًا في الغرفة، ثم أشار إلى أحد الضباط الواقفين في الرواق.

- سيارتي، وليستعدوا سننطلق!

توقف، راقب لوبين للحظة، واقترب من الكونت: «أنت أيضًا، فالديمار، انطلق مباشرة إلى باريس دون توقف!». أرهف لوبين سمعه. سمع فالديمار يجيب: «أفضل اثني عشر حارسًا إضافيًّا مع هذا الرجل الشيطان!».

- خذهم وأسرع، يجب أن تصل هذه الليلة.

هزَّ لوبين كتفيه وتَمتَم: «عبث!». التفت الإمبراطور نحوه وتابع لوبين: «نعم يا سيدي، لأن فالديمار غير قادر على حراستي. هروبي مؤكد، وحينها...». ضرب الأرض بقدمه بعنف: «وحينها هل تعتقد يا سيدي أنني سأضيع وقتي مرة أخرى؟ إذا كنت تتخلى عن المعركة، فأنا لا أتخلى عنها. لقد بدأتها وسأنهيها».

اعترض الإمبراطور: «أنا لا أتخلى، لكن شرطتي ستبدأ الحملة». انفجر لوبين ضاحكًا: «ليسمح لي جلالتكم! إنه أمر مضحك جدًّا! شرطة جلالتكم!

إنها تساوي ما تساويه كل شرطة في العالم، أي لا شيء، لا شيء على الإطلاق! لا يا سيدي، لن أعود إلى سجن سانتيه. السجن أنا لا أبالي به. لكنني بحاجة إلى حريتي ضد هذا الرجل سأحتفظ بها».

نفد صبر الإمبراطور: «هذا الرجل أنت لا تعرف حتى من هو».

- سأعرف سيدي. وأنا وحدي من يمكنه معرفة ذلك. وهو يعرف أنني الوحيد الذي يمكنه معرفة ذلك. أنا عدوه الوحيد، أنا الوحيد الذي يُهاجمه. أنا من كان يريد إصابته في يوم الرحلة، برصاصة مسدسه. أنا من كان يكفيه أن يخدرني هذه الليلة، ليكون حرًا في التصرف كما يشاء. المبارزة بيننا، العالم ليست له علاقة بذلك. لا أحد يستطيع مساعدتي، ولا أحد يستطيع مساعدته. نحن اثنان، وهذا كل شيء. حتى الآن كان الحظ في صالحه. لكن في النهاية، من الحتمي، من المقدر أن أنتصر.

- لماذا؟

- لأنني الأقوى.

- وإذا قتلك؟

- لن يقتلني. سأنتزع مخالبه، سأجعله عاجزًا، وسأحصل على الرسائل. لا توجد قوة بشرية يمكنها منعي من استعادتها.

كان يتحدث بقناعة عنيفة ونبرة يقين جعلت الأشياء التي كان يتنبأ بها تبدو وكأنها أشياء حدثت بالفعل. لم يستطع الإمبراطور أن يمنع نفسه من الخضوع لشعور غامض، غير قابل للتفسير، حيث كان هناك نوع من الإعجاب والكثير من الثقة التي كان لوبين يطالب بها بطريقة سلطوية للغاية. في الأساس كان يتردد فقط بسبب التردد في استخدام هذا الرجل وجعله حليفه إن صح التعبير. وبقلق بلا تأكد من أي قرار يتخذ، كان يمشي من الرواق إلى النوافذ دون نطق كلمة واحدة. في النهاية قال: «ومن يؤكد لنا أن الرسائل قد سُرقت هذه الليلة؟».

- السرقة مؤرخة يا سيدي.

- ماذا تقول؟

- افحص الجزء الداخلي من الواجهة، التي كانت تخفي المخبأ. التاريخ مكتوب عليها بالطباشير الأبيض: منتصف الليل، 24 أغسطس.

تَمتَم الإمبراطور مذهولًا: «بالفعل، بالفعل. كيف لم أره؟».

وأضاف مظهرًا فضوله: «إنه مثل الحرفين N المرسومين على الجدار. لا أفهم. هذه هي قاعة مينيرفا Minerve». أعلن لوبين: «هذه هي القاعة التي نام فيها نابليون، إمبراطور الفرنسيين».

- كيف عرفت ذلك؟

- اسأل فالديمار يا سيدي. بالنسبة إليَّ عندما قرأت يوميات الخادم العجوز كان ذلك بمنزلة وميض. فهمت أن هولمز وأنا كنا على الطريق الخاطئ. Apoon، الكلمة غير المكتملة التي كتبها الدوق الأكبر هيرمان على فراش الموت، ليست اختصارًا لكلمة أبولون Apollon، بل لكلمة نابليون Napoléon.

قال الإمبراطور: «هذا صحيح. أنت على حق، الحروف نفسها موجودة في الكلمتين، وبالترتيب نفسه. من الواضح أن الدوق الأكبر أراد كتابة نابليون».

- لكن هذا الرقم 813؟

- آه! هذه هي النقطة التي أعطتني أكبر قدر من الصعوبة في توضيحها. كانت لديَّ دائمًا فكرة أنه يجب جمع الأرقام الثلاثة 8 و1 و3، والعدد 12 الناتج بدا لي على الفور ينطبق على هذه القاعة التي هي الثانية عشرة في الرواق. لكن هذا لم يكن كافيًا. كان يجب أن يكون هناك شيء آخر، شيء آخر لم يستطع عقلي المتعب صياغته. رؤية الساعة، هذه الساعة الموجودة بالضبط في قاعة نابليون، كانت بمنزلة وحي لي. العدد 12 كان يعني بوضوح الساعة الثانية عشرة. الظهر! منتصف الليل! أليست لحظة أكثر رسمية وتُختَار كتوقيتٍ مفضل؟ لكن لماذا هذه الأرقام الثلاثة 8 و1 و3، بدلًا من أرقام أخرى كانت ستعطي المجموع نفسه؟

فكرت في جعل الساعة تدق للمرة الأولى، كاختبار. وعندما جعلتها تدق، رأيت أن نقاط الساعة الأولى والثالثة والثامنة كانت متحركة. حصلت إذًا على ثلاثة أرقام، 1 و3 و8، والتي عند وضعها في ترتيب قدري، أعطت العدد 813. دفع فالديمار النقاط الثلاث، حدث الإطلاق. جلالتكم يعرف النتيجة.

هذا هو يا سيدي، تفسير هذه الكلمة الغامضة، وهذه الأرقام الثلاثة 813 التي كتبها الدوق الأكبر بيده المحتضرة، والتي بفضلها كان يأمل أن يجد ابنه يومًا ما سر فيلدينز، ويصبح مالكًا للرسائل الشهيرة التي خبأها هناك.

استمع الإمبراطور باهتمام شديد، مدهوشًا أكثر فأكثر من كل ما لاحظه في هذا الرجل من براعة وبصيرة ودقة وإرادة ذكية. قال: «فالديمار!».

- أمرك سيدي.

لكن في اللحظة التي كان على وشك التحدث فيها، ارتفعت صيحات في الرواق. خرج فالديمار ثم عاد.

- إنها المجنونة يا سيدي، التي يحاولون منعها من المرور.

صاح لوبين بحدة: «دعها تأتِ، يجب أن تأتي سيدي». بإيماءة من الإمبراطور، ذهب فالديمار لإحضار إيسيلدا. عند دخول الفتاة الشابة، كان هناك ذهول. كان وجهها الشاحب مغطى ببقع سوداء، ملامحها المتشنجة أظهرت معاناة كبيرة. كانت تلهث، ويداها متشنجتان على صدرها. قال لوبين برعب: «أوه!». سأل الإمبراطور: «ما الأمر؟».

- الطبيب يا سيدي! لا تضيعوا دقيقة واحدة!

وتقدم لوبين: «تكلمي إيسيلدا، هل رأيتِ شيئًا؟ هل لديك شيء لتقوليه؟». توقفت الفتاة الشابة، عيناها أقل تشتتًا، كما لو كانت مضاءة بالألم. نطقت أصواتًا، لكن لا كلمات. قال لوبين: «اسمعي، أجيبي بنعم أو لا. بحركة رأس. هل رأيته؟ هل تعرفين أين هو؟ هل تعرفين من هو؟ اسمعي، إذا لم تجيبي...».

كبح إيماءة غضب. لكن فجأة، متذكرًا تجربة الأمس وأنها بدت وكأنها احتفظت ببعض الذاكرة البصرية من الوقت الذي كانت فيه في كامل عقلها، كتب على الجدار الأبيض حرفي L وM كبيرين. مدت ذراعيها نحو الحروف، وهزَّت رأسها كما لو كانت توافق. قال لوبين: «وبعد ذلك؟ بعد ذلك؟! اكتبي».

لكنها أطلقت صرخة، وألقت بنفسها على الأرض مع صراخ. ثم فجأة، صمت، سكون. انتفاضة أخرى. ثم لم تتحرك بعد ذلك.

قال الإمبراطور: «ماتت؟».

- مسمومة يا سيدي.

- آه! المسكينة. ومن فعل ذلك؟

- هو يا سيدي، ربما كانت تعرفه. لقد خاف من كشفها لهويته.

وصل الطبيب. أشار الإمبراطور إلى إيسيلدا. ثم مخاطبًا فالديمار: «كل رجالك في الحملة! فتشوا المنزل! أرسل تليغرافًا إلى محطات الحدود». اقترب من لوبين: «كم من الوقت تحتاج لاستعادة الرسائل؟».

- شهر سيدي.

- حسنًا، سينتظرك فالديمار هنا. سيكون لديه أوامري، وصلاحيات كاملة لمنحك ما تريد.

- ما أريده سيدي هو الحرية.

- أنت حر.

نظر لوبين إليه وهو يبتعد، وقال من بين أسنانه: «الحرية أولًا، ثم عندما أُعيد إليك رسائلك يا جلالة الإمبراطور، مصافحة صغيرة، نعم بالتأكيد، مصافحة بين إمبراطورٍ ولص، لأثبت لك أنك مخطئٌ في احتقارك لي. لأن الأمر بصراحة غير معقول! ها هو السيد الذي أترك من أجله شقتي في سانتيه، والذي أقدِّم له خدمة، ويتعامل معي بتعالٍ».

الجزء الثالث عشر

اللصوص السبعة

الفصل الأول

- هل يمكن للسيدة أن تستقبل صاحب هذه البطاقة؟

أخذت السيدة كيسيلباخ البطاقة التي قدمها لها الخادم، وقرأت: أندريه بوني. قالت: «لا، أنا لا أعرفه».

- هذا السيد يصر كثيرًا سيدتي. يقول إن السيدة تنتظر زيارته.

- آه! ربما... في الواقع، اصطحبه إلى هنا.

منذ الأحداث التي قلبت حياتها وآذتها بإصرار لا هوادة فيه، انتقلت السيدة دولوريس، بعد إقامتها في فندق بريستول، إلى منزل هادئ في شارع «دي فين»، في عمق حي «باسي».

تمتد حديقة جميلة خلف منزلها، محاطة بحدائق كثيفة أخرى. عندما لم تكن تجبرها الأزمات الأليمة على البقاء في غرفتها لأيام كاملة، والنوافذ مغلقة غير مرئية للجميع، كانت تُحمَل تحت الأشجار وتبقى هناك مستلقية، حزينة، غير قادرة على مقاومة المصير الأليم.

صوت الرمل في الممر تكرر مرة أخرى، وظهر شاب برفقة الخادم، أنيق المظهر، مرتديًا بشكل بسيط جدًّا، -بطريقة قديمة نوعًا ما لبعض الرسامين- ياقة منخفضة، ورابطة عنق منقطة بيضاء، على خلفية زرقاء داكنة.

انصرف الخادم. قالت دولوريس: «أندريه بوني، أليس كذلك؟».

- بلى سيدتي.

- لم أتشرف بمعرفتك من قبل...

- بلى سيدتي. عندما علمت أنني أحد أصدقاء السيدة إرنمون، جدة جنفييف، كتبت إليَّ هذه السيدة في جارش أنك ترغبين في إجراء محادثة معي. هأنذا.

نهضت دولوريس، متأثرة للغاية: «آه! أنت...».

- نعم.

تَمتَمت: «حقًّا؟ هذا أنت؟ لا أتعرف عليك».

- ألا تتعرفين على الأمير بول سيرنين؟

- لا. لا شيء متشابه. لا الجبهة، ولا العينان. لا، لم يكن هكذا.

قال مبتسمًا: «كما صورت الصحف سجين سانتيه. ومع ذلك، إنه أنا بالفعل». تبع ذلك صمت طويل، ظلا مرتبكَين وغير مرتاحَين. أخيرًا نطق: «هل يمكنني معرفة السبب؟».

- ألم تخبرك جنفييف؟

- لم أرها، لكن جدتها ظنَّت أنكِ بحاجة إلى خدماتي.

- هذا صحيح، هذا صحيح.

- وفي أي شيء؟ أنا سعيد جدًّا.

ترددت للحظة، ثم همست: «أنا خائفة». صاح: «خائفة!». قالت بصوت منخفض: «نعم، أنا خائفة، خائفة من كل شيء، خائفة مما هو كائن وما سيكون غدًا، بعد غد... خائفة من الحياة. لقد عانيت كثيرًا. لم أعد أتحمل».

كان ينظر إليها بشفقة كبيرة. إن الشعور الغامض الذي دفعه دائمًا نحو هذه المرأة اتخذ طابعًا أكثر تحديدًا اليوم، حيث طلبت منه الحماية. كانت لديه رغبة خارقة في التفاني من أجلها، بشكل كامل، دون أمل في أي شيء.

واصلت: «أنا وحيدة الآن، وحيدة تمامًا، مع خدم اخترتهم عشوائيًّا، وأنا خائفة. أشعر أن هناك حركة من حولي».

- لكن لأي غرض؟

- لا أعلم. لكن العدو يحوم ويقترب.

- هل رأيته؟ هل لاحظتِ أي شيء؟

- نعم، في الشارع. في هذه الأيام، مَرَّ رجلان عدة مرات، وتوقفا أمام المنزل.

- أوصافهما؟
- هناك واحد رأيته بشكل أفضل. إنه طويل، قوي، حليق تمامًا، ويرتدي سترة قصيرة جدًا من القماش الأسود.
- نادل مقهى؟
- نعم، رئيس النُّدل. جعلت أحد خدمي يتبعه، سلك شارع لا بومب ودخل منزلًا ذا مظهر قبيح يحتل الطابق الأرضي منه بائع خمور، أول منزل على اليسار في الشارع. وأخيرًا في الليلة الأخرى...
- الليلة الأخرى؟
- رأيت من نافذة غرفتي ظلًّا في الحديقة.
- هذا كل شيء؟
- نعم.

فكر واقترح عليها: «هل تسمحين لي بأن أترك اثنين من رجالي في الأسفل، في إحدى غرف الطابق الأرضي؟».

- اثنان من رجالك؟
- أوه! لا تخافي شيئًا. إنهما رجلان طيبان، الأب شارولي وابنه. لا يبدو عليهما مطلقًا ما هما عليه في الحقيقة. معهما، ستكونين مطمئنة. أمَّا أنا...

تردد. كان ينتظر أن تطلب منه العودة. وبما أنها ظلت صامتة، قال: «أمَّا أنا، فمن الأفضل ألا يُرى وجودي هنا. نعم، هذا أفضل من أجلك». كان يود أن يقول المزيد وأن يبقى، وأن يجلس بجانبها، وأن يواسيها، لكنه شعر أن كل ما كان عليهما قوله قد قيل، وأن أي كلمة إضافية منه ستكون إهانة. لذا انحنى بعمق وانصرف.

عَبَر الحديقة، كان يمشي بسرعة، متلهفًا للخروج والسيطرة على مشاعره. كان الخادم ينتظره عند عتبة الردهة. في اللحظة التي عَبَر فيها باب المدخل إلى الشارع، رنَّ أحدهم الجرس، امرأة شابة. ارتعش: «جنفييف!».

حدَّقت إليه بعينين مدهوشتين، وعلى الفور، رغم أنها ارتبكت من الشباب الشديد في نظرته، تعرفت عليه، وسبب لها ذلك اضطرابًا شديدًا جعلها تترنح، وتضطر إلى الاستناد إلى الباب. كان قد خلع قبعته، وكان يتأملها

دون أن يجرؤ على مدِّ يده إليها. هل ستمد يدها؟ لم يعد الأمير سيرنين، بل كان أرسين لوبين. وكانت تعلم أنه أرسين لوبين، وأنه خرج للتو من السجن.

في الخارج، كانت تمطر. أعطت مظلتها للخادم وهي تُتَمتَم: «من فضلك، افتحها وضعها جانبًا». ومرَّت مباشرة.

قال لوبين لنفسه وهو يغادر: «يا صديقي المسكين، هذه صدمات كثيرة لشخص عصبي وحساس مثلك. راقب قلبك، وإلا... حسنًا، ها هما عيناك تدمعان! علامة سيئة سيد لوبين، أنت تشيخ».

ضرب على كتف شاب كان يعبر الشارع ويتجه نحو شارع دي فين. توقف الشاب وبعد بضع ثوانٍ: «عذرًا سيدي، لكن ليس لي شرف معرفتك، على ما يبدو...»

- يبدو أنك مخطئ يا سيد ليدوك العزيز، أو ربما ذاكرتك قد ضعفت كثيرًا. تذكر فرساي الغرفة الصغيرة في فندق الأباطرة الثلاثة.

- أنت!

قفز الشاب إلى الوراء، مذعورًا: «يا إلهي، نعم، إنه أنا، الأمير سيرنين، أو بالأحرى لوبين، بما أنك تعرف اسمي الحقيقي! هل ظننت أن لوبين قد مات؟ آه! نعم، أفهم، السجن... كنت تأمل... يا لك من طفل!». ربت برفق كتفَه: «انظر أيها الشاب، لنهدأ، ما زالت أمامنا بعض الأيام الهادئة الجيدة لكتابة الشعر. لم تحِن الساعة بعد. اكتب الشعر، أيها الشاعر!».

أمسك بذراعه بعنف، وقال له وجهًا لوجه: «لكن الساعة تقترب، أيها الشاعر. لا تنس أنك تنتمي لي جسدًا وروحًا. واستعد للعب دورك. سيكون قاسيًا ورائعًا. وبحق الله، تبدو لي حقًّا الرجل المناسب لهذا الدور!». انفجر ضاحكًا، دار حوله لمرة واحدة، وترك الشاب ليدوك مذهولًا.

كان هناك أبعد قليلًا، على زاوية شارع لا بومب، حانة الخمور التي تحدثت عنها السيدة كيسيلباخ. دخل وتحدث طويلًا مع المالك، ثم أقلته سيارة أجرة وذهبت به إلى الفندق الكبير، حيث كان يقيم تحت اسم أندريه بوني.

كان الأخوان دوديفيل ينتظرانه هناك، رغم أنه معتاد هذا النوع من المتع، فإن لوبين استمتع بعلامات الإعجاب والتفاني التي أغرقه بها أصدقاؤه: «أخيرًا يا سيدي، اشرح لنا. ماذا حدث معك؟ نحن معتادون المعجزاتِ...

لكن مع ذلك هناك حدود. إذًا، أنت حر؟ وها أنت هنا في قلب باريس، متنكر بالكاد». عرض لوبين: «سيجار؟».

- شكرًا. لا.

- أنت مخطئ، دوديفيل. هذا السيجار جيد، حصلت عليه من خبير متميز، يفخر بأنه صديقي.

- آه! هل يمكننا معرفة من؟

- القيصر. هيا، لا تصنعوا هذه الوجوه البليدة، وأطلعوني على الأخبار، لم أقرأ الصحف. هروبي، ما تأثيره على الجمهور؟

- مذهل يا سيدي!

- رواية الشرطة؟

- يُقال إن هروبك حدث في جارش، في أثناء إعادة تمثيل لجريمة قتل ألتنهايم. لسوء الحظ أثبت الصحفيون أن ذلك كان مستحيلًا.

- إذًا؟

- إذًا الجميع في حالة ذهول. يبحثون، يضحكون، ويستمتعون كثيرًا.

- وماذا عن ويبر؟

- ويبر متورط بشكل كبير.

- بخلاف ذلك، ألا يوجد شيء جديد في الأمن؟ ألا توجد معلومات جديدة حول القاتل؟ ألا يوجد دليل يسمح لنا بتحديد هوية ألتنهايم؟

- لا.

- هذا سخيف بعض الشيء! عندما نفكر أننا ندفع الملايين سنويًا لإطعام هؤلاء الناس، إذا استمر الأمر هكذا، سأرفض دفع ضرائبي. خذ مقعدًا وقلمًا. ستأخذ هذه الرسالة هذا المساء إلى الجريدة الكبرى. مَرَّ وقت طويل منذ أن سمع العالم أخباري. يجب أن يكون متلهفًا. اكتب:

«سيدي المدير،

أعتذر للجمهور الذي سيخيب أمله المشروع. لقد هربت من السجن، ومن المستحيل الكشف عن

كيفية هروبي. وبالمثل، منذ هروبي اكتشفت السر الشهير، ومن المستحيل أن أقول ما هو هذا السر وكيف اكتشفته. كل هذا سيكون في يوم من الأيام موضوع قصة فريدة من نوعها، سينشرها -بناءً على ملاحظاتي- كاتب سيرتي الذاتية المعتاد. إنها صفحة من تاريخ فرنسا لن يقرأها أحفادنا دون اهتمام.

في الوقت الحالي، لديَّ ما هو أفضل لأفعله. مستاء من رؤية إلى أي يدٍ ذهبت السلطة التي كنت أمارسها، متعبًا من ملحوظة أن قضية كيسيلباخ-ألتنهايم ما زالت في النقطة نفسها. قررت أن أعزل السيد ويبر، وأستعيد منصب الشرف الذي كنت أشغله، بتألق كبير، وبرضا عام، تحت اسم السيد لينورمان.

أرسين لوبين، مدير الأمن».

الفصل الثاني

الساعة الثامنة مساءً، دخل أرسين لوبين ودوديفيل إلى مطعم كايار، المطعم الأنيق. كان لوبين يرتدي بدلة رسمية ضيقة، لكن مع بنطال فضفاض قليلًا كالفنان ورابطة عنق مرخية قليلًا؛ ودوديفيل بمعطف طويل، بمظهر وهيئة قاضٍ جاد. اختارا الجزء المنخفض من المطعم الذي يفصله عمودان عن القاعة الرئيسية. انتظر نادل أنيق ومتعالٍ الطلبات، ودفتر في يده. طلب لوبين بدقة وتأنُّق ذواقٍ ماهر قائلًا لنفسه: «بالتأكيد كان الطعام العادي في السجن مقبولًا، لكن مع ذلك من الممتع تناوُل وجبة جيدة».

أكل بشهية وصمت مكتفيًا أحيانًا بنطق جملة قصيرة تشير إلى تسلسل أفكاره: «بالطبع، ستُحل الأمور لكنه سيكون صعبًا. أي خصم! ما يدهشني هو أنه بعد ستة أشهر من الصراع، لا أعرف حتى ما يريده! المتواطئ الرئيسي معه مات، نحن نقترب من نهاية المعركة، ومع ذلك لا أرى لعبته بوضوح. عن ماذا يبحث هذا الحقير؟ أنا خطتي واضحة: وضع يديَّ على الدوقية الكبرى، وضع دوق كبير من صنعي على العرش، إعطاؤه جنفييف كزوجة، والحكم. هذا واضح وشريف ونزيه. لكنه هو هذا الشخص الدنيء، هذه اليرقة التي في الظلام، ما الهدف الذي يريد الوصول إليه؟».

نادى: «نادل!». اقترب رئيس النُّدل: «ماذا يرغب سيدي؟».

- سيجار.

عاد رئيس النُّدل، وفتح عدة علب. قال لوبين: «ماذا تنصحني؟».

- هذا سيجار ماركة أوبمان ممتاز.

قدَّم لوبين سيجار أوبمان لدوديفيل، وأخذ واحدة لنفسه، وقطعها. أشعل رئيس النُدل عود ثقاب وقدَّمه. بسرعة أمسك لوبين معصمه: «لا تتكلم! أنا أعرفك، اسمك الحقيقي دومينيك ليكا». حاول الرجل، الذي كان ضخمًا وقويًا، التخلص. كتم صرخة ألم. كان لوبين قد لَوَى معصمه: «اسمك دومينيك، تعيش في شارع لا بومب في الطابق الرابع، حيث تقاعدت بثروة صغيرة اكتسبتها في خدمة -استمع إذًا، أيها الأحمق، وإلا سأكسر عظامك - البارون ألتنهايم، حيث كنت رئيس النُدل».

تجمد الآخر، وجهه شاحب من الخوف. حولهم كانت القاعة الصغيرة فارغة. بجانبهم، في المطعم، كان ثلاثة رجال يدخنون، وزوجان يتحدثان وهما يشربان المشروبات: «أنت ترى، نحن هادئون. يمكننا التحدث».

- من أنت؟ من أنت؟

- ألا تتذكرني؟ ومع ذلك، تذكر ذلك الغداء الشهير في فيلا دوبون. أنت نفسك، أيها الخادم العجوز، من قدم لي طبق الكعك، وأي كعك!

تَمتَم الآخر: «الأمير. الأمير!».

- نعم، الأمير أرسين، الأمير لوبين بنفسه... آه! آه! أنت تتنفس، تقول لنفسك إنه ليس لديك ما تخشاه من لوبين، أليس كذلك؟ خطأ، يا عزيزي، لديك كل شيء لتخشاه.

أخرج من جيبه بطاقة وأراها له: «انظر، أنا من الشرطة الآن. ماذا تريد؟ هكذا دائمًا ننتهي. نحن، أمراء السرقة، أباطرة الجريمة».

سأل رئيس النُدل، الذي لم يزل قلقًا:

- وماذا بعد؟

- والآن أجب ذلك الزبون الذي يناديك هناك، قم بخدمتك وعُد. لا تحاول القيام بأي خدعة، لا تحاول الهرب. لديَّ عشرة عملاء في الخارج يراقبونك. اذهب.

أطاع رئيس النُدل. بعد خمس دقائق عاد. واقفًا أمام الطاولة، ظهره للمطعم، كما لو كان يتناقش مع الزبائن جودة سيجاراتهم. عاد وقال: «حسنًا؟ ما الأمر؟». صفَّ لوبين على الطاولة بعض أوراق المائة فرنك: «كل إجابة دقيقة على أسئلتي تساوي ورقة نقدية».

- موافق.

- كم كنتم مع البارون ألتنهايم؟
- سبعة دون احتسابي.
- ليس أكثر؟
- لا. مرة واحدة فقط، جُنِّد عمال من إيطاليا لبناء الأنفاق في فيلا الجليسين، في جارش.
- كان هناك نفقان؟
- نعم، أحدهما كان يؤدي إلى جناح هورتنس، والآخر كان يتفرع من الأول ويفتح تحت جناح السيدة كيسيلباخ.
- ماذا كان الهدف؟
- اختطاف السيدة كيسيلباخ.
- كانت الخادمتان سوزان وجيرترود متواطئتين؟
- نعم.
- أين هما؟
- في الخارج.
- ورفاقك السبعة أعضاء عصابة ألتنهايم؟
- تركتهم. هم مستمرون.
- أين يمكنني العثور عليهم؟

تردد دومينيك. فتح لوبين ورقتين من فئة ألف فرنك، وقال: «ضميرك الحي هذا يمنحك الشرف يا دومينيك. لم يبقَ لك سوى أن تتغلب عليه وتجيب». أجاب دومينيك: «ستجدهم في 3 طريق ريفولت، في نويي. أحدهم يُلقب بتاجر السَّقَط[1]».

- ممتاز. والآن اسم ألتنهايم الحقيقي، هل تعرفه؟
- نعم. ريبيرا.
- دومينيك، الأمر سينتهي بشكل سيئ. ريبيرا كان مجرد اسم حركي، أنا أسألك عن الاسم الحقيقي.
- **باربري.**

(1) هو الشخص الذي يتاجر في الأشياء المستعملة. (المترجم)

- اسم حركي آخر.

تردد رئيس النُّدل. فتح لوبين ثلاث أوراق من فئة مائة فرنك. صرخ الرجل: «كفى! بعد كل شيء هو ميت، أليس كذلك؟ وميت تمامًا». قال لوبين: «ما اسمه؟».

- اسمه؟ الفارس مالريش.

قفز لوبين على كرسيه: «ماذا؟ ماذا قلت؟ الفارس؟ كرر، الفارس!»

- راؤول دي مالريش.

صمت طويل. لوبين، بعينين ثابتتين، كان يفكر في مجنونة فيلدينز، التي ماتت مسمومة. إيسيلدا كانت تحمل الاسم نفسه: مالريش. وكان هذا اسم النبيل الفرنسي الصغير الذي جاء إلى بلاط فيلدينز في القرن السابع عشر.

واصل: «من أي بلد هذا مالريش؟».

- من أصل فرنسي، لكنه وُلد في ألمانيا. رأيت بعض الأوراق مرة، هكذا عرفت اسمه. آه! لو علم بذلك، لكان خنقني.

فكر لوبين وقال: «هل كان هو من يأمركم جميعًا؟».

- نعم.

- لكن كان لديه متواطئ، شريك؟

- آه! اصمت. اصمت.

أظهر وجه رئيس النُّدل فجأة القلق الكبير. لاحظ لوبين نوع الخوف والنفور نفسه الذي كان يشعر به هو نفسه عندما يفكر في القاتل.

- من هو؟ هل رأيته؟

- أوه! لا يجب أن نتحدث عن ذاك. يجب ألا نتحدث عنه.

- من هو؟ أسألك.

- إنه السيد... الرئيس... لا أحد يعرفه.

- لكنك رأيته أنت. أجب. هل رأيته؟

- في الظل، أحيانًا، ليلًا. لم أره قط في وضح النهار. تأتي أوامره على قصاصات صغيرة من الورق، أو عَبْر الهاتف.

- اسمه؟

- لا أعرف. لم نكن نتحدث عنه قط، كان ذلك يجلب سوء الحظ.
- إنه يرتدي الأسود، أليس كذلك؟
- نعم، الأسود. إنه قصير ونحيف، أشقر.
- يقتل بنفسه، أليس كذلك؟
- بلى، يقتل. يقتل كما يسرق الآخرون قطعة خبز.

كان صوته يرتجف. توسل: «لنصمت، يجب ألا نتحدث عنه. أقول لك، هذا يجلب سوء الحظ».

صمت لوبين، متأثرًا رغمًا عنه بقلق هذا الرجل. ظَل صامتًا لفترة طويلة، ثم نهض، وقال لرئيس النُدل: «خذ، هذه أموالك، لكن إذا أردت أن تعيش بسلام، ستفعل0 حسنًا إذا لم تنبس ببنت شفة لأحد عن لقائنا».

خرج من المطعم مع دوديفيل وسار حتى بوابة منطقة سان دوني دون أن ينطق بكلمة منشغلًا بكل ما علمه للتو. أخيرًا، أمسك بذراع رفيقه، وقال: «اسمعني جيدًا يا دوديفيل. ستذهب إلى محطة الشمال حيث ستصل في الوقت المناسب للقفز في القطار السريع إلى لوكسمبورغ. ستذهب إلى فيلدينز، عاصمة دوقية بون-فيلدينز الكبرى. في دار البلدية، ستحصل بسهولة على شهادة ميلاد الفارس دي مالريش، ومعلومات عن عائلته. بعد غد السبت، ستعود».

- هل يجب أن أخبر الأمن؟
- سأتولى ذلك. سأتصل هاتفيًا وأقول إنك مريض. آه! شيءٌ آخر. سنلتقي في الظهيرة في مقهى صغير على طريق ريفولت، يُسمى مطعم بوفالو. ارتدِ ملابس عامل.

في اليوم التالي، توجَّه لوبين، مرتديًا سترة عمل وقبعة إلى نويي، وبدأ تحقيقه في الرقم 3 من طريق ريفولت. وهناك إنها مدينة حقيقية، سلسلة كاملة من الممرات وورش العمل، حيث تزدحم مجموعة من الحرفيين والنساء والأطفال. في غضون دقائق قليلة كسب تعاطف البوابة التي تحدث معها لمدة ساعة حول مواضيع متنوعة للغاية. خلال هذه الساعة رأى ثلاثة أفراد يمرون واحدًا تلو الآخر، لفت انتباهه مظهرهم. فكر: «هذا هو الصيد، ورائحته قوية. يمكن تتبعه من الرائحة. يبدون كأشخاص شرفاء، بالطبع! لكن بأعين

الوحش الذي يعرف أن العدو في كل مكان، وأن كل شجيرة، كل عشبة يمكن أن تخفي فخًا».

في فترة ما بعد الظهر وصباح يوم السبت واصل تحقيقاته، واكتسب اليقين بأن الشركاء السبعة لألتنهايم كانوا جميعًا يعيشون في هذه المجموعة من المباني. أربعة منهم كانوا يمارسون علنًا مهنة «تجارة الملابس». اثنان آخران كانا يبيعان الصحف، والسابع كان يقول إنه تاجر سقَط، وهذا هو الاسم الذي كان يُعرف به، على أي حال. كانوا يمرون بعضهم ببعض، دون أن يبدو أنهم يعرفون بعضهم بعضًا. لكن في المساء، لاحظ لوبين أنهم كانوا يجتمعون في نوع من مخزن يقع أقصى الفناء الأخير، مخزن حيث كان تاجر السَّقَط يكدِّس بضائعه، خردة قديمة، مواقد مهدمة، أنابيب مواقد صدئة. وبالتأكيد أيضًا، معظم الأشياء المسروقة.

قال لنفسه: «حسنًا، العمل يتقدم. طلبت شهرًا من ابن عمي الألماني، أعتقد أن أسبوعين سيكونان كافيين. وما يسرني هو أن أبدأ العملية بالرجال الذين جعلوني أغطس في نهر السين. يا جوريل المسكين العجوز، سأنتقم لك أخيرًا. لم يكن ذلك مبكرًا جدًّا!».

في الظهيرة دخل مطعم بوفالو، في غرفة صغيرة منخفضة، حيث كان البناؤون والسائقون يأتون لتناول طبق اليوم. جاء شخص ما ليجلس بجانبه قائلًا: «نُفِّذ الأمر يا سيدي».

- آه! هذا أنت يا دوديفيل. حسنًا. أنا متلهف لمعرفة الأمر. هل لديك المعلومات؟ شهادة الميلاد؟ هيا، أخبرني بسرعة.

- حسنًا، ها هو. والدا ألتنهايم ماتا في الخارج.

- دعنا ننتقل.

- تركا ثلاثة أطفال.

- ثلاثة؟

- نعم، الأكبر عمره اليوم ثلاثين عامًا. كان اسمه راؤول دي مالريش.

- هذا هو رجلنا، ألتنهايم. وبعد ذلك؟

- أصغر طفل كانت فتاة، إيسيلدا. يحمل السجل علامة بالحبر الطازج تقول «متوفاة».

كرر لوبين: «إيسيلدا! إيسيلدا! هذا ما كنت أظنه، إيسيلدا كانت أخت ألتنهايم، لقد رأيت فيها تعبيرًا في الوجه كنت أعرفه. هذه هي الصلة التي كانت تربطهما... لكن الآخر، الطفل الثالث، أو بالأحرى الثاني، الأصغر؟».

- ولد. عمره الآن ستة وعشرين عامًا.

- اسمه؟

- لويس دي مالريش.

شعر لوبين بصدمة صغيرة: «هذا هو! لويس دي مالريش «Louis de Malreich» الأحرف الأولى L. M. التوقيع المروِّع والمخيف، القاتل اسمه لويس دي مالريش. كان أخو ألتنهايم وأخو إيسيلدا. وقد قتل أخاه وقتل أخته خوفًا من كشفهما له». ظَل لوبين صامتًا لفترة طويلة، كئيبًا، مع هاجس الكائن الغامض على ما يبدو. اعترض دوديفيل: «ماذا كان يخشى من أخته إيسيلدا؟ كانت مجنونة، كما قيل لي».

- مجنونة، نعم، ولكن قادرة على تذكر بعض تفاصيل طفولتها. ربما تعرفت على الأخ الذي نشأت معه، وهذه الذكرى كلفتها حياتها.

وأضاف: «مجنونة! لكن كل هؤلاء الناس مجانين. الأم، مجنونة. الأب، مدمن كحول. ألتنهايم، وحش حقيقي. إيسيلدا، مجنونة مسكينة. وأمَّا الآخر، القاتل، فهو الوحش، المهووس الأحمق».

- أحمق، هل تعتقد ذلك يا سيدي؟

- نعم، أحمق! مع لمحات من العبقرية، مع حيل وبديهة شيطانية، لكنه مختل، مجنون مثل كل عائلة مالريش هذه. فقط المجانين هم من يقتلون، وخصوصًا المجانين مثله. لأنه في النهاية...

توقف فجأة، وتقلص وجهه بشدة لدرجة أن دوديفيل لاحظ ذلك.

- ما الأمر يا سيدي؟

- انظر.

الفصل الثالث

دخل رجل، وعلّق قبعته على خُطاف المعاطف -قبعة سوداء من اللباد الناعم- ثم جلس على طاولة صغيرة، وفحص قائمة الطعام التي قدَّمها له النادل، وطلب طعامه، وانتظر ساكنًا، بجذع متصلب وذراعين متقاطعتين على المفرش. رآه لوبين وجهًا لوجه. كان له وجهٌ نحيف وجاف، أجرد تمامًا، مثقوب بمحجرين عميقين، يمكنُ رؤية عينين رماديتين بلون الحديد في تجويفهما. بدت البشرة مشدودة تمامًا، كالرق، صلبة وسميكة لدرجة أن أي شعرة لم تكن لتخترقها، وكان الوجه كئيبًا. لم يحركه أي تعبير، لم يبد أن أي فكر يعيش تحت تلك الجبهة العاجية. وكانت الجفون بلا رموش، لا تتحرك أبدًا، مما أعطى النظرة ثباتًا كنظرة تمثال. أشار لوبين إلى أحد نُدل المطعم: «من هذا السيد؟».

- الذي يتناول الغداء هناك؟

- نعم.

- إنه زبون. يأتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع.

- هل تعرف اسمه؟

- بالطبع نعم! ليون ماسييه.

تَمتَم لوبين، مضطربًا: «آه! تمامًا، L. M. الحرفان... هل يمكن أن يكون لويس دو مالريش؟».

تأمله بشغف. في الواقع، كان مظهر الرجل مطابقًا لتوقعاته، ولِما كان يعرفه عنه وعن وجوده البغيض. لكن ما أزعجه كانت تلك النظرة الميتة، حيث

كان يتوقع الحياة واللهب. كان الجمود حيث كان يُفترض العذاب والاضطراب والتكشيرة القوية للملعونين العظماء. قال للنادل: «ماذا يفعل هذا السيد؟».

- لا أستطيع أن أقول بالضبط. إنه شخص غريب الأطوار، دائمًا وحيد، لا يتحدث أبدًا إلى أحد. هنا لا نعرف حتى صوته. يشير بإصبعه إلى الأطباق التي يريدها على القائمة. في عشرين دقيقة، ينتهي، يدفع، ويغادر.

- ويعود؟

- كل أربعة أو خمسة أيام، ليس بانتظام.

كرر لوبين لنفسه: «إنه هو، لا يمكن أن يكون إلا هو، إنه مالريش، ها هو ذا. يتنفس على بعد أربع خطوات مني. هذه هي الأيدي التي تقتل، هذا هو العقل الذي تُسْكِره رائحة الدم. هذا هو الوحش، مصاص الدماء!».

ومع ذلك، هل كان ذلك ممكنًا؟ انتهى لوبين من قبل بالنظر إليه كشخص خيالي للغاية، لدرجة أنه مرتبكٌ لرؤيته في شكل حي يذهب ويأتي ويتصرف. لم يفهم كيف يأكل، مثل الآخرين، الخبز واللحم، ويشرب البيرة مثل أي شخص عادي، هو الذي تخيله كوحش قبيح يتغذى على اللحم الحي، ويمتص دماء ضحاياه.

- دعنا نذهب دوديفيل.

- ما بك يا سيدي؟ أنت شاحب جدًّا.

- أحتاج إلى الهواء. لنخرج.

في الخارج، تنفس بعمق، ومسح جبينه المغطى بالعرق وتَمتَم: «أشعر بتحسن. كنت أختنق». وبعد أن استعاد سيطرته على نفسه، تابع: «دوديفيل، النهاية تقترب. لأسابيع، كنت أكافح على غير هدى ضد العدو غير المرئي. وها هي المصادفة تضعه فجأة على طريقي! الآن المباراة متكافئة».

- هل يجب أن نفترق يا سيدي؟ لقد رآنا معًا. سيتابعنا بشكل أقل إذا كنا منفصلين.

قال لوبين متأملًا: «هل رآنا؟ يبدو أنه لا يرى شيئًا، ولا يسمع شيئًا، ولا ينظر إلى أي شيء. أي نوع مُحير من الرجال هذا الرجل!».

وبالفعل، بعد عشر دقائق، ظهر ليون ماسييه وابتعد، دون حتى أن يلاحظ ما إذا كان أحد يتبعه. أشعل سيجارة وراح يدخن، إحدى يديه خلف ظهره، يمشي كمتسكع يستمتع بالشمس والهواء النقي، ولم يشك في أن أحدًا قد يراقب نزهته. عَبَر نقطة التفتيش الجمركي، سار على طول التحصينات، وخرج مرة أخرى من بوابة شامبيريه، وعاد على أعقابه عَبْر طريق ريفولت. هل كان سيدخل المباني في الرقم 3؟ تمنى لوبين ذلك بقوة، لأنه سيكون دليلًا مؤكدًا على تواطئِه مع عصابة ألتنهايم، لكن الرجل استدار واتجه إلى شارع ديلايزمون الذي تبعه إلى ما بعد مضمار سباق بوفالو للدراجات. على اليسار، مقابل المضمار، بين ملاعب التنس المؤجرة والأكشاك التي تصطف على طول شارع ديلايزمون، كان هناك جناحٌ صغير معزول، محاط بحديقة صغيرة. توقف ليون ماسييه، وأخرج مفاتيحه، وفتح أولًا بوابة الحديقة، ثم باب الجناح، واختفى.

تقدَّم لوبين بحذر. لاحظ على الفور أن مباني طريق ريفولت امتدت، من الخلف، حتى جدار الحديقة. عندما اقترب أكثر، رأى أن هذا الجدار كان مرتفعًا جدًّا، وأن مخزنًا، مبنيًّا في نهاية الحديقة، كان يستند إليه. برؤية ترتيب المكان، تأكد أنَّ هذا المخزن كان ملاصقًا للمخزن الذي كان يقف في الفناء الأخير للرقم 3، والذي يُستخدم كمخزن لتاجر السَّقَط. وهكذا، كان ليون ماسييه يسكن منزلًا ملاصقًا للغرفة التي كان يجتمع فيها الشركاء السبعة لعصابة ألتنهايم. وبالتالي، كان ليون ماسييه هو بالفعل الزعيم الأعلى الذي يقود هذه العصابة، وكان من الواضح أنه كان يتواصل مع أتباعه عَبْر ممر موجود بين المخزنين.

قال لوبين: «لم أكن مخطئًا، ليون ماسييه ولويس دو مالريش شخص واحد. الموقف يُبسط نفسه». وافق دوديفيل: «بشكل كبير، وخلال أيام قليلة، سيُحل كل شيء».

- أي أنني سأتلقى طعنة خنجر في حلقي.
- ماذا تقول يا سيدي؟ ما هذه الفكرة!
- آه! من يدري! لطالما كان لديَّ شعور بأن هذا الوحش سيجلب لي سوء الحظ.

من الآن فصاعدًا، كان الأمر يتعلق -إن جاز التعبير- بمراقبة حياة مالريش، بحيث لا يُفوِّت أيًّا من تحركاته. هذه الحياة التي يعيشها، إذا صَدَّقنا سكان

الحي الذين استجوبهم دوديفيل، كانت من أغرب ما يكون. الرجل المقيم في الجناح -كما كانوا يسمونه- كان يعيش هناك منذ بضعة أشهر فقط. لم يكن يرى أو يستقبل أحدًا، لم يكن لديه أي خادم معروف. والنوافذ، رغم أنها كانت مفتوحة على مصراعيها، حتى في الليل، ظلت دائمًا مظلمة، دون أن يضيئها نور شمعة أو مصباح. علاوة على ذلك، في معظم الأحيان، كان ليون ماسييه يخرج عند غروب الشمس ولا يعود إلا في وقت متأخر جدًّا عند الفجر، كما ادعى بعض الأشخاص الذين صادفوه عند شروق الشمس.

سأل لوبين رفيقه، عندما التحق به الأخير: «وهل يعرفون ماذا يعمل؟».

- لا. حياته غير منتظمة تمامًا، يختفي أحيانًا لعدة أيام، أو بالأحرى يبقى محبوسًا. باختصار، لا يُعرف عن عمله شيء.

- حسنًا! سنعرف نحن، وقريبًا.

كان مخطئًا. بعد ثمانية أيام من التحقيقات والجهود المستمرة، لم يعلم المزيد عن هذا الشخص الغريب. حدث هذا الأمر الاستثنائي، وهو أنه فجأة، بينما كان لوبين يتبعه، اختفى الرجل الذي كان يسير بخطوات صغيرة على طول الشوارع، دون أن يتوقف أبدًا، كما لو كان قد اختفى بمعجزة. استخدم في بعض الأحيان منازل ذات مخرجَين، لكن في أحيان أخرى، كان يبدو وكأنه يتلاشى وسط الحشد، مثل شبح. وبقي لوبين هناك، متحجرًا، مذهولًا، مليئًا بالغضب والارتباك. كان يركض على الفور إلى شارع ديلايزمون ويبدأ المراقبة. كانت الدقائق تتراكم فوق الدقائق، وأرباع الساعات فوق أرباع الساعات. كان جزء من الليل ينقضي، ثم يظهر الرجل الغامض. ماذا يمكن أن يكون قد فعل؟

الفصل الرابع

قال له دوديفيل في مساء أحد الأيام قرابة الساعة الثامنة، وهو ينضم إليه في شارع ديلايزمون: «رسالة هوائية لك يا سيدي».

مزَّق لوبين الرسالة. كانت السيدة كيسيلباخ تتوسل إليه أن يأتي لمساعدتها. عند الغسق، وقف رجلان تحت نوافذها وقال أحدهما: «محظوظان، لم يلاحظنا أحد. إذًا اتفقنا. سننفذ العملية الليلة». نزلت وتأكدت أن مصراع المطبخ لم يعد يُغلق، أو على الأقل، يمكن فتحه من الخارج.

قال لوبين: «أخيرًا، العدو نفسه يعرض علينا المعركة. أفضل ذلك! لقد سئمت من الوقوف تحت نوافذ مالريش».

- هل هو هناك الآن؟

- لا، لقد خدعني مرةً أخرى بطريقته في باريس. كنت على وشك أن أخدعه بطريقتي. لكن أولًا، اسمعني جيدًا يا دوديفيل، ستجمع قرابة عشرة من أقوى رجالنا. خذ ماركو والحاجب جيروم. منذ حادثة فندق بالاس، منحتهم بعض الإجازة، فليأتوا هذه المرة. بعد جمع رجالنا، خذهم إلى شارع دي فين. يجب أن يكون الأب شارولي وابنه قد بدآ المراقبة بالفعل. ستتفق معهم، وفي الساعة الحادية عشرة والنصف، ستأتي للقائي عند زاوية شارع دي فين وشارع رينوار. من هناك، سنراقب المنزل.

ابتعد دوديفيل. انتظر لوبين ساعة أخرى حتى أصبح شارع ديلايزمون الهادئ خاليًا تمامًا، ثم عندما رأى أن ليون ماسييه لم يعد، قرر الاقتراب من الجناح. لا أحد حوله، قفز على حافة الحجر التي تدعم سياج الحديقة. بعد

بضع دقائق، كان داخل المكان. كانت خطته تتمثل في كسر باب المنزل، وتفتيش الغرف للعثور على رسائل الإمبراطور الشهيرة التي سرقها ماليريش من فيلدينز، لكنه فكر أن زيارة المخزن كانت أكثر إلحاحًا. كان مدهوشًا جدًّا عندما رأى أنه لم يكن مغلقًا. وعلى ضوء مصباحه الكهربائي، اكتشف أنه كان فارغًا تمامًا، وأنه لم يكن هناك باب في الجدار الخلفي. بحث لفترة طويلة، دون مزيد من النجاح. لكن في الخارج لاحظ سُلمًا منصوبًا على حائط المخزن وكان يستخدم بوضوح للصعود إلى نوع من العُليَّة تحت سقف الأردواز. كانت صناديق قديمة وحزم من القش والإطارات تملأ هذه العُليَّة، أو بالأحرى بدت كذلك، لأنه اكتشف بسهولة ممرًّا قاده إلى الجدار. هناك، اصطدم بإطار، أراد تحريكه. عندما لم يستطع، فحَصَه من كثب وأدرك أولًا، أنه كان مثبتًا بالجدار. وثانيًا، أن أحد الألواح الزجاجية كان مفقودًا. مدَّ ذراعه كان فراغًا. ألقى بسرعة ضوء المصباح، ونظر كان مخزنًا كبيرًا، أكبر من مخزن الجناح ومليئًا بالخردة وأشياء من كل نوع.

قال لوبين لنفسه: «وصلنا، هذه النافذة الصغيرة مفتوحة في مخزن تاجر السَّقط، في الأعلى تمامًا، ومن هناك يرى لويس دو ماليريش ويسمع ويراقب شركاءه، دون أن يراه أو يسمعه أحد. أفهم الآن لماذا لا يعرفون قائدهم». بعد أن حصل على المعلومات، أطفأ ضوءه، وكان على وشك المغادرة عندما فُتح باب أمامه، وفي الأسفل دخل شخص ما. أشعل مصباحًا. تعرَّف على تاجر السَّقط. قرر البقاء، العملية لا يمكن أن تحدث بما أن هذا الرجل كان هنا. أخرج التاجر مسدسين من جيبه، تحقق من عملهما، وغيَّر الرصاصات وهو يدندن بصفيرٍ لحنًا من مقهى الحفلات. مَرَّت ساعة بهذه الطريقة. بدأ لوبين يقلق، لكنه لم يقرر المغادرة. مَرَّت دقائق أخرى، نصف ساعة، ساعة... أخيرًا، قال الرجل بصوت عالٍ: «ادخل».

انزلق أحد اللصوص إلى المخزن، وتبعه ثالث ورابع.

قال التاجر: «اكتمل العدد، ديودونيه ولو جوفلو سيلتقيان بنا هناك. هيا، لا وقت لنضيعه. هل أنتم مسلحون؟».

- حتى أسناننا.

- هذا جيد. سيكون الأمر ساخنًا.

- كيف عرفت ذلك أيها التاجر؟

- رأيت القائد، عندما أقول إنني رأيته... لا. حسنًا، تحدث إليَّ.

قال أحد الرجال: «نعم، في الظل كالعادة عند زاوية الشارع. آه! كنت أفضل طريقة ألتنهايم. على الأقل، كنا نعرف ما نفعله».

أجابه التاجر: «ألا تعرف؟ سنسطو على منزل كيسيلباخ».

- والحارسان؟ الرجلان اللذان وضعهما لوبين؟

- سوء حظهما. نحن سبعة، عليهما فقط أن يصمتا.

- والسيدة كيسيلباخ؟

- الكمامة أولًا، ثم الحبل، ونحضرها إلى هنا. انظر، على هذه الأريكة القديمة هناك سننتظر الأوامر.

- هل الأجر جيد؟

- مجوهرات كيسيلباخ، أولًا.

- نعم، إذا نجحنا، لكنني أتحدث عن المؤكد.

- ثلاث أوراق نقدية من فئة مائة فرنك، مقدَّمًا، لكل واحد منا. الضعف بعد ذلك.

- هل معك المال؟

- نعم.

- حسنًا. يمكننا أن نقول ما نشاء، لكن فيما يتعلق بالدفع، لا يوجد اثنان مثل هذا الرجل.

وبصوت منخفض جدًّا بحيث كاد لوبين لا يسمعه: «قل لي أيها التاجر، إذا اضطررنا إلى استخدام السكين، هل هناك مكافأة؟».

- ألفان.

- إذا كان لوبين؟

- ثلاثة آلاف.

- آه! لو استطعنا الحصول عليه، ذلك الرجل!

غادروا المخزن واحدًا تلو الآخر. سمع لوبين هذه الكلمات الأخيرة من التاجر: «هذه هي خطة الهجوم. ننقسم إلى ثلاث مجموعات. صفارة واحدة، وكل واحد يتقدم».

على عجل خرج لوبين من مخبئه ونزل السلم ودار حول الجناح دون دخوله، وعَبَر السياج مرة أخرى قائلًا: «التاجر على حق، ستكون الأمور ساخنة. آه! إنهم يريدون رأسي! مكافأة للوبين! الأوغاد!».

عَبَر نقطة التفتيش، وقفز في سيارة أجرة: «شارع رينوار». طلب منه التوقف على بعد ثلاثمائة خطوة من شارع دي فين، ومشى حتى زاوية الشارعين. لدهشته الكبيرة، لم يكن دوديفيل هناك. قال لوبين لنفسه: «غريب، إنها بعد منتصف الليل، رغم ذلك يبدو لي أن هذا الأمر مريب».

انتظر عشر دقائق، عشرين دقيقة. في الثانية عشرة والنصف، لم يأتِ أحد. أصبح التأخير خطِرًا. بعد كل شيء، إذا لم يستطع دوديفيل وأصدقاؤه المجيء، فإن شارولي وابنه وهو -لوبين- سيكون عليهم صدُّ الهجوم دون احتساب مساعدة الخدم.

تقدم لوبين، لكن ظهر له رجلان يحاولان الاختباء في ظل تجويف. قال لنفسه: «اللعنة! إنها الطليعة من العصابة، ديودونيه ولو جوفلو. لقد سبقوني بغباء».

هناك، أضاع المزيد من الوقت. هل يمشي مباشرة نحوهما لإخراجهما من المعركة ثم الدخول إلى المنزل من نافذة المكتب التي يعرف أنها خالية؟ كان هذا هو الخيار الأكثر حكمة، والذي يسمح له أيضًا بإخراج السيدة كيسيلباخ فورًا، ووضعها خارج الخطر. نعم، لكن هذا يعني أيضًا فشل خطته، وتفويت هذه الفرصة الفريدة لإيقاع العصابة بأكملها في الفخ، وبلا شك لويس دو ماليريش أيضًا.

فجأة، دوت صفارة من مكان ما على الجانب الآخر من المنزل. هل كان الآخرون هناك بالفعل؟ وهل سيحدث هجوم مضاد من الحديقة؟ لكن عند إعطاء الإشارة، قفز الرجلان عَبْر النافذة. اختفيا. قفز لوبين وتسلَّق الشرفة وقفز إلى المكتب. من صوت الخطوات، خمَّن أن المهاجمين قد مروا بالحديقة، وكان هذا الصوت واضحًا جدًّا لدرجة أنه كان مطمئنًا، لا يمكن أن يكون شارولي وابنه لم يسمعا.

صعد. كانت غرفة السيدة كيسيلباخ على الطابق. دخل بسرعة على ضوء مصباح ليلي، رأى دولوريس على أريكة فاقدة الوعي. اندفع نحوها رفعها وبصوت آمر، أجبرها على الرد: «اسمعي، شارولي؟ ابنه؟ أين هما؟». تَمتَمت: «ماذا؟ لكن... رحلا».

- ماذا! رحلا!

- لقد كتبت لي... منذ ساعة رسالة.

التقط من جانبها ورقة زرقاء وقرأ:

«أرسلي الحارسين فورًا، وكل رجالي. أنتظرهم في الفندق الكبير. لا تخافي».

- اللعنة! وصدقتم هذا! وأين خدمك؟

- رحلوا.

اقترب من النافذة. في الخارج، كان ثلاثة رجال قادمين من أقصى الحديقة. من نافذة الغرفة المجاورة، التي تطل على الشارع، رأى اثنين آخرين في الخارج. وفكر في ديودونيه، ولو جوفلو، وبالطبع في لويس دو ماليريش، الذي كان يجب أن يكون متجولًا غير مرئي ومرعبًا.

تَمتَم لوبين: «اللعنة، بدأت أظن أنني في ورطة!».

الجزء الرابع عشر

الرجل الخفي

الفصل الأول

في تلك اللحظة، راود أرسين لوبين الانطباع، بل اليقين، أنه قد استُدرج إلى فخ، بوسائل لم يكن لديه الوقت لتمييزها، ولكنه خمَّن مهارتها وبراعتها المذهلة. كان كل شيء مخططًا له، كل شيء مقصودًا؛ إبعاد رجاله، اختفاء أو خيانة الخدم، وجوده نفسه في منزل السيدة كيسيلباخ. من الواضح أن كل هذا قد نجح وَفقًا لرغبة العدو، بفضل ظروف مهيئة إلى حد المعجزة، لأنه في النهاية كان يمكن أن يصل قبل أن يغادر أصدقاؤه للمكان بسبب الرسالة المزيفة.

لكن بعد ذلك كانت ستصبح معركة عصابته ضد عصابة ألتنهايم. وتذكر لوبين سلوك مالريش، اغتيال ألتنهايم، تسميم المجنونة في فيلدينز، وتساءل لوبين عما إذا كان الكمين موجهًا ضده وحده! وما إذا كان مالريش لم يتوقع كاحتمال معركة شاملة! والتخلص من شركاء أصبحوا الآن يزعجونه!

كان ذلك حدسًا بالنسبة إليه أكثر من كونه فكرة عابرة لمسته. كانت ساعة العمل، كان عليه الدفاع عن دولوريس التي كان اختطافها -في كل الاحتمالات- السبب الحقيقي للهجوم.

فتح نافذة الشارع قليلًا وصوَّب مسدسه. طلقة واحدة وسيصل الإنذار إلى الحي وسيهرب اللصوص.

همس: «حسنًا! لا، لا. لن يُقال إنني تجنبت المعركة. الفرصة جيدة جدًا. وبعد ذلك، من يعلم ما إذا كانوا سيهربون! إنهم كثيرون، ولا يهتمون بالجيران». عاد إلى غرفة دولوريس. في الأسفل، كان هناك ضجيج. استمع، وبما أنه كان يأتي من الدرج، أغلق القفل بدورتين. كانت دولوريس تبكي

وتتلوى على الأريكة. توسل إليها: «هل لديكِ القوة؟ نحن في الطابق الأول. يمكنني مساعدتك على النزول. ملاءات من النافذة...».

- لا، لا، لا تتركني. سيقتلونني! دافع عني.

حملها بين ذراعيه، ونقلها إلى الغرفة المجاورة. وانحنى عليها: «لا تتحركي وكوني هادئة. أقسم لكِ ما دمتُ حيًّا، لن يلمسكِ أحد من هؤلاء الرجال». هُزَّ باب الغرفة الأولى. صرخت دولوريس، وهي تتشبث به: «آه! ها هم أولاء. ها هم أولاء. سيقتلونك، أنت وحدك». قال لها بحرارة: «لست وحدي؛ أنتِ هنا. أنتِ هنا بجانبي». أراد أن يتحرر. أمسكت رأسه بين يديها، ونظرت إليه بعمق في عينيه وهمست: «إلى أين تذهب؟ ماذا ستفعل؟ لا. لا تَمُت. لا أريد، يجب أن تعيش. يجب ذلك».

تَمتَمت بكلمات لم يسمعها، وبدا أنها تخنقها بين شفتيها حتى لا يسمعها، وفي نهاية قوتها منهكةً سقطت فاقدة الوعي. انحنى عليها وتأملها للحظة. بلطفٍ لمس شعرها بقبلة، ثم عاد إلى الغرفة الأولى، أغلق بعناية الباب الذي يفصل بين الغرفتين، وأضاء الكهرباء. صاح: «دقيقة يا صغار! هل أنتم متلهفون جدًّا لتدميركم؟ هل تعلمون أن لوبين هنا؟ احذروا اللعبة!».

في أثناء حديثه كان قد فتح حاجزًا لإخفاء الأريكة التي كانت السيدة كيسيلباخ مستلقية عليها قبل قليل، وألقى على هذه الأريكة فساتين وبطانيات. كان الباب على وشك الانكسار تحت ضغط المهاجمين: «هأنذا! أنا قادم! هل أنتم مستعدون؟ حسنًا! إلى أول هؤلاء السادة!». بسرعة، أدار المفتاح وسحب المزلاج.

صرخات، تهديدات، تدافع وحوش حاقدة في إطار الباب المفتوح. ومع ذلك، لم يجرؤ أحد على التقدم. قبل الاندفاع على لوبين، ترددوا، أصابهم القلق والخوف. هذا ما كان قد توقعه.

واقفًا في وسط الغرفة، في الضوء الكامل، ذراعه ممدودة، كان يحمل بين أصابعه حزمة من الأوراق النقدية التي كان يقسمها، وهو يعدها واحدة تلو الأخرى، إلى سبعة أقسام متساوية. وبهدوء، أعلن: «ثلاثة آلاف فرنك مكافأة لكل من يرسل لوبين إلى العالم الآخر؟ هذا ما وُعدتم به، أليس كذلك؟ هذا هو الضعف عينه».

وضع الحزم على طاولة، في متناول اللصوص. صرخ التاجر: «كذب! إنه يحاول كسب الوقت. لنطلق عليه النار!». رفع ذراعه، منعه رفاقه. واستمر لوبين: «بالطبع، هذا لن يُغير شيئًا في خطة حملتكم. لقد دخلتم هنا: 1. لاختطاف السيدة كيسيلباخ. 2. وبشكل ثانوي للاستيلاء على مجوهراتها. سأعتبر نفسي أحقر البؤساء إذا عارضت هذا الهدف المزدوج».

زمجر التاجر الذي كان يستمع رغم إرادته: «ماذا! إلى أين تريد أن تصل؟».

- آه! آه! التاجر، بدأت أثير اهتمامك. ادخل إذًا يا صديقي. ادخلوا جميعًا، هناك تيارات هوائية في أعلى هذا الدرج، وقد يصاب اللطفاء مثلكم بالزكام. ماذا! هل أنتم خائفون؟ أنا وحدي رغم كل شيء. هيًا، تشجعوا يا صغاري.

دخلوا الغرفة، مدهوشين ومتشككين.

- ادفع الباب يا تاجر السَّقط! سنكون أكثر راحة. شكرًا لك يا عزيزي. آه! أرى، بالمناسبة، أن الأوراق النقدية من فئة الألف قد اختفت. وبالتالي نحن متفقون. كم يُعَد التفاهم سهلًا بين الناس الشرفاء!

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ حسنًا! بما أننا شركاء الآن...

- شركاء!

- بالطبع! ألم تقبل أموالي؟ نحن نعمل معًا يا عزيزي، وسنقوم معًا بـ: 1) اختطاف السيدة الشابة. 2) سرقة المجوهرات.

ضحك تاجر السَّقط ساخرًا: «لست بحاجة إليك».

- بل أنت بحاجة إليَّ يا عزيزي.

- كيف؟

- لأنك لا تعرف أين يوجد مخبأ المجوهرات وأنا أعرف.

- سنجده.

- غدًا، ليس هذه الليلة.

- إذًا تحدث. ماذا تريد؟

- نتقاسم المجوهرات.

- لمَ لا تأخذ كل شيء ما دُمت تعرف المخبأ؟

- من المستحيل فتحه بمفردي. هناك سر، لكنني لا أعرفه. أنت هنا وأنا أستخدمك.

تردد تاجر السَّقط.

- نتقاسم، نتقاسم! ربما بعض الحصى وقليل من النحاس.

- يا أحمق! هناك ما قيمته أكثر من مليون.

ارتعش الرجال، متأثرين. قال تاجر السَّقط: «حسنًا، ولكن ماذا لو هربت كيسيلباخ؟ إنها في الغرفة الأخرى، أليس كذلك؟».

- نعم، إنها هنا.

أزاح لوبين إحدى أوراق الحاجز، وسمح برؤية كومة الفساتين والأغطية التي كان قد أعدها على الأريكة.

- إنها هنا فاقدة الوعي. لكنني لن أسلمها إلا بعد التقاسم.

- ولكن...

- خذها أو اتركها. أنا وحدي. أنت تعرف ما أساوي. لذا...

تشاور الرجال، وقال تاجر السَّقط: «أين المخبأ؟».

- تحت موقد المدفأة. ولكن يجب رفع المدفأة بأكملها أولًا، والمرآة، والرخام، وكل ذلك ككتلة واحدة، على ما يبدو العمل شاق.

- ياه! نحن قادرون على ذلك، سترى.

أعطى أوامره، وعلى الفور بدأ رفاقه العمل بحماس وانضباط رائعين. اثنان منهم، واقفان على كراسي، يحاولان رفع المرآة. هاجم الأربعة الآخرون المدفأة نفسها. تاجر السَّقط، راكعًا، كان يراقب الموقد، ويأمر: «شدوا الهمة، يا رفاق! معًا من فضلكم. انتبهوا! واحد، اثنان. آه! انظروا، إنه يتحرك».

ثابتًا خلفهم، يديه في جيبيْه، كان لوبين ينظر إليهم بحنان، وفي الوقت نفسه، كان يستمتع بكل فخره، كفنان وسيد بهذا الاختبار العنيف لسلطته، وقوته والتأثير المذهل الذي يمارسه على الآخرين. كيف استطاع هؤلاء اللصوص أن يصدقوا للحظة هذه القصة غير المعقولة، ويفقدوا كل إدراك للأشياء، إلى درجة تركهم له كل فرص المعركة؟ أخرج من جيوبه مسدسين كبيرين، ثقيلين ورهيبين، مدَّ ذراعيه، وبهدوء، مختارًا أول رجلين سيسقطهما،

والرجلين الآخرين اللذين سيسقطان بعدهما، صوَّب كما لو كان يُصوِّب على هدفين في ميدان رماية.

طلقتان في وقت واحد، ثم اثنتان أخريان. صرخات! سقط أربعة رجال الواحد تلو الآخر، مثل الدمى في لعبة الإسقاط. قال لوبين: «أربعة من سبعة، يبقى ثلاثة. هل يجب أن أستمر؟».

بقيت ذراعاه ممدودتان، مسدساه موجهان نحو المجموعة التي شكلها تاجر السَّقط ورفيقاه. زمجر تاجر السَّقط وهو يبحث عن سلاح: «يا وغد!». صرخ لوبين: «ارفعوا أيديكم وإلا سأطلق النار! ممتاز! والآن، أنتما جرداه من سلاحه، وإلا...». اللصان، مرتعشان من الخوف، شلَّا حركة زعيمهما، وأجبراه على الاستسلام.

- قيِّداه، قيِّداه! اللعنة! ما الذي يهمكم؟ حالما أرحل ستكونون جميعًا أحرارًا. هيا، هل نحن جاهزون؟ المعصمين أولًا، بأحزمتكم والكاحلين، أسرعوا!

مرتبكًا، مهزومًا، لم يعد تاجر السَّقط يقاوم. بينما كان رفيقاه يربطانه، انحنى لوبين عليهما وضربهما ضربتين قويتين بمقبض المسدس على رأسيهما. انهار الاثنان. قال وهو يتنفس: «هذا عمل جيد. من المؤسف أنه لم يكن هناك خمسون آخرون. كنت في طريقي، وكل هذا بسهولة؛ الابتسامة على الشفاه. ما رأيك يا تاجر السَّقط؟».

كان اللص يتَمتَم. قال له لوبين: «لا تكن كئيبًا يا عزيزي. عزِّ نفسك بالقول إنك تساهم في عمل خير، إنقاذ السيدة كيسيلباخ. ستشكرك هي نفسها على لطفك».

تَوجَّه نحو باب الغرفة الثانية وفتحه. قال متوقفًا على العتبة مذهولًا مضطربًا: «آه!». كانت الغرفة فارغة. اقترب من النافذة، ورأى سلمًا مستندًا إلى الشرفة، سلمًا فولاذيًا قابلًا للفك. تَمتَم: «اختُطفت. اختُطفت! لويس دو ماليريش. آه! يا وغد!».

الفصل الثاني

فكر لدقيقة، محاولًا التغلب على قلقه، وقال لنفسه إنه بعد كل شيء، بما أن السيدة كيسيلباخ لا تبدو في خطر فوري، فلا داعي للذعر، لكن غضبًا مفاجئًا هزه، واندفع نحو اللصوص، وزَّع بعض الركلات على الجرحى الذين كانوا يتحركون، بحث واسترجع أوراقه النقدية، ثم كمم الأفواه، وربط الأيدي بكل ما وجده، حبال الستائر، وأربطة، وأغطية وملاءات مقطعة إلى شرائط، وأخيرًا صفَّ على السجادة، أمام الأريكة، سبع حزم بشرية، مضغوطة معًا، ومربوطة كالطرود. ضحك ساخرًا: «سيخ من الموميَاوات على أريكة. طبق شهي لهاوٍ! يا لكم من حمقى! كيف فعلتم ذلك؟ ها أنتم مثل القتلى في المشرحة، ولكن هكذا يكون الهجوم على لوبين، لوبين المدافع عن الأرملة واليتيم! هل ترتجفون؟ لا داعي لذلك يا خراف! لوبين لم يؤذِ ذبابة قط. فقط، لوبين رجل شريف، لا يحب الأوغاد، ولوبين يعرف واجباته. دعونا نرَ هل يمكن العيش مع أوغاد مثلكم؟ إذًا ماذا؟ لم يَعد هناك احترام لحياة الآخرين؟ لم يَعد هناك احترام لممتلكات الغير؟ لم تَعد هناك قوانين؟ لم يَعد هناك مجتمع؟ لم يَعد هناك ضمير؟ لم يَعد هناك أي شيء؟ إلى أين نحن ذاهبون يا رب، إلى أين نحن ذاهبون؟».

دون حتى أن يتكلف عناء حبسهم، خرج من الغرفة، وذهب إلى الشارع، ومشى حتى وصل إلى سيارة الأجرة الخاصة به. أرسل السائق للبحث عن سيارة أخرى، وأعاد السيارتين أمام منزل السيدة كيسيلباخ. إكرامية جيدة، أُعطِيت مقدمًا، جنَّبته التفسيرات غير الضرورية. بمساعدة الرجلَين، أنزل السجناء السبعة وأركبهم في السيارتين، مختلطين، بعضهم على ركب بعض.

كان الجرحى يصرخون ويئنون. أغلق الأبواب. قال: «احذروا أيديكم». صعد على مقعد السيارة الأولى: «هيا بنا!». سأل السائق: «إلى أين نذهب؟».

- 36 رصيف أورفيفر، إلى مقر الشرطة.

هدرت المحركات. صوت انطلاق، وبدأ الموكب الغريب في الانحدار عَبْر منحدرات التروكاديرو. في الشوارع، تجاوزوا بعض عربات الخضار. كان هناك رجال مسلحون بأعمدة يطفئون مصابيح الشوارع. كانت هناك نجوم في السماء. نسيم منعش يطفو في الفضاء. كان لوبين يغني.

ساحة الكونكورد، اللوفر... بعيدًا، الكتلة السوداء لكاتدرائية نوتردام. التفت وفتح الباب قليلًا: «هل كل شيء على ما يرام يا رفاق؟ أنا أيضًا، شكرًا. الليلة رائعة، والهواء منعش!».

قفزت السيارة على الأحجار غير المستوية للأرصفة، وفجأة، ظهر قصر العدل وباب مقر الشرطة. قال لوبين للسائقين: «ابقوا هنا، اعتنوا جيدًا بعملائكم السبعة». عَبَر الفناء الأول، واتبع الممر الأيمن الذي يؤدي إلى مكاتب الخدمة المركزية. كان هناك مفتشون في الخدمة الدائمة. قال وهو يدخل: «صيد يا سادة، صيدٌ سمين. هل السيد ويبر هنا؟ أنا مفوض الشرطة الجديد منطقة أوتوي».

- السيد ويبر في شقته. هل يجب إخباره؟

- لحظة، أنا مستعجل. سأترك له رسالة.

جلس أمام طاولة وكتب:

«عزيزي ويبر،

أحضرت لك اللصوص السبعة الذين شكلوا عصابة ألتنهايم، أولئك الذين قتلوا جوريل وآخرين كثيرين، الذين قتلوني أيضًا تحت اسم السيد لينورمان. لم يبق سوى زعيمهم، سأقوم بالقبض عليه فورًا. تعال للقائي. إنه يعيش في نويي، شارع ديلايزمون، ويطلق على نفسه اسم ليون ماسييه.

تحياتي الحارة!

أرسين لوبين، مدير الأمن».

- هذا للسيد ويبر، إنه أمر عاجل. الآن، أحتاج سبعة رجال لاستلام البضاعة. لقد تركتها على الرصيف.

لحق به مفتش رئيسي أمام السيارات. قال له: «آه! إنه أنت، سيد لوبوف. لقد قمت بصيد رائع. كل عصابة ألتنهايم. إنهم هناك في السيارتَين».

- أين قبضت عليهم؟

- وهم يحاولون اختطاف السيدة كيسيلباخ ونهب منزلها، لكنني سأشرح كل هذا في الوقت المناسب.

أخذه المفتش الرئيسي جانبًا، وبنبرة متعجبة: «لكن عذرًا، لقد جاءني استدعاء الآن من قِبل مفوض شرطة أوتوي. ولا يبدو لي... مع من لي شرف التحدث؟».

- مع الشخص الذي يقدم لك هدية جميلة من سبعة مجرمين من أعلى طراز.

- مع ذلك، أود أن أعرف.

- اسمي؟

- نعم.

- أرسين لوبين.

عرقل بسرعة محدثه، وركض إلى شارع ريفولي، وقفز في سيارة كانت تمر، وطلب أن يُنقل إلى بوابة تيرن. كانت مباني طريق ريفولت قريبة؛ توجه إلى الرقم 3. رغم كل برودة أعصابه، والسيطرة التي كان يتمتع بها على نفسه، لم يستطع أرسين لوبين التغلب على العاطفة التي غمرته. هل سيجد دولوريس كيسيلباخ؟ هل أعاد لويس دو مالريش المرأة الشابة، إمَّا إلى منزله؟ وإمَّا إلى مخزن تاجر السَّقط؟ كان لوبين قد أخذ من تاجر السَّقط مفتاح هذا المخزن، لذلك كان من السهل عليه، بعد أن رنَّ الجرس، وبعد أن عَبَر جميع الساحات، أن يفتح الباب ويدخل متجر الأشياء القديمة. أضاء مصباحه اليدوي وحدد اتجاهه. قليلًا إلى اليمين، كانت هناك مساحة فارغة، حيث رأى المتآمرين يعقدون اجتماعهم الأخير. على الأريكة التي أشار إليها تاجر السَّقط، رأى شكلًا أسود. ملفوفة في الأغطية، مكممة، كانت دولوريس مستلقية هناك. ساعدها. تَمتَمت: «آه! ها أنت ذا. ها أنت ذا لم يؤذوك، أليس كذلك؟». وعلى الفور، نهضت وأشارت إلى مؤخرة المتجر: «هناك، ذهبَ في هذا الاتجاه. سمعت، أنا متأكدة. يجب أن نذهب أرجوك!».

- اذهبي أنتِ أولًا.

- لا، هو. اضربه، أرجوك اضربه!

هذه المرة، بدلًا من أن يحطمها الخوف، بدا وكأنه يمنحها قوى غير عادية، وكررت، في رغبةٍ هائلة لتسليم العدو المرعب الذي كان يعذبها: «هو أولًا. لم أعد أستطيع العيش، يجب أن تنقذني منه. يجب... لم أعد أستطيع العيش». فكَّ قيودها، ومدَّدها بعناية على الأريكة، وقال لها: «أنتِ على حق. على أي حال، هنا ليس لديك ما تخشينه. انتظريني سأعود».

وهو يبتعد أمسكت يده بسرعة: «ولكن أنت؟».

- ماذا؟

- إذا هذا الرجل...

بدا وكأنها تخشى على لوبين هذه المعركة النهائية التي كانت تُعرِّضه لها، وأنها في اللحظة الأخيرة كانت ستصبح سعيدة لو استطاعت منعه. همس: «شكرًا، اطمئني. ماذا عليَّ أن أخشى؟ إنه بمفرده».

تركها، توجَّه نحو آخر المكان. كما كان يتوقع، اكتشف سلمًا منصوبًا على الحائط، قاده إلى مستوى النافذة الصغيرة التي شاهد من خلالها اجتماع العصابة. كان هذا هو الطريق الذي سَلَكه مالريش للوصول إلى منزله في شارع ديلايزمون. أعاد هذا المسار، كما فعل قبل بضع ساعات، مَرَّ عَبْر المخزن الآخر، ونزل إلى الحديقة. كان خلف المنزل الصغير الذي يشغله مالريش نفسه. شيء غريب، لم يشك للحظة واحدة في أن مالريش كان هناك. حتمًا سيلتقيه، والمبارزة الرهيبة التي كانا يخوضانها ضد بعضهما بعضًا كانت تقترب من نهايتها. بضع دقائق أخرى، وسينتهي كل شيء.

لقد ذُهِل! بعد أن أمسك بمقبض باب، دار هذا المقبض وانفتح الباب تحت ضغطه. المنزل الصغير لم يكن حتى مغلقًا. عَبَر مطبخًا، ثم ردهة، وصعد درجًا، وكان يتقدم بحزم دون محاولة إخفاء صوت خطواته. على الدرج توقف. كان العرق يتصبب من جبينه وصدغاه ينبضان بتدفق الدم. ومع ذلك، ظل هادئًا، متحكمًا في نفسه، وواعيًا لأدق أفكاره. وضع مسدسيه على درجة. قال لنفسه: «لا أسلحة، يداي فقط، لا شيء سوى قوة يدي. هذا يكفي، هذا أفضل!».

أمامه ثلاثة أبواب. اختار الباب الأوسط، وأدار القفل. لا عوائق. دخل. لم يكن هناك ضوء في الغرفة، ولكن من خلال النافذة المفتوحة على مصراعيها،

كان يتسلل ضوء الليل، وفي الظلام كان يرى الملاءات والستائر البيضاء للسرير. وهناك كان شخص ما واقفًا. سَلَّط بعنف شعاع مصباحه على هذا الشبح قائلًا: «مالريش!».

الوجه الشاحب لمالريش، عيناه الداكنتان، وجنتاه كالجثة، رقبته النحيلة. وكل هذا كان ثابتًا، على بعد خمس خطوات منه، ولم يكن بإمكانه أن يقول ما إذا كان هذا الوجه الجامد، هذا الوجه الميت يُعَبر عن أدنى رعب أو حتى عن قليل من القلق.

خطا لوبين خطوة، ثم ثانية، وثالثة. الرجل لم يتحرك. هل كان يرى؟ هل كان يفهم؟ بدا وكأن عينيه كانتا تنظران إلى الفراغ، وكأنه كان يعتقد أنه مصاب بهلوسة بدلًا من أن يكون مصدومًا بصورة حقيقية. خطوة أخرى...

فكر لوبين: «سيدافع عن نفسه، يجب أن يدافع عن نفسه!». مدَّ لوبين ذراعه نحوه. الرجل لم يفعل أي حركة، لم يتراجع، جفناه لم يرمشا. حدث الاتصال وكان لوبين مضطربًا مرعوبًا، فقدَ رباطة جأشه. أسقط الرجل، أرقده على سريره، لفَّه في ملاءاته، قيده بأغطيته، وأبقاه تحت ركبته كفريسة دون أن يحاول الرجل أدنى حركة مقاومة.

صرخ لوبين، ثملًا بالفرح والكراهية المُشبعة: «آه! لقد سحقتك أخيرًا أيها الوحش البغيض! أنا السيد أخيرًا!».

سمع ضجيجًا في الخارج، في شارع ديلايزمون، طرقات على البوابة. اندفع نحو النافذة وصرخ: «هل هذا أنت يا ويبر؟ بالفعل! حسنًا! أنت خادم نموذجي! أغلق البوابة يا رجل، وأسرع، سنرحب بك».

في بضع دقائق، فتش ملابس سجينه، استولى على محفظته، جمع الأوراق التي استطاع العثور عليها في أدراج المكتب والخزانة، ألقاها جميعًا على الطاولة وفحصها. أطلق صرخة فرح، كانت حزمة الرسائل هناك، حزمة الرسائل الشهيرة التي وعد بإعادتها للإمبراطور. أعاد الأوراق إلى مكانها وركض إلى النافذة: «هذا كل شيء، ويبر! يمكنك الدخول! ستجد قاتل كيسيلباخ في سريره، جاهزًا ومقيدًا تمامًا. وداعًا ويبر».

وهرع لوبين نازلًا الدرج بسرعة إلى المخزن، وبينما كان ويبر يدخل المنزل، عاد إلى دولوريس كيسيلباخ. بمفرده، كان قد اعتقل الرفاق السبعة لألتنهايم! وسلَّم للعدالة الزعيم الغامض للعصابة، الوحش الدنيء، لويس دو مالريش!

الفصل الثالث

على شرفة خشبية واسعة جالسًا أمام طاولة، كان شاب يكتب. أحيانًا كان يرفع رأسه ويتأمل بنظرة شاردة أفق التلال حيث كانت الأشجار المجردة من أوراقها بسبب الخريف، تُسقِط أوراقها الأخيرة على أسطح الفيلات الحمراء وعلى مروج الحدائق. ثم كان يعاود الكتابة. بعد لحظة، أخذ ورقته وقرأ بصوت عالٍ:

«أيامنا تنجرف بعيدًا،

كأنها محمولة بتيار

يدفعها نحو شاطئ

لا نصل إليه إلا عند الموت».

قال صوت خلفه: «ليس سيئًا، السيدة أمابل تاستو[1] ما كانت لتفعل أفضل من ذلك. في النهاية، لا يمكن للجميع أن يكونوا لامارتين[2]».

تَمتَم الشاب بذهول: «أنت! أنت!».

- نعم أيها الشاعر، أنا نفسي، أرسين لوبين الذي جاء لزيارة صديقه العزيز بيير ليدوك.

بدأ بيير ليدوك يرتجف كأنه يرتعش من الحمى. قال بصوت منخفض: «هل حانت الساعة؟».

---

(1) شاعرة وكاتبة فرنسية. (المترجم)

(2) شاعر فرنسي. (المترجم)

- نعم يا بيير ليدوك الممتاز، حانت الساعة لك لتترك أو بالأحرى تُقاطع الحياة الرخوة للشاعر التي تعيشها منذ عدة أشهر عند أقدام جنفييف إرنمون والسيدة كيسيلباخ، ولتؤدي الدور الذي حفظته لك في مسرحيتي. مسرحية جميلة أؤكد لك، دراما صغيرة جيدة الحبكة وفقًا لقواعد الفن مع اضطرابات وضحكات وصرير أسنان. ها نحن وصلنا إلى الفصل الخامس، النهاية تقترب، وأنت، بيير ليدوك، أنت بطلها. يا له من مجد!

نهض الشاب: «وإذا رفضت؟».

- يا أحمق!

- نعم، إذا رفضت؟ بعد كل ذلك من يجبرني على الخضوع لإرادتك؟ من يجبرني على قبول دور لا أعرفه بعد ولكنه ينفرني مسبقًا وأشعر بالخجل منه؟

كرر لوبين: «يا أحمق!». وإجبارًا لبيير ليدوك على الجلوس، جلس بجانبه، وبصوته الأكثر عذوبة قال: «أنت تنسى تمامًا أيها الشاب الطيب، أن اسمك ليس بيير ليدوك، بل جيرار بوبريه. إذا كنت تحمل الاسم الرائع لبيير ليدوك فذلك لأنك أنت جيرار بوبريه قتلت بيير ليدوك وسرقت شخصيته».

قفز الشاب من الغضب: «أنت مجنون! أنت تعلم جيدًا أنك أنت من رتب كل شيء».

- بالطبع، نعم، أعرف ذلك جيدًا، ولكن العدالة، عندما أقدم لها الدليل على أن بيير ليدوك الحقيقي مات موتًا عنيفًا، وأنك أنت أخذت مكانه!

منهولًا، تلعثم الشاب: «لن يصدقوا ذلك. لماذا كنت سأفعل ذلك؟ لأي غرض؟».

- يا أحمق! الهدف واضح لدرجة أن ويبر نفسه كان سيراه. أنت تكذب عندما تقول إنك لا تريد قبول دور تجهله. هذا الدور أنت تعرفه. إنه الدور الذي كان سيلعبه بيير ليدوك لو لم يمت.

- ولكن بيير ليدوك، بالنسبة إليَّ، وإلى الجميع، ما هو إلا اسم حتى الآن. من كان هو؟ من أنا؟

- ما الذي يهمك؟

- أريد أن أعرف. أريد أن أعرف إلى أين أذهب.

- وإذا عرفت هل ستسير مباشرة إلى الأمام؟
- نعم، إذا كان الهدف الذي تتحدث عنه يستحق العناء.
- لولا هذا، هل تعتقد أنني سأتعب نفسي كثيرًا؟
- من أنا؟ ومهما كان مصيري، كن متأكدًا أنني سأكون جديرًا به. لكنني أريد أن أعرف. من أنا؟

خلع أرسين لوبين قبعته، انحنى وقال: «هيرمان الرابع، الدوق الأكبر لدوقية بون-فيلدينز، أمير برنكاستل، وسيد أماكن أخرى».

بعد ثلاثة أيام. اصطحب لوبين السيدة كيسيلباخ في سيارة باتجاه الحدود، كانت الرحلة صامتة، كان لوبين يتذكر بتأثر حركة دولوريس المرعوبة، والكلمات التي نطقت بها في منزل شارع دي فين في اللحظة التي كان على وشك الدفاع عنها ضد شركاء ألتنهايم. ويبدو أنها كانت تتذكر ذلك أيضًا لأنها ظلت محرجة في حضوره، ومضطربة بشكل واضح.

في المساء، وصلوا إلى قلعة صغيرة مكسوة كليًّا بالأوراق والزهور، ومحاطة بحديقة كبيرة ذات أشجار معمرة. وجدوا هناك جنفييف مستقرة بالفعل وكانت قد عادت للتو من المدينة المجاورة حيث اختارت خدمًا محليين.

قال لوبين: «هذا هو مسكنكِ سيدتي. إنه قصر بروغن. ستنتظرين هنا في أمان تام نهاية هذه الأحداث. غدًا، بيير ليدوك، الذي أخبرته مكانك، سيكون ضيفك».

غادر على الفور متوجهًا إلى فيلدينز، وسلم للكونت فالديمار حزمة الرسائل الشهيرة التي استعادها. قال لوبين: «أنت تعرف شروطي يا فالديمار العزيز. الأمر يتعلق، قبل كل شيء، برفع شأن بيت دوق بون-فيلدينز وإعادة الدوقية الكبرى إلى الدوق الأكبر هيرمان الرابع».

- سأبدأ اليوم بالمفاوضات مع مجلس الوصاية. وفقًا لمعلوماتي، سيكون الأمر سهلًا. ولكن هذا الدوق الأكبر هيرمان.
- صاحب السمو يقيم حاليًّا تحت اسم بيير ليدوك، في قصر بروغن. سأقدم كل الأدلة اللازمة عن هويته.

في المساء نفسه، عاد لوبين إلى طريق باريس بنية تحريك محاكمة ماليريش والعصابة السباعية. ما كانت عليه هذه القضية، والطريقة التي أُدِيرت بها وكيف تطورت، سيكون من المُمل الحديث عنها، إلى درجة أن

الوقائع، وحتى أصغر التفاصيل حاضرة في ذاكرة الجميع. لقد أصبحت أحد تلك الأحداث المثيرة التي يناقشها ويرويها حتى أكثر الفلاحين بساطة في أبعد القرى.

لكن ما أود التذكير به هو الدور الهائل الذي لعبه أرسين لوبين في متابعة القضية وحوادث التحقيق. في الواقع، كان هو من أدار التحقيق. منذ البداية، حلَّ محل السلطات العامة أمر بالتفتيش، أشار إلى التدابير الواجب اتخاذها، حدد الأسئلة التي يجب طرحها على المتهمين، كانت لديه إجابة على كل شيء.

من لا يتذكر الذهول العام، كل صباح عند قراءة تلك الرسائل المنطقية والسلطوية في الصحف، تلك الرسائل الموقعة بالتناوب:

أرسين لوبين، قاضي التحقيق.

أرسين لوبين، المدعى العام.

أرسين لوبين، وزير العدل.

أرسين لوبين، الشرطي.

كان يجلب للعمل حماسًا، حرارة، وحتى عنفًا، كان مدهشًا من جانبه هو، المليء عادة بالسخرية، وفي المجمل، بطبيعته الميالة إلى نوع من التسامح المهني. لا، هذه المرة كان يكرهه. كان يكره هذا الويس دو ماليريش، القاتل الدموي، الوحش البشع، الذي كان دائمًا يخافه، والذي، حتى وهو مسجون، حتى وهو مهزوم، كان ما يزال يعطيه هذا الانطباع من الرعب والاشمئزاز الذي يشعر به المرء عند رؤية زاحف. علاوة على ذلك، ألم يكن لماليريش الجرأة على اضطهاد دولوريس؟ قال لوبين لنفسه: «لقد لعب وخسر، وسلَّم رأسه».

هذا ما كان يريده لعدوه البغيض؛ المقصلة، الصباح الشاحب حيث تنزلق شفرة المقصلة وتقتل.

ما أغرب هذا المتهم الذي استجوبه قاضي التحقيق لشهور بين جدران مكتبه! ما أغرب هذا الشخص النحيل، ذو الوجه الهيكلي، والأعين الميتة! بدا غائبًا عن نفسه. لم يكن هناك، بل في مكان آخر. وما أقل اهتمامه بالإجابة!

«اسمي ليون ماسييه». كانت هذه الجملة الوحيدة التي حَصَر نفسه فيها. فأجابه لوبين: «أنت تكذب. ليون ماسييه، المولود في بيريغو، اليتيم في سن العاشرة، مات منذ سبع سنوات. لقد أخذت أوراقه، لكنك نسيت شهادة وفاته. ها هي ذي».

وأرسل لوبين نسخة من الشهادة إلى المحكمة.

أكد المتهم مجددًا: «أنا ليون ماسييه».

أجاب عليه لوبين: «أنت تكذب، أنت لويس دو مالريش، آخر سليل لنبيل صغير استقر في ألمانيا في القرن الثامن عشر. كان لديك أخ، الذي دعا نفسه بالتناوب باربري، ريبيرا، وألتنهايم. هذا الأخ، قتلته. كانت لديك أخت، إيسيلدا دو مالريش، هذه الأخت، قتلتها».

- أنا ليون ماسييه.

- أنت تكذب. أنت مالريش. هذه شهادة ميلادك، وهذه شهادة ميلاد أخيك، وتلك لأختك.

وأرسل لوبين الشهادات الثلاث.

على أي حال باستثناء ما يتعلق بهويته، لم يدافع مالريش عن نفسه، مُثقلًا على الأرجح بتراكم الأدلة ضده. ماذا كان بإمكانه أن يقول؟ كانوا يملكون أربعين مذكرة مكتوبة بخط يده -كما أثبتت مقارنة الخطوط- لعصابة شركائه، والتي أهمل تمزيقها بعد استعادتها. وكانت كل هذه المذكرات أوامر تتعلق بقضية كيسيلباخ واختطاف السيد لينورمان وجوريل، ومطاردة العجوز شتاينفيج، وإنشاء أنفاق جارش، إلخ. هل كان من الممكن الإنكار؟

أمرٌ غريبٌ نوعًا ما حيَّر العدالة. عند مواجهتهم مع زعيمهم، أكد اللصوص السبعة جميعًا أنهم لا يعرفونه. لم يروه قط. كانوا يتلّقون تعليماته إمَّا عَبْر الهاتف وإمَّا في الظل، تحديدًا بواسطة تلك الملاحظات الصغيرة التي كان مالريش ينقلها لهم بسرعة دون كلمة. ومع ذلك، ألم يكن الاتصال بين جناح شارع ديلايزمون ومخزن تاجر السَّقط دليلًا كافيًا على التواطؤ؟ مِن هناك، كان مالريش يرى ويسمع. مِن هناك، كان الزعيم يراقب رجاله. التناقضات؟ الوقائع التي تبدو غير متوافقة؟ لوبين شرح كل شيء. في مقال شهير نُشِر صباح المحاكمة، تناول القضية من بدايتها، كشف عن خفاياها، فكَّ تشابكها، وأظهر مالريش وهو يسكن دون علم أحد في غرفة أخيه، النقيب باربري

المزيف، يذهب ويأتي غير مرئي عَبْر ممرات فندق بالاس، ويقتل كيسيلباخ، ويقتل عامل الفندق، ويقتل السكرتير تشابمان.

نتذكر المداولات. كانت مرعبة وكئيبة في آن واحد؛ مرعبة بسبب جو القلق الذي خيَّم على الحشد وذكريات الجريمة والدم التي استحوذت على الأذهان، كئيبة، ثقيلة، غامضة، خانقة، بسبب الصمت الهائل الذي التزمه المتهم. لا تمرد. لا حركة. لا كلمة. وجه شمعي، لا يرى ولا يسمع! رؤية مخيفة من الهدوء وعدم الانفعال! في قاعة المحكمة، كان الناس يرتعدون. الخيالات المضطربة، بدلًا من رؤيته بشرًا، استحضرت نوعًا من الكائنات الخارقة، أحد آلهة الأساطير الشرقية، واحد من تلك الآلهة الهندية التي ترمز لكل ما هو وحشي، قاسٍ، متعطش للدماء ومدمر. أمَّا بالنسبة إلى اللصوص الآخرين، فلم ينظر إليهم أحد، مجرد كومبارس تافهين ضاعوا في ظل هذا الزعيم الضخم.

الشهادة الأكثر إثارة للعواطف كانت شهادة السيدة كيسيلباخ. دهشت الجميع، فاجأت حتى لوبين نفسه، ظهرت دولوريس، التي لم ترد على أي من استدعاءات القاضي لها، والتي كان مكان إقامتها مجهولًا، ظهرت كأرملة حزينة لتقدم شهادة لا يمكن دحضها ضد قاتل زوجها. قالت ببساطة، بعد أن نظرت إليه طويلًا: «إنه هذا الذي دخل منزلي في شارع دي فين، إنه هو الذي اختطفني، وهو الذي حبسني في مخزن تاجر السَّقط. أنا أعرفه».

- هل تؤكدين ذلك؟

- أقسم أمام الله والناس.

بعد يومين، حُكِم على لويس دي مالريش المعروف باسم ليون ماسييه بالإعدام. وشخصيته طغت بدرجة كبيرة على شخصيات شركائه؛ يمكن القول إنهم استفادوا من الظروف المخففة.

سأل رئيس محكمة الجنايات: «لويس دي مالريش، هل لديك ما تقوله؟».
لم يُجب.

سؤال واحد ظل غامضًا في نظر لوبين. لماذا ارتكب مالريش كل هذه الجرائم؟ ماذا كان يريد؟ ما كان هدفه؟ لم يكن على لوبين أن ينتظر طويلًا ليعرف، كان اليوم الذي سيعرف فيه الحقيقة الرهيبة قريبًا، ذلك اليوم الذي سيبقى فيه مرتعدًا من الرعب ومصابًا باليأس وبجراح مميتة.

في الوقت الحالي، دون أن تتوقف الفكرة عن مراودته، لم يعد يهتم بقضية مالريش. صار مصممًا على تغيير جلده -كما كان يقول- مطمئنًا من ناحية أخرى على مصير السيدة كيسيلباخ وجنفييف، اللتين كانتا تُتابعان حياتهما الهادئة عن بعد، وأخيرًا على اطلاع بواسطة جان دوديفيل الذي أرسله إلى فيلدينز، على كل المفاوضات التي كانت تجري بين البلاط الألماني، ووصاية دوقية بون-فيلدينز، كان هو يستغل كل وقته في تصفية الماضي والتحضير للمستقبل.

فكرة الحياة المختلفة التي أراد أن يعيشها تحت أنظار السيدة كيسيلباخ كانت تثير فيه طموحات جديدة ومشاعر غير متوقعة، حيث كانت صورة دولوريس متداخلة دون أن يدرك ذلك بشكل دقيق. في غضون أسابيع قليلة، أزال كل الأدلة التي كان يمكن أن تدينه يومًا ما، كل الآثار التي كانت يمكن أن تقود إليه. أعطى كل واحد من رفاقه القدامى مبلغًا كافيًا من المال ليحميهم من الحاجة، وودَّعهم معلنًا أنه مسافر إلى أمريكا الجنوبية.

في صباح أحد الأيام، بعد ليلة من التفكير الدقيق ودراسة متعمقة للوضع، صاح: «انتهى الأمر. لم يعد هناك ما يخشى. لوبين القديم مات، المجال مفتوح للشاب».

أحضروا له تليغرافًا من ألمانيا. كانت النهاية المتوقعة. مجلس الوصاية، متأثرًا ببلاط برلين، قد عرض المسألة على ناخبي الدوقية الكبرى، والناخبون، متأثرين بمجلس الوصاية، أكدوا ولاءهم الثابت للسلالة القديمة من فيلدينز. كُلِّف الكونت فالديمار، إلى جانب ثلاثة مندوبين من النبلاء والجيش والقضاء بالذهاب إلى قلعة بروغن لإثبات هوية الدوق الأكبر هيرمان الرابع بدقة، واتخاذ كل الترتيبات مع صاحب السمو لدخوله المنتصر إلى إمارة أجداده، والذي سيحدث في بداية الشهر المقبل.

قال لوبين لنفسه: «هذه المرة، نُفِّذ الأمر، المشروع الكبير للسيد كيسيلباخ يتحقق. لم يبق سوى جعلِ فالديمار يبتلع بيير ليدوك الخاص بي. لعبة أطفال! غدًا سيُعلن خطوبة جنفييف وبيير. وخطيبة الدوق الأكبر هي التي ستقدم لفالديمار!

وبسعادة غامرة، انطلق بسيارته إلى قصر بروغن. كان يغني في سيارته، يصفر، يخاطب سائقه: «أوكتاف، هل تعرف من لديك شرف قيادته؟ سيد العالم. نعم يا صديقي العزيز، هذا يدهشك، أليس كذلك؟ بالتأكيد، إنها

الحقيقة. أنا سيد العالم». كان يفرك يديه، ويستمر في حديثه مع نفسه: «مع ذلك كان الأمر طويلًا. ها قد مَرَّ عام منذ بداية المعركة. صحيح أنها المعركة الأكثر هولًا التي خضتها... يا إلهي، أي حرب عملاقة!». وكرر: «ولكن هذه المرة نُفِّذ الأمر. الأعداء في الماء، لا عوائق بين الهدف وبيني. الساحة خالية، فلنبنِ! لديَّ المواد تحت يدي، لديَّ العمال، فلنبنِ يا لوبين! وليكن القصر جديرًا بك!».

طلب أن يتوقف على بعد مئات الأمتار من القلعة حتى يكون وصوله أكثر تكتمًا، وقال لأوكتاف: «ستدخل بعد عشرين دقيقة من الآن، في الساعة الرابعة، وستذهب لوضع حقائبي في الكوخ الصغير في نهاية الحديقة. هناك حيث سأقيم».

عند أول منعطف في الطريق، ظهر له القصر في نهاية ممر مظلم من أشجار الزيزفون. من بعيد، على الشرفة، رأى جنفييف تمر. قلبه انفعل برقة. قال بعاطفة: «جنفييف، جنفييف! جنفييف! العهد الذي قَطَعَته عليَّ أمكِ وهي على فراش الموت يتحقق أيضًا. جنفييف، دوقة كبرى، وأنا في الظل بالقرب منها أسهر على سعادتها وأتابع المخططات الكبرى للوبين».

انفجر ضاحكًا، قفز خلف مجموعة من الأشجار التي كانت تنتصب على يسار الممر وانسلَّ بجانب الشجيرات الكثيفة. بهذه الطريقة وصل إلى القصر دون أن يرصده أحد من نوافذ الصالون أو الغرف الرئيسية. كانت رغبته أن يرى دولوريس قبل أن تراه، وكما فعل مع جنفييف، نطق اسمها عدة مرات، ولكن بانفعال أدهشه هو نفسه: «دولوريس! دولوريس!».

بخفة تبع الممرات ووصل إلى غرفة الطعام. من هذه الغرفة، من خلال زجاج شفاف كان بإمكانه رؤية نصف الصالون. اقترب. كانت دولوريس ممددة على كرسي طويل، وبيير ليدوك، راكعًا أمامها، ينظر إليها بنظرة منبهرة.

الجزء الخامس عشر

خريطة أوربا

الفصل الأول

كان بيير ليدوك يحب دولوريس! كان هذا بالنسبة إلى لوبين ألمًا عميقًا وحادًّا، كما لو أنه أُصِيب في جوهر حياته نفسها بألم شديد، لدرجة أنه -وللمرة الأولى- رأى بوضوح ما أصبحت عليه دولوريس بالنسبة إليه، تدريجيًّا، دون أن يدرك ذلك. كان بيير ليدوك يحب دولوريس، وكان ينظر إليها كما ينظر المرء إلى من يحب. شعر لوبين داخله -بعدما أصابه العمى والجنون- بغريزة القتل. تلك النظرة، تلك النظرة المحبة التي استقرت على الشابة، تلك النظرة أفقدته صوابه. كان لديه إحساس بالصمت العظيم الذي يحيط بالشابة والشاب، وفي هذا الصمت، في ثبات الموقف، لم يكن هناك ما هو حي سوى تلك النظرة المُحبة، ذلك النشيد الصامت والشهواني الذي عبَّرت به الأعين عن كل العاطفة، كل الرغبة، كل الحماس، كل اندفاع كائن تجاه آخر. ورأى السيدة كيسيلباخ أيضًا. كانت عينا دولوريس غير مرئيتين تحت جفونها المنخفضة، جفونها الحريرية ذات الرموش السوداء الطويلة. ولكن كم كانت تشعر بنظرة الحب التي تبحث عن نظرتها! كم كانت ترتعش تحت المداعبة غير الملموسة!

قال لوبين لنفسه محترقًا من الغيرة: «إنها تحبه. إنها تحبه!». وعندما أصدر بيير إيماءة، أردف لوبين: «آه! أيها الحقير، إذا تجرأ على لمسها، سأقتله». كان يفكر، بينما كان يدرك انهيار عقله، ويحاول محاربته: «ما أغباني! كيف! أنت، لوبين، تَدَع نفسك تنجرف هكذا! انظر، هذا طبيعي تمامًا إذًا كانت تحبه. نعم، بالطبع، كنت تعتقد أنك لمحت فيها انفعالًا معينًا عند اقترابك، اضطرابًا معينًا، يا لك من أحمق! لكنك لست سوى مجرم، أنت لص، بينما هو، إنه دوق، إنه شاب».

لم يتحرك بيير أكثر من ذلك لكن شفتيه تحركتا، وبدا أن دولوريس استيقظت. برفق، ببطء، رفعت جفنيها، وأدارت رأسها قليلًا، وأعطت عينيها لعيني الشاب، بالنظرة نفسها التي تُقدم نفسها، وتُسلم نفسها، والتي هي أعمق من أعمق القبلات.

كان ذلك فجأة، مفاجئًا كضربة رعد. في ثلاث قفزات، اندفع لوبين إلى الصالون، وهجم على الشاب، وألقاه أرضًا ورُكبته على صدر منافسه خارجًا عن السيطرة منتصبًا نحو السيدة كيسيلباخ، صرخ: «ألا تعرفين إذًا؟ ألم يخبركِ؟! أيها المخادع. وأنت تحبينه، هو؟ هل هو دوق عظيم؟ آه! كم هذا مضحك!».

كان يضحك بغضب، بينما كانت دولوريس تنظر إليه بذهول.

استمر لوبين: «دوق عظيم، هو! هيرمان الرابع، دوق بون-فيلدينز! أمير حاكم! لكن هذا مميت من الضحك. هو! لكن اسمه بوبريه، جيرار بوبريه، آخر المتشردين. متسول التقطته من الوحل. دوق عظيم! لكنني أنا من جعلته دوقًا عظيمًا! آه! آه! كم هذا مضحك! لو رأيته يقطع إصبعه الصغير... ثلاث مرات أغمي عليه، دجاجة غارقة. آه! تسمح لنفسك برفع عينيك على السيدات، والتمرُّد على السيد! انتظر قليلًا، يا دوق بون-فيلدينز العظيم».

أخذه بين ذراعيه، مثل حزمة، وأرجحه للحظة، وألقاه من النافذة المفتوحة قائلًا: «احذر الورود، أيها الدوق العظيم، هناك أشواك».

عندما استدار، كانت دولوريس بجانبه، وكانت تنظر إليه بعينين لم يرهما من قبل، عيني امرأة تكره ويثيرها الغضب. هل كان من الممكن أن تكون هذه دولوريس؟ دولوريس الضعيفة والمريضة! تَمتَمت: «ماذا تفعل؟ كيف تجرؤ؟ وهو! إذًا، هذا صحيح؟ لقد كذب عليَّ؟».

صرخ لوبين، مدركًا إهانتها كامرأة: «هل كذب؟! هل كذب؟! هو، دوق عظيم! مجرد دمية ببساطة، أداة كنت أضبطها لأعزف عليها ألحانًا من خيالي! آه! يا للأحمق! يا للأحمق!».

استولى عليه الغضب مرة أخرى، وكان يضرب بقدمه ويلوح بقبضته نحو النافذة المفتوحة. وبدأ يمشي من طرف الغرفة إلى الآخر، وكان يُلقي بعبارات انفجر فيها عنف أفكاره السرية: «الأحمق! ألم ير ما كنت أتوقعه منه؟ ألم يُخمن عظمة دوره؟ آه! هذا الدور، سأدخله بالقوة في رأسه. ارفع رأسك، أيها

الأحمق! ستكون دوقًا عظيمًا بإرادتي! وأميرًا حاكمًا! مع قائمة مدنية، ورعايا! وقصر سيعيد الإمبراطور بناءه! وسيد سيكون أنا، لوبين! هل تفهم، يا أحمق؟ ارفع رأسك، اللعنة! انظر إلى السماء، تذكر أن أحد آل زوايبروكن شُنق بتهمة السرقة قبل أن يكون هناك حديث عن آل هوهنزولرن. وأنت من آل زوايبروكن، اللعنة! ليس أقل من ذلك، وأنا هنا، أنا لوبين! وستكون دوقًا عظيمًا، أقول لك، دوقًا أعظم من الكرتون! ليكن، ولكن دوقًا أعظم على أي حال، مُحركًا بنَفسي ومحترقًا بناري. دُمية؟ ليكن دُمية. ولكن دُمية ستقول **كلماتي**، وستقوم **بإيماءاتي**، وستُنَفذ **إرادتي**، وستحقق **أحلامي**. نعم، أحلامي!».

لم يعد يتحرك، كما لو كان مبهورًا بروعة حلمه الداخلي. ثم اقترب من دولوريس، وبصوت أجش نطق: «على يساري، الألزاس واللورين. على يميني، بادن، فورتمبيرغ، بافاريا، ألمانيا الجنوبية. كل هذه الولايات -التي لم تندمج بشكل جيد- الساخطة المسحوقة تحت حذاء شارلمان البروسي، قَلِقة لكنها كلها مستعدة للتحرر. هل تفهمين كل ما يمكن لرجل مثلي أن يفعله هناك في الوسط؟ كل ما يمكن أن يُوقظه من تطلعات؟! كل ما يمكن أن يُنشأ من كراهية؟ كل ما يمكن أن يُثار من تمردات وغضب؟».

وبصوت أخفض كرر: «وعلى اليسار، الألزاس واللورين! هل تفهمين؟ هذه أحلام، هيا إذًا! إنها حقيقة بعد غد، غدًا. نعم. أريد... أريد! آه! كل ما أريده وكل ما سأفعله، إنه أمر لا يصدق! لكن فكري، على بعد خطوتين من حدود الألزاس! في قلب البلاد الألمانية! بالقرب من نهر الراين القديم! ستكفي القليل من المؤامرات، والقليل من العبقرية، لقلب العالم رأسًا على عقب. العبقرية، لديَّ منها، لديَّ ما يكفي وأكثر. وسأكون السيد! سأكون من يوجِّه. الآخر، الدمية، اللقب والشرف... بالنسبة إليَّ، السلطة! سأبقى في الظل. لا منصب، لا وزير، ولا حتى حاجب! لا شيء. سأكون أحد خدم القصر، ربما البستاني. نعم، البستاني. آه! الحياة الرائعة! زراعة الزهور وتغيير خريطة أوروبا!».

كانت تتأمله بشغف مسيطر عليها، خاضعة لقوة هذا الرجل. وكانت عيناها تعبران عن إعجاب لم تحاول إخفاءه.

وضع يديه على كتفي الشابة وقال: «هذا هو حلمي. مهما كان عظيمًا، ستتجاوزه الوقائع، أقسم لكِ. لقد رأى الإمبراطور بالفعل ما أنا عليه. يومًا ما، سيجدني أمامه منتصبًا وجهًا لوجه. لديَّ كل الأوراق الرابحة في يدي.

فالينغلاي سيسير معي! إنجلترا أيضًا اللعبة محسومة، هذا هو حلمي. هناك حلم آخر...».

صمت فجأة. لم ترفع دولوريس عينيها عنه، وكانت عاطفة لا حدود لها في وجهها. غمرته سعادة كبيرة عندما شعر مرة أخرى، وبوضوح شديد باضطراب هذه المرأة بجانبه. لم يعد لديه انطباع بأنه بالنسبة إليها ما كان عليه؛ لصًّا، مجرمًا، بل رجلًا، رجلًا يُحِب، وحبه يحرك في أعماق روحه مشاعر غير معبر عنها.

لذلك لم يتكلم لكنه قال لها دون نطقها كل كلمات الحنان والحب، وكان يفكر في الحياة التي يمكنهما أن يعيشاها في مكان ما، ليس بعيدًا عن فيلدينز، مجهولَين، ولكن لديهما كل القوة.

صمت طويل، ثم نهضت وأمرت برفق: «اذهب، أتوسل إليك أن ترحل! بيير سيتزوج جنفييف، هذا ما أعدك به، لكن من الأفضل أن ترحل. ألا تكون هنا، اذهب! بيير سيتزوج جنفييف».

انتظر لحظة. ربما كان يريد كلمات أكثر تحديدًا، لكنه لم يجرؤ على طلب أي شيء. وانسحب مبهورًا، ثملًا وسعيدًا جدًّا بالطاعة وإخضاع مصيرها لمصيره!

في طريقه نحو الباب صادف كرسيًّا منخفضًا كان عليه أن يحركه. لكن قَدَمه اصطدمت بشيء ما. خفض رأسه. كانت مرآة جيب صغيرة، من خشب الأبنوس، مع حروف ذهبية. فجأة، ارتعش، والتقط الشيء بسرعة. كانت الحروف تتكون من حرفين متشابكين، L و M.

L و M!

قال وهو يرتعش: «لويس دو ماليريش». استدار نحو دولوريس: «من أين جاءت هذه المرآة؟ لمن هي؟ سيكون من المهم جدًّا أن...».

أمسكت بالشيء وفحصته: «لا أعرف، لم أرها من قبل. ربما لخادم». قال: «خادم، بالفعل، لكن هذا غريب جدًّا، هناك تصادف».

في اللحظة نفسها، دخلت جنفييف من باب الصالون، ودون أن ترى لوبين الذي كان يخفيه حاجزٌ، صاحت على الفور: «آه! مرآتك، دولوريس. إذًا وجدتها؟! منذ وقت وأنت تجعلينني أبحث عنها! أين كانت؟». وغادرت الفتاة

قائلة: «آه! حسنًا، هذا أفضل! كم كنت قلقة! سأخبر الجميع على الفور حتى لا يبحثوا بعد الآن».

لم يتحرك لوبين مذهولًا ومحاولًا عبثًا أن يفهم. لماذا لم تقل دولوريس الحقيقة؟ لماذا لم تشرح على الفور عن هذه المرآة؟ خطرت له فكرة، وقال، بشكل عشوائي إلى حد ما: «هل كنت تعرفين لويس دو مالريش؟». قالت وهي تراقبه، كما لو كانت تحاول تخمين الأفكار التي تحاصره: «نعم».

اندفع نحوها باضطراب شديد: «كنت تعرفينه؟ من كان؟ من هو؟ من هو؟! ولماذا لم تقولي شيئًا؟ أين عرفته؟ تكلمي! أجيبي أرجوكِ!». قالت: «لا».

- لكن يجب، مع ذلك.. يجب... فكري! لويس دو مالريش، القاتل! الوحش! لماذا لم تقولي شيئًا؟

بدورها، وضعت يديها على كتفي لوبين، وأعلنت بصوت حازم جدًّا: «اسمع، لا تسألني مطلقًا لأنني لن أتكلم أبدًا. إنه سر سيموت معي. مهما حدث، لن يعرفه أحد، لا أحد في العالم، أقسم!».

الفصل الثاني

ظل لبضع دقائق واقفًا أمامها قلقًا، عقله في حالة اضطراب. تذكر صمت شتاينفيج، ورعب الرجل العجوز عندما طلب منه الكشف عن السر الرهيب. دولوريس كانت تعرف أيضًا، وهي صامتة. دون كلمة، خرج. أشعره الهواء الطلق والفضاء بتحسُّن. عَبَر أسوار الحديقة، وتجول طويلًا عَبْر الريف. وكان يتحدث بصوت عالٍ: «ما الأمر؟ ماذا يحدث؟ منذ أشهر وأشهر وأنا أحارب وأتصرف، أجعل كل الشخصيات التي يجب أن تساهم في تنفيذ خططي ترقص على طرف حبالها، وخلال هذا الوقت نسيت تمامًا أن أنحني عليهم وأنظر إلى ما يتحرك في قلوبهم وعقولهم. لا أعرف بيير ليدوك، لا أعرف جنفييف، لا أعرف دولوريس. وقد عاملتهم كدُمَى، بينما هم شخصيات حية. واليوم، أصطدم بعقبات...».

ضرب الأرض بقدمه وصاح: «بعقبات غير موجودة! حالة جنفييف وبيير العاطفية، لا أهتم بها، سأدرس ذلك لاحقًا. في فيلدينز، عندما أحقق سعادتهما. لكن دولوريس... إنها تعرف مالريش، ولم تقل شيئًا! لماذا؟ ما العلاقات التي تربطهما؟ هل تخاف منه؟ هل تخشى أن يهرب ويأتي للانتقام لأنها سرَّبت معلومات عنه؟».

عند حلول الليل، وصل إلى الكوخ الذي احتفظ به لنفسه في أعماق الحديقة، وتناول العشاء بمزاج سيئ للغاية، يشتم أوكتاف الذي كان يخدمه، إمَّا ببطء شديد وإمَّا بسرعة كبيرة: «لقد سئمت، اتركني وحدي. أنت لا تفعل سوى الحماقات اليوم، وهذه القهوة؟ إنها بشعة».

ألقى بالفنجان نصف المملوء وتجول في الحديقة لمدة ساعتين، يكرر الأفكار نفسها. في النهاية، تبلورت فرضية في ذهنه: «مالريش هرب من

السجن، إنه يُرهب السيدة كيسيلباخ، وهو يعرف بالفعل منها حادثة المرآة».

هزَّ لوبين كتفيه: «والليلة سيأتي ليسحبك من قدميك. هيا، أنا أهذي. الأفضل أن أذهب للنوم».

دخل غرفته واستلقى على السرير. على الفور غفا في نوم ثقيل مضطرب بالكوابيس. استيقظ مرتين وأراد إشعال الشموع، سقط مرتين مجددًا، كأنه مهزوم. كان يسمع الساعات تدق في ساعة القرية، أو بالأحرى كان يعتقد أنه يسمعها، لأنه كان غارقًا في نوع من الخمول، حيث بدا له أنه يحتفظ بكامل عقله. وطاردته أحلام، أحلام القلق والرعب.

بوضوح، أدرك صوت نافذته وهي تُفتح. بوضوح، من خلال جفونه المغلقة، من خلال الظلام الكثيف، رأى شكلًا يتقدَّم، وهذا الشكل انحنى عليه. كانت لديه الطاقة المذهلة لرفع جفنيه والنظر أو على الأقل هكذا تخيَّل. هل كان يحلم؟ هل كان مستيقظًا؟ كان يسأل نفسه بيأس.

صوت آخر. كان أحدهم يأخذ علبة الكبريت، بجانبه. قال لنفسه بفرح كبير: «سأرى إذًا». اشتعل عود ثقاب، أُضيئت الشمعة.

من رأسه إلى أخمص قدميه، شعر لوبين بالعرق يسيل على بشرته، في الوقت نفسه الذي توقف فيه قلبه عن النبض معلقًا من الخوف. *كان* **هذا الرجل** هناك. هل كان ذلك ممكنًا؟ لا، لا... ومع ذلك، كان **يرى**. آه! المشهد المرعب! كان الرجل الوحش هناك.

تَمتَم لوبين بجنون: «لا أريد. لا أريد!». كان الرجل الوحش هناك، يرتدي الأسود، قناع على وجهه، قبعة لينة مسحوبة على شعره الأشقر. قال لوبين ضاحكًا: «آه! أنا أحلم، أنا أحلم. إنه كابوس».

بكل قوته، بكل إرادته، أراد أن يتحرك حركة واحدة فقط تطرد الشبح، لم يستطع. وفجأة تذكر: «فنجان القهوة! طعم ذلك المشروب مشابه لطعم القهوة التي شربها في فيلدينز».

أطلق صرخة بذل جهدًا أخيرًا، وسقط منهكًا.

لكن في هذيانه، شعر أن الرجل كان يكشف أعلى قميصه، يعري حلقه ويرفع ذراعه، ورأى أن يده كانت تتشنج على مقبض خنجر، خنجر صغير من الفولاذ، مشابه لذلك الذي ضرب به السيد كيسيلباخ، تشابمان، ألتنهايم، والكثير غيرهم.

الفصل الثالث

بعد عدة ساعات، استيقظ لوبين، منهكًا من التعب، يشعر بمرارة في فمه. ظل لعدة دقائق يجمع أفكاره، وفجأة، متذكرًا، تحرَّك حركة دفاعية غريزية كما لو كان يتعرض للهجوم. صرخ وهو يقفز من سريره: «يا لي من أحمق! إنه كابوس، هلوسة. كفي تفكيرًا. لو كان هو، لو كان حقًّا رجلًا، من لحم ودم، ورفع ذراعه عليَّ هذه الليلة، لكان ذبحني كالدجاجة. *ذلك الشخص* لا يتردد. لأكون منطقيًّا. لماذا كان سيُبقِي حياتي؟ من أجل عينيَّ الجميلتين؟ لا، لقد حلمت، هذا كل شيء».

بدأ يُصفر وارتدى ملابسه متظاهرًا بالهدوء التام، لكن عقله لم يتوقف عن العمل، وعيناه كانتا تبحثان على الأرض، على حافة النافذة، لا أثر. بما أن غرفته كانت في الطابق الأرضي وكان ينام والنافذة مفتوحة، كان من الواضح أن المعتدي كان سيأتي من هناك. ومع ذلك، لم يكتشف شيئًا، ولا شيء أيضًا عند أسفل الجدار الخارجي، على رمال الممر الذي يَحد الكوخ. كرر بين أسنانه: «ومع ذلك، ومع ذلك...».

نادى أوكتاف: «أين أعددت القهوة التي أعطيتني إياها أمس مساءً؟».

- في القصر يا سيدي، مثل كل شيء آخر. لا يوجد موقد هنا.
- هل شربت من هذه القهوة؟
- لا.
- هل رميت ما كان في إبريق القهوة؟
- بالطبع يا سيدي. لقد وجدتها سيئة جدًّا، لم تستطع شرب سوى بضع رشفات.

- حسنًا، جهز السيارة. سنرحل.

لم يكن لوبين رجلًا يستطيع أن يعيش في حالة شك. أراد تفسيرًا حاسمًا مع دولوريس. لكن من أجل ذلك كان بحاجة -قبل كل شيء- إلى توضيح بعض النقاط التي بدت له غامضة، ورؤية دوديفيل الذي أرسل له من فيلدينز معلومات غريبة نوعًا ما.

دون توقف، جعل نفسه يُقاد إلى الدوقية الكبرى التي وصل إليها قرابة الساعة الثانية. كان لديه لقاء مع الكونت فالديمار الذي طلب منه تحت ذريعة ما، تأخير رحلة مندوبي الوصاية إلى بروغن. ثم ذهب للقاء جان دوديفيل في حانة في فيلدينز. اصطحبه دوديفيل بعد ذلك إلى حانة أخرى حيث قدَّم له رجلًا صغيرًا فقير الملبس نوعًا ما: السيد شتوكلي، موظف في أرشيف السجل المدني. كانت المحادثة طويلة. خرجوا معًا، ومروا الثلاثة خلسة عَبْر مكاتب دار البلدية.

في السابعة تناول لوبين العشاء وغادر. في العاشرة وصل إلى قصر بروغن واستفسر عن جنفييف من أجل الدخول معها إلى غرفة السيدة كيسيلباخ. أجابوه أن الآنسة إرنمون قد استُدعيت إلى باريس بتلغراف من جدتها. قال: «حسنًا، لكن هل السيدة كيسيلباخ متاحة؟».

- صعدت السيدة فور انتهاء العشاء، يجب أن تكون نائمة.

- لا، لقد رأيت ضوءًا في غرفة جلوسها. ستستقبلني.

بالكاد انتظر إجابة السيدة كيسيلباخ. دخل إلى غرفة الجلوس تقريبًا على إثر الخادمة، صرف هذه الأخيرة، وقال لدولوريس: «يجب أن أتحدث إليك سيدتي، إنه أمر عاجل. اعذريني! أعترف أن مبادرتي قد تبدو لك متطفلة، لكنكِ ستفهمين، أنا متأكد».

كان متوترًا جدًّا ولم يبد مستعدًا لتأجيل التفسير خصوصًا أنه -قبل الدخول- ظن أنه سمع ضجيجًا. ومع ذلك، كانت دولوريس وحدها، ممددة. وقالت له، بصوتها المتعب: «ربما كان بإمكاننا غدًا».

لم يرد مصدومًا فجأة برائحة أدهشته في غرفة جلوس امرأة، رائحة تبغ. وعلى الفور، كان لديه حدس، يقين بأن رجلًا كان هنا، في اللحظة التي وصل فيها هو نفسه، وأنه ما زال هنا، مختبئًا في مكان ما. بيير ليدوك؟ لا، بيير ليدوك لا يدخن. من إذًا؟

تَمتَمت دولوريس: «لننه الأمر، أرجوك!».

- نعم، نعم، لكن قبل ذلك. هل يمكنك أن تخبريني؟

توقف. ما فائدة استجوابها؟ إذا كان هناك حقًّا رجل مختبئ، هل ستبلغ عنه؟

ثم قرر، وهو يحاول التغلب على نوع من الحرج الخائف الذي كان يثقل عليه بشعوره بوجود غريب، تحدث بصوت منخفض، بحيث لا تسمعه سوى دولوريس: «اسمعي، لقد علمت شيئًا لا أفهمه، ويزعجني بشدة. يجب أن تجيبيني، أليس كذلك دولوريس؟». نطق اسمها بلطف كبير، وكما لو كان يحاول السيطرة عليها بصداقة وحنان صوته.

قالت: «ما هذا الشيء؟».

- سجل الحالة المدنية في فيلدينز يحمل ثلاثة أسماء، هي أسماء آخر سلالة عائلة مالريش، المستقرة في ألمانيا.

- نعم، لقد أخبرتني بذلك.

- هل تتذكرين؟! أولًا راؤول دي مالريش، المعروف أكثر باسمه الحركي ألتنهايم، اللص، قاطع الطريق من الطبقة العليا.

- لقد مات. اغتيل.

- نعم.

- ثم لويس دو مالريش، ذلك الوحش، القاتل المروِّع، الذي سيُقطع رأسه بعد أيام قليلة.

- نعم.

- ثم أخيرًا، إيسيلدا المجنونة.

- نعم.

- إذًا، كل هذا مؤكد، أليس كذلك؟

- بلى.

قال لوبين وهو ينحني نحوها أكثر: «حسنًا! من تحقيق أجريته للتو، يتبين أن الاسم الثاني من الأسماء الثلاثة، لويس، أو بالأحرى الجزء من السطر الذي كُتب عليه، قد تعرض في الماضي لعملية كشط. السطر مكتوب فوقه بكتابة

جديدة بحبر أحدث بكثير، لكنه مع ذلك لم يُمح تمامًا ما كان مكتوبًا تحته. بحيث إن...».

قالت السيدة كيسيلباخ بصوت منخفض: «بحيث إن؟».

- بحيث إنه، باستخدام عدسة مكبرة جيدة وخصوصًا بالطرق الخاصة التي أمتلكها، تمكّنت من إحياء بعض المقاطع الممحوة، ودون خطأ، بكل يقين، إعادة تشكيل الكتابة القديمة. فلا نجد حينها لويس دو مالريش، بل...

- أوه! اصمت، اصمت!

منهارة فجأة بسبب المقاومة الطويلة جدًّا التي أبدتها، انحنت إلى الأمام، ورأسها بين يديها، وكتفاها تهتزان بتشنجات وهي تبكي.

نظر لوبين طويلًا إلى هذا المخلوق الكسول والضعيف، المثير للشفقة جدًّا والمضطرب. وكان يودُّ أن يصمت، ويوقف الاستجواب المؤلم الذي كان يفرضه عليها. ولكن ألم يكن يفعل ذلك لإنقاذها؟ ولإنقاذها، ألم يكن من الضروري أن يعرف الحقيقة مهما كانت مؤلمة؟

استأنف: «لماذا هذا التزوير؟».

تَمتَمت: «إنه زوجي، هو من فعل ذلك. بثروته كان يستطيع فعل كل شيء، وقبل زواجنا، ساعده موظف ثانوي على تغيير اسم الطفل الثاني في السجل».

- الاسم والجنس.

- نعم.

- إذًا، لم أكن مخطئًا: الاسم القديم الحقيقي كان دولوريس؟ ولكن لماذا زوجك؟

همست وخداها مغموران بالدموع، خجلة تمامًا: «ألا تفهم؟».

- لا.

قالت وهي ترتعش: «فَكِّر، كنت أخت إيسيلدا المجنونة، أخت ألتنهايم القاطع للطرق. زوجي، أو بالأحرى خطيبي وقتها، لم يرد أن أبقى كذلك. كان يحبني، وأنا أيضًا كنت أحبه، ووافقت. لقد محا من السجلات دولوريس مالريش، واشترى لي أوراقًا أخرى، هوية أخرى، شهادة ميلاد أخرى، وتزوجت في هولندا باسم فتاة أخرى، دولوريس أمونتي.

فكر لوبين للحظة وقال بتأمل: «نعم، نعم... أفهم، ولكن إذًا، لويس مالريش غير موجود، وقاتل زوجك، قاتل أختك وأخيك، لا يحمل هذا الاسم، اسمه!».

نهضت بسرعة وقالت: «اسمه! نعم، إنه يحمل هذا الاسم. نعم، إنه اسمه على أي حال. لويس مالريش، L و M. تذكر. آه! لا تبحث، إنه السر الرهيب. وبعد ذلك، ما أهمية ذلك! المجرم هناك، إنه المذنب. أقول لك ذلك. هل دافع عن نفسه عندما اتهمته وجهًا لوجه؟ هل كان يستطيع الدفاع عن نفسه بهذا الاسم أو باسم آخر؟ إنه هو. إنه هو! لقد قَتَل، لقد طَعَن، الخنجر... خنجر الفولاذ. آه! لو كان بالإمكان قول كل شيء! لويس مالريش، لو استطعت...».

كانت تتلوى على الأريكة الطويلة، في نوبة عصبية، ويدها تشنجت على يد لوبين، وسمعها تُتَمتِم وسط كلمات غير واضحة: «احمني! احمني! ربما أنت وحدك. آه! لا تتخلَّ عني، أنا تعيسة جدًّا. آه! أي عذاب! أي عذاب! إنه الجحيم».

بيده الحرة، لمس شعرها وجبينها برقة لا متناهية، وتحت تأثير هذا الحنان، استرخت وهدأت تدريجيًا. ثم نظر إليها مرة أخرى، وطويلًا، طويلًا، تساءل عما يمكن أن يكون وراء هذه الجبهة الجميلة النقية، أي سر يدمر هذه الروح الغامضة. هي أيضًا كانت خائفة، ولكن ممن؟ ضد من كانت تتوسل الحماية؟

مرة أخرى، استحوذت عليه صورة الرجل الأسود، ذلك اللويس مالريش، العدو الغامض وغير المفهوم، الذي كان عليه أن يصد هجماته دون معرفة من أين تأتي، أو حتى ما إذا كانت تحدث.

كونه في السجن مراقبًا ليل نهار. ما أهمية ذلك! ألم يكن لوبين يعرف من تجربته الشخصية أن هناك كائنات لا وجود للسجن بالنسبة إليهم، وأنهم يتحررون من قيودهم في اللحظة الحاسمة! ولويس مالريش كان من بين هؤلاء.

نعم، كان هناك شخصٌ ما في سجن سانتيه، في زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام. ولكن قد يكون شريكًا، أو ضحية ما لمالريش. بينما هو، مالريش، كان يحوم حول قصر بروغن، ويتسلل في ظل الظلام، كشبح غير مرئي، ويدخل الكوخ في الحديقة، وفي الليل، يرفع خنجره على لوبين، النائم والمشلول.

وكان لويس ماليريش هو من يرهب دولوريس، ومن يجعلها مجنونة بتهديداته، ومن يسيطر عليها بسرٍّ ما رهيب ويجبرها على الصمت والخضوع. وتخَيَّل لوبين خطة العدو: دفع دولوريس، المذعورة والمرتعشة، بين ذراعي بيير ليدوك. والتخلص منه هو، لوبين. ثم الحكم مكانه، هناك، بسلطة الدوق الكبير وملايين دولوريس.

فرضية محتملة، فرضية مؤكدة، تتكيف مع الأحداث وتقدم حلًّا لجميع المشكلات.

اعترض لوبين وهو يفكر: «نعم. ولكن لماذا إذًا لم يقتلني الليلة الماضية في الكوخ؟ كان عليه فقط أن يفعل ولم يُرِد. حركة واحدة، وسأكون ميتًا. هذه الحركة، لم يفعلها. لماذا؟

فتحت دولوريس عينيها، ورأته، وابتسمت ابتسامة شاحبة. قالت: «دعني». نهض مترددًا. هل سيذهب ليرى ما إذا كان العدو خلف هذا الستار أو مختبئًا خلف فساتين هذه الخزانة؟ كررت برقة: «اذهب! سأنام». خرج ولكن في الخارج توقف تحت أشجار كانت تشكل كتلة من الظل أمام واجهة القصر. رأى ضوءًا في غرفة جلوس دولوريس، ثم انتقل هذا الضوء إلى غرفة النوم. بعد بضع دقائق، حلَّ الظلام. انتظر. إذا كان العدو هناك، ربما سيخرج من القصر! مرَّت ساعة، ساعتان، لا صوت!

فكر لوبين: «لا فائدة، إمَّا أنه يختبئ في زاوية ما من القصر، وإمَّا أنه خرج من باب لا أستطيع رؤيته من هنا. ما لم يكن كل هذا. بالنسبة إليَّ، أكثر الفرضيات سخافة هي...».

أشعل سيجارة وعاد باتجاه الكوخ. وبينما كان يقترب منه لمح من مسافة بعيدة نسبيًا ظلًّا يبدو أنه يبتعد عنه. لم يتحرك خوفًا من إنذاره. عَبَر الظِّل ممرًّا. في وضوح الضوء، بدا له أنه تعرَّف على الشبح الأسود لماليريش. اندفع، هرب الظل واختفى.

قال لنفسه: «حسنًا، سيكون ذلك غدًا. وهذه المرة!».

الفصل الرابع

دخل لوبين إلى غرفة أوكتاف، سائقه، أيقظه وأمره: «خذ السيارة. ستكون في باريس في الساعة السادسة صباحًا. سترى جاك دوديفيل وتقول له: أولًا أن يعطيني أخبارًا عن المحكوم عليه بالإعدام. ثانيًا أن يُرسل إليَّ، فور فتح مكاتب البريد، تليغرافًا بهذا النص». كتب نص التليغراف على قصاصة ورق وأضاف: «حالما تنتهي من مهمتك، عُد، ولكن من هنا، على طول جدران الحديقة. اذهب، يجب ألا يشك أحد في غيابك!».

توجَّه لوبين إلى غرفته، شغَّل زنبرك مصباحه، وبدأ تفتيشًا دقيقًا: «هذا هو». قال بعد لحظة: «لقد جاء أحدهم هذه الليلة بينما كنت أحرس تحت النافذة. وإذا كان قد جاء، فأنا أشك في نيته. حقًّا لم أكن مخطئًا. الأمر يحترق. هذه المرة يمكنني أن أكون متأكدًا من طعنتي الصغيرة بالخنجر».

احتياطًا أخذ بطانية، واختار مكانًا معزولًا في الحديقة، ونام تحت النجوم. قرابة الساعة الحادية عشرة صباحًا، جاء إليه أوكتاف وأبلغه: «نُفِّذ الأمر يا سيدي. أرسِل التليغراف».

- جيد. ولويس مالريش، هل ما يزال في السجن؟

- ما يزال. مَرَّ دوديفيل أمام زنزانته مساء أمس في سجن سانتيه. كان الحارس يخرج منها. تحدثا، يبدو أن مالريش ما يزال على حاله، صامتًا كالأخرس. إنه ينتظر.

- ينتظر ماذا؟

- الساعة المشؤومة بالطبع! في مقر الشرطة يقولون إن التنفيذ سيحدث بعد غد.

- هذا أفضل، أفضل. ما هو واضح هو أنه لم يهرب.

تخلّى عن محاولة الفهم وحتى البحث عن حل اللغز، لأنه شعر أن الحقيقة كاملة ستُكشف له قريبًا. لم يبقَ عليه سوى إعداد خطته حتى يقع العدو في الفخ. فكر ضاحكًا: «أو أقع فيه أنا نفسي». كان مرحًا جدًّا، حر الفكر، ولم تبدأ معركة من قبل بفرص أفضل بالنسبة إليه أكثر من هذه المعركة.

من القصر أحضر له خادمٌ التليغراف الذي قال لدوديفيل أن يرسله إليه، والذي كان ساعي البريد قد تركه للتو. فتحه ووضعه في جيبه.

قبل الظهر بقليل، التقى بيير ليدوك في ممر ودون مقدمات قال: «كنت أبحث عنك. هناك أمور خطِرة، يجب أن تجيبني بصراحة. منذ أتيت إلى هذا القصر، هل رأيت أي رجل آخر غير الخدم الألمان الذين وضعتهم هنا؟».

- لا.

- فكر جيدًا. لا يتعلق الأمر بزائر عادي. أتحدث عن رجل يختبئ، لاحظت وجوده، أو شككت في وجوده، بناءً على أي علامة؟

- لا. هل تشُك؟

- نعم. شخص ما يختبئ هنا. شخص ما يحوم حول المكان. أين؟ ومن؟ ولأي غرض؟ لا أعرف، لكنني سأعرف. لديَّ بعض الشكوك. من جانبك، كن يقظًا. راقب، وبخاصةٍ لا تقل كلمة للسيدة كيسيلباخ. لا داعي لإقلاقها.

رحل بيير ليدوك مذهولًا ومضطربًا، عاد إلى طريق القصر. في الطريق، على العشب، رأى بيير ورقة زرقاء. التقطها. كان تليغرافًا، ليس مجعدًا كورقة تُرمى، بل مطويًا بعناية، واضح أنه فُقِد. كان موجهًا إلى السيد ميوني، الاسم الذي كان يحمله لوبين في بروغن. وكان يحتوي على هذه الكلمات:

«نعرف كل الحقيقة. الكشف عن السر مستحيل عَبْر الرسائل. سآخذ القطار هذا المساء. موعدنا غدًا صباحًا الساعة الثامنة في محطة بروغن».

قال لوبين لنفسه وهو يراقب تصرفات بيير ليدوك من شجيرة قريبة: «ممتاز! ممتاز! خلال دقيقتين، سيكون هذا الأحمق الصغير قد أظهر

التليغراف لدولوريس، وأخبرها بكل مخاوفي. سيتحدثان عن ذلك طوال اليوم، والكائن الآخر سيسمع، الكائن الآخر سيعرف، لأنه يعرف كل شيء، لأنه يعيش في ظل دولوريس نفسها، ولأن دولوريس بين يديه كفريسة مسحورة. وهذا المساء سيتصرف خوفًا من السر الذي سيُكشف لي...».

ابتعد وهو يدندن: «هذا المساء، هذا المساء سنرقص. هذا المساء. أي فالس[1]، يا أصدقائي! فالس الدم، على لحن الخنجر الصغير المطلي بالنيكل. أخيرًا! سنضحك».

عند باب الجناح، نادى أوكتاف، صعد إلى غرفته، ألقى بنفسه على سريره، وقال للسائق: «خذ هذا المقعد يا أوكتاف، ولا تنم. سيدك سيستريح. احرسه، أيها الخادم المخلص!». نام نومًا هادئًا. قال وهو يستيقظ: «مثل نابليون في صباح يوم معركة أوسترليتز[2]».

كانت ساعة العشاء. أكل بشهية، ثم بينما كان يدخن سيجارة، تفقد أسلحته، وغيَّر رصاصات مسدَّسَيه: «البارود الجاف والسيف الحاد، كما يقول صديقي القيصر. أوكتاف!».

هرع إليه أوكتاف. قال له: «اذهب لتناول العشاء في القصر مع الخدم. وأخبرهم أنك ستذهب إلى باريس هذه الليلة، بالسيارة».

- معك يا سيدي؟

- لا، وحدك. وفورَ انتهاء العشاء، ستغادر بالفعل بشكل علني.

- لكنني لن أذهب إلى باريس، أليس كذلك؟

- نعم، ستنتظر خارج الحديقة على الطريق، على بعد كيلومتر واحد، حتى آتي. سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

دخن سيجارة أخرى، تجول، مَرَّ أمام القصر، رأى ضوءًا في شقة دولوريس، ثم عاد إلى الكوخ. هناك، أخذ كتابًا. كان كتاب «حياة الرجال العظماء Vie des hommes illustres». قال: «هذا الكتاب تنقصه قصة

---

(1) الفالس هو نوع من أنواع الرقص. (المترجم)

(2) معركة أوسترليتز (بالفرنسية: Bataille d'Austerlitz) وتعرف أيضًا باسم معركة الأباطرة الثلاثة (فرنسا - روسيا - النمسا)، هي واحدة من أهم النزاعات الحاسمة خلال الحروب النابليونية، حدثت في 2 ديسمبر 1805. وتعتبر على نطاق واسع أعظم انتصار حققه نابليون بونابرت. (المترجم)

واحدة وهي الأكثر شهرة. لكن المستقبل هناك سيعيد الأمور إلى نصابها. وسيكونَ لي بلوطرخس [1]يومًا ما».

قرأ حياة القيصر ودوَّن بعض الأفكار في الهامش. في الساعة الحادية عشرة والنصف صعد. من النافذة المفتوحة انحنى نحو الليل الواسع المضيء والصاخب المرتعش كله بأصوات غير واضحة. جاءت إلى شفتيه ذكريات، ذكريات عبارات حب قرأها أو نطق بها، وقال عدة مرات اسم دولوريس، بحماس مراهق يجرؤ بالكاد على أن يهمس باسم حبيبته للصمت. ثم قال: «حسنًا، لنستعد».

ترك النافذة مفتوحة قليلًا، أزاح طاولة صغيرة كانت تسد الطريق، ووضع أسلحته تحت وسادته. ثم بهدوء دون أي انفعال استلقى على السرير بكامل ملابسه وأطفأ شمعته وبدأ الخوف. كان فوريًّا. حالما غمره الظلام، بدأ الخوف! صرخ: «يا إلهي!». قفز من السرير، أخذ أسلحته ورماها في الممر: «يداي، يداي فقط! لا شيء يعادل قبضة يدي!». استلقى. الظلام والصمت مرة أخرى. ومرة أخرى، الخوف، الخوف الخفي المؤلم الغازي.

دقت ساعة القرية اثنتا عشرة دقة.

كان لوبين يفكر في الكائن البغيض الذي هناك، على بعد مائة متر، أو خمسين مترًا منه، كان يستعد، يختبر طرف خنجره الحاد. قال: «فليأتِ! فليأتِ!». همس وهو يرتعش كله: «وستتبدد الأشباح». الساعة الواحدة، في القرية. ودقائق، دقائق لا تنتهي، دقائق من الحمى والقلق. قطرات تتشكل عند جذور شعره وتسيل على جبينه، وبدا له أنه عرق من الدم يغمره كله.

الساعة الثانية، وها هو ذا في مكان ما قريب جدًّا، صوت لا يُسمع يرتعش، صوت أوراق تتحرك. لم يكن صوت الأوراق التي تحركها نسمة الليل.

كما توقع لوبين، كان ذلك في داخله على الفور، الهدوء الهائل. اهتزت طبيعته كلها كمغامر عظيم من الفرح. كان القتال أخيرًا!

---

(1) بلوطرخس، المعروف أيضًا باللاتينية باسم Plutarchus، كان فيلسوفًا ومؤرخًا وكاتبًا إغريقيًّا عاش في الفترة بين 46 و120 ميلادي. اشتهر بكتابه «حيوات موازية» الذي يتناول سير حياة شخصيات تاريخية بارزة من الإغريق والرومان، مقارنًا بينها من حيث الفضائل والرذائل والأخلاق. يقصد لوبين من هذه الإشارة أنه سيجد من يكتب عنه كشخصية تاريخية بارزة في العصر الحديث. (المترجم)

سُمِع صوت آخر أكثر وضوحًا تحت النافذة لكنه لم يزل ضعيفًا جدًّا، بحيث كان يتطلب أُذنًا مدربة مثل أُذن لوبين لسماعه. مرَّت دقائق، دقائق مخيفة، كان الظلام لا يُختَرق. لا ضوء نجم أو قمر يخففه. وفجأة دون أنْ يسمع أي شيء، عرف أن الرجل كان في الغرفة.

والرجل كان يمشي نحو السرير. كان يمشي كما يمشي شبح دون تحريك هواء الغرفة ودون هزِّ الأشياء التي يلمسها. لكن بكل غريزته، بكل قوته العصبية، كان لوبين يرى حركات العدو، وخمَّن تسلسل أفكاره. هو لم يتحرك متكئًا على الحائط، وشبه راكع مستعدًا للوثب.

شعر أن الظلَّ لَمَس، تحسس أغطية السرير، ليحدد المكان الذي سيضرب فيه. سمع لوبين تنفسه. أظن أنه سمع حتى دقات قلبه. ولاحظ بفخر أن قلبه هو لم يكن يدق بقوة أكبر، بينما قلب الآخر. أوه! نعم، كم كان يسمعه! هذا القلب المضطرب المجنون الذي كان يرتطم مثل جرس بجدران الصدر.

ارتفعت يد الآخر، ثانية، ثانيتين. هل كان يتردد؟ هل سيعفو عن خصمه مرة أخرى؟ وقال لوبين في الصمت العظيم: «هيا اضرب إذًا! اضرب!».

دوت صرخة غضب، هبط الذراع كنابض، ثم أنين. هذا الذراع، كان لوبين قد أمسك به في الهواء، عند المعصم. اندفع خارج السرير، بشكلٍ لا يُقاوم، أمسك الرجل من رقبته وأسقطه.

كان ذلك كل شيء. لم تكن هناك معركة، لم يكن من الممكن أن تكون هناك معركة. كان الرجل على الأرض، مثبتًا، مربوطًا بمسمارين من الفولاذ؛ يدي لوبين! ولم يكن هناك رجل في العالم، مهما كان قويًّا، يمكنه أن يتحرر من هذه القبضة.

ولا كلمة واحدة! لم ينطق لوبين بأي من تلك الكلمات التي كانت تُسلي عادةً سخريته اللاذعة. لم تكن لديه رغبة في الكلام. كانت اللحظة جادة للغاية، لم يثره أي فرح عبثي، أي نشوة انتصار. في الأساس كانت لديه رغبة واحدة فقط، معرفة من كان هذا. لويس مالريش، المحكوم عليه بالإعدام؟ شخص آخر؟ من؟

خوفًا من خنق الرجل، ضغط على رقبته بشكل أقل، أقل أكثر، أقل أكثر. وشعر أن كل قوة العدو، كل ما تبقى له من قوة كان يتخلى عنه. ارتخت عضلات الذراع، أصبحت خاملة، انفتحت اليد وأسقطت الخنجر.

حياة الخصم معلقة بالكماشة المروِّعة لأصابعه. أخذ مصباحه اليدوي، وضع إصبعه السبابة دون ضغط على الزنبرك، وقربه من وجه الرجل. لم يكن عليه سوى أن يضغط على زنبرك المصباح، وسيعرف.

ثانية واحدة، تذوَّق قوته. موجة من العاطفة رفعته، أبهرته رؤية انتصاره. مرة أخرى وبشكل رائع بطولي كان هو السيد. بضربة حادة أشعل الضوء. ظهر وجه الوحش. أطلق لوبين صرخة رعب: «دولوريس كيسيلباخ!».

الجزء السادس عشر

القاتلة

الفصل الأول

اندفعت الصدمة في دماغ لوبين كالإعصار، كالزوبعة، وانفجرت بالتوازي مع الصدمة ضوضاء الرعد وهبوب الرياح وعواصف من العناصر الجامحة بشكل صاخب في ليلة من الفوضى. وكان البرق الكبير يجلد الظلام. وفي ضوء هذا البرق الخاطف، رأى لوبين المذعور المرتعش من القشعريرة، المتشنج من الرعب، وحاول أن يفهم. لم يتحرك، متشبثًا بحلق العدو، كما لو أن أصابعه المتصلبة لم تعد قادرة على فك قبضتها. وعلى أي حال، رغم أنه علم الآن، لم يكن لديه تقريبًا الانطباع الدقيق بأنها كانت دولوريس. كان لا يزال الرجل الخفي، لويس مالريش، الوحش البغيض للظلام، وكان يمسك بهذا الوحش، ولن يطلق سراحه. لكن الحقيقة اندفعت لمهاجمة عقله وضميره، مهزومًا معذبًا بالقلق، همس: «آه! دولوريس. دولوريس!».

على الفور، رأى المبرر: إنه الجنون. كانت مجنونة، أخت ألتنهايم، وأخت إيسيلدا، ابنة آخر عائلة مالريش، من الأم المجنونة والأب السكير، هي نفسها كانت مجنونة. مجنونة غريبة، مجنونة مع كل مظاهر العقل، لكنها مجنونة مع ذلك غير متوازنة، مريضة، خارجة عن الطبيعة، وحشية حقًا. فهم ذلك بكل يقين! كان جنون الجريمة. تحت هاجس هدف كانت تسير نحوه تلقائيًا كانت تقتل متعطشة للدماء غير واعية وشيطانية. كانت تقتل لأنها أرادت شيئًا ما، كانت تقتل للدفاع عن نفسها، كانت تقتل لإخفاء أنها قتلت. لكنها كانت تقتل أيضًا، وبخاصةٍ من أجل القتل. كان القتل يرضي فيها شهوات مفاجئة ولا تقاوم. في لحظات معينة من حياتها، في ظروف معينة، في مواجهة شخص معين -أصبح فجأة الخصم- كان لا بد أن تضربه. وكانت تضرب،

ثملة بالغضب، بوحشية، بجنون. مجنونة غريبة، غير مسؤولة عن جرائمها، ومع ذلك واضحة جدًا في عماها! منطقية جدًّا في اضطرابها! ذكية جدًّا في سخافتها! أي براعة! أي مثابرة! أي مزيج من الخطط البغيضة والرائعة في آن واحد!

رأى لوبين، في رؤية سريعة، بحدَّة نظر مذهلة، السلسلة الطويلة من المغامرات الدموية، وخمَّن الطرق الغامضة التي سلكتها دولوريس. رآها، مهووسة بمشروع زوجها، المشروع الذي من الواضح أنها لم تكن تعرفه إلا جزئيًا. رآها تبحث هي أيضًا عن بيير ليدوك الذي كان زوجها يطارده، وتبحث عنه لتتزوجه وتعود ملكةً إلى مملكة فيلدينز الصغيرة، التي طُرد منها والداها بشكل مخزٍ. ورآها في فندق بالاس، في غرفة أخيها ألتنهايم، بينما كان يُفترض أنها في مونتي كارلو. رآها، لأيام، تتجسَّس على زوجها، تحتكُّ بالجدران مختلطة بالظلام، غير واضحة، وغير ملحوظة في تنكرها كظل. وذات ليلة وجدت السيد كيسيلباخ مقيدًا، فقتلته. وفي الصباح عندما كان خادم الغرفة على وشك أن يكشف سرها، قتلته. وبعد ساعة، حين أوشك تشابمان على فضحها، جرَّته إلى غرفة أخيها وقتلته. كل ذلك دون رحمة، بوحشية، بمهارة شيطانية. وبالمهارة نفسها كانت تتواصل عَبْر الهاتف مع خادمتيها، جيرترود وسوزان اللتين وصلتا للتو من مونتي كارلو، حيث لعبت إحداهما دور سيدتها. ودولوريس، مستعيدة ملابسها النسائية، خالعة الباروكة الشقراء التي جعلتها لا تُعرف، نزلت إلى الطابق الأرضي، والتقت بجيرترود في اللحظة التي دخلت فيها إلى الفندق، وتظاهرت بأنها وصلت هي أيضًا، جاهلة بالمصيبة التي تنتظرها. ممثلة لا مثيل لها، لعبت دور الزوجة التي تحطمت حياتها. كانوا يُشفقون عليها، كانوا يبكون عليها. من كان ليشك فيها؟

وحينها بدأت الحرب معه، لوبين، تلك الحرب البربرية، تلك الحرب غير المسبوقة التي خاضتها بالتناوب ضد السيد لينورمان وضد الأمير سيرنين، في النهار على كرسيها الطويل، مريضة وضعيفة، لكن في الليل، واقفة، تجري في الطرقات مرعبة، لا تكل. وكانت هناك الخطط الجهنمية، جيرترود وسوزان، شريكتان مرعوبتان ومروضتان، كلتاهما تخدمها كمبعوثة، تتنكر

مثلها ربما، كما في اليوم الذي اختطف فيه العجوز شتاينفيج من قبل البارون ألتنهايم، في وسط قصر العدل. وكانت هناك سلسلة من الجرائم. كان جوريل قد غَرِق. كان ألتنهايم، أخوها، قد طُعِن. آه! النضال الذي لا هوادة فيه في أقبية فيلا الجليسين، العمل الخفي للوحش في الظلام، كم يبدو كل ذلك واضحًا اليوم! وكانت هي التي نزعت عنه قناع الأمير، هي التي فضحته، هي التي ألقت به في السجن، هي التي أحبطت كل خططه، منفقة الملايين لتفوز بالمعركة. ثم تسارعت الأحداث. سوزان وجيرترود اختفتا، ماتتا على الأرجح! شتاينفيج، قُتل! إيسيلدا، الأخت، قُتلت!

تَمتَم لوبين، في انتفاضة من الاشمئزاز والكراهية: «آه! يا للقذارة، يا للرعب!».

كان يكرهها، هذه المخلوقة البغيضة، كان يود سحقها، تدميرها. وكان أمرًا مذهلًا أن هذين الكائنين المتشابكين ببعضهما، راقدين بلا حراك في شحوب الفجر الذي يختلط بظلال الليل. همس بيأس: «دولوريس. دولوريس!».

قفز إلى الوراء، لاهثًا من الرعب، بعينين شاردتين. ماذا؟ ما الأمر؟ ما هذا الإحساس البغيض بالبرودة التي تُجمد يديه؟ صرخ، دون أن يتذكر غياب السائق: «أوكتاف! أوكتاف! النجدة!».

كان بحاجة إلى المساعدة! شخص ما يطمئنه ويساعده. كان يرتجف من الخوف. آه! هذا البرد، برد الموت الذي شعر به. هل كان ذلك ممكنًا؟ إذًا، خلال تلك الدقائق القليلة المأسوية، كان بأصابعه المتشنجة...

بعنف، أجبر نفسه على النظر. دولوريس لم تتحرك. اندفع على ركبتيه وجذبها نحوه.

كانت ميتة.

بقي لبضع لحظات ساكنًا، بدا فيه أن ألمه يذوب. لم يعد يعاني. لم يعد لديه غضب، ولا كراهية، ولا أي شعور من أي نوع. لا شيء سوى إحباطٍ غبي، إحساس رجل تلقى ضربة مطرقة، ولا يعرف ما إذا كان ما زال حيًّا، أو يفكر، أو ما إذا كان مجرد لعبة كابوس.

ومع ذلك، بدا له أن شيئًا عادلًا قد حدث للتو، ولم تراوده للحظة فكرة أنه هو من قتلها. لا، لم يكن هو. كان خارجًا عنه وعن إرادته. كان القدر، القدر الذي لا يرحم الذي أنجز عمل العدالة بالقضاء على الوحش الضاري.

في الخارج غنت الطيور، بدأت الحياة تدب في الأشجار القديمة التي كان الربيع يستعد لإزهارها. ولوبين، مستيقظًا من خموله، شعرَ تدريجيًّا بتعاطف غامض وسخيف ينبع في داخله تجاه المرأة البائسة -بغيضة بالتأكيد، حقيرة ومجرمة مائة مرة- لكنها ما تزال شابة جدًّا، ولم تعد موجودة.

وفكر في العذاب الذي يجب أن تكون قد عانته في لحظات وعيها، عندما كان العقل يعود إليها، وكانت المجنونة التي لا توصف ترى الحقيقة المشؤومة لأفعالها. كانت تتوسل: «احموني! أنا تعيسة جدًّا!». كانت تطلب الحماية من نفسها، من غرائزها الوحشية، من الوحش الذي يسكن فيها ويجبرها على القتل، على القتل دائمًا. قال لوبين لنفسه: «دائمًا؟».

وتذكر مساء اليوم قبل الماضي حين كانت منتصبة فوقه، والخنجر مرفوع فوق العدو الذي كان يطاردها منذ أشهر، العدو الذي لا يكل والذي دفعها إلى كل الجرائم، تذكر أنها في ذلك المساء لم تقتله. كان الأمر سهلًا مع ذلك كان العدو راقدًا عاجزًا وضعيفًا. بضربة واحدة، كان النضال الذي لا هوادة فيه سينتهي، لكن لا، لم تقتل خاضعة هي أيضًا لمشاعر أقوى من قسوتها. لمشاعر غامضة من التعاطف والإعجاب تجاه من سيطر عليها مرارًا. لا، لم تقتل تلك المرة. وها هو ذا، في عودة مرعبة حقًّا للقدر، ها هو ذا من قتلها.

فكر وهو يرتعش من رأسه إلى قدميه: «لقد قتلت، يداي قضتا على كائن حي، وهذا الكائن هو دولوريس! دولوريس. دولوريس!».

لم يتوقف عن تكرار اسمها، اسمها الذي يعني الألم، ولم يتوقف عن النظر إليها، كائن حزين لا حياة فيه، غير مؤذٍ الآن، مجرد خرقة من اللحم، بلا وعي أكثر من كومة صغيرة من الأوراق، أو طائر صغير مذبوح على جانب الطريق.

آه! كيف كان من الممكن ألا يرتعش من التعاطف، بما أنه -وجهًا لوجه- كان هو القاتل، وهي لم تعد سوى الضحية؟

- دولوريس، دولوريس، دولوريس!

فاجأه النهار الكامل، جالسًا بجانب الميتة، يتذكر ويفكر، بينما كانت شفتاه تنطقان من وقت لآخر المقاطع الحزينة.

«دولوريس.. دولوريس!».

رغم ذلك كان عليه التصرف وفي خضم أفكاره المنهارة، لم يعد يعرف في أي اتجاه يجب أن يتصرف، ولا بأي فعل يبدأ. قال لنفسه: «لنغلق عينيها أولًا». كانت عيناها فارغتين تمامًا، مليئتين بالعدم، ما زالت لهما -العينان الذهبيتان الجميلتان- تلك النعومة الحزينة التي أعطتهما الكثير من السحر. هل كان من الممكن أن تكون هاتان العينان عيني الوحش؟ رغمًا عنه، وحتى في مواجهة الواقع الذي لا يرحم، لم يستطع لوبين بعد أن يجمع في شخصية واحدة الكائنين اللذين كانت صورهما متميزة جدًّا في أعماق فكره.

بسرعة انحنى نحوها وأغلق الجفون الحريرية الطويلة، وغطى الوجه البائس المتشنج بحجاب. حينها بدا له أن دولوريس أصبحت أكثر بعدًا، وأن الرجل الخفي هذه المرة كان هناك بالفعل، بجانبه، في ملابسه الداكنة، في تنكره كقاتل. تجرأ على لمسه، وتحسس ملابسه. في جيب داخلي، كانت هناك محفظتان. أخذ إحداهما وفتحها. وجد أولًا رسالة موقعة من شتاينفيج، الألماني العجوز. كانت تحتوي على هذه الأسطر:

«إذا مت قبل أن أتمكن من كشف السر الرهيب، فليُعلم هذا: قاتل صديقي كيسيلباخ هي زوجته، اسمها الحقيقي دولوريس مالريش، أخت ألتنهايم وأخت إيسيلدا. الحروف الأولى L وM تشير إليها. في الحياة الخاصة، لم يكن كيسيلباخ يناديها قط دولوريس، وهو اسم يعني الألم والحداد، بل لوتيتيا، الذي يعني الفرح. L و M -لوتيتيا مالريش- كانت هذه هي الحروف الأولى المنقوشة على كل الهدايا التي كان يقدمها لها، على سبيل المثال على علبة السجائر التي وُجدت في فندق بالاس، والتي كانت

تخص السيدة كيسيلباخ. كانت قد اكتسبت، في أثناء السفر عادة التدخين.

لوتيتيا! كانت بالفعل فَرِحه لمدة أربع سنوات، أربع سنواتِ من الكذب والنفاق، حيث كانت تُجهز لموت من أحبها بكل هذا الطيبة والثقة.

ربما كان يجب عليَّ أن أتكلم على الفور. لم تكن لديَّ الشجاعة، تذكرًا لصديقي القديم كيسيلباخ، الذي كانت تحمل اسمه. وبعد ذلك كنت خائفًا. في اليوم الذي كشفت فيه أمرها، في قصر العدل، قرأت في عينيها حكم إعدامي. هل سينقذني ضعفي؟».

فكر لوبين: «هي أيضًا قتلته! بالطبع، كان يعرف الكثير! الحروف الأولى. هذا الاسم لوتيتيا. عادة التدخين السرية».

وتذكر الليلة الماضية، تلك الرائحة للتبغ في الغرفة.

واصل تفتيش المحفظة الأولى. كانت هناك أجزاء من رسائل بلغة مشفرة، سُلِّمت على الأرجح إلى دولوريس من قِبل شركائها، خلال لقاءاتهم المظلمة. كانت هناك أيضًا عناوين على قطع من الورق، عناوين لخياطات أو صانعات قبعات، ولكن أيضًا عناوين لأوكار وفنادق مشبوهة، وأسماء أيضًا. عشرون، ثلاثون اسمًا، أسماء غريبة، هكتور الجزار، أرمان غرينيل، المريض.

لكن صورة فوتوغرافية جذبت انتباه لوبين. نظر إليها وعلى الفور كما لو كان مدفوعًا بمحرك، تاركًا المحفظة، اندفع خارج الغرفة، خارج الجناح، وانطلق في الحديقة. لقد تعرَّف على صورة لويس مالريش، السجين في سجن سانتيه. وفقط حينها، فقط في تلك اللحظة بالذات، تذكر كان من المقرر أن يُنفَّذ الإعدام في اليوم التالي. وبما أن الرجل الخفي، بما أن القاتل لم يكن سوى دولوريس، فإن لويس مالريش كان يُدعى فعلًا ليون ماسييه، وكان بريئًا.

بريء؟ لكن الأدلة التي وُجدت في منزله، رسائل الإمبراطور، وكل شيء، كل ما اتهمه به بشكل لا يمكن إنكاره، كل هذه الأدلة الدامغة؟ توقف لوبين للحظة، ورأسه يشتعل. صرخ: «آه! أنا أيضًا أصبح مجنونًا. دعنا نفهم، مع ذلك، يجب التصرف! غدًا، سيحدث إعدامه. غدًا، غدًا في الفجر!». سحب ساعته: «العاشرة. كم من الوقت أحتاج لأكون في باريس؟ هذا هو، سأكون هناك بعد قليل. نعم، بعد قليل سأكون هناك، يجب أن أكون. ومنذ هذا المساء، سأتخذ الإجراءات لمنع... لكن أي إجراءات؟ كيف أثبت البراءة؟ كيف أمنع الإعدام؟ آه! ما أهمية ذلك! سأرى حالما أصل إلى هناك. ألست أُدعى لوبين؟ هيا بنا!».

انطلق مجددًا راكضًا، دخل القصر، ونادى: «بيير، هل رأيت السيد بيير ليدوك؟ آه! ها أنت، اسمع!». جذبه جانبًا وبصوت متقطع آمِر: «اسمع، دولوريس لم تعد هنا... نعم، رحلة عاجلة. انطلقت هذه الليلة في سيارتي، أنا أيضًا سأرحل. اصمت إذًا! ولا كلمة، الثانية الضائعة لا يمكن تعويضها. أنت، ستصرف كل الخدم دون تفسير، هاك بعض المال. خلال نصف ساعة، يجب أن يكون القصر فارغًا. ولا يدخله أحد حتى عودتي! أنت أيضًا، هل تسمع؟! أمنعك من الدخول إليه، سأشرح لك ذلك. الأسباب خطيرة. خذ احمل المفتاح، انتظرني في القرية!».

ومرة أخرى انطلق. بعد عشر دقائق وجد أوكتاف. قفز في سيارته. قال: «إلى باريس!».

الفصل الثاني

كان السفر بمنزلة سباق حقيقي نحو الموت. أخذ لوبين -بعد أن رأى أن أوكتاف لا يقود بسرعة كافية- المقود بنفسه، وكانت السرعة عشوائية ومذهلة. على الطرق، عَبَر القرى، في شوارع المدن المزدحمة، كانا يسيران بسرعة مائة كيلومتر في الساعة. الناس الذين كانوا على مقربة منهما صرخوا من الغضب: «كانت السيارة تظهر وهي تسير بسرعة الصاروخ ثم تختفي».

تَمتَم أوكتاف شاحبًا: «يا سيدي سنهلك هكذا». قال لوبين: «ستهلك أنت ربما، وربما السيارة، لكنني سأصل». كان لديه شعور بأن السيارة لم تكن هي التي تنقله، بل هو الذي ينقل السيارة، وأنه يخترق الفضاء بقواه الخاصة، بإرادته الخاصة. إذًا، أي معجزة كانت ستمنعه من الوصول، بما أن قواه كانت لا تنضب، وأن إرادته لم تكن لها حدود؟ كان يكرر: «سأصل لأنني يجب أن أصل».

كان يفكر في الرجل الذي سيموت إذا لم يصل في الوقت المناسب لإنقاذ لويس ماليريش الغامض، الغامض بصمته العنيد، ووجهه الغامض. وفي ضجيج الطريق، تحت الأشجار التي كانت أغصانها تصدر ضجيج الأمواج الغاضبة، وسط دوي أفكاره، كان لوبين يحاول وضع فرضية. وكانت الفرضية تتضح شيئًا فشيئًا، منطقية، غير قابلة للتصديق، مؤكدة. قال لنفسه الآن بعد أن عرف الحقيقة البشعة عن دولوريس، وبعد أن لمح جميع الموارد والنيات الشريرة لهذا العقل المجنون: «نعم، إنها هي التي أعدت ضد ماليريش أكثر المكايد فظاعة. ماذا كانت تريد؟ الزواج من بيير ليدوك الذي جعلته يحبها، وأن تصبح سيدة المملكة الصغيرة التي نُفِيت منها. الهدف كان قريب المنال، في متناول يدها. عقبة واحدة فقط... أنا، أنا الذي لأسابيع وأسابيع، بلا كلل،

كنت أعرقل طريقها، أنا الذي كانت تجدني بعد كل جريمة، أنا الذي كانت تخشى تبصُّري، أنا الذي لن أهدأ قبل أن أكتشف الجاني وأستعيد الرسائل المسروقة من الإمبراطور.

حسنًا! بما أنني كنت بحاجة إلى جانٍ، فالجاني سيكون لويس مالريش أو بالأحرى ليون ماسييه. من هو هذا الليون ماسييه؟ هل عرفته قبل زواجها؟ هل أحبته؟ من المحتمل، ولكن ربما لن يُعرَف ذلك أبدًا. ما هو مؤكد هو أنها كانت ستتأثر بالشبه في الحجم والمظهر الذي يمكنها الحصول عليه مع ليون ماسييه، بارتداء ملابس سوداء مثل ملابسه، وبارتداء باروكة شقراء. كانت ستلاحظ حياة هذا الرجل الانعزالي الغريبة، جولاته الليلية، طريقته في المشي في الشوارع، وتهربه من الذين يمكن أن يتبعوه. وبناءً على هذه الملاحظات، وتوقعًا لاحتمالٍ، كانت قد نصحت السيد كيسيلباخ بكشط اسم دولوريس من سجلات الحالة المدنية، واستبداله باسم لويس، بحيث تكون الأحرف الأولى بالضبط هي تلك الخاصة بليون ماسييه.

حان وقت العمل، وها هي تنسج مؤامرتها، وها هي تنفذها. يسكن ليون ماسييه في شارع ديلايزمون. تأمر أتباعها بالاستقرار في الشارع الموازي. وهي نفسها التي تشير لي بعنوان كبير الخدم دومينيك، وتضعني على أثر السبعة اللصوص، وهي تعلم تمامًا أنه حالما أكون على أثرهم، سأذهب حتى النهاية، أي ما وراء السبعة لصوص، حتى زعيمهم، حتى الرجل الخفي، حتى ليون ماسييه، حتى لويس مالريش.

أصل أولًا إلى السبعة لصوص. ثم ماذا سيحدث؟ إمَّا سأُهزم، وإمَّا سندمر بعضنا بعضًا، كما كانت تأمل في ليلة شارع دي فين. وفي كلتا الحالتين، تتخلص دولوريس مني.

لكن الذي يحدث هو أنني أنا الذي أمسك اللصوص السبعة. تهرُب دولوريس من شارع دي فين. أجدها في مستودع البائع القديم. توجهني نحو ليون ماسييه، أي نحو لويس مالريش. أكتشف عنده رسائل الإمبراطور، التي وضعتها هي هناك، وأسلمه إلى العدالة، وأكشف عن الاتصال السري الذي فتحته هي بين المستودعين، وأقدم جميع الأدلة التي أعدتها هي، وأظهر من خلال الوثائق التي زوَّرتها هي، أن ليون ماسييه سرق الحالة المدنية لليون ماسييه، وأنه يسمى في الواقع لويس مالريش. وسيموت لويس مالريش.

ودولوريس ماليريش، منتصرة، أخيرًا، خالية من أي شك، بما أن الجاني قد اكتُشف، محررة من ماضيها المليء بالبشاعة والجرائم، زوجها ميت، أخوها ميت، أختها ميتة، خادمتاها الاثنتان ميتتان، شتاينفيج ميت. محررة بفضلي من أتباعها، الذين رميتهم مربوطين بين أيدي ويبر؛ محررة من نفسها أخيرًا بفضلي، أنا الذي يجعل البريء يصعد إلى المقصلة بدلًا منها، دولوريس منتصرة، غنية بملايينها، محبوبة من بيير ليدوك، ستكون دولوريس ملكة».

صرخ لوبين خارج نفسه: «آه! هذا الرجل لن يموت. أقسم، لن يموت». قال أوكتاف مذعورًا: «انتبه يا سيدي، نحن نقترب. إنها الضواحي، الأطراف».

- وما شأن ذلك بي؟

- لكننا سننقلب، وأيضًا الأرصفة زلِقة، ننزلق.

- لا يهم.

- انتبه! هناك...

- ماذا؟

- ترام، عند المنعطف.

- ليقف!

- هدئ السرعة يا سيدي.

- أبدًا!

- لكننا انتهينا.

- سنمرُّ.

- لن نمرَّ.

- نعم.

- آه! يا للكلب!

اصطدام، صرخات. السيارة اصطدمت بالترام، ثم مدفوعة نحو سياج، هدمت عشرة أمتار من الألواح، وأخيرًا تحطمت على زاوية تل.

- أيها السائق، هل أنت متاح؟

كان ذلك لوبين، مستلقيًا على العشب على التل، يستدعي سيارة أجرة.

نهض رأى سيارته محطمة، وأناسًا متجمعين حول أوكتاف. وقفز في سيارة الأجرة. قال: «إلى وزارة الداخلية، ساحة بوفو، عشرون فرنكًا بقشيش». واستقر في المقعد الخلفي للعربة، وقال: «آه! لا، لن يموت! لا، ألف مرة لا، لن أتحمل ذلك على ضميري! يكفي أن أكون لعبة في يد هذه المرأة وأن أقع في الفخ مثل صبي في المدرسة. توقف! لا مزيد من الأخطاء! لقد جعلتهم يلقون القبض على هذا البائس، جعلته يُدان بالإعدام، قدته إلى حافة المقصلة لكنه لن يصعد عليها! لا! إذا صعد عليها، لن يبقى لي إلا أن أطلق رصاصة في رأسي!».

كانوا يقتربون من الحاجز. انحنى وقال: «عشرون فرنكًا أخرى، أيها السائق، إذا لم تتوقف!». وصاح أمام الجمارك: «خدمة الأمن!». مروا!

صرخ لوبين: «لكن لا تبطئ، تبًّا لك! أسرع! أسرع! هل تخشى دهس العجائز؟ دعهم يُسحقوا. أنا أدفع التكاليف». في بضع دقائق، وصلا إلى وزارة ساحة بوفو.

عَبَر لوبين الفناء على عجل، وصعد درجات السلم الفخري. كانت غرفة الانتظار مليئة بالناس. كتب على ورقة: «الأمير سيرنين»، ودفع بوابًا في زاوية، وقال له: «أنا لوبين. تعرفني، أليس كذلك؟ لقد أمنت لك هذه الوظيفة، تقاعد جيد، أليس كذلك؟ فقط ستدخلني الآن. اذهب قدِّم اسمي. هذا كل ما أطلبه منك. المدير سيشكرك، يمكنك أن تكون متأكدًا، أنا أيضًا.. لكن تحرك، أيها الأحمق! فالينغلاي ينتظرني».

بعد عشر ثوانٍ، دفع فالينغلاي رأسه عند باب مكتبه وقال: «أدخلوا الأمير!». اندفع لوبين، أغلق الباب بسرعة، وقطع حديث الرئيس قائلًا: «لا، لا كلمات، لا يمكنك إيقافي.. سيكون ذلك تدميرًا لك وتعريضًا للإمبراطور للخطر.. لا، ليس هذا ما يدور حوله الأمر. ها هو ذا. ماليريش بريء. اكتشفت الجاني الحقيقي؛ إنها دولوريس كيسيلباخ. لقد ماتت. جثتها هناك. لديَّ أدلة قاطعة. لا شك في هذا. هي...».

توقف لوبين. لم يبد فالينغلاي وكأنه يفهم. أكمل لوبين: «لكن يا سيدي الرئيس، يجب إنقاذ ماليريش. فَكِّر، خطأ قضائي! رأس بريء يسقط! أعط أوامر! تحقيق إضافي... لكن بسرعة، الوقت ينفد».

نظر إليه فالينغلاي باهتمام، ثم اقترب من طاولة، أخذ صحيفة وقدَّمها له، مشيرًا بإصبعه إلى مقال. ألقى لوبين نظرة على العنوان وقرأ:

«إعدام الوحش. هذا الصباح، لويس مالريش خضع للعقاب الأخير...».

لم يكمل. محطمًا، منهارًا، انهار في كرسي مع تنهيدة يأس.

كم من الوقت بقي هكذا؟! عندما وجد نفسه خارجًا، لم يكن ليعرف قول ذلك. تذكر صمتًا كبيرًا، ثم رأى فالينغلاي منحنيًا عليه ويرشه بالماء البارد، وتذكر خصوصًا الصوت الخافت للرئيس الذي همس: «اسمع! يجب ألا تقول شيئًا عن هذا، أليس كذلك؟ بريء، هذا ممكن، لا أقول العكس، ولكن ما فائدة الكشف؟ فضيحة؟ خطأ قضائي يمكن أن تكون له عواقب كبيرة. هل يستحق العناء؟ تبرئة؟ لماذا؟ اسم مالريش هو الذي يُلعن علنًا».

ودافعًا لوبين تدريجيًا نحو الباب، قال له: «اذهب! عُد إلى هناك، تخلص من الجثة، ولا تترك أي أثر، أليس كذلك؟! ولا أثر على الإطلاق لهذه القصة.. أعتمد عليك، أليس كذلك؟». وعاد لوبين إلى هناك، عاد إلى هناك كإنسان آلي، لأنهم أمروا بذلك، ولم تكن له إرادة بنفسه.

لساعات، انتظر في المحطة. بلا وعي أكل وأخذ تذكرته وجلس في مقصورة. نام بشكل سيئ، مع رأس محموم، مع كوابيس، ومع فترات استيقاظٍ مشوشة، حيث كان يحاول فهم لماذا لم يدافع ماسيبه عن نفسه؟! فكر: «كان مجنونًا بالتأكيد. نصف مجنون! عرفها سابقًا، وسممت حياته، أفسدته. إذًا كان الموت أفضل. لماذا يدافع عن نفسه؟».

التفسير لم يُرضه إلا جزئيًا، ووعد نفسه، يومًا ما، بأن يوضح هذا اللغز، ويعرف الدور الحقيقي الذي لعبه ماسيبه في حياة دولوريس، لكن ما أهمية ذلك الآن! حقيقة واحدة كانت واضحة: جنون ماسيبه! وكان يكرر بعناد: «كان مجنونًا، ماسيبه كان بالتأكيد مجنونًا. على أية حال، كل هؤلاء الماسيبه، عائلة من المجانين».

كان يهذي ويخلط الأسماء، والعقل ضعيف. ولكن عند نزوله في محطة بروغن حصل في الهواء الصباحي النقي على وعي فجائي. فجأة أخذت الأشياء مظهرًا آخر. وصاح: «حسنًا! بعد كل شيء! لم يكن عليه إلا أن يحتج. أنا لست مسؤولًا عن أي شيء، هو الذي انتحر! هو مجرد لاعب ثانوي في المغامرة. لقد انهار أنا آسف، ولكن ماذا!».

الحاجة إلى العمل أسكرته مرة أخرى. وعلى الرغم من أنه جريح، معذب بسبب هذه الجريمة التي ارتكبها بنفسه، فإنه كان ينظر نحو المستقبل: «هذه هي حوادث حرب، لا نفكر فيها. لم يُفقد شيء، على العكس! كانت دولوريس العقبة، بما أن بيير ليدوك كان يحبها. دولوريس ماتت. لذا بيير ليدوك ينتمي إليَّ. وسيتزوج جنيفييف، كما قررت! وسيحكم! وسأكون السيد! سيد أوروبا، أوروبا لي!».

كان يتحمس مطمئنًا مليئًا بثقة مفاجئة، مفعمًا بالحماس ملوحًا بسيفٍ وهمي، سيف القائد الذي يريد، الذي يأمر، والذي ينتصر: «لوبين، ستكون ملكًا! ستكون ملكًا يا أرسين لوبين».

في قرية بروغن استفسر وعلم أن بيير ليدوك تناول الغداء في اليوم السابق في النزل. منذ ذلك الحين، لم يُرَ. قال لوبين: «كيف؟ ألم يقض الليلة هنا؟».

- لا.

- لكن أين ذهب بعد الغداء؟

- إلى طريق القلعة.

انطلق لوبين مستغربًا إلى حد ما. لقد أمر الشاب بإغلاق الأبواب وعدم العودة بعد مغادرة الخدم. فورًا حصل على دليل أن بيير عصاه: كانت البوابة مفتوحة. دخل، جال في القلعة، نادى. لا إجابة.

فجأة، فكر في الكوخ. من يدري! بيير ليدوك، في معاناة بسبب من يحبها، وتوجيهًا من حدسه، ربما بحث من هذا الجانب. وكانت جثة دولوريس هناك!

قلقًا جدًا، بدأ لوبين يركض. للوهلة الأولى، لم يكن هناك أحد في الكوخ. صرخ: «بيير! بيير!».

لم يسمع صوتًا، فدخل إلى المدخل وإلى الغرفة التي شغلها.

توقف، مشلولًا عند العتبة.

فوق جثة دولوريس، كان بيير ليدوك مُعَلقًا بحبل حول رقبته، ميتًا.

الفصل الثالث

انقبض لوبين من رأسه حتى أخمص قدميه. لم يكن يريد الاستسلام لأي حركة يأس. لم يكن يريد التفوه بكلمة عنف واحدة، بعد الضربات الفظيعة التي وجهها له القدر، بعد الجرائم وموت دولوريس، بعد إعدام ماسييه، بعد كل هذه الاهتزازات والكوارث، كان يشعر بالحاجة المطلقة إلى الحفاظ على كل سيطرته على نفسه. وإلا فإن عقله سيذهب.

قال مشيرًا بقبضته إلى بيير ليدوك: «أحمق! أحمق كبير، ألم يكن بإمكانك الانتظار؟ كنا سنستعيد الألزاس واللورين». كان يبحث عن كلمات ليقولها، عن مواقف، لكن أفكاره كانت تفلت منه، وكان رأسه يبدو على وشك الانفجار. صرخ: «آه! لا، لا، لا! لوبين، مجنون هو أيضًا! آه! لا يا صغيري! أطلق رصاصة في رأسك إذا كنت تستمتع بذلك، حسنًا. وفي الواقع، لا أرى نهاية أخرى ممكنة. لكن لوبين غبي، حادثة في سيارة صغيرة، لا! بأسلوب رائع، يا رجل، انتهِ بأسلوب رائع!».

كان يمشي وهو يضرب الأرض بقدميه ويرفع ركبتيه عاليًا، كما يفعل بعض الممثلين لتقليد الجنون. وكان يقول: «لنفتخر يا صديقي! لنفتخر، الآلهة تراقبك. ارفع أنفك لأعلى! تشعر بالتوتر في معدتك، تبًّا لك! تشعر بألم في صدرك، يا إلهي! كل شيء ينهار حولك! ماذا يهمك؟ إنها الكارثة، لا شيء يسير بشكل صحيح، مملكة كاملة تذهب سُدى، أفقد أوروبا! الكون يتبخر؟ حسنًا، وبعد؟ اضحك إذًا! كن لوبين حتى وأنت في الوحل. هيا، اضحك! بصوت أعلى، جيد جدًا. يا إلهي، كم هذا مضحك! دولوريس، سيجارة، يا عزيزتي!». انحنى بضحكة شريرة، لمس وجه الميتة، تمايل للحظة وسقط مغشيًّا عليه.

بعد ساعة نهض. انتهت الأزمة ومع سيطرته على نفسه واسترخاء أعصابه، كان جديًا وصامتًا، ويفحص الوضع. كان يشعر بأن الوقت قد حان لاتخاذ قرارات لا رجعة فيها، لقد تحطمت حياته بشكل مفاجئ، في غضون أيام قليلة، تحت وطأة الكوارث غير المتوقعة، التي تلاحقت الواحدة تلو الأخرى، في لحظة كان يعتقد فيها أن انتصاره مضمون. ماذا سيفعل؟ هل يبدأ من جديد؟ هل يعيد البناء؟ لم تكن لديه الشجاعة لذلك. إذًا ماذا؟

طوال الصباح، تجوَّل في الحديقة، في نزهة مأسوية، حيث ظهرت له الحالة في أدق تفاصيلها، وحيث تدريجيًا، فرضت فكرة الموت نفسها عليه بصرامة لا تلين. لكن سواء قتل نفسه أو عاش، كانت هناك أولًا سلسلة من الأعمال الدقيقة التي كان يجب عليه إنجازها. وهذه الأعمال، كان عقله الهادئ فجأة يراها بوضوح.

دقت ساعة كنيسة أنجيلوس الظهرَ. قال: «إلى العمل دون فشل». عاد إلى الكوخ، هادئًا جدًا دخل غرفته، صعد على كرسي، وقطع الحبل الذي كان بيير ليدوك مُعَلقًا فيه. قال: «يا له من مسكين! كان لا بد أن تنتهي هكذا، برابطة من القنب حول عنقك. للأسف! لم تكن مخلوقًا للعظمة. كان يجب أن أتوقع ذلك، وألا أربط مصيري بصانع قصائد».

بحث في ملابس الشاب ولم يجد شيئًا. لكنه، متذكرًا المحفظة الثانية لدولوريس، أخذها من الجيب الذي تركها فيه. شعر بحركة مفاجئة، كانت المحفظة تحتوي على مجموعة من الرسائل التي كانت مألوفة له، والتي تعرَّف على الفور على خطوطها المختلفة. تَمتَم: «رسائل الإمبراطور! الرسائل إلى المستشار القديم! كل المجموعة التي استعدتها بنفسي من عند ليون ماسييه، والتي أعطيتها إلى الكونت دي فالديمار. كيف يمكن ذلك؟! هل استعادتها بدورها من ذلك الأحمق فالديمار؟».

وفجأة ضرب جبهته: «آه لا، الأحمق هو أنا. هذه هي الرسائل الحقيقية! كانت قد احتفظت بها لابتزاز الإمبراطور في الوقت المناسب. والرسائل الأخرى التي أعدتها، مزورة. كتبتها هي بالطبع، أو بمساعدة شريك، ووُضعت في متناولي، وقد وقعت في الفخ، كأحمق! تبًا، عندما تتدخل النساء!». لم تكن هناك سوى بطاقة واحدة في المحفظة وصورة فوتوغرافية. نظر إليها، كانت صورته: «صورتان، ماسييه وأنا. من أحبته أكثر على الأرجح، لأنها كانت تحبني حبًا غريبًا مليئًا بالإعجاب للمغامر الذي أنا عليه، للرجل الذي دمَّر

بمفرده اللصوص السبعة الذين كلفتهم بقتله. حب غريب! شعرت بعاطفة لديها في ذلك اليوم عندما أخبرتها بحلمي الكبير بالقوة المطلقة! في تلك اللحظة، حقًا، فكرت في التضحية ببيير ليدوك وإخضاع حلمها لحلمي. لولا حادثة المرآة، لكانت تحت سيطرتي، لكنها خافت. كنتُ على وشك الوصول إلى الحقيقة. من أجل خلاصها، كان لا بد من موتي، وقررت ذلك».

كرر بتأمل عدة مرات: «ومع ذلك كانت تحبني. نعم، كانت تحبني، كما أحبني آخرون، آخرون جلبت لهم الحظ السيئ أيضًا، للأسف! جميع من يحبونني يموتون. وهذه أيضًا تموت، خنقتها أنا. ما فائدة العيش؟». بصوت منخفض، كرر: «ما فائدة العيش؟ أليس من الأفضل اللحاق بهن؟! جميع هؤلاء النساء اللاتي أحببنني؟ ومُتن بسببي؛ سونيا، ريموند، كلوتيلد ديستانج، الآنسة كلارك!».

بسط الجثتين بجانب بعضهما، غطاهما بغطاء واحد، جلس أمام طاولة وكتب:

«لقد انتصرت في كل شيء، وأنا مهزوم. أصل إلى الهدف وأسقط. القدر أقوى مني، والتي أحببتها لم تعد موجودة. سأموت أيضًا. ووقع: أرسين لوبين».

ختم الرسالة، ووضعها في زجاجة ألقاها من النافذة، على الأرض الرطبة في حديقة الأزهار. بعد ذلك، جمع كومة كبيرة على الأرض من الصحف القديمة والقش ورقائق الخشب التي جلبها من المطبخ. سكب فوقها الكيروسين، ثم أشعل شمعة ورماها بين الرقائق. فورًا، اشتعلت شعلة، وظهرت شعلات أخرى، سريعة، ملتهبة، متقصفة. في الطريق قال لوبين: «الكوخ مصنوع من الخشب؛ سيشتعل كعود ثقاب. وعندما يصلون من القرية، وقتُ كسر البوابات، والركض حتى هذا الطرف من الحديقة.. سيكون الأوان قد فات! سيجدون رمادًا، جثتين متفحمتين، وبالقرب من هناك، في زجاجة، رسالتي. وداعًا لوبين! أيها الناس الطيبون، ادفنوني بلا مراسم، في عربة الموتى الفقراء. لا زهور، ولا أكاليل. صليب متواضع، وهذا النقش:

هنا يرقد

أرسين لوبين، المغامر».

وصل إلى جدار الحديقة، تسلَّقه، واستدار، وشاهد النيران تتصاعد في السماء. عاد سيرًا على الأقدام إلى باريس، متجولًا والحزن في قلبه، محنيًا تحت وطأة القدر. وكان الفلاحون يتعجبون من رؤية هذا المسافر الذي يدفع ثمن وجباته بثلاثين سنتيمًا بأوراق نقدية. هاجمه ثلاثة لصوص في إحدى الليالي، في وسط الغابة. ضربهم بالعصا، وتركهم شبه موتى في مكانهم.

قضى ثمانية أيام في نُزل. لم يكن يعرف أين يذهب؟ ماذا يفعل؟ بماذا يتمسك؟ كانت الحياة تجعله يشعر بالملل. لم يعد يريد العيش، لم يعد يريد العيش!

- هذا أنت!

قالتها السيدة إرنمون، في الغرفة الصغيرة من الفيلا في جارش. كانت واقفة، مرتجفة، مذهولة، شاحبة، وعيناها مفتوحتان على مصراعيهما على الذي كان يقف أمامها. قالت: «أنت! أنت! لكن الصحف قالت...». ابتسم بحزن: «نعم، أنا ميت». قالت ببساطة: «حسنًا! حسنًا!».

- تريدين أن تقولي إنه، إذا كنت ميتًا، ليس لديَّ شيء لأفعله هنا. صدقيني، لديَّ أسباب جدية، فيكتوار.

قالت بشفقة: «كم تغيرت!».

- بعض خيبات الأمل الطفيفة، لكن انتهى الأمر. اسمعي، هل جنفييف هنا؟

قفزت عليه، فجأة غاضبة: «ستتركها، أليس كذلك؟ آه! لكن هذه المرة، لن أتركها. عادت متعبة، شاحبة، قَلِقة، وبالكاد استعادت ألوانها الجميلة. ستتركها، أقسم لك!».

ضغط بقوة على كتف المرأة العجوز: «أريد... هل تسمعين؟! أريد التحدث إليها».

- لا.

- سأتحدث إليها.

- لا.

دفعها. استقامت، وذراعيها متقاطعتين: «على جثتي، هل تفهم! سعادة الصغيرة هنا، ليست في مكان آخر. مع كل أفكارك عن المال والنبل، ستجعلها

تعيسة. وهذا، لا. مَن بيير ليدوك هذا؟ ودوقية فيلدينز الخاص بك؟ جنفييف، دوقة! أنت مجنون! هذه ليست حياتها. في الأساس، أنت فكرت فقط في نفسك. إنها قوتك، ثروتك التي كنت تريدها. الصغيرة لا تهمك. هل سألت نفسك فقط إذا كانتِ تحبه؟! هذا الدوق الكبير؟ هل سألت نفسك فقط إذا كانت تحب أحدًا؟ لا، لقد تابعت هدفك، هذا كل شيء، على حساب إيذاء جنفييف، وجعلها تعيسة لبقية حياتها. حسنًا، أنا لا أريد. ما تحتاجه هو حياة بسيطة، شريفة، ولا يمكنك منحها إياها. إذًا، ماذا تفعل هنا؟».

بدا متأثرًا، لكن مع ذلك، بصوت منخفض، بحزن شديد، تَمتَم: «من المستحيل ألا أراها مرة أخرى. من المستحيل ألا أتحدث معها».

- إنها تعتقد أنك ميت.

- هذا ما لا أريده! أريدها أن تعرف الحقيقة، إنه لعذاب أن أتذكر أنها تعتقد أنني شخص لم يعد موجودًا. أحضريها، فيكتوار.

كان يتحدث بصوت ضعيف ويائس، مما جعلها تتأثر، وسألته: «اسمع، أولًا وقبل كل شيء، أريد أن أعرف. سيعتمد على ما ستقوله لها. كن صريحًا، يا صغيري، ماذا تريد من جنفييف؟».

قال بجدية: «أريد أن أقول لها هذا: «جنفييف، وعدت والدتك أن أقدم لك الثروة، القوة، حياة خيالية. وفي ذلك اليوم، عندما أحقق هدفي، كنت سأطلب منك مكانًا صغيرًا، ليس بعيدًا عنكِ. سعيدة وغنية، كنت ستنسين، نعم، أنا متأكد، كنت ستنسين ما أنا عليه، أو بالأحرى ما كنت عليه. لسوء الحظ، القدر أقوى مني. لم أحضر لك لا الثروة، ولا القوة. لم أحضر لكِ شيئًا. وعلى العكس، أنا من يحتاجك. جنفييف، هل يمكنك مساعدتي؟»».

سألت المرأة العجوز بقلق: «تساعدك في ماذا؟».

- في العيش.

- آه! وصلت إلى هذا الحد يا صغيري!

أجاب ببساطة، دون ألم مصطنع: «نعم، نعم. وصلت إلى هذا الحد. ثلاثة أشخاص ماتوا للتو، قتلتهم أنا، قتلتهم بيدي. حِمل الذاكرة ثقيل جدًّا. أنا وحيد. لأول مرة في حياتي، أحتاج إلى المساعدة. لديَّ الحق في طلب هذه المساعدة من جنفييف. وواجبها هو أن تمنحني إياها وإلا.. كل شيء انتهى».

صمتت المرأة العجوز، شاحبة ومرتجفة. كانت تستعيد كل عاطفتها لمن ربته، ومن بقي رغم كل شيء صغيرها. سألت: «ماذا ستفعل بها؟».

- سنسافر معكِ، إذا كنت ترغبين في مرافقتنا.

- لكنك تنسى، تنسى...

- ماذا؟

- ماضيك.

- ستنساه هي أيضًا. ستفهم أنني لم أعد كذلك، وأنني لا أستطيع أن أكون كذلك مرة أخرى.

- إذًا، فعلًا، ما تريده هو أن تشاركك حياتك؟ حياة لوبين؟

- حياة الرجل الذي سأكونه، الرجل الذي سيعمل من أجل سعادتها، لكي تتزوج وَفقًا لأذواقها. سنستقر في إحدى زوايا العالم. سنكافح معًا، جنبًا إلى جنب. وأنتِ تعرفين ما أستطيع أنا أن أفعله.

كررت ببطء، وعيناها مثبتتان عليه: «إذًا، فعلًا، تريدها أن تشاركك حياة لوبين؟».

تردد لثانية، بالكاد ثانية، وأكد بوضوح: «نعم، نعم، أريد ذلك، إنه حقي».

- تريدها أن تتخلى عن جميع الأطفال الذين كرست نفسها لهم وكل هذه الحياة العملية التي تحبها؟

- نعم، أريد ذلك، إنه واجبها.

فتحت المرأة العجوز النافذة، وقالت: «في هذه الحالة، نادِها». كانت جنفييف في الحديقة، جالسة على مقعد. أربع فتيات صغيرات كن يحِطن بها، وأخريات كن يلعبن ويركضن.

كان يراها من الأمام. كان يرى عينيها المبتسمتين، زهرة في يدها، كانت تزيل بتلة تلو الأخرى وتقدم الشرح للأطفال المتحمسين والفضوليين. ثم كانت تسألهم، وكل إجابة كانت تستحق من التلميذ قبلة كمكافأة.

كان لوبين ينظر إليها طويلًا بعاطفة وقلق لا نهائيين، كان يختمر بداخله مزيجٌ من المشاعر غير المعروفة. كانت لديه رغبة في احتضان هذه الفتاة الجميلة، وتقبيلها، وإخبارها باحترامه وعاطفته. كان يتذكر والدتها، التي ماتت في القرية الصغيرة، ماتت من الحزن.

كررت فيكتوار: «نادِها إذًا». انهار على كرسي وهو يتَمتَم: «لا أستطيع، لا أستطيع. ليس لي الحق، إنه مستحيل! لتعتقد أنني ميت، هذا أفضل». كان يبكي، مهتزًّا بالنشيج، منقلبًا بيأس هائل، متضخمًا بعاطفة كانت تشتعل في داخله، مثل تلك الأزهار المتأخرة التي تموت في اليوم نفسه الذي تتفتح فيه. ركعت العجوز وبصوت مرتجف قالت: «إنها ابنتك، أليس كذلك؟».

- بلى، إنها ابنتي.

قالت وهي تبكي: «أوه! يا صغيري المسكين، يا صغيري المسكين!».

الجزء السابع عشر

النهاية (الانتحار)

الفصل الأول

قال الإمبراطور: «على ظهر الجواد». ثم تدارك قائلًا: «بل على ظهر الحمار. فالديمار، هل أنت متأكد أن هذا الحيوان مطيع؟». قالها وهو ينظر إلى الحمار الرائع الذي قدَّموه له.

- أؤكد لك كما أؤكد لنفسي يا سيدي.

قال الإمبراطور ضاحكًا: «في هذه الحالة، أنا مرتاح». ثم التفت نحو مرافقيه من الضباط: «أيها السادة، إلى الجياد». في ساحة القرية الرئيسية في كابري، كان هناك حشد كبير محاط برجال الشرطة الإيطاليين، وفي الوسط جميع الحمير في البلاد مُصادَرة لزيارة الإمبراطور للجزيرة الرائعة.

قال الإمبراطور وهو يأخذ زمام القافلة: «فالديمار، من أين نبدأ؟».

- من فيلا تيبريوس سيدي.

مروا تحت بوابة ثم سلكوا طريقًا مرصوفًا بشكل سيئ يرتفع تدريجيًّا على الجرف الشرقي للجزيرة. كان الإمبراطور في مزاج سيئ، ويسخر من الكونت الضخم فالديمار الذي كانت قدماه تلامسان الأرض على جانبي الحمار المسكين الذي كان يسحقه. بعد ثلاثة أرباع الساعة، وصلوا أولًا إلى صخرة تيبريوس، صخرة مذهلة بارتفاع ثلاثمائة متر، حيث كان الطاغية يلقي بضحاياه إلى البحر.

نزل الإمبراطور، اقترب من الدرابزين، وألقى نظرة على الهاوية. ثم أراد المشي على الأقدام حتى أنقاض فيلا تيبريوس، حيث تجول بين القاعات والممرات المنهارة. توقف للحظة، كان المنظر رائعًا على رأس سورينتو وعلى جزيرة كابري بأكملها. كان الأزرق المتألق للبحر يرسم المنحنى الرائع

للخليج، والروائح العطرة تتداخل مع عبير أشجار الليمون. قال فالديمار: «سيدي، المنظر أجمل من الكنيسة الصغيرة للناسك التي تقع على القمة».

- لنذهب.

لكن الناسك كان ينزل بنفسه، على طول مسار شديد الانحدار. كان رجلًا مسنًا، يمشي بتردد، وظهره مقوس. كان يحمل السجل الذي يكتب فيه المسافرون عادة انطباعاتهم. وضع هذا السجل على مقعد حجري. قال الإمبراطور: «ماذا أكتب؟».

- اسمك سيدي، وتاريخ مرورك، وما تريده.

أخذ الإمبراطور القلم الذي قدَّمه له الناسك وانحنى.

- انتبه سيدي، انتبه!

صرخات خوف، ضجة كبيرة من جهة الكنيسة.

التفت الإمبراطور. رأى صخرة ضخمة تتدحرج بسرعة فوقه. في اللحظة نفسها، أمسك به الناسك بقوة وألقاه على بعد عشرة أمتار، الصخرة اصطدمت بالمقعد الحجري الذي كان يقف أمامه الإمبراطور قبل ربع ثانية، وحطمت المقعد إلى قطع. لولا تدخل الناسك، لكان الإمبراطور فقد حياته. **مدَّ يده** للناسك، وقال ببساطة: «شكرًا». كان الضباط يتجمعون حوله. أكمل: «لا شيء أيها السادة، لقد مرَّ خطر الموقف! موقف جميل، أعترف. على أي حال، لولا تدخل هذا الرجل الشجاع...». ثم اقترب من الناسك: «ما اسمك يا صديقي؟».

الناسك كان محتفظًا بغطاء رأسه. أبعده قليلًا، وقال بصوت منخفض، بحيث يسمعه محاوره فقط: «اسمي هو اسم رجل سعيد جدًّا لأنك **مددت له يدك** سيدي». اهتز الإمبراطور وتراجع. ثم تمالك نفسه على الفور، وقال للضباط: «أيها السادة، أطلب منكم الصعود إلى الكنيسة. قد تتساقط صخور أخرى، وقد يكون من الحكمة إبلاغ السلطات المحلية. ستنضمون إليَّ بعد ذلك. أريد أن أشكر هذا الرجل الشجاع».

ابتعد برفقة الناسك. وعندما كانا بمفردهما، قال: «أنت! لماذا؟».

- كان لديَّ شيء لأتحدث معك سيدي. طلبُ موعد. هل كنت ستمنحني إياه؟ فضلت التصرف مباشرة، وكنت سأكشف عن هويتي عندما كان جلالتك يوقع السجل. عندما حدثت هذه الحادثة الغبية!

قال الإمبراطور: «باختصار، ماذا تريد؟».

- الرسائل التي قدَّمها لك فالديمار باسمي سيدي، تلك الرسائل مزورة.

أظهر الإمبراطور حركة انزعاج واضحة: «مزورة؟ هل أنت متأكد؟».

- تمامًا سيدي.

- ومع ذلك، هذا مالريش...

- الجاني لم يكن مالريش.

- من إذًا؟

- أطلب من جلالتك أن تجعل إجابتي سرية، الجاني الحقيقي كانت السيدة كيسيلباخ.

- زوجة كيسيلباخ نفسها؟

- نعم سيدي. لقد ماتت الآن. هي من نسخت أو جعلت غيرها ينسخ النُّسخ التي بحوزتك. كانت تحتفظ بالرسائل الأصلية لنفسها.

صرخ الإمبراطور: «ولكن أين الرسائل؟ هذا هو الأهم! يجب العثور عليها بأي ثمن! أنا أعطي لهذه الرسائل قيمة كبيرة».

- ها هي ذي سيدي.

شعر الإمبراطور بالدهشة للحظة. نظر إلى لوبين، ثم نظر إلى الرسائل، ورفع عينيه مرة أخرى إلى لوبين، ثم وضع الحزمة في جيبه دون فحصها.

من الواضح أن هذا الرجل، مرة أخرى، أذهله. من أين جاء هذا المجرم الذي يقدم له الرسائل بسخاء ودون شروط؟ كان من السهل جدًّا عليه الاحتفاظ بالرسائل واستخدامها كما يشاء! لا، لقد وعد. وأوفى بوعده.

كان الإمبراطور يفكر في كل الأشياء المذهلة التي أنجزها هذا الرجل. قال له: «الصحف أعلنت خبر وفاتك».

- نعم سيدي. في الواقع أنا ميت. وعدالة بلدي سعيدة بالتخلص مني، دفنت بقايا جثتي المحترقة وغير القابلة للتعرف.

- إذًا، أنت حر؟

- كما كنت دائمًا.

- لم يعد هناك شيء يربطك بأي شيء؟

- لا شيء.

- في هذه الحالة...

تردد الإمبراطور، ثم قال بوضوح: «في هذه الحالة، انضم إلى خدمتي. أقدم لك قيادة شرطتي الشخصية. سيكون لك مطلق الحرية. ستحصل على جميع الصلاحيات، حتى على الشرطة الأخرى».

- لا يا سيدي.

- لماذا؟

- أنا فرنسي.

كان هناك صمت. لم تعجب الإمبراطور الإجابة. قال: «ومع ذلك، بما أنه لم يعد يربطك أي شيء...».

- هذا الرابط لا يمكن فكه يا سيدي.

وأضاف ضاحكًا: «لقد مِت كرجل، لكنني حي كفرنسي. أتعجب أن جلالتك لا تفهم ذلك». سار الإمبراطور بضع خطوات يمينًا ويسارًا. ثم قال: «ومع ذلك، أود أن أكافئك. علمت أن المفاوضات بشأن دوقية فيلدينز الكبرى قد انهارت».

- نعم يا سيدي. كان بيير ليدوك محتالًا. مات.

- ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟ لقد أعطيتني هذه الرسائل، أنقذت حياتي. ماذا يمكنني أن أفعل؟

- لا شيء سيدي.

- هل ترغب في أن أبقى مدينًا لك؟

- نعم يا سيدي.

نظر الإمبراطور مرةً أخيرة إلى هذا الرجل الغريب الذي يقف أمامه كنِد، ثم انحنى قليلًا برأسه، ودون كلمة أخرى ابتعد.

قال لوبين وهو يتابعه بعينيه: «هيه! جلالتك، لقد أدهشتك». وبفلسفة أكمل: «بالطبع الانتقام ضئيل، وكنت أفضل استعادة الألزاس واللورين لكن على أي حال...». توقف وضرب الأرض بقدمه: «لوبين، ستبقى دائمًا على حالك، حتى اللحظة الأخيرة من وجودك، بغيضًا وساخرًا! بعض الجدية، بحق السماء! لقد حان الوقت، أو لن يأتي أبدًا، لتكون جادًا!».

صعد المسار الذي يؤدي إلى الكنيسة، وتوقف أمام المكان الذي سقطت منه الصخرة. بدأ يضحك، قال في نفسه: «العمل كان متقنًا، والضباط لم

يلاحظوا شيئًا. لكن كيف كانوا سيخمنون أنني من نَظَّم حادثة هذه الصخرة؟ وأنني في اللحظة الأخيرة، قمت بالضربة النهائية؟ وأن الصخرة تدحرجت حسب المسار الذي رسمته بينها وبين إمبراطور كنت أود إنقاذ حياته؟». تنهد: «آه، لوبين، كم أنت معقد! كل ذلك لأنك أقسمت إن جلالته سيصافحك! انظر إلى ما حققته «يد الإمبراطور لا تحتوي على أكثر من خمس أصابع»، كما قال فيكتور هوجو».

دخل الكنيسة وفتح بمفتاح خاص باب غرفة صغيرة. على كومة من القش كان هناك رجل، يداه وقدماه مربوطة، ومكمم الفم. قال لوبين: «حسنًا! الناسك، لم يكن الوقت طويلًا، أليس كذلك؟ أربع وعشرون ساعة على الأكثر. لكن كم عملت جيدًا من أجلك! تخيَّل أنك أنقذت حياة الإمبراطور. نعم يا عزيزي. أنت الرجل الذي أنقذ حياة الإمبراطور، هذه هي الثروة. سيبنون لك كاتدرائية ويقيمون لك تمثالًا، حتى اليوم الذي سيبدؤون فيه بلعنك. يمكن أن يُسبب ذلك لهم الكثير من الأذى، خصوصًا هذا الذي سيجعله الكبرياء يفقد عقله. تفضل أيها الناسك خذ ملابسك».

مدهوشًا، يكاد يموت جوعًا، نهض الناسك مترنحًا. ارتدى لوبين ملابسه بسرعة، وقال له: «وداعًا، أيها الناسك الكريم. اعذرني على كل هذه المتاعب الصغيرة. وصلِّ من أجلي سأحتاجها. الأبدية تفتح أبوابها على مصراعيها. وداعًا!».

بقي بضع ثوانٍ على عتبة الكنيسة. كانت اللحظة الرسمية التي يتردد فيها الإنسان -رغم كل شيء- أمام النهاية الرهيبة، لكن قراره كان لا رجعة فيه، ودون تفكير أكثر انطلق، نزل المنحدر جريًا، عبر منصة قفزة تيبريوس، وتجاوز الدرابزين. قال لنفسه: «لوبين، أعطيك ثلاث دقائق لتقديم العرض. لأي غرض؟ تقول، لا يوجد أحد. وأنت، ألا توجد؟ ألا يمكنك أن تلعب كوميديتك الأخيرة لنفسك؟ بحق السماء، العرض يستحق ذلك. أرسين لوبين، مسرحية هزلية كوميدية، تتألف من ثمانين مشهدًا. الستارة ترفع على مشهد الموت، والدور يؤديه لوبين شخصيًّا. برافو، لوبين! سيداتي وسادتي! سبعون نبضة في الدقيقة، والابتسامة على الشفاه! برافو، لوبين! آه! المهرج، لديه الكثير من الشجاعة! حسنًا، اقفز يا ماركيز. هل أنت جاهز؟ هذه هي المغامرة النهائية يا صديقي! لا ندم؟ ندم؟! ولماذا بحق الله؟ حياتي كانت رائعة. آه! دولوريس! لو لم تأتِ، أيها الوحش البغيض! وأنت، مالريش، لماذا لم تتكلم؟

وأنت، بيير ليدوك. هأنذا قادم! موتاي الثلاثة، سألتحق بكم. آه! جنفييف، جنفييف العزيزة! آه، ولكن هل انتهى العرض أيها المهرج العجوز؟ هيا! هيا! أنا قادم».

وضع ساقه الأخرى، نظر إلى أسفل، نحو الهاوية حيث البحر الساكن الظلام، ثم رفع رأسه: «وداعًا، أيتها الطبيعة الخالدة المباركة! من سيموت سيحييك! وداعًا كل ما هو جميل! وداعًا روعة الأشياء! وداعًا الحياة!».

ألقى قبلاته للفضاء وللسماء وللشمس. ثم معبرًا بتقاطع الذراعين قفز.

الفصل الثاني

في سيدي بلعباس[1]، ثكنة الفيلق الأجنبي[2]. بالقرب من غرفة التقارير، غرفة صغيرة منخفضة، حيث كان ملازم يدخن ويقرأ جريدته. بجواره بالقرب من النافذة المفتوحة على الفناء، يتحدث اثنان من الضباط بلغة فرنسية خشنة مختلطة بعبارات ألمانية. فُتح الباب، دخل شخص ما. كان رجلًا نحيفًا ومتوسط القامة، ملبسه أنيق. وقف الملازم غاضبًا من الغريب، وتذمر: «يا الله! ما الذي يفعله جنود الحراسة؟ وأنت سيدي، ماذا تريد؟».

- أريد الالتحاق بالخدمة.

قيل هذا بوضوح وبطريقة متسلطة.

ضحك الضابطان ضحكة غبية. نظر الرجل إليهما بانتقام. سأله الملازم: «في كلمتين اثنتين، أتريد الالتحاق بالفليق الأجنبي؟».

- نعم أريد ذلك، ولكن بشرط واحد.

- شروط، يا لها من شروط! وما هو؟

(1) مدينة في الجزائر. (المترجم)

(2) Légion étrangère (الفيلق الأجنبي) هو وحدة عسكرية فرنسية تأسست في عام 1831. تُعتبر واحدة من أكثر الوحدات العسكرية شهرة في العالم، وتخضع مباشرةً لقيادة الجيش الفرنسي. يتكون الفيلق في الغالب من متطوعين أجانب، أي إنه يستقبل الجنود من جميع أنحاء العالم، بغض النظر عن جنسيتهم أو خلفياتهم. الفيلق الأجنبي مشهور بسمعته في قبول الجنود من مختلف الدول، وتقديم فرصة لبداية جديدة حتى لأولئك الذين لديهم ماضٍ غامض أو جرائم سابقة، حيث يُسمح لهم بتغيير هويتهم، وبدء حياة جديدة كجنود في الفيلق. (المترجم)

- ألا أخدم هنا. هناك فرقة تغادر إلى المغرب، أريد الانضمام إليها.

ضحك أحد الضابطَين مرة أخرى، وسمعناه وهو يقول: «هذه الفرقة ستمر بساعات عصيبة. وأنت تريد الانضمام!». صاح الرجل: «صمتًا! لا أحب أن يسخر مني». كانت اللهجة جافة ومتسلطة. أجابه أحد الضابطَين، كان عملاقًا يبدو كالوحش: «يا صبي يجب أن تتحدث إليَّ بطريقة أخرى وإلا...».

- وإلا؟

اقترب الرجل منه، أمسكه من الخصر، قلَّبه على حافة النافذة وألقاه في الفناء. ثم قال للآخر: «دورك الآن. انصرف!». غادر الآخر. عاد الرجل فورًا إلى الملازم وقال له: «سيادة الملازم، أرجوك أن تخبر الرائد أن السيد لويس بيرينا، النبيل الإسباني والفرنسي الحميم، يرغب في الالتحاق بالفيلق الأجنبي. تفضل يا صديقي».

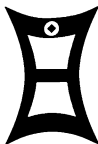
لم يتحرك الآخر، مرتبكًا.

- تفضل يا صديقي، والآن، ليس لديَّ وقت لنضيعه.

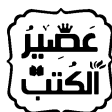
نظر الملازم إلى هذا الشخص المدهش بدهشةٍ، وخرج بكل سذاجة.

أخذ لوبين سيجارته، أشعلها، وبصوت مرتفع بينما كان جالسًا محل الملازم، قال: «نظرًا إلى أن البحر لم يرغب في استقبالي، أو بالأحرى لأنني في اللحظة الأخيرة لم أكن أرغب في البحر، قررت الموت بطريقة أكثر أناقة، قررت الموت من أجل فرنسا!».

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب






عصير
الكتب



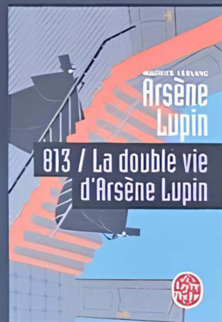
موريس إيميل لوبلان

كاتب فرنسي ولد في 11 من ديسمبر عام 1864م في روان، وتوفي في 6 من نوفمبر عام 1941م في بيربينيا. كتب العديد من الروايات البوليسية وروايات المغامرة، وهو مخترع الشخصية الشهيرة أرسين لوبين، اللص النبيل.

أرسين لوبين

813: الحياة الثانية لأرسين لوبين

ما الذي جاء برودولف كيسيلباخ، ملك الألماس إلى باريس؟ وما سرُّ الرقم الغامض 813 المنقوش على صندوق ثمين بحوزته؟ مَن بيير ليدوك، ذلك الرجل الغامض الذي يبحث عنه في أزقة العاصمة المظلمة؟ هذه الأسئلة تفتح الباب أمام صراع محموم بين قوى متعددة؛ الشرطة ممثلة في مدير الأمن الحازم لينورمان، والبارون القاسي ألتنهايم، واللص النبيل أرسين لوبين. ومع تصاعد الأحداث، يجد لوبين نفسه في سباق ضد الزمن لكشف هوية القاتل الخفي الذي يحاول إلصاق التهم به. في هذه المغامرة المشوقة، نتابع مصير اليتيمة جنفييف والأمير الأنيق سيرنين، ونتعمق في دوامة من المفاجآت التي تتجاوز حدود العقل، حيث لا يمكن التنبؤ بما سيحدث بعد ذلك.





غلاف: محمود هشام


9 789779 924557





www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb